Ad
157

وفيات الأعيان

وأنباء أبناء الزمان

لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان
المولود في سنة ٦٠٨ ، والمتوفى في سنة ٦٨١ من الهجرة

حققه ، وعلق حواشيه ، وصنع فهارسه
محمد محيي الدين عبد الحميد
مفتش العلوم الدينية والعربية
بالجامع الأزهر والمعاهد الدينية

الجزء الرابع

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

الطبعـــة الاولى

في سنة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م

جميع حق الطبع محفوظ

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسل الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

(٦٢٢)

أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم، المعروف بابن القُوطِيَّة، الأندلسى، الإشبيلى الأصل، القرطبي المولد والدار

أبو بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية الأندلسى الإشبيلي القرطبي

سمع باشبيلية من محمد بن عبد الله بن القوق، وحسن بن عبدالله الزبيدى، وسعيد بن جابر، وغيرهم، وسمع بقرطبة من طاهر بن عبدالعزيز وابن أبى الوليد الأعرج ومحمد بن عبد الوهاب بن مغيث وغيرهم.

وكان من أعلم أهل زمانه باللغة والعربية، وكان مع ذلك حافظاً للحديث والفقه، والخبر والنوادر، وأروى الناس للأشعار، وأدركهم للآثار، لا يلحق شأوه، ولا يشق غباره، وكان مضطلعاً بأخبار الأندلس، مَلِيًّا برواية سير أمرائها، وأحوال فقهائها وشعرائها، يملى ذلك عن ظهر قلبه[1]، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه وتؤخذ عنه، ولم يكن بالضابط لروايته فى الحديث والفقه، ولا كانت له أصول يرجع إليها، وكان ما يسمع عليه من ذلك إنما يحمل على المعنى، لا على اللفظ، وكان كثيرا ما يقرأ عليه ما لا رواية له به على جهة التصحيح، وطال عمره فسمع النّاس منه طبقة بعد طبقة، وروى عنه الشيوخ والكهول.

وكان قد لقى مشايخ عصره بالأندلس وأخذ عنهم وأكثر من النقل من فوائدهم، وصنف الكتب المفيدة فى اللغة، منها كتاب «تصاريف الأفعال[2]» وهو الذى فتح هذا الباب فجاء من بعده ابن القَطَّاع وتبعه كما سبق فى ترجمته، وله كتاب «المقصور والممدود» جمع فيه ما لا يحد ولا يوصف، ولقد أعجز من يأتى بعده وفاق من تقدمه، وكان أبو على القالى لما دخل الأندلس اجتمع به، وكان يبالغ فى تعظيمه حتى قال له الحكم بن الناصر لدين الله عبد الرحمن صاحب الأندلس يومئذ: من أنبل من رأيته ببلدنا هذا فى اللغة؟ فقال: محمد بن القوطية، وكان مع

---

(١) فى ا «على ظهر قلبه»

(٢) الكتاب مطبوع في ليدن باسم «الأفعال» وهو المعروف فى اسمه

هذه الفضائل من العباد النساك ، وكان جيد الشعر ، صحيح الألفاظ ، واضح المعانى ، حسن المطالع والمقاطع ، إلا أنه ترك ذلك ورفضه .

حكى الأديب الشاعر أبو بكر يحيى بن هذيل التميمى : أنه توجه يوما إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة ، وهى من بقاع الأرض الطيبة المونقة ، فصادف أبا بكر ابن القوطية المذكور صادراً عنها ، وكانت له أيضاً هناك ضيعة ، قال : فلما رآنى عرج على واستبشر بلقائى ، فقلت له على البديهة مداعباً له [من البسيط] :

من أينَ أقبلتَ يامن لا شبيه له ومن هو الشمس والدنيا له فلك

قال : فتبسم وأجاب بسرعة [بقوله] :

من منزل يعجب النساك خلوته وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا

قال : فما تمالكت أن قبلت يده إذ كان شيخى ومجدته ودعوت له .

وتوفى أبو بكر المذكور يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وثلثمائة بمدينة قرطبة ، ودفن يوم الأربعاء وقت صلاة العصر بمقبرة قريش رحمه الله تعالى ! وقيل : إنه توفى فى رجب من السنة المذكورة ، والأول أصح .

والقوطية — بضم القاف ، وسكون الواو ، وكسر الطاء المهملة ، وتشديد الياء المثناة من تحتها ، و بعدها هاء ساكنة — هذه النسبة إلى قوط بن حام بن نوح عليه السلام ، نسب إليه جدةُ أبى بكر المذكور ، وقوط أبو السودان والهند والسند ، وهى أم إبراهيم بن عيسى بن مزاحم جد أبى بكر المذكور ، وهى ابنة وبة بن غيطشة ، وكان من ملوك الأندلس ، وعليه وعلى إخوته أرطباس وقومس[1] الأندلس وسيدة افتتح طارق [مولى موسى] بن نصير مع المسلمين بلاد الأندلس ، وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرطباس المذكور فتزوجها بالشام عيسى بن مزاحم المذكور ، وهو من موالى عمر بن عبد العزيز الأموى رضى الله عنه ! وسافر معها إلى الأندلس فكان ذلك سبب انتقال عيسى

---

(١) فى ا « أرطباس قومس » بدون حرف العطف

ابن مزاحم إلى الأندلس وإنساله بهـا ، وجاءت القوطيـة بكتاب هشام إلى الخطاب الشعبي الـكلبي ، وكان عامله على الأندلس بالوصاة عليها فـكف عمها عنها وأنصفها مما كان لها قبله ورعى حرمتها وعادت بها الحال وطالت حياتها إلى أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الداخل إلى الأندلس من بنى أمية ، فـكانت تدخل عليه وتقضى حاجتها ، وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها إلى اليوم. ذكر ذلك فى كتاب «الاحتفال فى أعلام الرجال» مما انتخبه وألفه فى أخبار الفقهاء والعلماء المتأخرين من أهل قرطبة الفقيهُ أبو عمر أحمد بن محمد بن عفيف التاريخى بمـا بسطه ونمقه من ذلك الفقيه أبو بكر الحسن بن محمد ابن مفرج بن عبد الله بن مفرج المعافرى القرطبى المعروف بالقُبُّشى حامله عنه، قال أبو بكر محمد بن الرشاطى فى كتاب الأنساب : عين قُبُّش فى الربض الغربى من قرطبة ، ينسب بذلك أبو عبد الله محمد بن مفرج المعافرى القُبُّشى . وتوفى ليلة الجمعة خامس شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ، قلت : وهذا المذكور والد أبى بكر الحسن بن محمد المذكور قبله ، والله أعلم .

***

(٦٢٣)

أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر، الزبيدى، الإشبيلى، نزيل قرطبة

أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدى الإشبيلي

كان أوحد(١) عصره فى علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعانى والنوادر، إلى علم السير والأخبار، ولم يكن بالأندلس فى فنه مثله فى زمانه، وله كتب تدل على وفور علمه منها «مختصر كتاب العين» وكتاب «طبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس» من زمن أبى الأسود الدؤلى إلى زمن شيخه أبى عبدالله النحوى الرياحى، وله كتاب الرد على ابن مسرة وأهل مقالته سماه «هتك ستور الملحدين» وكتاب «لحن العامة» وكتاب «الواضح» فى العربية، وهو مفيد جداً، وكتاب «الأبنية فى النحو» ليس لأحد مثله، واختاره الحكم المستنصر بالله صاحب الأندلس لتأديب ولده ولى عهده هشام المؤيد بالله، فكان الذى علمه الحساب والعربية ونفعه نفعاً كثيراً، ونال أبو بكر الزبيدى منه دنيا عريضة، وتولى قضاء إشبيلية وخطة الشرطة، وحصل له نعمة ضخمة لبسها بنوه من بعده زمانا، وكان يستعظم أدب المؤيد بالله أيام صباه، ويصف رجاحته وحجاه، ويزعم أنه لم يجالس قط من أبناء العظماء من أهل بيته وغيره فى مثل سنه أذكى منه، ولا أحضر يقظة، وألطف حسا، وأرزن حلما، وذكر عنه حكايات عجيبة.

وكان الزبيدى المذكور شاعراً، كثير الشعر، فمن ذلك قوله فى أبى مسلم بن فهر [من الطويل]:

أبا مُسْلِمٍ إنَّ الفتى بِجَنَانِه ومِقْوَلِه، لا بالمراكبِ واللبْس

---

(١) فى ا «كان واحد عصره»

وليس ثيـاب المرء تغنى قُلاَمة

إذا كان مقصوراً على قصر النفس

وليس يفيد العلم والحلم والحجا

أبا مسلم طول القعود على الكرسى

وكان فى صحبة الحكم المستنصر ، وترك جاريته باشبيلية ، فاشتاق إليها ، فاستأذنه فى العود إليها فلم يأذن له ، فكتب إليها [من مخلع البسيط] :

ويحك يا سلم لا تراعى　　لا بد للبين من زماع

لا تحسبينى صبرتُ إلا　　كصبر مَيْتٍ على النزاع

ما خلق الله من عذاب　　أشد من وقفة الوداع

ما بينها والحِمام فرق　　لولا المناجاة والنواعى

إن يفترق شملنا وشيكا　　من بعدما كان ذا اجتماع

فـكل شمل إلى فراق　　وكل شعب إلى انصداع

وكل قرب إلى بعاد　　وكل وصل إلى انقطاع

وكان كثيرا ما ينشد [من السريع] :

الفقر فى أوطاننا غربة　　والمال فى الغربة أوطان

والأرض شىء كلهاواحد　　والناس إخوان وجيران

وكان قد قيـد الأدب واللغة على أبى على البغدادى المعروف بالقالى المقدم ذكره لما دخل الأندلس ، وسمع من قاسم بن أصبغ وسعيد بن فحلون وأحمد بن سعيد بن حزم ، وأصله من جند حمص المدينة التى بالشام .

وتوفى يوم الخميس مستهل جمـادى الآخرة سنـة تسع وسبعين وثلثمائة ، باشبيلية ، ودفن ذلك اليوم بعد صلاة الظهر ، وصلى عليه ابنه أحمد ، وعاش ثلاثة وستين سنة ، رحمه الله تعالى !

ومذحج ـ بفتح الميم، وسكون الذال المعجمة، وكسر الحاء المهملة، و بعدها جيم ـ وهو فى الأصل اسم أكمة حمراء باليمن، ولد عليها مالك بن أدد فسمى باسمها، ثم كثر ذلك فى تسمية العرب، حتى صاروا يسمون بها و يجعلونها علما على المسمى، وقطعوا النظر عن تلك الأكمة.

والزبيدى ـ بضم الزاء، وفتح الباء الموحدة، وسكون الياء المثناة من تحتها، و بعدها دال مهملة ـ هذه النسبة إلى زُبَيد، واسمه منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج، وهو الذى سمى بالأكمة المذكورة، وزبيد: قبيلة كبيرة باليمن خرج منها خلق كثير من الصحابة وغيرهم، رضى الله عنهم!

***

(٦٢٤)

أبو عبد الله
محمد بن
جعفر القزاز
القيروانى
النحوى

أبو عبد الله محمد بن جعفر، التميمى، النحوى، المعروف بالقزاز، القيروانى

كان الغالب عليه علم النحو واللغة والافتنان بالتواليف، فمن ذلك كتاب «الجامع» فى اللغة، وهو من الكتب الكبار المختارة المشهورة، وذكر أبو القاسم ابن الصيرفى الكاتب المصرى أن أبا عبد الله القزاز المذكور كان فى خدمة العزيز ابن المعز العُبَيْدى صاحب مصر وَصنف له كتباً، وقال غيره: كان العزيز بن المعز العبيدى صاحب مصر قد تقدم إليه أن يؤلف كتابا يجمع فيه سائر الحروف التى ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وأن يقصد فى تأليفه إلى ذكر الحرف الذى جاء لمعنى، وأن يجرى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم.

قال ابن الجزار : وما علمت أن نحويا ألف شيئا من النحو على هذا التأليف ، فسارع أبوعبد الله القزاز إلى ما أمره العزيز به ، وجمع المفترق من الكتب النفيسة فى هذا المعنى على أقصد سبيل ، وأقرب مأخذ ، وأوضح طريق ، فبلغ جملة الكتاب ألفَ ورقة ، ذكر ذلك كله الأمير المختار ، المعروف بالمسبحى ، فى تاريخه الكبير ، وله كتاب « التعريض » ذكر فيه ما دار بين الناس من المعاريض فى كلامهم ، وقال أبو على الحسن بن رشيق فى كتاب « الأنموذج » : إن القزاز المذكور فَضَح المتقدمين ، وقطع ألسنة المتأخرين ، وكان مهيباً عند الملوك والعلماء ، وخاصة الناس ، محبوبا عند العامة ، قليل الخوض إلا فى علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكا شديداً ، وكان له شعر مطبوع مصنوع ، ربما جاء به مفاكهة وممالحة من غير تحفز ولا تحفل ، يبلغ بالرفق والدَّعَة ، على الرحب والسعة ، أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعانى ، وتوكيد المبانى ، علماً بتفاصيل الكلام ، وفواصل النظام ، فمن ذلك قوله [من الوافر] :

أماَ وَمحل حبكَ فى فؤادى ... وقدر مكانه فيه المكين
لو انبسطت لى الآمال حتى ... تُصَير لى عنانك فى يمينى (١)
لصنتك فى مكان سواد عينى ... وخِطْتُ عليك من حَذَر جفونى
فأبلغ منك غايات الأمانى ... وآمن فيك آفات الظنون
فلى نفس تجرَّع كل يوم ... عليك بهن كاسات المنون
إذا أمنت قلوبُ الناس خافت ... عليك خفىَّ ألحاظ العيون
فكيف وأنت دنياى ولولا ... عقاب الله فيك لقلت دينى

ومن شعره أيضا [من الخفيف] :

أضمروا لِى ودا ولا تظهروه ... يَهْدِه منكمُ إلى الضمير

---

(١) فى ا « تصير من عنانك فى يمينى »

ما أبالى إذا بلغت رضاكم فى هواكم لأى حال أصير

وله أيضا [من الطويل] :

ألا من لركب فرق الدهر شملهم فمن مُنجد نائى المحل ومُتْهم

كأن الردى خاف الردى فى اجتماعهم فقسَّمهم فى الأرض كل مقسَّم

وله أيضا [من الخفيف] :

ولنا من أبى الربيع ربيع ترتعيه هوامل الآمال

أبدا يذكر العِدَاتِ وينسى ماله عندنا من الإفضال

وله أيضا [من الوافر] :

أحين علمت أنك نور عينى وأنى لا أرى حتى أراك

جعلت مغيب شخصك عن عيانى

يغيب كل مخلوق سواك

وذكر له مقاطيع كثيرة غير هذه ، ثم قال : وشعر أبى عبد الله — يعنى القزاز المذكور — أحسنُ مما ذكرت ، لكنى لم أتمكن من روايته ، وقد شرطت فى هذا الكتاب أن كل ما جئت به من الأشعار على وجه الاختصار .

وكانت وفاته بالحضرة سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، وقد قارب السبعين ، رحمه الله تعالى !

والمراد بالحضرة : القيروان ، فإنها كانت دار المملكة يوم ذاك .

والقزاز — بفتح القاف ، وزاءين بينهما ألف ، والأولى منهما مشددة — هذه النسبة إلى عمل القز وبيعه ، وقد اشتهر به جماعة .

* * *

(٦٢٥)

الأمير المختار عز الملك محمد بن أبى القاسم عبيد الله بن أحمد ابن إسماعيل بن عبد العزيز، المعروف بالمُسَبِّحِى ، الكاتب ، الحرانى الأصل ، المصرى المولد ، صاحب التاريخ المشهور وغيره من المصنفات

الأمير المختار عز الملك محمد ابن عبد الله المسبحى الحرانى المصرى المؤرخ

كانت فيه فضائل ، ولديه معارف ، ورزق حظوة فى التصانيف ، وكان على زى الأجناد ، واتصل بخدمة الحاكم بن العزيز العُبيدى ، صاحب مصر ، ونال منه سعادة ، وذكر فى تاريخه أن أول تصرفه فى خدمة الحاكم صاحب مصر كان فى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، وذكر فيه أيضا : أنه تقلد القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب ، وله مع الحاكم مجالس ومحاضرات حسبما يشهد بها تاريخه الكبير ، وجمع مقدار ثلاثين مصنفاً ، منها : التاريخ المذكور ، الذى قال فى حقه « التاريخ الجليل قدره ، الذى يستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة فى معانيه ، وهو أخبار مصر ، ومن حلها من الولاة ، والأمراء ، والأئمة ، والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة . وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذى كتبنا فيه تعليق هذه الترجمة ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين[1] ، ومجالس القضاة والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم » وهو ثلاثة عشر ألف ورقة .

ومن تصانيفه كتاب « التلويح والتصريح ، فى معانى الشعر وغيره » وهو ألف ورقة ، وكتاب « الراح والارتياح » ألف وخمسمائة ورقة ، وكتاب « الغرق والشرق ، فى ذكر من مات غرقا وشرقا » مائتا ورقة ، وكتاب « الطعام والإدام » ألف ورقة ، وكتاب « درك البغية ، فى وصف الأديان والعبادات » ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة ، و « قصص الأنبياء ، عليهم السلام وأحوالهم »

---

(١) فى ا « أخبار المتقنين »

ألف وخمسمائة ورقة ، وكتاب « المفاتحة والمناكحة ، فى أصناف الجماع » ألف ومائتا ورقة ، وكتاب « الأمثلة ، للدول المقبلة » يتعلق بالنجوم والحساب خمسمائة ورقة ، وكتاب « القضايا الصائبة[١] فى معانى أحكام النجوم » ثلاثة آلاف ورقة وكتاب « جونة الماشطة » يتضمن غرائب الأخبار والأشعار والنوادر التى لم يتكرر مرورها على الأسماع ، وهو مجموع مختلف غير مؤتلف ، ألف وخمسمائة ورقة وكتاب « الشجن والسكن ، فى أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه » ألفان وخمسمائة ورقة ، وكتاب « السؤال والجواب » ثلثمائة ورقة ، وكتاب « مختار الأغانى ومعانيها » وغير ذلك من الكتب .

وله شعر حسن ، فمن ذلك أبيات رثى بها أم ولده ، وهى [من الطويل] :

ألا فى سبيل الله قلب تقطعا ‏ ‏ ‏ ‏ وفادحة لم تُبْقِ للعين مدمعا
أصبراً وقد حل الثرى مَنْ أوده ‏ ‏ ‏ ‏ فلله هم ما أشدَّ وأوجعا
فياليتنى للموت قدمت قبلها ‏ ‏ ‏ ‏ وإلا فليت الموت أذهبنا معا

وكان المسبحى المذكور قد استزار أبا محمد عبيد الله بن أبى الجوع الأديب الوراق الكاتب المشهور ، فزاره ، فعمل المسبحى هذه الأبيات وأنشده إياها على البديهة [من المتقارب] :

حللت فأحللت قلبي السرورا ‏ ‏ ‏ ‏ وكاد لفرحته أن يطيرا
وأمطر علمك سحب السماء ‏ ‏ ‏ ‏ ولولاك ما كان يوما مطيراً
تضوَّع نَشْرك لما وردت ‏ ‏ ‏ ‏ وعاد الظلام ضياء منيرا

وكان ابن أبى الجوع المذكور شاعراً أديبا حلوا مقبولا له أشعار كثيرة فى المراسلات والمعاتبات والأهاجى ، وكان نَسْخه فى غاية الجودة ، وكان ينسخ كل خمسين ورقة بدينار ، وخطه موجود بأيدى الناس ومرغوب فيه ، وكانت وفاة ابن أبى الجوع سنة خمس وتسعين وثلثمائة .

---

(١) فى ا « الصابئة »

وكانت ولادة المسبحى المذكور يوم الأحد عاشر رجب سنة ست وستين وثلثمائة ، كذا ذكره فى تاريخه الكبير.

وتوفى فى شهر ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة .

وتوفى والده ضحوة نهار الاثنين تاسع شعبان سنة أربعمائة ، وعمره ثلاث وتسعون سنة ، وصلى عليه فى جامع مصر ، ودفن فى داره ، رحمهم الله تعالى أجمعين!.

ولما توفى والده رثاه ولده المسبحى بهذه الأبيات [من الكامل] :

خطب يقل له البكاء وينطوى ... عنه العزاء ويظهر المكتوم
خطب يميت من الصدور قلوبها ... أسفا ويُقعد تارة ويُقيم
يا دهر قد أنشبت فىَّ مخالبا ... بالأسودين لوقعهن كُلُومُ
يا دهر قد ألبستنى حلل الأسى ... مذ حل شخص فى التراب كريم
لو كنت تقبل فدية لفديت من ... رضت عظامى فيه وهو رميم
يامن يلوم إذا رآنى جازعا ... من طارق الحدثان ، فيم تلوم
بأبى فجعت فأى ثكل مثله ... ثكل الأبوة فى الشباب أليمُ
قد كنت أجزع أن يلم به الردى ... أو يعتريه من الزمان هموم

ورثاه جماعة من شعراء عصره ذكرهم ولده فى تاريخه وذكر مراثيهم.

والمسبحى: بضم الميم ، وفتح السين المهملة ، وكسر الباء الموحدة ، وفى آخره حاء مهملة — قال السمعانى فى كتاب الأنساب : هذه النسبة إلى الجد ، وعرف بها المسبحى صاحب تاريخ المغاربة ومصر ، يعنى الأمير المذكور .

***

(٦٢٦)

أبو المعالى كافى الـكفاة بهاء الدين محمد بن الحسـن البغدادى الـكاتب

أبو المعالى محمد بن أبى سعد الحسن بن محمد بن على بن حمدون ، الكاتب الملقب كافى الـكفاة ، بهاء الدين ، البغدادى

كان فاضلا ذا معرفة تامة بالأدب والكتابة،من بيت مشهور بالرياسة والفضل هو وأبوه وأخواه أبو نصر وأبو المظفر ، وسمع أبو المعالى المذكور من أبى القـاسم إسماعيل بن الفضل الجرجانى وغيره ، وصنف كتاب «التذكرة» وهو من أحسن المجـاميع ، يشتمل على التاريخ والأدب والنوادر والأشـعار ، لم يجمع أحد من المتأخرين مثله ، وهو مشهور بأيدى الناس كثير الوجود ، وهو من الـكتب الممتعة ، ذكره العماد الأصبهانى فى كتاب «الخريدة» فقال : كان عارض العسكر المقتفوى ، ثم صار صاحب ديوان الزمام المستنجدى ، وهو كَلِفٌ باقتناء الحمد ، وابتناء المجد ، وفيه فضل ونبل ، وله على أهل الأدب ظل ، وألف كتابا سماه « التذكرة » وجمع فيه الغث والسمين والمعرفةَ والنـكرة ، فوقف الإمام المستنجد على حكايات ذكرها نقلا من التواريخ تُوهم فى الدولة غضاضةً ، ويعتقد للتعرض بالقدح فيها عراضة ، فأخذ من دست منصبه وحبس ، ولم يزل فى نَصَـبه إلى أن رمس ، وذلك فى أوائل سنة اثنتين وسـتين وخمسمائة ، وأنشدنى لنفسه لغزا فى مروحة الخيش [من الطويل] :

ومرسلة معقودة دون قصدها ... مقيـدة تجرى حبيس طليقها
تمر خفيف الريح وهى مقيمة ... وتسرى وقد سدت عليها طريقها
لها من سليمان النبى وراثة ... وقد عزيت نحو النبيط عروقها
إذا صدق النوء السماكى أمحلت ... وتمطر والجوزاء دال حريقهـا
تحيتها إحدى الطبائع أنها ... لذلك كانت كل روح صديقها

وأورد له أيضاً [من المتقارب] :

وحاشا معاليك أن تستزاد وحاشا نوالك أن يُقتضى
ولكنما أستزيد الحظوظ و إن أمرتنى النهى بالرضا

وأورد له أيضاً [من الرمل] :

ياخفيف الرأس والعقل معاً وثقيل الروح أيضاً والبدن
تدّعى أنك مثلى طيب طيب أنت ولكن بلبن

انتهى كلام العماد ، وقال غيره : إنه سمع الحديث كثيرا ، وروى عن الإمام المستنجد قول أبى حفص الشطرنجى فى جارية حولاء [من الطويل] :

حمدت إلهى إذ بليت بحبها على حَوَلٍ يغنى عن النظر الشزر
نظرت إليها والرقيبُ يخالنى نظرت إليه فاسترحت من العذر

وهذا من المعانى النادرة العجيبة

وكانت ولادة ابن حمدون المذكور [فى رجب] (1) سنة خمس وتسعين وأربعمائة وتوفى يوم الثلاثاء حادى عشر ذى القعدة سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، ودفن يوم الأربعاء ، بمقابر قريش ببغداد ، وكان موته فى الحبس

وأخوه أبو نصر محمد بن الحسن الملقب غرس الدولة كان من العمال ، وممن يعتقد فى أهل الخير والصلاح ، ويرغب فى صحبتهم ، ولد فى صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وتوفى فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين وخمسمائة ببغداد ، ودفن بمقابر قريش

وكان والدهما من شيوخ الكتاب ، والعارفين بقواعد التصرف ، والحساب ، وله تصنيف فى معرفة الأعمال ، وعمر طويلا ، وتوفى يوم السبت عاشر جمادى الأولى سنة ست وأربعين وخمسمائة ، رحمهم الله تعالى أجمعين !

***

---

(١) لاتوجد هذه الكلمة فى ا

(٦٢٧)

أبو بكر محمد ابن عبدالرحمن (ابن قريعة) البغدادى القاضى

القاضى أبو بكر محمد بن عبد الرحمن ، المعروف بابن قُرَيْعَةَ ، البغدادى

كان قاضى السِّنْدِيَّة وغيرها من أعمال بغداد ، ولاه أبو السائب عتبة بن عبيد الله القاضى ، وكان من إحدى عجائب الدنيا فى سرعة البديهة بالجواب عن جميع ما يُسْأل عنه فى أفصح لفظ وأملح سجع ، وكان مختصا بحضرة الوزير أبى محمد المهلبى المقدم ذكره ، منقطعا إليه ، وله مسائل وأجوبة مدونة فى كتاب مشهور بأيدى الناس ، وكان رؤساء ذلك العصر وفضلاؤه يداعبونه ويكتبون إليه المسائل الغريبة المضحكة ، فيكتب الجواب من غير توقف ولا تلبث مطابقاً لما سألوه ، وكان الوزير المذكور يغرى به جماعة يضعون له من الأسئلة الهزلية على معان شتى من النوادر الطَّنْزية ليجيب عنها بتلك الأجوبة ، فمن ذلك ما كتب إليه أبو العباس بن المعلى الكاتب : مايقول القاضى — وفقه الله تعالى ! — فى يهودى زنى بنصرانية فولدت ولدا جسمه للبشر ووجهه للبقر ، وقد قبض عليهما ، فما يرى القاضى فيهما ؟ فكتب جوابه بديها : هذا من أعدل الشهود ، على الملاعين اليهود ، بأنهم أشرِبوا حُبَّ العجل فى صدورهم ، حتى خرج من أيورهم ، وأرى أن يناط برأس اليهودى رأس العجل ، ويصلب على عنق النصرانية الساق والرجل ، ويسحبا على الأرض ، وينادى عليهما ظلمات بعضها فوق بعض ، والسلام .

ولما قدم الصاحب بن عباد المقدم ذكره إلى بغداد حضر مجلس الوزير المهلبى المقدم ذكره أيضاً ، وكان فى المجلس القاضى أبو بكر المذكور ، فرأى من ظرفه وسرعة أجوبته مع لطافتها ما عظم منه تعجبه ، وكتب الصاحب إلى أبى الفضل ابن العميد كتابا يقول فيه : وكان فى المجلس شيخ خفيف الروح يعرف بالقاضى ابن قريعة ، جارانى فى مسائل خِسَّتُهَا تمنع من ذكرها ، إلا أنى استظرفت من كلامه ،

وقد سأله كهل يتطايب بحضرة الوزير أبى محمد ، عن حد القفا ، فقال : مايشتمل عليه جُرُبَّانُكَ ، ومازحك فيه إخوانك ، وأدبك فيه سلطانك ، و باسطك فيه غلمانك ، فهذه حدود أربعة .

قلت: وجُرُبَّان الثوب – بضم الجيم والراء ، وتشديد الباء الموحدة ، و بعدها ألف ثم نون – [و] هى الخرقة العريضة التى فوق القب ، وهى التى تستر القفا ، والجربان لفظ فارسى معرب .

وجميع مسائله على هذا الأسلوب ، ولولا خوف الإطالة لذكرت جملة منها ، وقد سرد أبو بكر محمد بن شرف القيروانى الشاعر المشهور فى كتابه الذى سماه « أبكار الأفكار » عدة مسائل وجواباتها من هذه المسائل

وتوفى القاضى أبو بكر المذكور يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة ، سنة سبع وستين وثلثمائة ، ببغداد ، وعمره خمس وستون سنة ، رحمه الله تعالى !

وقُرَيْعَة – بضم القاف ، وفتح الراء ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، و بعدها عين مهملة – وهو لقب جده ، كذا حكاه السمعانى .

والسِّنْدِيَّة – بكسر السين المهملة ، وسكون النون ، وكسر الدال المهملة ، وتشديد الياء المثناة من تحتها ، وبعدها هاء ساكنة – وهى قرية على نهر عيسى بين بغداد والأنبار ، و ينسب إليها سندوانى ليحصل الفرق بين هذه النسبة والنسبة إلى بلاد السند المجاورة لبلاد الهند

***

(٦٢٨)

ركن الدين
أبو عبد الله
محمد بن محرز
الوهرانى
الكاتب

أبو عبدالله محمد بن محرز بن محمد ، الوهرانى ، الملقب

ركن الدين ، وقيل : جمال الدين

أحـد الفضلاء الظرفاء ، قدم من بلاده إلى الديار المصرية فى أيام السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله تعالى! ـ وفنه الذى يمت به صناعة الإنشاء ، فلما دخل البلاد ورأى بها القاضى الفاضل وعماد الدين الأصبهانى الكاتب وتلك الحلبة علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، ولا تنفق سلعته مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل ، وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه ، وهى كثيرة الوجود بأيدى الناس ، وفيها دلالة على خفة روحه ، ورقة حاشيته ، وكمال ظرفه ، ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه ، فاته أتى فيه بكل حلاوة ، ولولا طوله لذكرته ، ثم إن الوهرانى المذكور تنقل فى البـلاد ، وأقام بدمشق زمانا ، وتولى الخطابة بدَارَيَّا ، وهى قرية على باب دمشق فى الغُوطَـة .

وتوفى فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، بدَارَيَّا ، رحمه الله تعالى !

ودفن على باب تربة الشيخ أبى سليمان الدارانى ، نقلت من خط القاضى الفاضل : وردت الأخبار من دمشق فى سابع عشر رجب بوفاة الوهرانى .

والوَهْرَانى ـ بفتح الواو ، وسكون الهاء ، وفتح الراء ، و بعـد الألف نون ـ هذه النسبة إلى وَهْرَان ، وهى مدينة كبيرة فى أرض القيروان(١) ، بينها و بين تلمسان مسافة يومين ، وهى على [ساحل] البحر الشامى ، وذكر الرشاطى أنها أسست فى سنة تسعين ومائتين على يدى محمد بن أبى عون ومحمد بن عبدوس وجماعة ، وخرج منها جماعة من العلماء وغيرهم .

---

(١) فى ا « على أرض القيروان »

ودَارَيَّا : بالدال المهملة ، و بعد الألف راء مفتوحة ، و بعدها ياء مثناة من تحتها مشددة

***

(٦٢٩)

أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن على بن عبد الله ، المعروف بابن تَيْمية ، الحرانى ، الملقب فخر الدين الخطيب ، الواعظ ، الفقيه الحنبلى

أبو عبد الله محمد بن الخضر (ابن تيمية) الواعظ الحنبلى

كان فاضلا ، تفرد فى بلاده بالعلم ، وكان المشار إليه فى الدين ، لقى جماعة من العلماء ، وأخذ عنهم العلوم ، وقدم بغداد ، وتفقه بها على أبى الفتح بن المنى ، وسمع الحديث بها من شهدة بنت الابرى وابن المقرب وابن البطى وغيرهم ، وصنف فى مذهب الإمام أحمد بن حنبل مختصراً أحسن فيه ، وله ديوان خطب مشهور ، وهو فى غاية الجودة ، وله تفسير القرآن الكريم ، وله نظم حسن ، وكانت إليه الخطابة بحران ، ولأهله من بعده ، ولم يزل أمره جاريا على سداد وصلاح حال .

ومولده فى أواخر شعبان سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، بمدينة حران .

وتوفى بها فى حادى عشر صفر ، سنة إحدى وعشرين وستمائة ، رحمه الله تعالى !

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى فى حقه : كان ضَغِيناً بحران ، متى نبغ فيها أحد لايزال وراءه حتى يخرجه منها ، ويبعده عنها ، ومات فى خامس صفر من السنة المذكورة ، وهذا خلاف ما ذكرته أولا ، قال : وسمعته فى جامع حران يوم الجمعة بعد الصلاة ينشد [من السريع] :

أحبابنا قد نَذَرَت مقلتى لا تلتقى بالنوم أو نلتقى
رفقا بقلب مغرم واعطفوا على سقام الجسد المفرق
كم تمطلونى بليالى اللقا قد ذهب العمر ولم نلتقِ[١]

وذكره أبو يوسف محاسن بن سلامة بن خليفة الحرانى فى تاريخ حران وأثنى عليه، ثم قال: توفى يوم الخميس بعد العصر عاشر صفر سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

وذكره أبو البركات ابن المستوفى فى تاريخ إربل فقال: ورد إربل حاجا فى سنة أربع وستمائة، وذكر فضله، وقال: كان يدرس التفسير فى كل يوم، وهو حسن القَصَص، حلو الكلام، مليح الشمائل، وله القبول التام، عند الخاص والعام، وكان أبوه أحد الأبدال والزهاد، وتفقه بحران وببغداد، وكان حاذقا فى المناظرات صنف مختصرات فى الفقه، وخطبا سلك فيها مسلك ابن نُبَاتة، وكان بارعا فى تفسير القرآن، وجميع العلوم له فيها يد بيضاء، وسمع من مشايخ الحديث ببغداد وأنشد له [من المتقارب]:

سلام عليكم مضى ما مضى فراقى لكم لم يكن عن رضا
سلوا الليل عنّى مذ غبتم أجفنىَ بالنوم هل أغمضا
أأحباب قلبى وحقّ الذى بمُرِّ الفراق علينا قضى
لئن عاد عيدُ اجتماعى بكم وعوفيت من كارث أمرضا
لألتقين مطاياكُم بوجهى وأفرشه فى الفضا
ولو كان حَبْواً على جبهتى ولو لفح الوجهَ جمرُ الغضى
فأحيا وأنشد من فرحتى سلام عليكم مضى ما مضى

ثم قال: سألته عن اسم تيمية ما معناه، فقال: حج أبى أو جدى، أنا أشك أيهما، قال: وكانت امرأته حاملا، فلما كان بتيماء رأى جُوَيرية حسنة [الوجه][٢]

---

(١) فى ا « وقد ذهب العمر ولا نلتقى » (٢) هذه الكلمة ليست فى ا

قد خرجت من خباء ، فلما رجع إلى حران وجد امرأته قد وضعت جارية ، فلما رفعوها إليه قال : ياتيمية ، يا تيمية ، يعنى أنها تشبه التى رآها بتيماء ، فسمى بها ، أو كلاما هذا معناه .

وتيماء — بفتح التاء المثناة من فوقها ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح الميم ، و بعدها همزة ممدودة — وهى بلُيَيدة فى بادية تَبُوك إذا خرج الإنسان من خَيْبر إليها تكون على منتصف الطريق الشام ، وتيمية منسوبة إلى هذه البليدة ، وكان ينبغى أن تكون تيماوية ، لأن النسبة إلى تيماء تيماوى ، لكنه هكذا قال واشتهر كما قال .

* * *

(٦٣٠)

أبو منصور محمد بن على المعروف بالعتابى ، النحوى

أبو منصور محمد بن على بن إبراهيم بن زبرج ، النحوى ، المعروف بالعَتَّابى

كانت له معرفة بالنحو واللغة وفنون الأدب ، وله الخط المليح الصحيح الذى يتنافس فيه أهل العلم ، وقرأ الأدب على الشريف أبى السعادات هبة الله بن الشجرى الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، وعلى أبى منصور موهوب بن الجواليقى ، وغيرهما وسمع الحديث من مشايخ وقته ، وكتب الكثير ، وكل كتاب يوجد بخطه فهو مرغوب فيه .

وكانت ولادته فى شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة .

وتوفى ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى !

والعَتَّابى — بفتح العين المهملة ، وتشديد التاء المثناة من فوقها ، و بعد

الألف باء موحدة — هذه النسبة إلى العتابيين ، وهى [إحدى] محال بغداد فى الجانب الغربى منها ، وكان أبومنصور المذكور قد تركها وسكن فى الجانب الشرقى

وأما أبو عمرو كلثوم بن عمرو بن أيوب الْعَتَّابى الشاعر المشهور فهو منسوب إلى عَتَّاب بن سعد بن زهير بن جُشَم ، وكان شاعراً بلغياً مجيداً ، مدح هرون الرشيد وغيره ، وهو من أهل قنسرين المدينة القديمة التى بالشام مجاورة حلب ، وكان ينبغى ذكره فى هذا الكتاب ، وإنما أخللتُ به لأنى لم أظفر له بوفاة ، ومبنى هذا الكتاب على من عرفت وفاته .

***

(٦٣١)

أبو سعيد محمد ابن عبدالرحمن المسعودى الخراسانى البنـدهى **الشافعى**

أبو سعيد — ويقال : أبوعبد الله — محمد بن أبى السعادات عبد الرحمن ابن محمد بن مسعود بن أحمد بن الحسين بن محمد ، المسعودى ، الملقب تاج الدين ، الخراسانى ، المرورُّوذِى ، البَنْدَهى ، الفقيه الشافعى ، الصوفى

كان أديباً فاضلا ، اعتنى بالمقامات الحريرية فشرحها ، وأطال شرحها ، واستوعب فيه مالم يستوعبه غيره ، رأيته فى خمس مجلدات كبار لم يبلغ أحد من شراح هذا الكتاب إلى هذا القدر ولا إلى نصفه ، وهو كتاب مشهور كثير الوجود بأيدى الناس ، وكان مقيما بدمشق فى الخانقاه السُّمَيْسَاطية ، والناس يأخذون عنه بعد أن كان يعلم الملك الأفضل أبا الحسن على ابن السلطان صلاح الدين ، وقد تقدم ذكره ، وحصل بطريقه كتبا كثيرة نفيسة غريبة ، وبها استعان على شرح المقامات .

وحكى أبو البركات الهاشمى الحلبى قال : لما دخل السلطان صلاح الدين إلى

حلب فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة نزل المسعودى المذكور إلى جامع حلب ، وقعد فى خزانة كتبها الوقف ، واختار منها جملة أخذها لم يمنعه منها مانع ، ولقد رأيته وهو يحشوها فى عِدْلٍ ، ولقيت جماعة من أصحابه ، وسمعت منهم ، وأجازونى .

ورأيت فى تاريخ بعض المتأخرين أن البندهى المذكور كانت ولادته سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، ونقل بعض الأفاضل من خط البندهى ما صورته : ولدت وقت المغرب من ليلة الثلاثاء غرة شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، والظاهر أن هذا أصح ، لكونه منقولا من خطه باليوم والشهر .

وتوفى فى ليلة السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول ، وقيل : فى مستهل شهر ربيع الآخر ، سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، بمدينة دمشق ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، رحمه الله تعالى ! ووقف كتبه على الخانقاه المذكورة ، وكان كثيراً ما ينشد [من المجتث] :

قالت عهدتك تبكى ... دماً حِذَارَ التنائى
فَلِمْ تعوضْتَ عنها ... بعد الدماء بماء ؟
فقلت ماذاك منى ... لسلوة أو عزاء
لكن دموعىَ شابت ... من طول عمر بكائى

ومثله قول الآخر [من المجتث] :

قالت سعاد أتبكى ... بالدمع بعد الدماء
فقلت قد شاب دمعى ... من طول عمر بكائى

ونسبته بالمسعودى إلى جده مَسْعُود المذكور .

وقد تقدم الكلام على المروروذى فلا حاجة إلى إعادته .

والبَنْدَهى — بفتح الباء الموحدة ، وسكون النون ، وفتح الدال المهملة ،

وبعدها هاء — هذه النسبة إلى بنج ديه من أعمال مَرْوَرُّوذ ، ومعناه بالعربى خمس قرى ، ويقال فى النسبة إليها أيضاً : الفنجديهى ، والبنجديهى ، بالفاء والجيم ، أو بالباء الموحدة والجيم ، وخرج منها خلق كثير من العلماء وغيرهم .

وقاسِيُون — بفتح القاف ، وبعد الألف سين مهملة مكسورة ، وياء مثناة من تحتها مضمومة ، ثم واو ساكنة ، وبعدها نون — وهو جبل مطل على دمشق من جهتها الشمالية فيه المنازل المليحة وَالمدارس والرُّبُط والبساتين ، وَفيه نهر يزيد ، وَنهر ثورى فى ذيله ، وفيه جامع كبير بناه مظفر الدين بن زين الدين صاحب إرْبِلَ المقدم ذكره فى حرف الكاف ، رحمه الله تعالى ! وفيه يقول ابن عنين الآتى ذكره إن شاء الله تعالى فى قصيدته اللامية التى مدح بها سيف الإسلام بن أيوب صاحب اليمن المذكور فى حرف الطاء ، فانه تشوق إلى دمشق فيها ، وذكر مواضع من منتزهاتها ، وقال فى الجبل المذكور [من الطويل] :

وفى كبدى من قاسِيُونَ حزازة
تزولُ رَوَاسيه وليس تزول

وهى من غرر قصائده ، ولقد أبدع فيها .

***

(٦٣٢)

معين الدين
أبو بكر محمد
ابن عبد الغنى
(ابن نقطة)
البغدادي
الحنبلى

أبو بكر محمد بن عبد الغنى بن أبى بكر بن شجاع بن أبى نصر بن عبد الله الحنبلى، المعروف بابن نقطة، الملقب معين الدين، البغدادى، المحدث

كان من طلبة الحديث المشهورين به، المكثرين من سماعه وكتابته، والراحلين فى تحصيله.

دخل خراسان و بلاد الجبل والجزيرة والشام ومصر، ولقى المشايخ، وأخذ عنهم، واستفاد منهم، وكتب الكثير، وعلق التعاليق النافعة، وذيل على «الإكمال» كتاب الأمير أبى نصر بن ماكولا المقدم ذكره، وما أقصر فيه وجاء فى مجلدين، وله كتاب آخر لطيف فى الأنساب مثل الذيل على كتابى محمد بن طاهر المقدسى وأبى موسى الأصبهانى الحافظين المقدم ذكرهما، وكتاب «التقييد، لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد» وكنت أسمع به فى وقته، ولم اجتمع به.

وذكره أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل، وعده فى جملة من وصل إليها وسمع الحديث بها، وأثنى عليه، وقال: أنشدنى لأبى على محمد بن الحسين بن أبى الشبل البغدادى، وهو أحد شعراء العراق المجيدين المتأخرين، وقد ذكره ابن الحظيرى فى كتاب زينة الدهر [من الكامل]:

لا تظهرَنَّ لعاذلٍ أو عاذرٍ
حالَيْكَ فى الضراء والسراء
فلرحمة المتوجعين مرارة
فى القلب مثل شماتة الأعداء

وتوفى ابن نقطة المذكور فى الثانى والعشرين من صفر سنة تسع وعشرين وستمائة ، ببغداد ، وهو فى سن الكهولة ، وكنت يومئذ مقيما بمدينة حلب للاشتغال فوصلنا خبر موته ، رحمه الله تعالى ! .

وتوفى أبوه عبد الغنى فى رابع جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، ببغداد ، ودفن فى موضع مجاور لمسجده ، وكان مشهوراً بالتقلل والإيثار

ونقطة : بضم النون ، وسكون القاف ، وفتح الطاء المهملة ، وبعدها هاء ساكنة .

وتوفى أبو على بن أبى الشبل المذكور سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى !

ذكره العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة .

* * *

(٦٣٣)

أبو عبد الله محمد بن سعيد (ابن الدبيثى) الواسطى الشافعى المؤرخ

أبو عبد الله محمد بن أبى المعالى سعيد بن أبى طالب يحيى ابن أبى الحسن على بن الحجاج بن محمد بن الحجاج ، المعروف بابن الدُّبَيْثى ، الفقيه الشافعى ، المؤرخ ، الواسطى

سمع الحديث كثيراً ، وعلق تعاليق مفيدة ، وكانت له محفوظات حسنة ، وكان يوردها ويستعملها فى محاوراته ، وكان فى الحديث وأسماء رجاله والتاريخ من الحفاظ المشهورين ، والنبلاء المذكورين ، وصنف كتابا جعله ذيلا على تاريخ أبى سعد عبد الكريم ابن السمعانى ، الحافظ المقدم ذكره المذيل على تاريخ بغداد للخطيب ، وذكر فيه ما لم يذكره السمعانى ممن أغفله ، أو كان بعده ، وهو فى ثلاث مجلدات ، وما أقصر فيه ، وصنف تاريخا لواسط ، وصنف غير ذلك .

ذكره ابن المستوفى فى تاريخ إربل ، فقال : ورد علينا فى ذى القعدة ، سنة إحدى عشرة وستمائة ، وهو شيخ حسن ، وقال : أنشدنى لنفسه:

خَبَرْتُ بنى الأيام طرا فلم أجد ... صديقاً صدوقاً مُسْعداً فى النوائب

وأصفيتهم منى الوداد فقابلوا ... صفاء ودادى بالقذى والشوائب

وما اخترت منهم صاحبا وارتضيته ... فأحمدته فى فعله والعواقب

ولم يزل أبو عبد الله المذكور على اجتهاده وتعليقه إلى أن توفى .

وكانت ولادته يوم الاثنين ، السادس والعشرين من رجب ، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، بواسط .

وتوفى يوم الاثنين ، لثمان خلون من شهر ربيع الآخر ، سنة سبع وثلاثين

وستمائة ، ببغداد ، رحمه الله تعالى ! ودفن بالوردية من الغد .

والدُّبَيْثى — بضم الدال المهملة ، وفتح الباء الموحدة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وَ بعدها ثاء مثلثة — هذه النسبة إلى دُبَيْثى ، وهى : قرية بنواحى واسط ، وأصله من كنجة ، وقدم جَدُّه على من دبيثى ، وسكن واسط ، وبها توالدوا .

وتوفى والده أبو المعالى سعيد ليلة عيد النحر ، سنة خمس وثمانين [وخمسمائة][(١)] بواسط ، ومولده بها ، فى السابع والعشرين ، من صفر سنة سبع وعشرين وخمسمائة .

***

(٦٣٤)

أبو عبد الله حجة الدين محمد بن محمد ابن ظفر ، الصقلى

أبو عبد الله محمد بن أبى محمد بن محمد بن ظفر ، الصقلى ، المنعوت بحجة الدين أحد الأدباء الفضلاء ، صاحب التصانيف الممتعة ، منها كتاب « سلوان المطاع ، فى عدوان الأتباع » صنفه لبعض القواد بصقلية ، سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، و « خير البشر ، بخير البشر » ، وكتاب « الينبوع » فى تفسير القرآن الكريم ، وهو كبير ، وكتاب « نجباء الأبناء » ، وكتاب « الحاشية على درة الغواص » للحريرى صاحب المقامات ، و « شرح المقامات للحريرى » وهما شرحان : كبير ، وَصغير ، وغير ذلك من التواليف الظريفة المليحة ، ورأيت فى أول الشرح الذى له يذكر أنه أخبره بها الحافظ أبو الطاهر السلفى ، عن منشئها الحريرى ، والناس يقولون : إن الحافظ السلفى رأى الحريرى ، فى جامع البصرة وحوله حلقة ، وهم يأخذون عنه المقامات ، فسأل عنه ، فقيل له : إن هذا قد وضع شيئا من الأكاذيب وهو يمليه على الناس ، فسكت ولم يعرج عليه ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) هذه الكلمة لم تذكر فى ا

وحكى عن الشيخ تاج الدين الكندى المقدم ذكره أنه قال : أحلت على ديوان حماة برزق ، فسرت إليها لأجل ذلك ، فلما حللتها جمع الجماعة بينى و بين ابن ظفر المذكور ، وجرت بيننا مناظرة فى النحو واللغة ، فأوردت عليه مسائل فى النحو فلم يمش فيها ، وكان حاله فى اللغة قريباً ، فلما كاد المجلس يتقوض قال ابن ظفر : الشيخ تاج الدين أعلم منى بالنحو وأنا أعلم منه باللغة ، فقلت : الأول مسلم والثانى ممنوع ، وتفرقنا .

وكان ابن ظفر قصير القامة ، دميم الخلقة ، غير صبيح الوجه .

ويروى لابن ظفر المذكور شعر ، فمن ذلك ما وجدته فى بعض المجاميع منسوباً إليه ، وهو [من الطويل] :

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم ... بأنك محمول وأنت مقيم
ألا إن شخصاً فى فؤادى محله ... وأشتاقه شخص على كريم

وقد أخذ هذا المعنى من قول بعض العرب [من الطويل] :

سقى بلداً كانت سليمى تحله ... من المزن ما تروى به وتشيم
وإن لم أكن من ساكنيه فانه ... يحل به شخص على كريم

وأورد له العماد الأصبهانى فى كتاب « الخريدة » عدة مقاطيع ، فمن ذلك قوله [من الطويل] :

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه ... ويعرف عند الصبر فيه نصيبه
ومن قل فيما يتقيه اصطباره ... فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وكانت نشأته بمكة ، وتنقل فى البلاد ، ومولده بصقلية ، وسكن آخر الوقت بمدينة حَمَاة .

وتوفى بها سنة خمس وستين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى !

ولم يزل يكابد الفقر إلى أن مات ، حتى قيل : إنه زوج ابنته فى حماة بغير كفء من الحاجة والضرورة ، و إن الزوج رحل بها عن حَمَاة و باعها فى بعض البلاد .

وظفر — بفتح الظاء المعجمه والفاء ، و بعدها راء — وهو المصدر من قولهم « ظَفِرَ بالشيء يظْفَرُ ظَفَراً » إذا فاز به .

وقد تقدم الكلام على صقلية فلا حاجة إلى إعادته .

***

(٦٣٥)

أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله بن عمر بن معاوية بن عمر بن عتبة بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، القرشى ، الأموى ، المعروف بالعُتْبى الشاعر ، البصرى المشهور

أبو عبدالرحمن محمد بن عبيد الله المعروف بالعتبي البصري الشاعر

كان أديباً فاضلا شاعراً مجيدا ، وكان يروى الأخبار وأيام العرب ، ومات له بنون ، فكان يرثيهم ، وروى عن أبيه وعن سفيان بن عيينة ولوط بن مخنف وروى عنه أبو حاتم السجستانى وأبو الفضل الرياشى و إسحاق بن محمد النخعى وغيرهم وقدم بغداد ، وحدث بها ، وأخذ عنه أهلها ، وكان مشتهراً بالشراب ، و يقول الشعر فى عُتْبة ، وكان هو وأبوه سيدين أديبين فصيحين ، وله من التصانيف كتاب « الخيل » وكتاب « أشعار الأعاريب » و « أشعار النساء اللاتى أحببن ثم أبغضن » و كتاب « الذبيح » وكتاب « الأخلاق » وغير ذلك .

(١)[وقال العتبي المذكور : سمعت أعرابياً يقول لرجل : إن فلاناً و إن ضحك لك فان عقار به تسرى إليك ، فان لم تجعله عدواً فى علانيتك فلا تجعله صديقاً فى سريرتك](١) .

وذكره ابن قتيبة فى كتاب « المعارف » وابن المنجم فى كتاب « البارع » وروى له [من الطويل] :

رأينَ الغوانى الشيبَ لاحَ بعارضى ⁂ فأعْرَضْنَ عنى بالخدُودِ النوَّاضِر

(١) سقط ما بين المعقوفين من ا

وكن متى أبصرْنَنى أو سمعنَ بى   سعينَ فرقّعْنَ الكوى بالمحاجرِ
فإن عطفَتْ عنى أعنةَ أعين   نظرْنَ بأحداقِ المها والجآذرِ
فإنىَ من قوم كريم ثناؤهم   لأقدامِهمْ صِيغتْ رؤوس المنابر
خلائف فى الإسلام، فى الشرك قادة،   بهم وإليهم فخر كل مفاخر

وفى المجموع الذى بخطى أبيات للشريف الرضى - رحمه الله! - فى هذا المعنى وأورد له أيضاً [من البسيط]:

لما رأتنى سُلَيْمى قاصراً بصرى   عَنْهَا وفى الطَّرْف عن أمثالها زَوَرُ
قَالَتْ: عهدْتُكَ مجنُوناً، فقلت لها: إن الشباب جنُون بُرْؤُه الكِبَرُ

وهذا البيت من الأمثال السائرة

وذكر له المبرد فى كتاب «الكامل» بيتين يرثى بهما بعضَ أولاده، وهما [من الكامل]:

أضحتْ بخدِّى للدموع رُسُومُ   أسفاً عليك، وفى الفؤاد كُلُومُ
والصَّبر يُحْمَدُ فى المَوَاطِن كُلِّها   إلاّ عليك فإنه مَذْمُومُ

وهذا البيت أيضاً من الأبيات المشهورة

وشعره كثير جيد، وهو من فحول الشعراء المحدثين.

وتوفى سنة ثمان وعشرين ومائتين، رحمه الله تعالى!

والعُتْبِى — بضم العين المهملة، وسكون التاء المثناة من فوقها، وبعدها باء موحدة — هذه النسبة إلى جده عتبة بن أبى سفيان المذكور، وقد نسب مثل هذه النسبة إلى عتبة بن غزوان الصحابى، رضى الله عنه! ويجوز أن تكون نسبته إلى عُتْبَة التى كان يقول الشعر فيها، والله أعلم.

***

(٦٣٦)

أبو بكر محمد بن العباس ، الخوارزمى ، الشاعر المشهور

أبو بكر محمد ابن العباس الخوارزمى الشاعر الكاتب

و يقال له « الطبرخزى » أيضاً ، لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان فركّب له من الاسمين نسبة ، كذا ذكره السمعانى ، وهو ابن أخت أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ ، وقد تقدم ذكر ذلك فى ترجمة ابن جرير

وأبو بكر المذكور أحد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير ، كان إماماً فى اللغة والأنساب ، أقام بالشام مدة وسكن بنواحى حلب ، وكان يشار إليه فى عصره

ويحكى أنه قصد حضرة الصاحب بن عبَّاد وهو بأرَّجان ، فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه : قل للصاحب على الباب أحد الأدباء ، وهو يستأذن فى الدخول ، فدخل الحاجب وأعلمه ، فقال الصاحب : قل له : قد ألزمت نفسى أن لا يدخل علىّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر : ارجع إليه وقل له : هـذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال ، فقال الصاحب : هـذا يكون أبا بكر الخوارزمى ، فأذن له فى الدخول ، فدخل عليه ، فعرفه ، وانبسط له .

وأبو بكر المذكور له ديوان رسائل ، وديوان شعر .

وقد ذكره الثعالبي فى كتاب اليتيمة ، وذكر قطعة من نثره ، ثم أعقبها بشىء من نظمه ، فمن ذلك قوله [من الطويل] :

رأيتك إن أيْسَرْتَ خيَّمْتَ عندنا ... مُقيماً ، وإن أعسرتَ زُرْتَ لِمَامَا

فما أنت إلا البَدْرُ إن قل ضَوْءُه ... أغبَّ ، وإن زاد الضياء أقاما

ومن شعره أيضاً [من البسيط] :

يامَنْ يُحَاول صِرْفَ الراح يَشْرَبُهَا ... ولا يفك لما يلقاه قرطاسا

الكاسُ والكِيس لم يقض امتلاؤهما ففرغ الكيسَ حتى تملأُ الكاسا

وفيه يقول أبو سعيد أحمد بن شهيب الخوارزمى [من الوافر]:

أبو بكر له أدبٌ وفضلٌ ولكن لا يدومُ على الوفاء
موَدّته إذا دامتْ لِخلٍّ فمن وَقتِ الصَّباح إلى المساء

وملحه ونوادره كثيرة.

ولما رجع من الشام سكن نيسابور ومات بها فى منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة، وذكر شيخنا ابن الأثير فى تاريخه أنه توفى سنة ثلاث وتسعين، والله أعلم، رحمه الله تعالى!

وكان قد فارق الصاحب ابن عباد غير راض فعمل فيه [من البسيط]:

لاتحمدَنَ ابن عباد و إن هطَلتْ يدَاه بالجود حتى أخجلَ الدِّيَمَا (1)
فإنه خطَرَات من وَساوِسِه يُعْطِى وَيَمنع لا بُخلاً وَلا كرَمَا

فبلغ ابنَ عباد ذلك، فلما بلغه خبر موته أنشد [من الطويل]:

أقولُ لرَكْبٍ من خرُاسَانَ قافِلٍ أمَاتَ خوارزميكم؟ قيل لى: نَعَمْ
فقلت: اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعنَ الرحمنُ من كفرَ النِعَمْ

قلت: هكذا وجدت هذين البيتين منسوبين إلى أبى بكر الخوارزمى المذكور فى الصاحب ابن عباد، ذكر ذلك جماعة من الأدباء فى مجاميعهم، وفى مذاكراتهم، ثم نظرت فى كتاب «معجم الشعراء» تأليف المرزُبانى، فوجدت فى ترجمة أبى القاسم الأعمى، واسمه معاوية بن سفيان، وهو شاعر راوية بغدادى أحد غلمان الكسائى، اتصل بالحسن بن سَهْل يؤدب أولاده، فعتب عليه فى شىء (2) فقال يهجوه [من البسيط]:

لاتحمَدَنْ حسَنًا بالجود إن مطَرَتْ كفَّاه غزْرًا ولا تذممه إن زرمَا
فلَيْسَ يَمْنَع إبقاءً على نَشَبٍ ولا يجود لِفَضْلِ الحَمْد مغتنما
لكنَّها خطرَاتٌ منْ وَساوِسه يُعْطِى وَيَمْنَعُ لا بخلاً ولا كرَمَا

---

(1) فى ا «حتى تخجل الديما» (2) فى ا «فعتبه فى شىء»

والله أعلم بذلك . وقد تقدم الكلام على الخوارزمى .

وطَبَرْخَزِى - بفتح الطاء المهمله والباء الموحدة ، وسكون الراء ، وفتح الخاء المعجمة ، و بعدها زاء - وقد سبق فى أول الترجمة الكلام على سبب هذه النسبة

***

(٦٣٧)

أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامى الشاعر

أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن يحيى بن خليس بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن الحارث بن عبد الله بن الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، المخزومى، السَّلَامى، الشاعر المشهور ، هو من ولد الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومى ، أخى خالد بن الوليد

قال الثعالبي فى حقه : هو من أشعر أهل العراق قولا بالإطلاق ، وشهادة بالاستحقاق ، وعلى ما أجريته من ذكره ، شاهد عدل من شعره ، والذى كتبت من محاسنه نزه العيون ، ورُقَى القلوب ، ومُنَى النفوس ، ومن خبره أنه قال الشعر وهو ابن عشر سنين ، وأول شىء قاله وهو فى المكتب [من المنسرح] :

بدائع الحسن فيه مفترقة　　وأعين الناس فيه متفقه

سهامُ ألحاظِهِ مفُوَّقةٌ　　فكل مَنْ رام لحظه رَشَقَهْ

قَدْ كتَبَ الحسن فوق وجنته　　هذا مليح وحق من خلقه

ونشأ ببغداد ، وخرج منها إلى الموصل وهو صبى يوم ذاك ، فوجد بها جماعة

من مشايخ الشعراء : منهم أبو عثمان الخالدى أحد الخالديين ، وأبو الفرج الببغاء المقدم ذكره ، وأبو الحسن التلعفرى ، وغيرهم ، فلما رأوه عجبوا منه لبراعته مع حداثة سنه ، فاتهموه بأن الشعر ليس له ، فقال الخالدى : أنا أكفيكم أمره، واتخذ دعوة جمع فيها الشعراء ، وأحضر السلامى المذكور معهم ، فلما توسطوا الشراب أخذوا فى التفتيش عن بضاعته ، فلم يلبثوا أن جاء مطر شديد وبرَد ستر وجه الأرض ، فألقى الخالدى نارنجاً كان بين يديه على ذلك البرد ، وقال : يا أصحابنا ، هل لكم أن نصف هذا ؟ فقال السلامى ارتجالا [من مجزوء الكامل] :

لله در الخالدىّ الأوحد الندب الخطير
أهدى لماء المزن عند جموده نار السعير
حتى إذا صدر العتا بُ إليه عن حر الصدور
بعثت إليه بعُذْره عن خاطرى أيدى السرور
لا تعذلوه فانه أهدى الخدود إلى الثغور

فلما رأوا ذلك منه أمسكوا عنه ، وكانوا يصفونه بالفضل ، ويعترفون له بالإجادة والحذق ، إلا التلعفرى ، فانه أقام على قوله الأول حتى قال السلامى فيه [من الوافر] :

سما التلعفرى إلى وصالى ونفس الكلب تكبر عن وصاله
ينافى خلقه خلقى فتأبى فعالى أن تضاف إلى فعالهْ
فصنعتى النفيسة فى لسانى وصنعته الخسيسة فى قَذَالهْ
فإن أشعر فما هو من رجالى وإن يُصْفَعْ فما أنا من رجاله

وله فيه أهاج كثيرة .

ودخل السلاَمى يوما على أبى تغلب ، وأظنه الحمدانى ، وبين يديه درع ، فقال : صفها لى ، فارتجل [من الكامل] :

يارُبَّ سابغة حبتنى نعمة كافأتها بالسوء غير مفند

أضحت تصون عن المنايا مهجتى وظللت أبذلها لكل مهند

وهذا المعنى مأخوذ من قول عبد الله بن المعتز فى الخمرة المطبوخة ، وقد سبق ذكر ذلك [فى ترجمته] وهو [الطويل] :

وقتنى من نار الجحيم بنفسها وذلك من إحسانها ليس يجحد

وقصد السَّلَامى حضرة الصاحب بن عباد وهو بأصبهان ، فأنشده قصيدته البائية التى من جملتها [من الوافر] :

تبسطنا على الآثام لما رأينا العفو من ثمر الذنوب

وهذا البيت من محاسنه ، وفيه إشارة إلى قول أبى نُوَاس الحسن بن هانىء من جملة أبيات فى الزهد ، وقد تقدم ذكرها فى ترجمته ، وهو قوله [من الوافر] :

تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

وفيه إلمام أيضاً بقول المأمون : لو علم أرباب الجرائم تلذذى بالعفو لتقربوا إلى بالذنوب .

ولم يزل السَّلَامى عند الصاحب بين خير مستفيض ، وجاه عريض ، ونعم بيض ، إلى أن آثر قَصْدَ حضرة عضد الدولة بن بُوَيْه بشيراز ، فحمله الصاحب إليها ، وزوده كتاباً بخطه إلى أبى القاسم عبد العزيز بن يوسف الكاتب ، وكان أحد البلغاء ، وممن يجرى عند عضد الدولة مجرى الوزراء ، ونسخة الكتاب : قد علم مولاى أن باعةَ الشعر أكثر من عدد الشعر ، ومن يُوثَق أن حليته التى يهديها من صَوْغ طبعه ، وحلله التى يؤديها من نسج فكره ، أقلُّ من ذلك ، وممن خبرته بالامتحان فحمدته ، وفَرَرْته بالاختبار فاخترته ، أبو الحسن محمد بن عبد الله السَّلَامى ، وله بديهة قوية ، توفى على الروِيَّة ، ومذهبٌ فى الاجادة يهش السمع لوعيه ، كما يرتاح الطرف لرعيه ، وقد امتطى أمله ، وخيرله فى القصد إلى الحضرة

الجليلة رجاء أن يحصل فى سواد أمثاله ، ويظهر معهم بياض حاله ، فجهزت منه أمير الشعر فى موكبه ، وحليت فرس البلاغة بمركبه ، وكتابى هـذا رائده إلى القَطْر ، بل مَشْرَعه إلى البحر ، فان رأى مولاى أن يراعى كلامى فى بابه ، ويجعل ذلك من ذرائع إيجابه ، فعل إن شاء الله تعالى . فلما ورد عليه تكفل به أبو القاسم وأفضل عليه ، وأوصله إلى عضد الدولة ، حتى أنشده قصيدته التى منها [من الطويل] :

إليك طَوَى عرض البسيطة جاعل ... قصارى المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
فكنت وعزمى فى الظلام وصارمى ... ثلاثة أشباهٍ كما اجتمع النَّسْرُ
و بشرت آمالى بمَلْك هو الورَى ... ودار هى الدنيا ، ويوم هو الدهر

وقد تقدم ذلك فى ترجمة عضد الدولة فى حرف الفاء فليطلب هناك .

رجعنا إلى خبر السَّلَامى مع عضد الدولة — فاشتمل عليه بجناح القبول ، ودفع إليه مفتاح المأمول ، واختص بخدمته فى مقامه وظعنه ، وتوفر من صِلَاته حظه ، وكان عضد الدولة يقول : إذا رأيت السَّلَامى فى مجلسى ظننت أن عطارد قد نزل من الفلك إلى ، ووقف بين يدى ، ولما توفى عضد الدولة فى التاريخ المذكور فى ترجمته تراجع طبع السَّلَامى ، ورقت حاله ، ثم ما زالت تتماسك مرة وتتداعى أخرى حتى مات .

وله فى عضد الدولة كل قصيدة بديعة[(1)] ، فمن ذلك قوله من جملة قصيدة [من مجزوء الكامل] :

نبهت ندمانى وقد ... عبرت بنا الشعرى العبور
والبدرُ فى أُفق السما ... ءِ كروضة فيها غدير
هبُّوا فقد عي الرقيـ ... ـب فنام وانتبه السرور
وأشار إبليس فقلـ ... ـنا كلنا : نعم المشير

(1) فى ا « كل قصيدة بديهة » محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ب

صَرْعى بمعركة تعف الوحش عنا والنسور
نوّار رَوْضَتنا خدو د والغُصُونُ بها خُصُور
والعيش أستر ما يكو ن إذا تهتكت الستور
هُبُّوا إلى شرب المدا م فإنما الدنيا غرور
طاف السُّقاة بها كما أهدَتْ لك الصَّيْد الصُّقور
عذراء يكتمها المزا ج كأنها فيه ضمير
وتظنُّ تَحْتَ حبَابها خدًّا تقبله ثغور
حتى سَجَدنا والإما م أمامنا مَثْنَى وزير

وله فيه أيضاً من جملة أبيات [من البسيط]:

يزور نائلك العافى وصارمك العاصى فتحويهما أيدٍ وأعناقُ
فى كل يوم لبيت المجد منك غِنىً وثَرْوَة، ولبيت المال إملاقُ

وله فيه أيضاً [من الطويل]:

تشبهه المدَّاحُ فى البَأسُ والنَّدى بمَنْ لو رآه كان أصْغَرَ خادِمِ
ففى جَيْشه خمسُون ألفاً كعَنْتَر وأمضى، وفى خُزّانه ألفُ حاتِمِ

ومن شعره أيضاً [من الكامل]:

لما أُصيب الخد منك بعارض أضحى بسلسلة العذار مقيدا

ومن ههنا أخذ ابن التلعفرى قوله [من الكامل]:

هب أن خدك قد أُصيب بعارض فعلامَ صُدْغك راح وهو مسلسل

وأنشدنى ابن التلعفرى — وهو الشهاب محمد بن يوسف بن مسعود الشيبانى — أبياته التى من جملتها هذا البيت، وبالجملة فأكثر شعره نُخَب وغُرَر.

وكانت ولادته آخر نهار الجمعة لست خلون من رجب سنة ست وثلاثين وثلثمائة

فى كَرْخ بغداد

وتوفى يوم الخميس رابع جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى !.

والسَّلاَمى : نسبة إلى دار السلام بغداد ، وقد تقدم ذكر ذلك فى ترجمة محمد ابن ناصر الحافظ.

* * *

(٦٣٨)

أبو الحسن
محمد بن عبد الله
(ابن سكرة)
البغدادى
الهاشمى
الشاعر

أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد ، المعروف بابن سكرة ، الهاشمى ، البغدادى الشاعر المشهور ، وهو من ولد على بن المهدى بن أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى

قال الثعالبى فى ترجمته : هو شاعر متسع الباع ، فى أنواع الإبداع ، فائق فى قول الطرف والملح على الفحول والأفراد ، جارٍ فى ميدان المجون والسخف ما أراد ، وكان يقال ببغداد : إن زماناً جاد بمثل ابن سكرة وابن حجاج لَسَخىٌّ جداً ، وما شُبِّهَا إلا بجرير والفرزدق فى عصرهما ، ويقال : إن ديوان ابن سكرة يُرْبى على خمسين ألف بيت ، فمن بديع تشبيهه ما قاله فى غلام رآه وفى يده غصن وعليه زهر ، وهو [من الخفيف] :

غصن بانٍ بدا وفى اليد منه غُصُنٌ فيه لؤلؤ منظوم
فتحيرت بين غصنين فى ذا قمر طالع وفى ذا نجوم

ومن شعره [من البسيط] :

قالوا : التحى وستسلو عنه ، قلت لهم : هل يحسن الروْض ما لم يطلع الزهر

هَلِ الْتَحَى طرفه الساجى فأهجره ؟
أم هل تزحزحَ عن أجفانه الحَوَرُ ؟(١)

وله فى غلام أعرج [من الكامل] :

قالوا : بليت بأعرج ، فأجبتهم العيب يحدث فى غصون البان
إنى أحب حديثه وأريده للنوم لا للجرى فى الميدان

وله أيضاً [من الخفيف] :

أنا والله هالك آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى قد أقامت قيامتى

وقال أبو الحسن على بن محمد بن الفتح المعروف بابن أبى العصب — ويقال ابن العصب — الأشنانى الملحى البغدادى الشاعر : كتب إلى ابن سكرة الهاشمى [من الخفيف] :

يا صديقاً أفادنيه زمان فيه ضَنٌّ بالأصدقاء وشُحُّ
بين شخصى وبين شخصك بُعْدٌ غير أن الخيال بالوصل سَمْحُ
إنما أوجب التباعد منا أننى سُكَّرٌ وأنك مِلْحُ

فكتب إليه [من الخفيف] :

هل يقول الإخوان يوماً لخل شاب منه مَحْضَ المودة قَدْحُ :
بيننا سكر فلا تفسدنه أم يقولون : بيننا وبينك ملح ؟

وله يهجو بعض الرؤساء [من مخلع البسيط] :

تهت علينا ولست فينا وَلِىَّ عهدٍ ولا خليفه
فَتِهْ وزد ما علىَّ جارٍ يُقطع عنى ولا وظيفه
ولا نقل ليس فى عيبٌ قد تقذف الحرة العفيفة

---

(١) فى ا « وهل تزحزح عن أجفانه الحور »

والشعر نار بلا دخان ... وللقوافى رُقًى لطيفه
كم من ثقيل المحلّ سامٍ ... هَوَتْ به أحرف خفيفه
لو هُجِيَ المسك وهو أهل ... لكل مدح لصار جيفه

وله أيضا [من مجزوء الرمل] :

قيل : ما أعددت للبر ... د فقد جاء بشدَّهْ
قلت : دراعة عُرْيٍ ... تحتها جبة رِعْدَهْ

وله البيتان اللذان ذكرهما الحريرى ، فى المقامة الكرجية ، وهما [من البسيط] :

جاء الشتاء وعندى من حوائجه ... سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كن وكيس وكانون وكاس طلا ... بعد الكتاب وكس ناعم وكسا

وقد نسج ابن التعاويذى الآتى ذكره فى المحمدين إن شاء الله تعالى على منواله ، فقال [من الطويل] :

إذا اجتمعت فى مجلس الشرب سبعة ... فما الرأى فى التأخير عنه صواب
شِوَاء وشَمَّام وشَهْدٌ وشادن ... وشمع وشادٍ مطربٌ وشرابٌ

وقال أبو الثناء محمود بن نعمة بن أرسلان النحوى الشيرازى [من الطويل] :

يقولون كافات الشتاء كثيرة ... وما هى إلا واحد غير مفْتَرَى
إذا صح كافُ الكيس فالكل حاصل ... لديك،وكل الصيد يوجد فى الفَرا

وله فى الشباب أيضا [من الوافر] :

لقد بان الشباب وكان غصنا ... له ثمر وأوراق تظلك(١)
وكان البعض منك فمات فاعلم ... متى ما مات بعضك مات كلك

ومحاسن شعره كثيرة .

---

(١) فى ا « لقد بان الشباب وكان غضا » وما أثبتناه موافقا لما فى ب أحسن

وتوفى يوم الأربعاء حادى عشر شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وثلثمائة رحمه الله تعالى !.

وكانت ولادة ابن أبى العصب المذكور بعد سنة خمس وثمانين ومائتين ، وسمع منه الحسن بن على الجوهرى هذه الأبيات سنة أربع وسبعين وثلثمائة

وتوفى أبو الثناء محمود بن نعمة المذكور سنة خمس وستين وخمسمائة بدمشق ، وذكر عماد الدين الكاتب فى كتاب «الخريدة» أنه رآه بدمشق سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وأنشده عدة مقاطيع له .

وسكرة : بضم السين المهملة ، وتشديد الكاف ، وفتح الراء ، و بعدها هاء ساكنة ، وهى معروفة فلا حاجة إلى تفسيرها

* * *

(٦٣٩)

الشريف الرضى أبوالحسن محمد ابن الحسين الموسوى الشاعر

الشريف الرضى أبوالحسن محمد بن الطاهر ذى المناقب أبى أحمد الحسين ابن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم! المعروف بالموسوى صاحب ديوان الشعر، ذكره الثعالبى فى كتاب «اليتيمة» فقال فى ترجمته: ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل، وهو اليوم أبدع أبناء الزمان (١)، وأنجب سادات العراق، يتحلى مع محتده الشريف، ومفخره المنيف، بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبيين مَنْ مضى منهم (٢) ومن غَبَرَ على كثرة شعرائهم المفلقين، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق، وسيشهد بما أخبر به شاهد عدل، من شعره العالى القِدْح، الممتنع عن القَدْح، الذى يجمع إلى السلاسة متانة، و إلى السهولة رصانة، و يشتمل على معانى يقرب جنَاها، و يبعد مدَاها، وكان أبوه يتولى قديماً نقابة نقباء الطالبيين، ويحكم فيهم أجمعين، والنظر فى المظالم والحج بالناس، ثم رُدَّت هذه الأعمال كلها إلى ولده الرضى المذكور فى سنة ثمان وثمانين وثلثمائة وأبوه حى.

ومن غرر شعره ما كتبه إلى الإمام القادر بالله أبى العباس أحمد بن المقتدر، من جملة قصيدة [من الكامل]:

عَطْفًا أميرَ المؤمنين فاننـا ... فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً، كلانا فى المعالى مُعْرِق
إلا الخلافة ميزتك، فاننى ... أنا عاطل منها، وأنت مطوق

ومن جيد شعره قوله أيضاً [من الكامل]:

رُمْتُ المعـالى فامتنعن، ولم يزل ... أبداً يمانع عاشـقاً معشوق

---

(١) فى ا « وهو اليوم أبدع نشأ الزمان » (٢) فى ا « ممن مضى منهم »

وصبرْتُ حتى نلتهن ، ولم أقل ضجراً : دواء الفارك التطليق

وله من جملة أبيات [من البسيط] :

يا صاحبيَّ قفا لى واقضيا وَطرا وحَدِّثانىَ عن نجد بأخبـار

هل روضت قاعة الوعساء أم مطرت خميلة الطلح ذات البان والغار

أم هل أبيت ودار دون كاظمة دارى ، وسُمّار ذاك الحى سُمّارى

تَضَوَّعُ أرواح نجد من ثيابهمُ عند القدوم لقرب العهد بالدار

وديوان شعره كبير ، يدخل فى أربع مجلدات ، وهو كثير الوجود فلا حاجة إلى الإكثار من شعره (١) .

وذكر أبو الفتح بن جنى [النحوى] المقدم ذكره فى بعض مجاميعه أن الشريف الرضى المذكور أُحْضِرَ إلى ابن السيرافى النحوى وهو طفل جدا لم يبلغ عمره عشر سنين فلقنه النحو ، وقعد معه يوما فى حلقتـه ، فذاكره بشىء من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا « رأيت عمرو » فما علامة النصب فى عمرو ؟ فقال له الرضى : بُغْضُ على ، فعجب السيرافى والحاضرون من حدة خاطره .

وذكر أنه تلقن القرآن بعد أن دخل فى السن فحفظه فى مدة يسيرة .

وصنف كتابا فى معانى القرآن الـكريم ، يتعذر وجود مثله دل على توسعه فى علم النحو واللغة ، وصنف كتابا فى « مجازات القرآن » فجاء نادرا فى بابه .

وقد عنى بجمـع ديوان الشريف الرضى المذكور جمـاعة ، وأجود ما جمع الذى جمعه أبو حكيم الخيرى (٢) .

ولقد أخبرنى بعض الأفاضل (٣) أنه رأى فى مجموع أن بعض الأدباء اجتاز بدار الشريف الرضى المذكور بسر من رأى ، وهو لا يعرفهـا ، وقد أخنى عليهـا الزمان ، وذهبت بَهْجتها ، وأخلقت ديباجتها ، و بقايا رسومها تشهد لها بالنَّضارة وحسن الشارة ، فوقف عليها متعجبـا من صروف الزمان ، وطوارق الحـدثان ، وتمثل بقول الشريف الرضى المذكور [من الكامل] :

---

(١) فى ا « إلى الإكثار من ذكره » (٢) فى ا « الخبرى » (٣) فى ا « الفضلاء »

ولقد وقفت على ربوعهم ... وطلولها بيد البِلَى نَهْبُ
فبكيْتُ حتى ضج من لَغَب ... نِضْوِى ولج بعذلى الرَّكْبُ
وتلفتت عينى، فمذ خفيت ... عنى الطلول تلفَّتَ القلبُ

فمر به شخص وسمعه وهو ينشد الأبيات، فقال له: هل تعرف هذه الدار لمن هى؟ فقال: لا، فقال: هذه الدار لصاحب هذه الأبيات الشريف الرضى، فعجبا من حسن الاتفاق (١)

ولقد أذكرتنى هذه الواقعة حكاية هى فى معناها ذكرها الحريرى فى كتاب «درة الغواص، فى أوهام الخواص» وهى على مارواه أن عبيد بن شَرِيَّةَ الجرهمى عاش ثلثمائة سنة وأدرك الإسلام فأسلم ودخل على معاوية بن أبى سفيان بالشام وهو خليفة، فقال له: حدثنى بأعجب ما رأيت، فقال: مررت ذات يوم بقوم يدفنون ميتاً لهم، فلما انتهيت إليهم اغرورقَتْ عيناى بالدموع فتمثلت بقول الشاعر [من البسيط]:

ياقلب إنك من أسماء مغرور ... فاذكر وهل يَنْفَعَنْكَ اليوم تذكير
قد بُحْتَ بالحب ماتخفيه من أحد ... حتى جرت لك أطلاقا محاضيرُ
فلست تدرى وما تدرى أعاجلها ... أدنى لرشدك أم مافيه تأخير
فاستقْدِرِ الله خيرا وارضَيَنَّ به ... فبينما العسر إذ دارت مياسيرُ
وبينما المرء فى الأحياء مغتبط ... إذا هو الرَّمْسُ تعفوه الأعاصيرُ
يبكى الغريبُ عليه ليس يعرفه ... وذو قرابته فى الحى مسرور

قال: فقال لى رجل: أتعرف من يقول هذا الشعر؟ فقلت: لا، قال: إن قائله هو الذى دفناه الساعة، وأنت الغريب الذى تبكى عليه، ولست تعرفه، وهذا الذى خرج من قبره أمسُّ الناس رحما به، وأسرهم بموته، فقال له معاوية: لقد رأيت عجباً، فمن الميت؟ قال: هو عثير بن لبيد العذرى

---

(١) فى ا «فتعجب من حسن الاتفاق»

[1][ومثل هاتين القصتين ماذكره الخطيب أبو زكريا التبريزى فى كتاب شرح الحماسة ، وذكره غيره أيضا أن عمرو بن شاس الأسدى الشاعر المشهور كانت له امرأة من قومه ، وابنٌ من أمة سوداء ، يقال له عَرَار ، فكانت تعير به أباه ، وتؤذيه و يؤذيها ، فأنكر عمرو عليها أذاها له وقال [من الطويل] :

أرادت عَرَارًا بالهوان ومن يُرِدْ عَرَارًا لعمرى بالهوان لقد ظلم
و إن عَرَاراً إن يكن غير واضح فانى أحبُّ الجون ذا المنكب العَمَمْ

وهى عدة أبيات فى الباب الأول من كتاب الحماسة ، والجون . الأسود والعمم : التام

وكان عَرَار أحد فصحاء العقلاء ، وتوجه من عند المهلب بن أبى صفرة إلى الحجاج بن يوسف الثقفى رسولا فى بعض أمور ، فلما مَثَلَ بين يدى الحجاج لم يعرفه ، وازدراه ، فلما استنطقه أبان وأعرب ماشاء ، و بلغ الغاية والمراد فى كل ماسئل عنه ، فأنشد الحجاج متمثلا :

أرادت عرارا بالهوان ، ومن يرد عرارا لعمرى بالهوان لقد ظلم

فقال عرار : أنا ـ أيد الله الأمير ! ـ عرار ، فأعجب به ، و بذلك الاتفاق

وشاس : المكان الغليظ ، وعمرو المذكور من أسد بن خزيمة ، وهو مخضرم أدرك الإسلام وهو شيخ كبير .

وعَرَار من قولهم « عارَّ الظليمُ » بتشديد الراء « يعار عرارا » إذا صاح

يقول : أرادت امرأتى إهانة عرار ، ومن طلب ذلك من مثله فقد وضع الشئ فى غير محله ، وهو الظلم .

واجتهد عمرو بن شاس أن يصلح بين امرأته وابنه فلم يمكنه ، فطلقها فندم وقال فى ذلك شعرا تركته لعدم الحاجة وخشية الإطالة][1] .

رجعنا إلى ذكر الشريف ـ قال الخطيب فى تاريخ بغداد : سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله الكاتب بحضرة أبى الحسين بن محفوظ ـ وكان أوحد الرؤساء ـ يقول : سمعت جماعة من أهل العلم بالأدب[2] يقولون : [إن] الرضى أشعر قريش ،

---

(١) مابين المعقوفين ساقط كله من ا (٢) فى ا « جماعة من أهل الأدب »

فقال ابن محفوظ : هذا صحيح ، وقدكان فى قريش من يجيد القول ، إلا أن شعره قليل ، فأما مجيد مكثر فليس إلا [الشريف] الرضى

وكانت ولادته سنة تسع وخمسين وثلثمائة ببغداد

وتوفى بكرة يوم الأحد سادس المحرم - وقيل : صفر - سنة ست وأربعمائة ، ببغداد ودفن فى داره بخط مسجد الأنباريين بالكرخ ، وقد خربت الدار ودرس القبر (١)

ومضى أخوه المرتضى أبو القاسم [على] إلى مشهد موسى بن جعفر لأنه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودَفْنه ، وصلى عليه الوزير فخر الملك فى الدار مع جماعة كثيرة ، رحمه الله تعالى !

وكانت ولادة والده الطاهر ذى المناقب أبى أحمد الحسين سنة سبع وثلثمائة ، وتوفى فى جمادى الأولى سنة أربعمائة ، وقيل : توفى سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد ودفن فى مقابر قريش بمشهد باب التبن ، ورثاه ولده الرضى ، ورثاه أيضاً أبو العلاء المعرى بقصيدته التى أولها [من الكامل] :

أودى فليت الحادثات كَفَافِ ... مالُ الْمُسِيفِ وعنبر الْمُسْتَافِ

وهى طويلة أجاد فيها كل الإجادة

وقد تقدم ذكر أخيه الشريف المرتضى أبى القاسم على

وعبيد : بفتح العين المهملة ، وكسر الباء الموحدة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وبعدها دال مهملة

وشرية : بفتح الشين المعجمة ، وسكون الراء ، وفتح الياء المثناة من تحتها ، وبعدها هاء ساكنة (٢)

والجرهمى - بضم الجيم ، وسكون الراء ، وضم الهاء ، وبعدها ميم - هذه النسبة إلى جرهم بن قحطان ، وهى قبيلة كبيرة مشهورة باليمن .

وعثير - بكسر العين المهملة ، وسكون الثاء المثلثة ، وفتح الياء المثناة من تحتها ، وبعدها راء - وهو فى الأصل اسم للغبار ، وبه سمى الرجل

ولبيد : اسم علم مشهور فلا حاجة إلى ضبطه ، وقد تقدم الكلام على العذرى ، والله أعلم

---

(١) فى ا « ودثر القبر »

(٢) هذا أحد ضبطين للعلماء فى هذا الاسم ، والآخر أنه بزنة عطية وهدية

(٦٤٠)

أبو القاسم محمد بن هانى الأزدى الأندلسى الشاعر

أبو القاسم ، وأبو الحسن ، محمد بن هانى ، الأزدى ، الأندلسى ، الشاعر المشهور ، قيل : إنه من وَلد يزيد بن حاتم بن قَبِيصة بن المهلب بن أبى صُفْرة الأزدى ، وقيل : بل هو من ولد أخيه روح بن حاتم

وقد تقدم ذكر يزيد وأخيه روح فى ترجمة روح فى حرف الراء .

وكان أبوه هانى من قرية من قرى المهدية بأفريقية ، وكان شاعراً أديباً ، فانتقل إلى الأندلس ، فولد محمد المذكور بمدينة إشبيلية ، ونشأ بها ، وَاشتغل ، وَحصل له حظ وَافر من الأدب ، وعمل الشعر ومهر فيه ، وكان حافظا لأشعار العرب وأخبارهم ، واتصل بصاحب إشبيلية ، وحَظِيَ عنده ، وكان كثير الانهماك فى الملاذ متهما بمذهب الفلاسفة ، ولما اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل إشبيلية ، وساءت المقالة فى حق الملك بسببه ، واتهم بمذهبه أيضاً ، فأشار الملك عليه بالغيبة عن البلد مدة ينسى فيها خبره ، فانفصل عنها وعمره يومئذ سبعة وعشرون عاما ، وحديثه طويل ، وخلاصته أنه خرج إلى عُدْوَة المغرب ولقى جوهراً القائد مولى المنصور ، وقد تقدم ذكره وما جرى له عند توجهه إلى مصر وفتحها للمعز ، فامتدحه ، ثم ارتحل إلى جعفر ويحيى ابنى على ، وقد تقدم ذكر جعفر ، وكانا بالمسيلة وهى مدينة الزاب ، وكانا واليبها ، فبالغا فى إكرامه والإحسان إليه ، فنُمِى خبره إلى المعز أبى تميم مَعَدٍّ بن المنصور العُبَيْدى ، وسيأتى ذكره فى هذا الحرف إن شاء الله تعالى ، فطلبه منهما ، فلما انتهى إليه بالغ فى الإنعام عليه ، ثم توجه المعز إلى الديار المصرية كما سيأتى فى خبره ، فشيعه ابن هانىء المذكور ، ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به ، فتجهز ، وتبعه ، فلما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما فى مجلس الأنس ، فيقال: إنهم عربدوا

عليه فقتلوه ، وقيل : خرج من تلك الدار وهو سكران فنام فى الطريق وأصبح ميتاً ولم يعرف سبب موته ، وقيل : إنه وجد فى سانية من سوانى برقة مخنوقا بتكة سراويله ، وكان ذلك فى بكرة يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رجب سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل : اثنتان وأربعون ، رحمه الله تعالى ! هكذا قيده صاحب كتاب أخبار القيروان ، وأشار إلى أنه كان فى صحبة المعز ، وهو مخالف لما ذكرته أولا من تشييعه المعز ورجوعه لأخذ عياله ، ولما بلغ المعز وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيراً ، وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك .

وله فى المعز المذكور غُرَر المدائح ، ونُخَب الشعر ، فمن ذلك قصيدته النونية التى أولها [من الكامل] :

هل من أعِقَّةِ عالج يَبرين ... أم منهما بقر الحدوج العينُ
ولمن ليال ماذممنا عهدَها ... مذ كنّ إلا أنهن شُجُونُ
المشرقاتُ كأنهن كواكب ... والناعماتُ كأنهن غصونُ
بيضٌ وماضحكُ الصباحُ ، وإنها ... بالمسك من طُرَرِ الحسان لَجَون
أدمى لها المرجانُ صفحةَ خدهِ ... وبكى عليها اللؤلؤ المكنون
أعدَى الحمامَ تأوُّهى من بعدها ... فكأنه فيما سَجَعْنَ رنين
بانوا سِراعا للهوادج زَفْرَةٌ ... مما رأينَ وللمطىِّ حنين
فكأنما صبغوا الضحى بقبابهم ... أو عصفرت فيه الخدودَ جفونُ
ماذا على حُلَل الشقيق لوآنها ... عن لابسيها فى الخدود تَبين
لأعطشن الروض بعدهمُ ولا ... يَرْويه لى دَمع عليه هتونُ
أأعيرُ لحظ العين بهجةَ منظرٍ ... وأخونهم ؟ إنى إذن لخؤون
لاالجوُّ جو مُشرق ولوا كتسى ... زهراً ، ولا الماء المعين مَعين

لا يبعدن إذا العبيرُ له ثرى والبانُ دَوْح والشموس قَطِينُ
أيام فيـه العبقرى مُفوَّف والسابِرىُّ مضاعف موْضون
والزاعبية شُرَّع والمشرفيـــة لمع والمقربات صفُون
والعهد من ظَمْياء إذ لا قومها خُزر ولا الحربُ الزبون زَبُون
حزنى لذاك الجوّ وهو أسنة وكناس ذاك الخشْفِ وهو عرين [1]
هل يدْنيَنِّى منه أجردُ سابح مرحٌ وجائلة النسوع أمُونُ
ومهند فيـه الفِرندُ كأنه درله خَلْفَ الغرار كمين
عضب المضارب مقفر من أعين لكنه من أنفس مسكون
قد كان رشح حديده أجلاً ، وما صاغت مضاربه الرقاق قيون
وكأنما يلقى الضريبة دونه بأسُ المعز أو اسمه المخزون

ومنها فى وصف الخيل :

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضب ولا البيدُ الحزون حزُونُ
عرفت بساعة سبقها ، لا أنها علقت بها يوم الرهان عيُون
وأجلُّ علم البرق فيها أنها مرت بجانحتيه وهى ظُنونُ
فى الغيث شبه من نداك كأنما مسحتْ على الأنواء منك يمينُ

وهذه القصيدة من قصائده الطنانة ، ولولا طولها لأوردتها كلها ، وفى هـذا الأنموذج دلالة على علو درجته ، وحسن طريقته ، وديوانه كبير ، ولولا ما فيه من الغلو فى المدح والإفراط المفضى إلى الكفر لكان من أحسن الدواوين ، وليس فى المغاربة من هو فى طبقته : لا من متقدميهم ، ولا من متأخريهم ، بل هو أشعرهم على الإطلاق ، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة ، وكانا متعاصرين ، و إن كان فى المتنبى مع أبى تمام من الاختلاف ما فيه .

وما زلت أتطلب تاريخ وفاة ابن هانىء المذكور من التواريخ والمظان التى

(١) فى الديوان (١٣٨ بولاق) « عهدى بذاك الجو »

يطلب منها فلا أجده ، وسألت عنه خلقاً كثيراً من مشايخ هذا الشأن فلم أجده، حتى ظفرت به فى كتاب لطيف لأبى على الحسن بن رَشيق القيروانى سمـاه « قراضة الذهب » فألفيته كما هو مذكور ههنا ، ونقلت مدة عمره من موضع آخر رأيت بعض الأفاضل قد اعتنى بأحواله فجمعها وكتبها فى أول ديوانه ، وذكر مدة العمر ، ولم يذكر تاريخ الوفاة لأنه ما عثر عليه .

ويقال : إن أبا العلاء المعرى كان إذا سمع شعر ابن هانىء يقول : ما أشبهه إلا برَحًى تطحن قروناً ، لأجل القعقعة التى فى ألفاظه ، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ ، ولعمرى ما أنصفه فى هذا المقال ، وما حمله على هـذا إلا فَرْط تعصبه للمتنبى ، وبالجملة فما كان إلا من المحسنين فى النظم .

* * *

(٦٤١)

ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار المَهْرِى ، الأندلسى ، الشلْبِي ، الشاعر المشهور

ذو الوزارتين أبو بكر محمد ابن عمار المهرى الأندلسى الشلبى، الشاعر

هو وابن زيدون القرطبى المذكور فى حرف الهمزة فَرَسَا رهانٍ ، ورضيعا لبان ، فى التصرف فى فنون البيان ، وهما كانا شاعرى ذلك الزمان ، فكانت ملوك الأندلس تخاف من ابن عمار المذكور لبذاءة لسانه ، وبراعة إحسانه ، لاسيما حين اشتمل عليه المعتمد على الله بن عبَّاد صاحب غرب الأندلس الآتى ذكره فى هذا الحرف إن شاء الله تعالى ، وأنهضه جليساً وسميراً ، وقدمه وزيراً ومُشيراً ، ثم خلع عليه خاتم الملك ووجهه أميراً ، وكان قد أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، فتبعته المواكب والمضارب ، والنجائب والجنائب ، والكتائب والجنود ، وضُربت خلفه الطبول ، ونشرت على رأسه الرايات والبنود ،

فملك مدينة تُدْمير ، وأصبح راقى منبر وسرير ، مع ما كان فيه من عدم السياسة وسوء التدبير ، ثم وثب على مالك رِقِّه ، ومستوجب شكره ومستحقه ، فبادر إلى عقوقه وبخس حقه ، فتحيل المعتمد عليه ، وسدد سهام المكايد إليه ، حتى حصل فى قبضته قنيصاً ، وأصبح لا يجد له مَحيصاً ، إلى أن قتله المعتمد فى قصره ليلا بيده ، وأمر من أنزله فى مَلْحَدِه ، وذلك فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، بمدينة إشبيلية .

وكانت ولادته فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وقصته مشهورة ، ولما قتله المعتمد رثاه صاحبه أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الأندلسى المُرْسِى بقوله من جملة قصيدة [من الكامل] :

عجباً له أبكيه ملء مدامعى وأقول لا شَلَّتْ يمينُ القاتل

وقال أبو النصر الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان : لقد رأيت عظمى ساقى ابن عمار قد أخرجا بعد سنين من حفر حُفر بجانب القصر وأساودهما بهما ملتفة ، ولينتهما مشتفة ، ما فغرت أفواههما ، ولا حل التواؤهما ، فرمق الناس العبر ، وصدق المكذب الخبر .

يعنى بالأساود القيود .

ومن مشاهير قصائد ابن عمار المذكور قوله [من الكامل] :

أدر الزجاجةَ فالنسيم قد انبرَى

والنجم قد صَرَف العنان عن السُّرَى

والصبحُ قد أهدَى لنا كافورَهُ لما استردّ الليلُ منا العنبرا

ومن مديحها ، وهى فى المعتمد بن عباد :

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ونحاه لا يَرِدُون حتى يصدُرَا

أندَى على الأكباد من قطر الندى

وألذ فى الأجفان من سِنَةِ الكَرَى

قداح زند المجد لا ينفك من ... نار الوغى إلا إلى نار القرَى

وهى طويلة فائقة.

ومن جيد شعره أيضا القصيدة الميمية، وهى أيضاً فى المعتمد بن عباد، وأولها [من الطويل]:

على، وإلا ما بـكاءُ الغمائم ... وفىَّ، وإلافيم نَوْحُ الحمـائم

ومنها أيضاً فى وصف وطنه:

كساها الحْيَا بردَ الشباب، فانها ... بلاد بها حَلَّ الشبـابُ تمـائمى

ذكرت بها عَهْدَ الصبا فـكأنما ... قَدَحْتُ بنار الشوق بين الحيازم

ليالىَ لا ألوى على رُشْد لائم ... عنانى، ولا أثنيه عن غى هائم

أنال سهادى من عيون نواعس ... وأجنى عَذَابى من غصون نواعم

وليل لنـا بالسد بين معـاطف ... من النهر ينساب انسيابَ الأراقم

تمرُّ علينـا ثم عنـا كأنهـا ... حواسدُ تمشى بيننـا بالنمـائم

بحيث اتخذنا الرَّوْض صار يزورنا ... هداياه فى أيدى الرياح النواسم

وبتنا ولا واشٍ يحسّ كأنمـا ... حللنا مكانَ السر من صدر كاتم

ومن مديحها:

ملوكٌ مُنَاخُ العز فى عرَصَاتهم ... ومثْوَى المعالى بين تلك المعالم

همُ البيت ما غير الظُّبَا لبنائه ... بأسٌ ولا غير القَنَا بدعائم

إذا قصر الروعُ الخطانهضَتْ بهم ... طوالُ العَوَالى فى طوال المعاصم

وأيدٍ أبتْ من أن تؤوب ولم تفز ... بجز النواصى أو بجز الغلاصم

ندامى الوغى يجرُون بالموت كأسها ... إذا رجعت أسيافهم بالجماجم

هُناك القنا مجرورة من حفائظ ... وثَمَّ الظبـا مهزوزة من عزائم

إذا ركبوا فانظره أول طاعن ... وإن نزلوا فارصده آخر طاعم

وهى أيضا طويلة طنانة .

ومن جملة ذنوبه عند المعتمد بن عباد ما بلغه عنه من هجائه وهجاء أبيه المعتضد فى بيتين ، هما كانا من أكبر أسباب قتله [1]، وهما [من البسيط] :

مما يقبح عندى ذكر أندلس　　سماع معتضد فيها ومعتمد

أسماء مملكة فى غير موضعها　　كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

ومحاسن ابن عمار كثيرة .

والمَهْرى — بفتح الميم ، وسكون الهاء ، و بعدها راء — هذه النسبة إلى مَهْرة بن حَيْدان بن إلحاف بن قضاعة ، وهى قبيلة كبيرة ، ينسب إليها خلق كثير .

والشِّلْبى — بكسر الشين المعجمة ، وسكون اللام ، و بعدها باء موحدة — هذه النسبة إلى شِلْبَ ، وهى مدينة بالأندلس على ساحل البحر .

وتُدْمير — بضم التاء المثناة من فوقها ، وسكون الدال المهملة ، وكسر الميم ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، و بعدها راء — وهى مدينة مُرْسية ، وكان المعتمد ابن عباد قد سير إليها أبا بكر بن عمار المذكور نائبا عنه ، فعَصَى بها ، ولم يزل المعتمد يحتال عليه حتى وقع فى قبضته ، وقتله بيده كما تقدم أولا ، وشهرة هذه الواقعة تغنى عن الإطالة فى تفصيلها .

وذكر عماد الدين الأصفهانى الكاتب فى كتاب «الخريدة» فى ترجمة ابن عمار المذكور: وقتله المعتمد ، وكان أقوى الأسباب لقتله أنه هجاه بشعر ذكر فيه أم بنيه المعروفة بالرميكية ، وهى أبيات منها [من المتقارب] :

تخيرتَهَا من بنات الهجان　　رميكية لا تساوى عِقَالاَ

فجاءت بكل قصير الذراع　　لئيم التجارب عما وخالا

---

(١) نسب المقري (النفح ١ / ١٠١ بولاق) هذين البيتين إلى ابن رشيق القيرواني ، وروى صدر أولهما « مما يزهدني فى أرض أندلس »

قلت : وهـذه الرميكية كانت سُرِّية المعتمد ، اشتراها من رميك بن الحجاج ، فنسبت إليه ، وكان قد اشتراها فى أيام أبيه المعتضد ، فأفرط فى الميل إليها ، وغلبت عليه ، واسمها اعتماد ، فاختار لنفسه لقبا يناسب اسمها ، هو المعتمد ، وتوفيت بأغمات قبل المعتمد بأيام ، ولم ترقأ له عبرة ، ولا فارقته حسرة ، حتى قضى نحبه أسفا وحزنا ، وهى التى أغرت المعتمد على قتل ابن عمار ، لـكونه هجاها ، وقيل : إن هذا الشعر ليس لابن عمار ، و إنما نسبته إليه ، لـكى توغر صدر المعتمد عليه ، والله أعلم .

* * *

(٦٤٢)

أبو بكر محمد ابن باجـة (ابن الصائغ) التـجيبى الأندلسى السرقسطى الفيلسوف

أبو بكر محمد بن باجه التُّجيبى ، الأندلسى ، السَّرَقُسْطِى ، المعروف بابن الصائغ ، الفيلسوف ، الشاعر المشهور

ذكره أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد بن خاقان القيسى ، صاحب قلائد العقيان فى كتابه ، ونسبه إلى التعطيل ومذهب الحكماء والفلاسفة ، وانحلال العقيدة وقال فى حقه فى كتابه الذى سماه « مطمح الأنفس » ما مثاله : نظر فى كتاب التعاليم ، وفـكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم ، ونبذه من وراء ظهره ثانى عِطفه ، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واقتصر على الهيئة ، وأنـكر أن يكون إلى الله فيئة[1] ، وحكم الكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فهو يعتقد أن الزمان دور ، وأن الانسان نبات أو نور ، حمامه تمامه ، واختطافه قطافه ، قد مُحِيَ الإيمان من قلبه فما له فيه رسم ، ونسى الرحمن لسانه فما يمر عليه له

(١) الفيئة : الرجوع ، فاء يفىء : رجع يرجع .

اسم . ولقد بالغ ابن خاقان فى أمره ، وجاوز الحد فيما وصفه به من هذه الاعتقادات الفاسدة ، والله أعلم بكُنْه حاله ، وَأورد له مقاطيع من الشعر ، فمن ذلك قوله [من الطويل] :

أسكانَ نعمان الأراك تيقنوا ... بأنكُمُ فى ربع قلبى سكان

ودوموا على حفظ الوداد فطالما ... بلينا بأقوام إذا استؤمنوا خانوا

سلوا الليل عنى مذ تناءت دياركم

هل اكتحلَتْ بالغمض لِى فيه أجفانُ

وهل جَرَّدَتْ أسيافَ برقٍ سماؤكم

فكانت لها إلا جفونى أجفانُ

وكان قد أنشدنى هذه الأبيات بعضُ أشياخ المغاربة الفضلاء بمدينة حلب منسوبة إلى ابن الصائغ المذكور، ثم وجدتها بعد ذلك بعينها فى ديوان أبى الفتيان محمد بن حيوس الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، فبقيت شاكا فيما أنشدنى ذلك الشيخ ، وقلت : لعله وهم فى نسبتها إلى ابن الصائغ ، إلى أن وجدتها فى كتابه : « مطمح الأنفس » أيضا منسوبة إلى ابن الصائغ المذكور ، وَالله تعالى أعلم لمن هى منهما .

وله أيضا [من الكامل] :

ضربوا القباب على أقاحة روضة ... خطر النسيم بها ففاح عبيرا

وتركت قلبي سار بين حمولهم ... دامى الكلوم يسوق تلك العِيرَا

هلا سألت أسيرهم هل عندهم ... عانٍ يفك ولو سألت غيورا

لا والذى جعل الغصون معَاطفاً ... لهم وصاغ الأقحوان ثغورا

مامر بى ريح الصبا من بعدهم ... إلا شهقت له فعاد سعيرا

ولما حضرته الوفاة كان ينشد [من الطويل] :

أقول لنفسى حين قابلها الردى فراعت فراراً منه يسرى إلى يمنى:
قفى تحملى بعضَ الذى تكرهينه فقدطالما اعتدت الفرار إلى الأهنى

وتوفى فى شهر رمضان المعظم ، سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وقيل : سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، مسموما فى باذنجان ، بمدينة فاس ، رحمه الله تعالى !.

وباجّة : بالباء الموحدة ، و بعد الألف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة. وهى : الفضة بلغة الفرنج بالمغرب.

والتُّجِيبى ـ بضم التاء المثناة من فوقها وفتحها ، و كسر الجيم ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، و بعدها باء موحدة ـ هذه النسبة إلى تجيب ، وهى أُم عدى وسعد ابنى أشرس بن شبيب بن السكون ، نسب ولدها إليها ، وهى تجيب بنت ثو بان بن سليم بن مذحج.

والسَّرَقُسْطِى ـ بفتح السين المهملة والراء ، وضم القاف ، وسكون السين المهملة ، و بعدها طاء مهملة ـ هذه النسبة إلى سَرَقُسْطَة ، وهى مدينة بالأندلس خرج منها جماعة من العلماء ، واستولى عليها الفرنج سنة اثنتى عشرة وخمسمائة.

***

(٦٤٣)

أبو عبد الله محمد بن غالب الرفاء ، الأندلسى ، الرصافى ،
الشاعر المشهور

أبو عبد الله محمد بن غالب الرفاءالاندلسى الرصافى الشاعر

له أشعار ظريفة ، ومقاصد فى النَّظْمُ لطيفة ، وشعره سائر فى الآفاق ، ومن أشهر شعره أبياته التى نظمها فى غلام صنعتُـه النسج ، فأجاد فيها كل الإجادة ، وهى [من البسيط] :

قالوا وقد أكثروا فى حبه عَذَلِى — لو لم تَهِمْ بمذال القـدر مبتذل
فقلت لو كان أمرى فى الصبابة لى — لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لى
أحببته حَبَبِىّ الثغر عاطره — حلو اللمى ساحر الأجفان والمقل
غُزَيِّلاً لم تزل فى الغزل جائلة — بنانه جولانَ الفكر فى الغزل
جذْلانَ يلعب بالمحواك أنمله — على السدى لعب الأيام بالدول
جَذْباً بكفيه أوفحصا بأخمصه — تخبُّطَ الظبى فى أشراك مُحْتَبِلِ

وله غير هذا المقطوع أشياء رائقـة ، فمن ذلك قوله فى غلام يبل عينيه بريقه ، ويظهر أنه يبكى وليس بباك [من الطويل] :

عذيرىَ من جذْلانَ يبكى كآبة — وأضلـعه مما يحـاوله صِفْرُ
يبلُّ ماقى زهرتيه بريقـه — ويحكى البكى عمداً كما ابتسم الزهرُ
ويوهمُ أنّ الدّمع بلّ جفونهُ — وهل عُصِرَت يوما من النرجس الخمر

وله أيضاً [من الكامل] :

ومهفهفٍ كالغصن إلا أنهُ — تتحيرُ الألبابُ عندَ لقائهِ
أضحى ينامُ وقدْ تكلل خدهُ — عرقا ، فقلت الوردُ رش بمـائهِ

وتوفى فى شهر رمضان ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، بمدينة مَالَقَةَ ، رحمه الله تعالى !

والرصَافى — بضم الراء ، وفتح الصاد المهملة ، و بعد الألف فاء — هذه النسبة إلى الرُّصافة ، وهى : بليدة صغيرة بالأندلس، عند بَلَنْسِيَة ، و بالأندلس أيضاً بلدة أخرى صغيرة اسمها الرصافة ، وهى عند قرطبة ، أنشأها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموى ، أول ملوك الأندلس من بنى أُمية ، و يعرف بالداخل ، لأنه دخل إلى الأندلس من بلاد الشام خوفاً من أبى جعفر المنصور العباسى ، وقصته مشهورة ، فلما دخلها ملكها ، و بويع له بقرطبة يوم عيد الأضحى ، سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وعمره يومئذ خمس وعشرون سنة ، و بنى هذه الرصافة ، وسماها برصافة جده هشام بن عبد الملك ابن مروان ، وهى بلدة مشهورة بالشام ، كذا قاله ياقوت الحموى الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، فى كتابه المسمى بـ « المشترك وضعاً ، المختلف صنعاً » وذكر أن الرصافة اسم تسع مواضع ، وعددها ، ولو لا خوف التطويل لذكرتها ، غير أنه لم يذكر رصافة بلَنْسِيَة ، وَبهذه الرصافة تكون عشرة مواضع ، والله تعالى أعلم .

***

(٦٤٤)

أبو بكر محمد ابن عبد الملك ابن أبي زهر الإيادي الأندلسي الإشبيلي الشاعر

أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زُهْر بن أبي مروان عبدالملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زُهْر، الإيادى، الأندلسى، الإشبيلى

كان من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء، نالوا المراتب العلية، وتقدموا عند الملوك، ونفذت أوامرهم.

قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية فى كتابه المسمى «المطرب، من أشعار أهل المغرب»: وكان شيخنا أبو بكر — يعنى ابن زُهْر المذكور — بمكان من اللغة مكين، ومورد من الطب عذب مَعين، كان يحفظ شعر ذى الرمة، وهو ثلث لغة العرب مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب، مع سمو النسب، وكثرة الأموال والنشب، صحبته زماناً طويلا، واستفدت منه أدباً جليلا، وأنشدنى من شعره [من الكامل]:

وموسَّدين على الأكف خدودَهم   قد غالهم نومُ الصباح وغالنى
ما زلت أسقيهم وأشرب فَضْلهم   حتى سكرت ونالهم ما نالنى
والخمر تعلم حين تأخذ ثارها   أنى أملْتُ إناءها فأمالنى

ثم قال: سألته عن مولده، فقال: ولدت سنة سبع وخمسمائة، وبلغتنى وفاته فى آخر سنة خمس وتسعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى! انتهى كلام ابن دحية.

قلت أنا: وقد ألم ابن زُهْر المذكور فى هذه الأبيات، بقول الرئيس أبى غالب عبيد الله بن هبة الله بن صاعد، وهو [من الكامل]:

عقَرتهُمُ مشمولة لوسالمت   شُرّابها ما سميت بعُقَار

ذكرت حقائدها القديمة إذغدت ... صرعى تداس بأرجل العصار

لانت لهم حتى انتشوا وتمكنت ... منهم ، وصاحت فيهم بالثار

ومن المنسوب إليه أيضاً فى كتاب جالينوس الحكيم المسمى «حيلة البرء» — وهو من أجل كتبهم وأكبرها — قوله [من الخفيف] :

حيلة البرء صنفت لعليل ... يترجى الحياة أو لعليله

فاذا جاءت المنية قالت : ... حيلة البرء ليس فى البرء حيله

ومن شعر ابن زهر أيضاً يتشوق إلى ولد له صغير [من المتقارب] :

ولى واحد مثل فرخ القطا ... صغير تخلف قلبى لديه

نأت عنه دارى فيا وحشتا ... لذاك الشخيص وذاك الوجيه

تشوقنى وتشوقته ... فيبكى على وأبكى عليه

لقد تعب الشوق ما بيننا ... فمنه إلى ومنى إليه

وله وقد شاخ وغلب عليه الشيب [من البسيط] :

إنى نظرت إلى المرآة إذ جليت ... فأنكرت مقلتاى كل ما رأتا

رأيت فيها شييخاً لست أعرفه ... وكنت أعهده من قبل ذاك فتى

فقلت : أين الذى بالأمس كان هنا ... متى ترحل عن هذا المكان متى ؟

فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة : ... إن الذى أنكرته مقلتاك أتى

كانت سليمى تنادى يا أخى وقد ... صارت سليمى تنادى اليوم يا أبتا

والبيت الأخير من هذه الأبيات ينظر إلى قول الأخطل الشاعر المشهور [من الكامل]

وإذا دعونك عمهن فإنه ... نسب يزيدك عندهن خبالا

وإذا دعونك يا أخى فإنه ... أدنى وأقرب خلة ووصالا

وأوصى أنه إذا مات يكتب على قبره هذه الأبيات ، وفيها إشارة إلى طبه ومعالجته للناس ، وهى [من المتقارب] :

تأمل بحقك يا واقفاً ولاحِظْ مكاناً دُفعنا إليه
تُرابُ الضريح على وجنتى كأنىَ لم أمش يوماً عليه
أداوى الأنام حذار المنون وهاأناقدصرت رَهْناً لديه

وهذه المقاطيع إنما أخذتها من أفواه العلماء منسوبة إلى ابن زُهْر المذكور ، والله أعلم بصحتها ، والعهدة عليهم فى نقلها .

وقال ابن دحية أيضاً فى حقه : والذى انفرد به شيخنا ، وانقادت لتخيله طباعه ، وصارت النبهاء فيه خولَهُ وأتباعه ، الموشحات ، وهى زبدة الشعر ونخبته ، وخلاصة جوهره وصفوته ، وهى من الفنون التى أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق ، وأورد له موشحاً حسنا

وقال فى حق جده أبى العلاء زُهْر : إنه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه ، وتوفى ممتحنا بعلة بين كتفيه سنة خمس وعشرين وخمسمائة بمدينة قرطبة .

ثم قال فى حق جد أبيه عبد الملك : إنه رحل إلى المشرق ، وبه طَبَّبَ زمانا طويلا ، وتولى رياسة الطب ببغداد ، ثم بمصر ، ثم بالقيروان . ثم استوطن مدينة دَانِيَةَ ، وطار ذكره فيها ، إلى أقطار الأندلس والمغرب ، واشتهر بالتقدم فى علم الطب حتى بذ أهل زمانه ، ومات بمدينة دانية .

ثم قال فى حق جد جده محمد بن مروان : إنه كان عالما بالرأى ، حافظاً للأدب ، فقيها حاذقا بالفتوى ، مقدما فى الشورى ، متفننا فى الفنون ، رسيا فاضلا ، جمع الرواية والدراية ، وتوفى بطلبيرة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، حدث عنه جماعة من العلماء الأندلسيين ، ووصفوه بالدين والفضل

والجود والبذل ، رحمه الله تعالى !.

وقد تقدم الكلام على الإيادى ، وعلى طلبيرة ، فلا حاجة إلى الإعادة.

وزُهْر : بضم الزاى ، وسكون الهاء ، و بعدها راء.

وذكر عماد الدين الكاتب فى كتاب « الخريدة » لأبى الطيب بن البزاز فى بعض بنى زُهْر قوله [من مخلع البسيط]:

قل للوَبَا أنت وابن زهر   جاوزتما الحد فى النكايه
ترفقاً بالورى قليلا   فواحد منكما كفايه

ثم وجدت هذين البيتين لأبى بكر بن أحمد بن محمد الأبيض ، وأنه توفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وكنيته أبو زيد ، ولم يذكر اسمه ، رحمه الله تعالى ! والله أعلم.

***

(٦٤٥)

صفى الدولة أبو الفتيان محمد ابن سلطان (ابن حيوس) الغنوى الشاعر

أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حَيُّوس بن محمد بن المرتضى ابن محمد بن الهيثم بن عدى بن عثمان ، الغنوى ، الملقب بصفى الدولة ، الشاعر المشهور

كان يدعى بالأمير ، لأن أباه كان من أمراء المغرب ، وهو أحد الشعراء الشاميين المحسنين ، ومن فحولهم المجيدين ، له ديوان شعر كبير ، لقى جماعة من الملوك والأكابر ومدحهم وأخذ جوائزهم ، وكان منقطعاً إلى بنى مِرْدَاس ، أصحاب حلب . ذكر الجوهرى فى الصحاح فى فصل (ردس) « المرداس : حجر يرمى به فى البئر ليعلم أفيها ماء أم لا ، و به سمى الرجل » وله فيهم القصائد الأنيقة وقصته مشهورة مع الأمير جلال الدولة وصمصامها أبى المظفر نصر بن

محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس الكلابى صاحب حلب ، فانه كان قد مدح أباه محمود بن نصر فأجازه ألف دينار ، فلما مات وقام مقامه ولده نصر المذكور قصده ابن حَيُّوس المذكور بقصيدته الرائية يمدحه بها و يعزيه عن أبيه ، وهى [من الطويل] :

كفى الدين عزاً ما قضاه لك الدهر ... فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر

ومنها :

ثمانيـة لم تفـترق مـذ جمعتهـا ... فلا افترقت ما ذَبَّ عن ناظر شفْرُ
يقينك والتقوى ، وجُودك والغنى ، ... ولفظك والمعنى ، وعزمك والنصر

ويذكر فيها وفاة أبيه وتوليته الأمر [من] بعده بقوله :

فصبراً على حكم الزمان الذى سطا ... على أنه لولاك لم يكن الصبر
غـزانا ببؤسُى لا يماثلهـا الأسى ... تقارن نعمى لا يقوم بها الشكر

ومنها :

تباعدت عنـكم حُرفةً لا زهادة ... وسرت إليكم حين مسَّنىَ الضر
فلاقيت ظل الأمن ما عنه حاجز ... يصد ، وبابَ العز ما دونه سِتْرُ
وطال مقامى فى إسـار جميلكم ... فدامت معاليكم ودام لى الأسر
وأنجز لى ربُّ السموات وعده الـ ... ـكريم بأن العسر يتبعه اليسر
فجاد ابن نصر لى بألف تَصَرَّمَتْ ... و إنى عليم أن سـيخلفها نصر
لقد كنتَ مأمولا ترجَّى لمثلهـا ... فكيف وطوعاً أمرك النهى والأمر
وما بى إلى الإلحاح والحرص حاجة ... وقد عرف المبتاع وانفصل السعر
و إنى بآمالى لديك مُخَيِّم ... وكم فى الورى ثاوٍ وآماله سَفْرُ
وعندك ما أبغى بقولى تصنعاً ... بأيسر ما توليه يستعبد الحر

فلما فرغ من إنشادها قال الأمير نصر : والله لو قال عوض قوله « سيخلفها نصر » سيضعفها نصر ، لأضعفها له ، وأعطاه ألف دينار فى طبق فضة .

وكان قد اجتمع على باب الأمير نصر المذكور جماعة من الشعراء، وامتدحوه وتأخرت صلته عنهم، ونزل بعد ذلك الأمير نصر إلى دار بولص النصرانى، وكانت له عادة بغشيان منزله ، وعقد مجلس الأنس عنده ، فجاءت الشعراء الذين تأخرت جوائزهم إلى باب بولص ، وفيهم أبو الحسن أحمد بن محمد بن الدويدة المعرى الشاعر المعروف ، فكتبوا ورقة فيها أبيات اتفقوا على نظمها ، وقيل : بل نظمها ابن الدويدة المذكور ، وسيروا الورقة إليه ، والأبيات المذكورة هى [من الطويل] :

على بابك المحروس منا عصابةٌ ... مفاليس، فانظر فى أمور المفاليس

وقد قنعَتْ منك الجماعة كلها ... بعشر الذى أعطيته لابن حيُّوسِ

وما بيننا هذا التفاوت كله ... ولكن سعيد لا يقاس بمنحوس

فلما وقف عليها الأمير نصر أطلق لهم مائة دينار ، فقال : والله لو قالوا « بمثل الذى أعطيته لابن حيوس » لأعطيتهم مثله .

وذكر العماد الكاتب فى « الخريدة » أن هذه الأبيات لأبى سالم عبد الله بن الحسن أحمد بن محمد بن الدويدة وأنه كان يعرف بالواقى ، والله أعلم .

وكان الأمير نصر سخياً واسع العطاء ، ملك حلب بعد وفاة أبيه محمود فى سنة سبع وستين وأربعمائة ، ولم تطل مدته حتى ثار عليه جماعة من جنده فقتلوه فى ثانى شوال سنة ثمان وستين وأربعمائة .

وقد تقدم ذكر جد أبيه صالح بن مرداس فى حرف الصاد .

وقدم ابن حيُّوس حلب فى شوال سنة أربع وستين وأربعمائة ، وداره بها هى الدار المعروفة الآن بالأمير علم الدين سليمان بن حيدر .

ومن محاسن شعر ابن حَيُّوس القصيدة اللامية التى مدح بها أبا الفضائل سابق ابن محمود وهو أخو الأمير نصر المذكور ، ومن مديحها قوله [من الخفيف] :

طالما قلت للمُسائل عنكم | واعتمادى هداية الضُّلاَّل
إن ترد علم حالهم عن يقين | فالْقَهُمْ فى مكارم أو نزال
تَلْقَ بيض الوجوه سود مُثار النقع خضر الأكناف حمر النصال

وما أحسن هذا التقسيم الذى اتفق له ، وقد ألم فيه بقول أبى سعيد محمد بن محمد بن الحسين الرستمى الشاعر المشهور من جملة قصيدة يمدح بها الصاحبَ بن عبَّاد المقدم ذكره فى حرف الهمزة ، وهى من فاخر الشعر ، وذلك قوله [من الطويل] :

من النفر العالينَ فى السِّلْم والوغى | وأهل المعالى والعوالى وآلها
إذا نزلوا اخضر الثرى من نزولهم | وإن نازلوا احْمَرَّ القنا من نزالها

هذا والله الشعر الخالص الذى لا يشوبه شىء من الحشو .

وكان ابن حَيُّوس المذكور قد أثرى وحصلت له نعمة ضخمة من بنى مرداس ، فبنى داره بمدينة حلب ، وكتب على بابها من شعره [من السريع] :

دار بنيناها وعشنا بها | فى نعمة من آل مرداس
قوم نفوا بؤْسِى ولم يتركوا | علىَّ للأيام من باس
قل لبنى الدنيا ألا هكذا | فليصنع الناس مع الناس

وقيل : إن هذه الأبيات للأمير الجليل أبى الفتح الحسن بن عبد الله بن عبد الجبار الحلبى ، المعروف بابن أبى حصينة ، وهو الصحيح .

ومن غرر قصائده السائرة قوله [من الكامل] :

هو ذاك ربع المالكية فاربَعِ واسأل مَصيفاً عافياً عن مربع
واستسق للدِّمَنِ الخوالى بالحمى غرالسحائب واعتذرعَنْ أدمعى
فلقد فَنِـينَ أمام دان هاجر فى قربه، ووراء ناء مزمِـعِ
لو يخبر الركبان عنى حدثوا عن مقلة عَبْرَى وقلب موجَعِ
رُدِّي لنا زمن الكثيب فانه زمن متى يرجِـعْ وصالك يرجع
لو كنت عالمة بأدنى لوعتى لرددت أقصى نيلك المسترجع
بل لو قنعت من الغرام بمظهر عن مضمر بين الحشى والأضلع
أعتبت إثر تعتب، ووصلت غب تجنب، و بذلت بعد تمنع
ولو اننى أنصفت نفسى صنتها عن أن أكون كطالب لم يَنْجَعِ

ومنها :

إنى دعوت ندى الكرام فلم يجب فلأشكرن نَدًى أجاب وما دعِى
ومن العجائب، والعجائب جمة، شكر بطىء عن ندى متسرع

ومن شعره أيضاً [من الطويل] :

قفوا فى الفلا حيث انتهيتم تذمما ولا تقتفوا مَنْ جار لما تحَكَّما
أرى كل مُعْوَجّ المودة يصطفى لديكم و يلقى حتفه من تقوما
فان كنتمُ لم تعدلوا إذ حكمتمُ فلا تعدلوا عن مذهب قدتقدما
حنى الناس من قبل القِسِيّ لتقْتَنى وثُقِّفَ ميَّادُ القنا ليقوما
وما ظلم الشيب المـلم بلمتى وإن بزّنى حظى من الظَّلْم واللَّمَى
ومحبوبة عزت وعز نظيرها
وإن أشبهت فى الحسن والعفة الدُّمَى
أعنّفُ فيهاصبوة قطُّ ما ارعوت وأسأل عنها معلماً ما تكلما

سلى عنه تُخْبِرْ عن يقين دُموعهُ　　ولا تسألى عن قلبه أين يممـا
فقد كان لى عوناً على الصبر برهة　　وفارقنى أيامَ فارقتم الحمى
فراق قضى أن لا تأسِّىَ بعدأن　　مضى منجداً صبرى وأوغلتُ متهما
وفجعة بين مثل صرعة مالك　　ويقبح بى أن لا أكون متمما(١)
خليلى إن لم تسعدانى على الأسى　　فما أنتما منى ولا أنا منكما
وحسَّنتما لى سلوة وتناسيا　　ولم تذكرا كيف السبيل إليهما
سقى الله أيام الصبا كل هاطل　　مُلِثٍّ إذا ما الغيث أنجم أنجما
وعيشاً سرقناه برغم رقيبنا　　وقد مل من طول السهاد فهوما

وهى طويلة .

وحكى الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق قال : أنشدنا أبو القاسم على ابن إبراهيم العلوى من حفظه سنة سبع وخمسمائة قال : دخل الأمير أبو الفتيان ابن حَيُّوس بيتى ونحن بحلب ، وقال : اروِ عنى هذا البيت وهو فى شرف الدولة مسلم بن قريش [من الكامل] :

أنت الذى نفق الثناء بسـوقه　　وجرى الندى بعروقه قبل الدم

وهذا البيت فى غاية المدح

وقد تقدم فى ترجمة أبى بكر بن الصائغ الأندلسى ذكر الأبيات النونية ، وكونها منسوبة إليه ، وهى موجودة فى ديوان ابن حيوس المذكور ، والله أعلم بجلية الحال فيها .

وكان أبو عبد الله أحمد بن محمد بن الخياط الشاعر المقدم ذكره قد وصل إلى حلب فى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ، وبها يومئذ أبو الفتيان المذكور فكتب إليه ابن الخياط المذكور قوله [من الكامل] :

لم يبق عندى ما يباع بدرهم　　وكفاك منى منظرى عن مخبرى
إلا بقية ماء وجه صنتها　　عن أن تباع وأين أين المشترى

---

(١) أراد متمم بن نويرة الذى ظل يبكى أخاه مالك بن نويرة

فقال : لو قال « وأنت نعم المشترى » لكان أحسن .

وكانت ولادة ابن حَيُّوس يوم السبت سلخ صفر سنة أربع وتسعين وثلثمائة بدمشق .

وتوفى فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ، بحلب .

وهو شيخ أبى عبد الله أحمد بن محمد المعروف بابن الخياط الشاعر المشهور، وقد تقدم ذكر ذلك فى ترجمته .

وحَيُّوس : بفتح الحاء المهملة ، والياء المشددة المثناة من تحتها المضمومة ، والواو الساكنة ، وبعدها سين مهملة .

وفى شعراء المغاربة ابن حَبُوس مثل الأول ، ولكن بالباء الموحدة المخففة ، وإنما ذكرته لئلا يتصحف على كثير من الناس بابن حيوس .

ورأيت خلقاً كثيراً يتوهمون أن المغربى يقال له ابن حَيُّوس أيضاً ، وهو غلط ، والصواب ما ذكرته ، والله تعالى أعلم .

* * *

(٦٤٦)

أبو المظفر محمد ابن أحمد الامـوى الأبيوردى الشاعر

أبو المظفر محمد بن أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى العباس أحمد بن إسحاق
ابن أبى العباس الإمام محمد بن إسحاق ، وهو أبوالفتيان ، بن أبى الحسن
ابن مرفوعة بن منصور بن معاوية الأصغر بن محمد بن أبى العباس
عثمان بن عنبسة الأصغر بن عنبسة بن الأشرف بن عثمان بن عنبسة
بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن
عبد مناف ، القرشى ، الأموى ، المعاوى ،
الأبيوردى ، الشاعر المشهور

كان من الأدباء المشاهير ، راوية ، نسابة ، شاعراً ، ظريفاً ، قسم ديوان شعره إلى أقسام : منها العراقيات ، ومنها النجديات ، ومنها الوجديات ، وغير ذلك ، وكان من أخبر الناس بعلم الأنساب ، نقل عنه الحفاظ الأثبات الثقات ، وقد روى عنه الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى فى غير موضع من كتابه الذى وضعه فى الأنساب ، وقال فى حقه فى ترجمة المعاوى : إنه كان أوحد زمانه فى علوم عديدة ، وقد أوردنا عنه فى غير موضع من هذا الكتاب أشياء ، وكان يكتب فى نسبه المعاوى ، وأليق ما وصف به بيت أبى العلاء المعرى [من الطويل] :

وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُه   لآت بما لم تستطعه الأوائل

انتهى كلام المقدسى بعد أن ذكر له أبياتا يفتخر بها لا حاجة بنا إليها .

وذكره أبو زكريا ابن منده فى تاريخ أصبهان فقال : فخر الرؤساء ، أفضل الدولة ، حسن الاعتقاد ، جميل الطريقة ، متصرف فى فنون جمة من العلوم ، عارف بأنساب العرب ، فصيح الكلام ، حاذق فى تصنيف الكتب ، وافر العقل ، كامل الفضل ، فريد دهره ، وحيد عصره ، وكان فيه تيه وكبر وعزة نفس ، وكان إذا صلى يقول : اللهم ملكنى مشارق الأرض ومغاربها .

وذكره الحافظ ابن السمعانى فى كتاب الأنساب فى ترجمة المعاوى ، وفى كتاب الذيل ، وقال : كان ينسب إلى معاوية الأصغر المقدم ذكره فى عمود نسبه وأخبر عنه أنه كتب رقعة إلى أمير المؤمنين المستظهر بالله وعلى رأسها « الخادم المعاوى » ، فكره الخليفة مكاتبته بذلك ، فكشط الميم من المعاوى ، ورد الرقعة إليه ، فصار « الخادم العاوى »

ومن محاسن شعره قوله [من الطويل] :

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت ... لنا رغبة أو رهبة عظماؤها
فلما انتهت أيامنا علقت بنا ... شدائد أيام قليل رخاؤها
وكان إلينا فى السرور ابتسامها ... فصار علينا فى الهموم بكاؤها
وصرنا نلاقى النائبات بأوجه ... رقاق الحواشى كاد يقطر ماؤها
إذا ماهممنا أن نبوح بما جنت ... علينا الليالى لم يدعنا حياؤها

وقوله أيضاً [من الطويل] :

تنكر لى دهرى ولم يدر أننى
أعز وأحداث الزمان تهون
فبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه
وبت أريه الصبر كيف يكون

ومن شعره أيضاً [من الطويل] :

وهيفاء لا أصغى إلى من يلومنى ... عليها ويغرينى بها أن أعيبها
أميل باحدى مقلتى إذا بدت ... إليها ، وبالأخرى أراعى رقيبها
وقد غفل الواشى ولم يدر أننى ... أخذت لعينى من سليمى نصيبها

وله فى أبى النجيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار المراغى ، وكان من أفراد زمانه فضلا ، وكان يستعمل فى شعره لزوم مالا يلزم ، وكانت إقامته بثغر بحيرة ، وله [من السريع] :

شعر المراغى وحوشيتم كعقله أسْلَمُهُ أسْقَمُهْ

يلزم ما ليس له لازما لكنه يترك ما يلزمه

وله أيضاً [من الكامل] :

أأميم إن لم تسمحى بزيارة بخلا فجودى بالخيال الطارق

والله لا تمحو الوشاة ولا النوى سِمَةً لحبك فى ضمير العاشق

قلت : ومن معنى البيت الأول أخذ سبط ابن التعاويذى الآتى ذكره قولَه من جملة قصيدة [من الكامل] :

إن كنت ليلى بالسلام بخيلة فمرى الخيالَ يمر بى فيسلم

وعِدِى بوصلك فى المنام لعلها ترجو لقاءك مقلتى فتوهم

ومن نجدياته [من الطويل] :

نزلنا بنعمان الأراك وللندى سَقِيطٌ به ابتلَّتْ علينا المطارف

فبت أعانى الوجد والركب نوم

وقد أخذت منى السرى والتنائف

وأذكر خوداً إن دعانى إلى النوى

هواها أجابته الدموع الذوارف

لها فى مغانى ذلك الشِّعْب منزل

لئن أنكرته العين فالقلب عارف

وقفت به والدمع أكثره دم كأنىَ من جفنى بنعمان راعف

ومن معانيه البديعة قوله من جملة أبيات فى وصف الخمرة [من المديد] :

ولها من ذاتها طرب فلهذا يرقص الحبب

وله من جملة قصيدة [من الكامل] :

فسد الزمان فكل من صاحبته راج ينافق أو مُداجٍ حاشى

وإذا اختبرتَهمُ ظفرت بباطن متجهِّمٍ وبظاهر هشاش

وَهذا المعنى مأخوذ من قول أبى تمام الطائى من جملة قصيدة أجاد فيها كل الإجادة [من الكامل] :

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجِلْهُ فى هذا السواد الأعظم

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً متبسما عن باطن متجهم

وقد خرجنا عن المقصود بالتطويل .

وله تصانيف كثيرة مفيدة : منها « تاريخ أبيورد » وكتاب « المختلف والمؤتلف » و « طبقات كل فن » و « مااختلف وائتلف ، فى أنساب العرب » وله فى اللغة مصنفات كثيرة لم يسبق إلى مثلها.

وكان حسن السيرة ، جميل الأثر ، له معاملة صحيحة .

وكانت وفاة الأبيوردى المذكور بين الظهر والعصر يوم الخميس العشرين من ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، بأصبهان ، مسموماً ، وصلى عليه فى الجامع العتيق بها ، رحمه الله تعالى !.

والأبيوردى — بفتح الهمزة ، وكسر الباء الموحدة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح الواو ، وسكون الراء ، وبعدها دال مهملة — هذه النسبة إلى أبيورد ، ويقال لها : أباورد ، وباورد ، وهى بُلَيدة بخراسان خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم ، وذكر السمعانى فى كتاب الأنساب فى ترجمة الكُوفَنى — بضم الكاف ، وسكون الواو ، وفتح القاف ، وبعدها نون — هذه النسبة إلى كُوفَن ، وهى بُلَيدة صغيرة على ستة فراسخ من أبيورد بخراسان بناها عبد الله بن طاهر ، وخرج منها جماعة من المحدثين والفضلاء ، منهم الأديب أبو المظفر محمد بن أحمد الكوفَنى المعروف بالأديب الأبيوردى ، والله أعلم .

* * *

(٦٤٧)

أبو الحسن محمد ابن علي (ابن أبي الصقر) الواسطي الشافعي

أبو الحسن محمد بن علي بن الحسن بن عمر ، المعروف بابن أبي الصقر ، الواسطي

كان فقيها شافعي المذهب ، تفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ، رحمه الله تعالى ! لكنه غلب عليه الأدب والشعر ، واشتهر به ، ورأيت له بدمشق ديوان شعر في الخزانة الأشرفية التي في الجامع المشهور في تربته شمال الكلاسة التي هي زيادة في الجامع الكبير ، والديوان مجلد واحد ، وكان شديد التعصب للطائفة الشافعية ، وظهر ذلك في قصائده المعروفة بالشافعية ، وله في الشيخ أبي إسحاق الشيرازي مراث، وكان كاملا في البلاغة والفضل وحسن الخط وجودة الشعر

وذكره أبو المعالي الخطيري المقدم ذكره في كتاب « زينة الدهر » وأورد له عدة مقاطيع ، فمن ذلك قوله [من الخفيف] :

كل رزق ترجوه من مخلوق ... يعتريه ضربٌ من التَّعْويق
وأنا قائل وأستغفر اللـه مقال المجاز لا التحقيق
لست أرضى من فعل إبليس شيئاً
غير ترك السجود للمخلوق

وذكر له أيضاً أبياتا ، وهي سائرة [من البسيط] :

وحرمة الود مالي عنكمُ عوض ... لأنني ليس لي في غيركم غرض
أشتاقكم و بوُدّي لو يواصلني ... لكم خيال ولكن لست أغتمض
وقد شرطت على قوم صحبتهمُ ... بأن قلبي لكم من دونهم فرضوا
ومن حديثي بكم قالوا به مرض ... فقلت لا زال عني ذلك المرض

وكان قد طَعَنَ في السن وضعف عن المشي ، فصار يتوكأ على عصا ، فقال في ذلك [من الخفيف] :

كل أمر إذا تفكرت فيه ... وتأملته رأيت ظريفا
كنت أمشي على اثنتين قويا ... صرت أمشي على ثلاث ضعيفا

قلت : ولى أبيات أشير فيها إلى مثل هذا المعنى ، وهي [من مجزوء الرجز]:

يا سائلى عن حالتى ... خذ شرحها ملخصاً
قد صرت بعد قوة ... تنقص أصلاد الحصى
أمشى على ثلاثة ... أجْوَدُ ما فيها العصا

وله أيضاً فى اعتذاره عن ترك القيام لأصدقائه [من الخفيف] :

علة سُمِّيَتْ ثمانين عاما ... منعتنى للأَصدقاء القياما
فاذا عُمِّرُوا تمهد عذرى ... عندهم بالذى ذكرت وقاما

وله فى كبره أيضاً [من المتقارب] :

ولما إلى عشر تسعين صرتُ ... ومالى إليها أبٌ قبل صارا
تيقنت أنى مستبدِلٌ ... بدارىَ داراً وبالجار جارا
فتبت إلى الله مما مضى ... ولن يُدْخِلَ اللهُ من تاب نارا

وله أيضاً وقد حضر عزاء صغير وهو يرتعش من الكبر، فتغامز عليه الحاضرون كيف مات الصغير و بقى هذا الشيخ فى هذا السن ؟ فقال [من المتقارب] :

إذا دخل الشيخ بين الشباب ... عزاء وقد مات طفل صغير
رأيت اعتراضاً على الله إذ ... توفى الصغير وعاش الكبير
فقل لابن شهر وقل لابن ألف ... وما بين ذلك : هذا المصير

وله أيضاً فى ذلك [من مجزوء الرجز] :

ابن أبى الصقر افتكر ... وقال فى حال الكبر
والله لولا بَوْلَةٌ ... تحرقنى وقت السحر
لما ذكرت أن لى ... ما بين فخذى ذكر

وله كل مقطوع مليح .

وكانت ولادته ليلة الاثنين ثالث عشر ذى القعدة سنة تسع وأر بعمائة .

وتوفى يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وأر بعمائة ، بواسط ، رحمه الله تعالى !

* * *

(٦٤٨)

الشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح بن حمزة بن عيسى بن محمد بن عبدالله بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، المعروف بابن الهَبَّارية ، الملقب نظام الدين ، البغدادى ، الشاعر المشهور

نظام الدين أبو يعلي محمد ابن محمد (ابن الهبارية) البغدادى الشاعر

كان شاعراً مجيداً ، حسن المقاصد ، لكنه كان خبيث اللسان ، كثير الهجاء والوقوع فى الناس ، لا يكاد يسلم من لسانه أحد .

وذكره العماد الكاتب فى « الخريدة » فقال : نظام الملك ، غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسبك فى قالب ابن الحجاج ، وسلك أسلوبه ، وفاقه فى الخلاعة ، والنظيفُ من شعره فى غاية الحسن ، انتهى كلام العماد الكاتب .

وكان ملازما لخدمة نظام الملك أبى على الحسن بن على بن إسحاق وزير السلطان ألب أرسلان وولده ملك شاه ، وقد تقدم ذكره فى حرف الحاء ، وله عليه الإنعام التام والإدرار المستمر ، وكان بين نظام الملك وتاج الملك أبى الغنائم بن دارست شحناء ومنافسة ، كما جرت العادة بمثله بين الرؤساء ، فقال أبو الغنائم لابن الهبارية : إن هجوت نظام الملك فلك عندى كذا ، وأجزل له الوعد ، فقال : كيف أهجو شخصاً لا أرى فى بيتى شيئاً إلا من نعمته ؟ فقال : لا بد من هذا ، فعمل هذه الأبيات [من مجزوء الكامل] :

لا غرو إن ملك ابن إسحاق وساعده القَدَرْ
وصَفَتْ له الدنيا وخُصّ أبو الغنائم بالكدر
فالدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

فبلغت الأبيات نظام الملك ، فقال : هو يشير إلى المثل السائر على ألسنة الناس ، وهو قولهم « أهل طوس بقر » وكان نظام الملك من طوس ، وأغضى عنه ، ولم يقابله على ذلك ، بل زاد فى إفضاله عليه ، فكانت هذه معدودة من مكارم أخلاق نظام الملك وسعة حلمه ، وكان مع فرط إحسان نظام الملك إليه يقاسى من غلمانه وأتباعه شر مقاساة لما يعلمونه من بذاءة لسانه ، فلما اشتد عليه الحال منهم كتب إلى نظام الملك [من السريع] :

لذ بنظام الحضرتين الرضى إذا بنو الدهر تحاشوك
واجلُ به عن ناظريك القَذَى إذا لئام القوم أعشوك
واصبر على وحشة غلمانه لا بد للورد من الشوك

وذكر العماد الأصبهانى فى « الخريدة » أنه أنفذ هذه الأبيات مع ولده إلى نقيب النقباء على بن طراد الزينبى ، ولقب نظام الحضرتين أبو الحسن .

ومن شعره أيضاً [من مجزوء الكامل] :

وجهى يرق عن السؤا ل ، وحالتى منه أرق
دقت معانى الفضل فىَّ وحِرْفَتِى منه أدق

ومن معانيه الغريبة قوله فى الرد على من يقول إن السفر به يبلغ الوطر [من الكامل] :

قالوا أقمت وما رزقت ، وإنما بالسير يكتسب اللبيب ويُرْزَقُ
فأجبتهم ما كل سير نافعاً الحظ ينفع لا الرحيل المقلق

كم سفرة نفعت ، وأخرى مثلها ضرت ، ويكتسب الحريص ويُخفِق
كالبدر يكتسب الكمال بسيره وبه إذا حرم السعادة يمحق

وله أيضاً [من الكامل] :

خذ جملة البلوى ودع تفصيلها ما فى البرية كلها إنسان
وإذا البيادق فى الدَّسوتِ تفرزنت فالرأى أن يتبيدق الفِرْزَانُ (١)

وله على سبيل الخلاعة والمجون [من الوافر] :

يقول أبو سعيد إذ رآنى عفيفاً منذ عام ما شربت
على يد أى شيخ تبت قل لى فقلت على يد الإفلاس تبت

وله فى المعنى أيضاً [من البسيط] :

رأيت فى النوم عرسى وهى ممسكة أذنى ، وفى كفها شىء من الأدَمِ
معوَّج الشكل مسودٌّ به نقط لكن أسفله فى هيئة القدم
حتى تنبهت مُحمَرَّ القَذَال ، ولو طال المنام على الشيخ الأديب عمى

وله أيضاً [من الكامل] :

المجلس التاجىُّ — دام جماله وجلاله وكماله ! — بستان
والعبد فيه حَمامةٌ تغريدُها فيه المديح ، وطَوْقُها الإحسان

وله أيضاً [من مجزوء الرجز] :

دعوه ما شاء فعل سيان صد أو وصل
فكم رأينا قبلها أسود من ذا ونصل

ومحاسن شعره كثيرة .

وله كتاب « نتائج الفطنة ، فى نظم كليلة ودمنة » وقد سبق فى ترجمة البارع الدباس (٢) فى حرف الحاء ذكر الأبيات الدالية وجوابها ، وما دار بينهما ، وسيأتى

---

(١) هذا البيت على اصطلاح الشطرنج ، والبيدق والفرزان اسمان لقطعتين منه ، والفرزان : هو الوزير ، والبيدق : هو الذى يقال له العسكرى .
(٢) أنظر الترجمة رقم (١٨٨ ج ١ ص ٤٣٥)

فى ترجمة الوزير فخر الدولة محمد بن جهير واقعة لطيفة جرت له مع السابق الشاعر المعرى ، إن شاء الله تعالى ، وديوان شعره كبير يدخل فى أربع مجلدات ، ومن غرائب نظمه كتاب « الصادح والباغم » نظمه على أسلوب كليلة ودمنة ، وهو أراجيز ، وعدد بيوته ألفا بيت ، نظمها فى عشر سنين ، ولقد أجاد فيه كل الإجادة ، وسير الكتاب على يد ولده [إلى] (١) الأمير أبى الحسن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدى صاحب الحلة المقدم ذكره فى حرف الصاد ، وختمه بهذه الأبيات ، وهى [من مجزوء الرجز] :

هذا كتاب حَسَنُ ... تَحار فيه الفطن

أنفقت فيه مدَّهْ ... عشر سنين عدَّهْ

منذ سمعت باسمكا ... وضعته برسمكا

بيوته ألفان ... جميعها معانى

لو ظل كل شاعر ... وناظم وناثر

كعمر نوح التالد ... فى نظم بيت واحد

مِنْ مثله لمَا قدر ... ما كل من قال شعر

أنفذته مع ولدى ... بل مهجتى وكبدى

وأنت عند ظنى ... أهلٌ لكل مَنِّ

وقد طوى إليكا ... توكلا عليكا

مشقة شديده ... وشُقَّةً بعيده

ولو تركت جيت ... سعياً وما ونيت

إن الفخار والعلا ... إرْثُكَ من دون المَلا

فأجزل عطيته ، وأسنى جائزته .

وتوفى ابن الهبارية المذكور بكرمان سنة أربع وخمسمائة ، هكذا قال العماد

(١) كلمة « إلى » ساقطة من الأصول ولا بد منها ، وانظر الترجمة رقم ٢٨١ فى (ج ٢ ص ١٨٢)

الكاتب الأصبهانى فى كتاب « الخريدة » ، بعد أن أقام مدة بأصبهان وخرج إلى كَرْمان وأقام بها إلى آخر عمره ، وقال ابن السمعانى : توفى بعد سنة تسعين وأربعمائة .

والْهَبَّارية — بفتح الهاء ، وتشديد الباء الموحدة ، وبعد الألف راء — هذه النسبة إلى هَبَّار ، وهو جد أبى يَعْلَى المذكور لأمه .

وكرمان — بكسر الكاف ، وقيل بفتحها ، وسكون الراء ، وفتح الميم ، وبعد الألف نون — وهى ولاية كبيرة تشتمل على مدن كبار وصغار ، وخرج منها جماعة من الأعيان ، وهى متصلة بأطراف أعمال خراسان ، ومن جانبها الآخر البحر ، والله أعلم .

* * *

(٦٤٩)

أبو عبدالله محمد ابن نصر (ابن القيسراني) الشاعر

أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر ابن داغر بن عبدالرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد ، المخزومى ، الخالدى ، الحلبى ، الملقب شرف الدين ، المعروف بابن القيسرانى ، هكذا أملى على نسبه بعضُ الإخوان ، الشاعر المشهور

وكان من الشعراء المجيدين ، والأدباء المتفننين ، قرأ الأدب على توفيق بن محمد وأبى عبد الله بن الخياط الشاعر المقدم ذكره ، وكان فاضلا فى الأدب وعلم الهيئة ، سمع بحلب من الخطيب أبى طاهر وهاشم بن أحمد الحلبى وغيره ، وسمع منه الحافظان أبو القاسم بن عساكر وأبو سعيد سفيان بن السمعانى ، وذكراه فى كتابيهما ، وكذلك أبو المعالى الحظيرى ، وذكره فى كتاب الملح أيضاً ، وكان هو وابن منير المذكور فى حرف الهمزة شاعرى الشام فى ذلك العصر ، وجرت بينهما وقائع وماجريات وملح ونوادر ، وكان ابن منير ينسب إلى التحامل على الصحابة رضى الله عنهم ! ويميل للتشيع ، فكتب إليه ابن القيسرانى المذكور وقد بلغه أنه هجاه قوله [من مخلع البسيط] :

ابنَ منير ، هجوتَ منى خيرا أفاد الورى صوَابه

ولم يضق بذاك صدرى فان لى أسوة الصحابه(١)

ومن محاسن شعره قوله [من البسيط] :

كم ليلة بت من كأسى وريقته نشوانَ أمزج سلسالا بسلسال

وبات لا يحتمى عنى مَرَاشفَهُ كأنما ثغره ثغر بلا والى

وظفرت بديوانه وجميعه بخطه وأنا يومئذ بمدينة حلب ، ونقلت منه أشياء

---

(١) كذا ، وصدر البيت غير متسق الوزن ، ولو قيل « ولن يضيق بذاك صدرى » لاستقام

حسنة رائقة ، فمن ذلك قوله فى مدح خطيب [من مجزوء الرمل] :

شُرِحَ المنبر صدراً لتلقيك رحيباً
أترى ضَمَّ خطيباً منك أم ضُمِّخَ طيباً

وهذا الجناس فى غاية الحسن ، ثم وجدت هذين البيتين لأبى القاسم بن زيد بن أبى الفتح أحمد بن عبيد بن فضل الموازينى الحلبى المعروف أبوه بالماهر ، وأن ابن القيسرانى المذكور أنشدهما للخطيب بن هاشم لما تولى خطابة حلب فنسبا إليه ، ورأيت الأول على هذه الصورة ، وهو :

قد زها المنبر عُجْبـاً إذ ترقيت خطيبا

وله فى الغزل [من مجزوء الكامل] :

بالسفح من لبنان لى قمر منازله القلوب
حملت تحيته الشما لُ فردَّها عنى الجنوب
فَرْدُ الصفات غريبها والحسن فى الدنيا غريب
لم أنس ليـلة قال لى لما رأى جسدى يذوب :
بالله قل لى يافتى ماتشتكى؟ قلت: الطبيب

وله أيضاً [من مجزوء الوافر]:

وقالوا لاح عارضه وما ولت ولايته
فقلت : عذار من أهوى أمارتـه إمارتـه

ومن معانيه البديعة قوله من جملة قصيدة رائقة [من البسيط] :

هذا الذى سلب العشاق نومهم
أما ترى عيْنَهُ ملأى من الوَسَنِ

وهذا البيت ينظر إلى قول المتنبى فى مدح سيف الدولة بن حمدان [من الطويل]:

نهبتَ من الأعمارِ ما لو حويتهُ

لهنئتَ فى الدُّنيا بأنك خالد[1]

وكان كثير الإعجاب بقوله من جملة قصيدة [من الطويل] :

وأهوى الذى أهوَى لهُ البدرُ ساجداً

ألستَ ترَى فى وَجههِ أثر التربِ

وحضر مرة فى سماع ، وَكان المغنى حسن الغناء ، فلما طربت الجماعة وتواجدوا قال [من البسيط] :

والله لو أنصف العشاق أنفسهم

فدوك منها بما عزوا وما صانوا

ما أنت حين تغنى فى مجالسهم

إلا نسيم الصبا والقوم أغصان

وأنشدنى صاحبنا الفخر إسحاق بن المختص الإربلى لنفسه دو بيت ، وأخبرنى أنه كان فى مجلس وفيه جماعة من أرباب القلوب ، فلما طابت الجماعة كان هناك فرش منضودة على كراسى فتساقطت ، قال : فعملت فى الحال :

داعى النغمات حلقة الشوق طرق

وَهْناً فأَجابَتهُ شُجونٌ وحُرَقْ

لو أسمعَ صخرةً لخرت طربا

من نغمته فكيف قطن وخرق

---

(١) المحفوظ فى عجز هذا البيت * لهنئت الدنيا بأنك خالد *

وكانت ولادة ابن القيسرانى المذكور سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، بعكا .

وتوفى ليلة الأربعاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، بمدينة دمشق .

ودفن بمقبرة باب الفراديس ، رحمه الله تعالى !

والخالدى - بفتح الخاء المعجمة ، و بعد الألف لام ، ثم دال مهملة - هذه النسبة إلى خالد بن الوليد المخزومى ، رضى الله عنه ! هكذا يزعم أهل بيته ، وأكثر المؤرخين وعلماء الأنساب يقولون : إن خالداً رضى الله عنه لم يتصل نسبه ، بل انقطع منذ زمان ، والله أعلم .

القَيْسَرانى - بفتح القاف ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح السين المهملة والراء ، و بعد الألف نون - هذه النسبة إلى قَيْسَارِية ، وهى بليدة بالشام على ساحل البحر .

***

(٦٥٠)

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ابن الكيزانى) الشاعر

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت بن إبراهيم بن فرج، الكنانى، المقرى، الأديب، الشافعى، الحامى، المصرى، المعروف بابن الكيزانى، الشاعر المشهور

كان زاهداً ورعا، وبمصر طائفة ينسبون إليه، ويعتقدون مقالته، وله ديوان شعر أكثره فى الزهد، ولم أقف عليه، وسمعت له بيتاً واحداً أعجبنى، وهو [من الخفيف]:

و إذا لاق بالمحب غرام ... فكذا الوصل بالحبيب يليق

وفى شعره أشياء حسنة.

وتوفى ليلة الثلاثاء التاسع من شهر ربيع الأول، وقيل: بل توفى فى المحرم، سنة اثنتين وستين وخمسمائة، بمصر، ودفن بالقرب من قبة الإمام الشافعى، رضى الله عنه! بالقرافة الصغرى، ثم نقل إلى سفح المقطم بقرب الحوض المعروف بأم مودود، وقبره مشهور هناك يزار، وزرته مراراً، رحمه الله تعالى!

والكيزانى – بكسر الكاف، وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح الزاى، و بعد الألف نون – هذه النسبة إلى عمل الكيزان و بيعها، وكان بعض أجداده يصنع ذلك، والله أعلم.

***

(٦٥١)

أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله المولد ، المعروف بالأبله ، البغدادى ، الشاعر المشهور

أبو عبد الله محمد ابن بختيار (المعروف بالأبله) الشاعر

أحد المتأخرين المجيدين ، جمع فى شعره بين الصناعة والرقة ، وله ديوان شعر بأيدى الناس كثير الوجود .

وذكره العماد الكاتب الأصبهانى فى كتابه الذى سماه « الخريدة » فقال: هو شاب ظريف ، يتزيا بزى الجند ، رقيق أسلوب الشعر ، حلو الصناعة ، رائق البراعة ، عذب اللفظ ، أرق من النسيم السَّحَرى ، وأحسن من الوشى التسترى ، وكل ما ينظمه — ولو أنه يسير — يسير ، والمغنون يغنون برائقات أبياته عن أصوات القدماء ، فهم يتهافتون على نظمه المطرب ، تهافت الطير الحوم على عذب المشرب ، ثم قال : أنشدنى لنفسه من قصيدة سنة خمس وخمسين وخمسمائة ببغداد [من المديد]:

زار من أحيـا بزورته والدجى فى لون طـرته
قمـر يثنى معاطفـه بانة فى طى بردتـه
بت أستجلى المـدام على غِـرةِ الواشى وغـرته
يا لها من زورة قصرت فأماتت طول جفوته
آه من خصر له ، وعلى رَشْفة من بَرْد ريقته
ياله فى الحسن من صنم كلنا من جاهليته

ومن أبياته السائرة قوله من جملة قصيدة أنيقة [من البسيط]:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومن رقيق شعره قوله فى الغزل من قصيدة [من الكامل] :

دعنى أكابد لوعتى وأعانى أين الطليق من الأسير العانى

آليت لا أدع الملام يغرنى من بعد ما أخذ الغرام عنانى
أولا تروض العاذلات وقد أرى روضات حسن فى خدود حسان
والبدر يلتمس السلو ، ولم أزل حى الصبابة ميت السلوان
يا برق إن يجفُ العقيق فطالما أغنته عنك سحائب الأجفان
هيهات أن أنسى وربك وقفة فيها أغير بها على الغيران
ومهفهف ساجى اللحاظ حفظته فأضاعنى ، وأطعته فعصانى
يُصمِى قلوب العاشقين بمقلة طرف السنان وطرفها سيان
خنث الدلال بشعره ، وبثغره يوم الوداع أضلنى وهَدانى
ما قام معتدلا يهز قوامه إلا وبانت خَجْلة فى البانِ
يا أهل نعمان إلى وجناتكم تعزى الشقائق لا إلى نعمان
ما يفعل المران من يد قُلَّب فى القلب فعل مرارة الهجران

وهى قصيدة طويلة ، ومديحها جيد ، وجميع شعره على هذا الأسلوب والنسق وتخالصه من الغزل إلى المدح فى نهاية الحسن ، وقَلَّ من يلحقه فيها ، فمن ذلك قوله من قصيدة أولها [من الطويل] :

جنيت جنى الورد من ذلك الخد
وعانقت غصن البان من ذلك القد

فلما انتهى إلى مخلصها قال :

لئن وقرت يوماً بسمعى ملامة لهند فلا عِفْتُ الملامة فى هند
ولا وجدت عينى السبيل إلى البكى ولا بت فى أسر الصبابة والوجد(١)
وبحت بما ألقى ، ورحت مقابلا سماحة مجد الدين بالكفر والجحد

---

(١) فى ب « ولا وجدت عينى سبيلا إلى البكى » .

وقوله من قصيدة أخرى [من الوافر] :

فلا وجد سوى وجدى بليلى ولا مجد كمجد ابن الدوامى

وقوله فى قصيدة أخرى [من الطويل] :

فأقسم إنى فى الصبابة واحد وإن كمال الدين فى الجود واحد

إلى غير ذلك .

وكانت وفاته — على ما قاله ابن الجوزى فى تاريخه — فى جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين ، وقال غيره : سنة ثمانين وخمسمائة ببغداد ، ودفن فى باب أبزر محاذى الناحية ، رحمه الله تعالى !

والأبله : معروف فلا حاجة إلى ضبطه ، وإنما قيل له أبله لأنه كان فيه طرف بله ، وقيل : لأنه كان فى غاية الذكاء ، وهو من أسماء الأضداد ، كما قيل للأسود : كافور .

وكان له ميل إلى بعض أبناء البغاددة ، فعبر على باب داره فوجد خلوة ، فكتب على الباب ، قال العماد الكاتب : وأنشدنيه [من السريع] :

دارك يابدر الدجى جنة بغيرها نفسى ما تلهو

وقد روى فى خبر أن أكثر أهل الجنة البله ، ولابن التعاويذى المذكور بعده فيه هجاء أفحش فيه ، فأضربت عن ذكره مع أنها أبيات جيدة ، والله أعلم .

***

(٦٥٢)

أبو الفتح محمد ابن عبيد الله (ابن التعاويذى) الشاعر الكاتب

أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله ، الكاتب ، المعروف بابن التعاويذى ، الشاعر المشهور

كان أبوه مولى لابن المظفر واسمه تشتكين ، فسماه ولده المذكور عبيد الله ، وهو سبط أبي محمد المبارك بن المبارك بن على بن نصر السراج الجوهرى الزاهد المعروف بابن التعاويذى ، وإنما نسب إلى جده المذكور لأنه كفله صغيراً ، ونشأ فى حجره فنسب إليه .

وكان أبو الفتح المذكور شاعر وقته ، لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ، ورقة المعانى ودقتها ، وهو فى غاية الحسن والحلاوة ، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتى سنة من يضاهيه ، ولا يؤاخذنى من يقف على هذا الفصل فان ذلك يختلف بميل الطباع ، ولله در القائل [من الطويل] :

* وللناس فيما يعشقون مذاهب *

وكان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد ، وعمى فى آخر عمره سنة تسع وسبعين ، وله فى عَمَاه أشعار كثيرة ، يرثى بها عينيه ، ويندب زمان شبابه وتصرفه ، وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل العمى ، وعمل له خطبة ظريفة ، ورتبه أربعة فصول ، وكل ماجدده بعد ذلك سماه «الزيادات» فلهذا يوجد ديوانه فى بعض النسخ خالياً من الزيادات ، وفى بعضها مكملا بالزيادات ، ولما عمى كان باسمه راتب فى الديوان ، فالتمس أن ينقل باسم أولاده ، فلما نقل كتب إلى الإمام الناصر لدين الله هذه الأبيات يسأله أن يجدد له راتبا مدة حياته ، وهى [من المنسرح] :

خليفة الله أنت بالدين والدنيـــا وأمر الإسلام مضطلع
أنت لما سنه الأئمة أعـــلام الهدى مُقْتَفٍ ومتبع
قد عدم العدم فى زمانك والـــجور معاً والخلاف والبدع

فالناس فى الشرع والسياسة والإحسان والعدل كلهم شَرَعُ
يا ملكا يردع الحوادث والأيام عن ظلمها فترتدع
ومن له أنعم مكررة لنا مصيف منها ومرتبع
أرضى قد أجدبت وليس لمن أجدب يوماً سواك مُنْتَجَعُ
ولى عيال لا در درهم قد أكلوا دَهْرَهم وما شبعوا
[لو وسمونى وسم العبيد وبا عونى بسوق الأعراب ماقنعوا](١)
إذا رأونى ذا ثروة جلسوا حولى ومالوا إلى واجتمعوا
وطالما قَطَّعوا حبالىَ إعراضاً إذا لم تكن معى قطع
يمشون حولى شتّى كأنهم عقارب كلما سعوا لسعوا
فمنهم الطفل والمراهق والرضيع يحبو والكهل واليفَعُ
لا قارح منهم أومل أن ينالنى خيره ولا جَذَعُ
لهم حلوق تُفْضِى إلى معد تحمل فى الأكل فوق ما تسع
من كل رحب المعاء أجوفه نارى الحشا لا يمسه الشبع
لا يحسن المضغ فهو يترك فى فيه بلا كلفة ويبتلع
ولى حديث يلهو ويعجب من يوسع لى خُلْقَه فيستمع
نقلت رسمى جهلا إلى ولد لست بهم ما حييت أنتفع
نظرت فى نفعهم وما أنا فى اجتلاب نفع الأولاد مبتدع
وقلت هذا بعدى يكون لكم فما أطاعوا أمرى ولا سمعوا
واختلسوه منى فما تركوا عينى عليه ولا يدى تقع
فبئس والله ما صنعت فأضررت بنفسى و بئس ماصنعوا
فان أردتم أمراً يزول به الخصام من بيننا ويرتفع

---

١) هذا البيت ساقط من ب .

فاستأنفوا لى رسما أعود على ... ضنك معاشى به ، فيتسع
و إن زعمتم أنى أتيت بها ... خديعة فالكريم ينخدع
حاشا لرسم الكريم ينسخ من ... نسخ دواوينكم فينقطع
فوقعوا لى بما سألت فقد ... أطمعت نفسى واستحكم الطمع
ولا تطيلوا معى فلست ولو ... دفعتمونى بالراح أندفع
وحلفونى أن لا تعود يدى ... ترفع فى نَقْله ولا تضع

فما ألطف ما توصل به إلى بلوغ مقصوده بهذه الأبيات التى لو مرت بالجماد لاستمالته وعطفته ، فأنعم عليه أمير المؤمنين بالراتب ، فكان يصله بصلة من الخشكار الردىء ، فكتب إلى فخر الدين صاحب المخزن أبياتا يشكو من ذلك أولها [من الكامل] :

مولاى فخر الدين أنت إلى الندى ... عَجِل وغيرك محجم متباطى

ومنها :

حاشاك ترضى أن تكون جرايتى ... كجراية البواب والنفاط
سوداء مثل الليل سعر قفيزها ... ما بين طسوج إلى قيراط
أخنت على الحادثات وأفرطت ... فىَّ الرداءة أيما إفراط
قد كدرت جسمى المضىء ، وغيرت ... طبعى السليم ، وعفنت أخلاطى
فتولَّ تدبيرى فقد أنهيت ما ... أشكوه من مرضى إلى بقراط

وكان وزير الديوان العزيز شرف الدين أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد بن إبراهيم التميمى وزير الإمام المستنجد بالله المعروف بابن البلدى ، وقد عزل أرباب الدواوين وحبسهم وحاسبهم وصادرهم وعاقبهم ونكل بهم ، فعمل سبط ابن التعاويذى المذكور فى ذلك قوله [من الكامل] :

يا قاصداً بغداد حِدْ عن بلدة ... للجور فيها زخرة وعباب
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد ... سدت على الراجى بها الأبواب
ليست، وما بعد الزمان، كعهدها ... أيام يعمر رَبْعَهَا الطلاب
ومحلها الرؤساء من ساداتها ... والجلة الأدباء والكتاب
والدهر فى أولى حداثته وللـ ... أيام فيها نضرة وشباب
والفضل فى سوق الكرام يباع بالـ ... غالى من الأثمان ، والآدابُ
بادت وأهلوها معاً ، فبيوتهم ... ببقاء مولانا الوزير خَرَابُ
وارتهمُ الأجداث أحياء تُهَا ... لُ جنادل من فوقهم وتراب
فهم خلود فى محابسهم يصب ... عليهم بعد العذاب عذاب
لا يرتجى منها إيابهم ، وهل ... يرجى لسكان القبور إياب
والناس قد قامت قيامتهم ، فلا ... أنساب بينهم ولا أسباب
والمرء يسلمه أبوه وعرسه ... ويخونه القرباء والأحباب
لا شافعاً تغنى شفاعته ، ولا ... جان له مما جناه مَتَابُ
شهدوا معادهم فعاد مصدقا ... مَنْ كان قبلُ ببعثه يرتاب
حشر وميزان وعرض جرائد ... وصحائف منشورة وحساب
وبها زبانية تبث على الورى ... وسلاسل ومقامع وعذاب
ما فاتهم من كل ما وعدوا به ... فى الحشر إلا راحم وهّابُ

وله فى الوزير المذكور [من مخلع البسيط] :

يارب أشكو إليك ضراً ... أنت على كَشْفه قدير
أليس صِرْنا إلى زمان ... فيه أبو جعفر وزير

وذكر محب الدين المعروف بابن النجار فى تاريخ بغداد أن الإمام المستنجد

بالله توفى يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الآخرسنة ست وخمسمائة ، وتولى بعده ولده المستضىء بأمر الله ، وجلس للمبايعة يوم الثلاثاء ثانى اليوم المذكور ، فخرج أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج المذكور عقيب هذا ومعه ابن السبتى فقال له : إن الخليفة قد تقدم أن يستوفى القصاص من هـذا ، وأشار إلى الوزير ، فأخذ وسُحب وقطع أنفـه ويده ورجله ، ثم ضربت رقبته ، وجمع فى ترس وألقى فى دجلة ، وكان هذا الوزير قد قطع أنف أم السبتى المذكور ويد أخيه ورجله فى أيام ولايته ، فاقتص منه فى هذا اليوم ، نعوذ بالله من سوء العاقبة ! .

وكتب سبط ابن التعاويذى إلى عضد الدين أبى الفرج محمد بن المظفر ، وهو من أبناء مواليه ، يطلب منه شعيراً لفرسه ، وهو الذى فعل بالوزير ابن البلدى تلك الفعلة المذكورة قبل هذا [من مخلع البسيط] :

مولاى يا من له أيادٍ ليس إلى عَدِّها سبيل
ومن إذا قلَّتِ العطايا فجوده وافـر جزيل
إليه إن جارت الليالى نأوى ، وفى ظله نقيل
إن كُمَيْتِي العتيق سِنًّا له حديث معى يطول
كان شرائى له فضولا فاعجب لما يجلب الفضولُ
ظننته حامـلا لرحلى فخاب ظنى به الجميل
ولم أخَلْ للشقاء أنى لثقل أعبائه حَمولُ
فإن أكن عالياً عليه فهو على كاهلى ثقيل
أزحل كالبوم ليس فيه خـير كثير ولا قليل
ليس له مَخْبر حميـد ولا له منظر جميـل
وهو حَرونٌ وفيه بطء ولا جواد ولا ذلول
لا كَفَل معجب لراء إذا رآه ولا تليـل

مقصر إن مشى ، ولكن   إن حضر الأكل مستطيل
يعجبه التبن والشعير الـ   ـمغسول والقتّ والقصيل
إذا رأى عكرشاً رأيت   اللعاب من شدقه يسيل
وليس فيه من المعاني   شيء سوى أنه أكول
فهب له اليوم ما تسنّى   وهبه من بعض ما تنيل
ولا تقل إن ذا قليل   فالجل فى عينه جليل

و إنما أوردت هذه المقاطيع من شعره لكونها مستحجلة ، وأما قصائده المشتملة على النسيب والمدح فانها فى غاية الحسن ، وصنف كتاباً سماه «الحجبة والحجاب» يدخل فى مقدار خمس عشرة كراسة ، وأطال الكلام فيه ، وهو قليل الوجود ، وذكر العماد الأصبهانى فى كتاب « الخريدة » أن ابن التعاويذى المذكور كان صاحبه لما كان بالعراق ، فلما انتقل العماد إلى الشام واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين كتب إليه ابن التعاويذى رسالة وقصيدة يطلب منه فروة ، وذكر الرسالة، وهى « وقد كلف مكارمه و إن لم يكن للجود عليها كلفه ، وأتحفه بما وجهه إليه من أمله وهو لعمر الله تحفه ، أهدي فروة دمشقية ، سرية نقية ، يلين لمسها ، ويزين لبسها ، ودباغتها نظيفة ، وخياطتها لطيفة ، طويلة كطوله ، سابغة كأنعمه ، حالية كذكره ، جميلة كفعله ، واسعة كصدره ، نقية كعرضه ، رفيعة كقدره ، موشية كنظمه ونثره، ظاهرها كظاهره ، و باطنها كباطنه ، يتجمل بها اللابس، ويتحلى بها المجالس، وهى لخادمه سربال ، وله — حرس الله مجده — جمال ، يشكره عليها من لم يلبسها ، ويثنى عليه بها من لم يتدرعها ، يذهب خميلة و برها ، ويبقى حميدة أثرها ، ويخلق إهابها وجلدها ، ويتجدد شكرها وحمدها ، وقد نظم أبياتاً ركب فى نظمها الغرر ، وأهدى بها التمر إلى هجر ، إلا أنه قد عرض الطيب على عطاره، ووضع الثوب فى يد بزازه ، وأحل الثناء فى محله ، وجمع بين الفضل وأهله، وهو فى حسنه وخفارة كرمه » ثم ذكر القصيدة التى أولها [من مجزوء الرمل] :

بأبى من ذبت فى الحـ ـب له شوقا وصَبْوَهْ

وهى موجودة بأيدى الناس فى ديوانه .

وكتب العماد جواب القصيدة على هذا الرى أيضاً ، وهما طويلتان .

وَذكر[ه] العماد الكاتب قبل ذكر الرسالة والقصيدة فقال فى حقه : هو شاب ، فيه فضل وآداب ، ورياسة وكياسة ومروة ، وأبوة وفتوة ، جمعنى وإياه صدق العقيدة فى عقد الصداقة ، وقد كملت به أسباب الظرف واللطف واللباقة ، ثم أتى بالرسالة والقصيدة وجوابها ، وهذه الرسالة لم أر مثلها فى بابها ، سوى ما سيأتى فى ترجمة بها الدين بن شداد فى حرف الياء إن شاء الله تعالى ، فان ابن خروف المغربى كتب إليه رسالة بديعة يستجديه فروة مرط .

وكانت ولادته ـ أعنى ابن التعاويذى المذكور ـ فى العاشر من رجب يوم الجمعة سنة تسع عشرة وخمسمائة .

وتوفى فى ثانى شوال سنة أربع ، وقيل : ثلاث وثمانين وخمسمائة ، ببغداد ، ودفن فى باب أبرز ، رحمه الله تعالى !

وقال ابن النجار فى تاريخه : مولده يوم الجمعة ، وتوفى يوم السبت ثامن عشر شوال .

والتعاويذى — بفتح التاء المثناة من فوقها والعين المهملة ، وكسر الواو بعد ألف ، وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة ، ثم ذال معجمة — هذه النسبة إلى كتبة التعاويذ ، وهى الحروز ، واشتهر بها أبو محمد المبارك بن المبارك بن السراج التعاويذى البغدادى الزاهد ، المقدم ذكره فى أول هذه الترجمة ، وكان صالحاً .

ذكره ابن السمعانى فى كتاب الذيل وكتاب الأنساب ، وقال : لعل أباه كان يرقى ويكتب التعاويذ ، وسمع منه ابن السمعانى المذكور ، وقال : سألته عن

مولده ، فقال : ولدت فى سنة ست وتسعين وأر بعمائه بالـكَرْخ

وتوفى فى جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة الشونيزى ، رحمه الله تعالى ! وقال [ابن] السمعانى : أنشدنى أبو محمد المبارك المذكور لنفسه قوله [من مجزوء الـكامل] :

اجعـل همومك واحداً وتخـلَّ عن كُلِّ الهموم

فعسـاك أن تحظى بما يغنيـك عن كل العـلوم

ثم قال ابن التعاويذى : ماقلت من الشعر غير هذين البيتين .

ونشتكين — بضم النون ، وسكون الشين المعجمة ، وكسر التاء المثناة من فوقها والـكاف ، وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة ثم نون — وهو اسم أعجمى تسمى به المماليك ، وقد تقدم فى أول الترجمة ، أنه كان من مماليك أحد بنى المُظَفَّر رئيس الرؤساء ، وله فيهم (١) مدائح بديعة ، وأفرد مدائحهم فى فصل من الفصول الأربعة المرتبة فى ديوانه لـكونهم مواليه ، وكانوا يحسنون إليه ، والله أعلم .

* * *

(١) فى ب « ولهم فيه مدائح — إلخ » محرفا عما أثبتناه

(٦٥٣)

نجم الدين أبو الغنائم محمد ابن على (ابن المعلم) الواسطى الهرثى، الشاعر

أبو الغنائم محمد بن على بن فارس بن على بن عبد الله بن الحسين بن القاسم، المعروف بابن المعلم، الواسطى، الهُرْثى، الملقب نجم الدين، الشاعر المشهور

وكان شاعرا رقيق الشعر، لطيف حاشية الطبع، يكاد شعره يذوب من رقته، وهو أحد من سار شعره، وانتشر ذكره، ونَبُه بالشعر قدره، وحسن به حاله وأمره، وطال فى نَظْم القريض عمره، وساعده على قوله زمانه ودهره، وأكثر القول فى الغزل والمدح وفنون المقاصد، وكان سهل الألفاظ صحيح المعانى يغلب على شعره وصف الشوق والحب وذكر الصبابة والغرام، فعلق بالقلوب، ولطف مكانه عند أكثر الناس ومالوا إليه وحفظوه وتداولوه بينهم، واستشهد به الوعاظ، واستحلاه السامعون.

سمعت [من] جماعة من مشايخ البطائح يقولون: ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء المنتسبون إلى الشيخ أحمد بن الرفاعى المقدم ذكره فى حرف الهمزة، وغنوا بها فى سماعهم وطابوا عليها، فعادت عليه بركة أنفاسهم، ورأيتهم يعتقدون ذلك اعتقاداً لا شك عندهم فيه، و بالجملة فشعره يشبه النوْح، ولا يسمعه مَنْ عنده أدنى هوًى إلا افتتن وهاج غرامه.

وكان بين ابن المعلم المذكور و بين ابن التعاويذى المذكور قبله تنافس، وهجاه ابنُ التعاويذى بأبيات جيمية لا حاجة إلى ذكرها.

ولابن المعلم قصيدة طويلة أولها [من الكامل]:

ردوا على شوارد الأظعان ... ما الدار إن لم تغْنَ من أوطان

ولكم بذاك الجذع من متمنع ... هزَأتْ معاطفُه بغصن البان

أبدى تلونه بأول موعد ... فمَنِ الوفيُّ لنا بوعد ثانى

تمتى اللقاء ودونه من قومه أبناء معركة وأسدُ طِعانِ
نقلوا الرماح وما أظن أكفَّهم خلقت لغير ذوابل المران
وَتقلّدوا بيض السيوف فما ترى في الحى غير مُهنَّدٍ وسِنان
ولئن صددت فمن مراقبة العدا ما الصدُّ عن مَلَلٍ ولا سلوان
يا ساكنى نعمان أين زمانُنا بطُوَيلع يا ساكنى نعمان

وله من أخرى [من الكامل] :

كم قلت إياك العقيق فانه ضَرِيَت جآذره بصيد أسوده
وأردتَ صيد مَهَا الحجاز فلم يسا عدك القضاء فرُحْتَ بعض صيوده

وله من أخرى [من الطويل] :

أجيراننا، إن الدموع التى جرت رخاصاً على أيدى النوى لَغَوالِى
أقيموا على الوادى ولو عمر ساعة كلَوْثِ إزار أو كحلٍّ عقال
فكم ثم لى من وقفة لو شَرَيْتُها بنفسى لم أغبن فكيف بمالى

وله من أخرى [من الكامل] :

قسما بما ضَمَّتْ عليه شفاههم من قرْقفٍ فى لؤلؤ مكنون
إن شارف الحادى العُذَيْبَ لأقضيَن نحبي، ومن لى أن تبر يمينى
لولم يكن آثار ليلى والهوى بتِلاَعِهِ ما رحت كالمجنون

وكان سبب عمل هذه القصيدة أن ابن المعلم المذكور [والأبله] وابن التعاويذى المذكورين قبله لما وقفوا على قصيدة صَرَّدُرّ المقدم ذكره فى حرف العين التى أولها [من الكامل] :

أكذا يُجَازَى ود كل قرين
أم هذه شيم الظِّباء العِين

وهى من نُخَب القصائد أعجبتهم ، فعمل ابن المعلم من وزنها هذه القصيدة وعمل ابن التعاويذى من وزنها قصيدة أبدع منها ، وأرسلها إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى — رحمه الله تعالى ! — وهو بالشام يمدحه بها ، وأولها [من الكامل]:

إن كان دينك فى الصبابة دينى فقِفِ المطىَّ برملتى يَبْرِين

وعمل الأبله قصيدة أخرى ، وأحسنُ الكل قصيدة ابن التعاويذى

وحكى عن ابن المعلم المذكور أنه قال : كنت ببغداد ، فاجتزت يوما بالموضع الذى يجلس فيه أبو الفرج بن الجوزى للوعظ ، فرأيت الخلق مزدحمين ، فسألت بعضهم عن سبب الزحام ، فقال : هذا ابن الجوزى الواعظ جالس ، ولم أكن علمت بجلوسه ، فزاحمت ، وتقدمت حتى شاهدته وسمعت كلامه وهو يعظ حتى قال مستشهداً على بعض إشاراته : ولقد أحسن ابنُ المعلم حيث يقول [من البسيط] :

يزدادُ فى مسمعى تَكْرار ذكركم

طيباً ، ويحسن فى عينى تكرره

فعجبت من اتفاق حضورى واستشهاده بهذا البيت من شعرى ، ولم يعلم بحضورى لا هو ولا غيره من الحاضرين .

وهذا البيت من جملة قصيدة له مشهورة .

وفى وقعة الجمل على البصرة قبل مباشرة الحرب : أرسل على بن أبى طالب رضى الله عنه ابنَ عمه عبد الله بن العباس — رضى الله عنهما ! — إلى طلحة والزبير رضى الله عنهما برسالة يكفهما عن الشروع فى القتال ، ثم قال له : لا تلقين طلحة فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً أنفه يركب الصعب ، ويقول : هو الذلول ، ولكن الق الزبير ، فانه ألين عَريكةً منه ، وقل له : يقول لك ابن خالك : عرفتنى

بالحجاز ، وأنكرتنى بالعراق، فماعدا ممابدا؟ وعلى - رضى الله عنه! - أول من نطق بهذه الكلمة ، فأخذ ابن المعلم المذكور هذا الكلام وقال [من الكامل] :

منحوه بالجذع السلام ، وأعرضوا بالغَوْر عنه ، فما عدا مما بدا

وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة ورسالة نقلها فى كتاب نهج البلاغة

ولابن المعلم فى أثناء قصيدة أيضاً [من البسيط] :

يوهى قُوَى جَلَدى مَنْ لا أبوح به ويستبيح دمى من لا أسميه

قسْماً فما فى لسانى ما يعاتبه ضعفاً ، بلى فى فؤادى ما يقاسيه

ولا حاجة إلى الإطالة بذكر فرائده مع شهرة ديوانه وكثرة وجوده بأيدى الناس .

وكانت ولادته فى ليلة سابع عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة .

وتوفى رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، بالْهُرْث ، رحمه الله تعالى !

والْهُرْثُ — بضم الهاء ، وسكون الراء ، وبعدها ثاء مثلثة — وهى قرية من أعمال نهر جعفر ، بينها وبين واسط نحو عشرة فراسخ ، وكانت وطنه ومسكنه إلى أن توفى بها ، رحمه الله تعالى !

***

(٦٥٤)

موفق الدين
أبو عبد الله محمد
ابن يوسف
الإربلي
البحراني
الشاعر

أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن قائد ، الملقب موفق الدين ، الإربلى أصلا ومنشأ ، البحرانى مولداً ، الشاعر المشهور

كان إماماً مقدماً فى علم العربية ، مفننا فى أنواع الشعر ، ومن أعلم الناس بالعروض والقوافى ، وأحذقهم بنقد الشعر ، وأعرفهم بجيده من رديئه ، وأدقهم نظراً فى اختباره .

واشتغل بشىء من علوم الأوائل ، وحل كتاب إقليدس ، وبدأ ينظم الشعر وهو صبى صغير بالبحرين جرياً على عادة العرب قبل أن ينظر فى الأدب .

وهو شيخ أبى البركات بن المستوفى صاحب تاريخ إربل المقدم ذكره ، وعليه اشتغل بعلوم الشعر ، وبه تخرج ، وقد ذكره فى تاريخه وعدد فضائله ، وقال : كان شيخنا أبو الحرم مكى الماكسينى النحوى ، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى ، يراجعه فى كثير من المسائل المشكلة فى النحو ، وكان يرجع إليه فى أجوبة ما يورد عليه .

وَكان قد رحل إلى شَهْرَزُورَ ، وأقام بها مدة ، ثم رحل إلى دمشق ومدح السلطان صلاح الدين – رحمه الله تعالى ! – بقصيدة طويلة ،وله ديوان شعر جيد ، ورسائل حسنة ، وكان فى الشعر فى طبقة معاصريه ممن تقدم ذكرهم .

ومن شعره قصيدة يمدح بها زين الدين أبا المظفر يوسف بن زين الدين صاحب إربل ، وقد تقدم ذكره فى ترجمة أخيه مظفر الدين فى حرف الكاف وأولها [من الرمل] :

رُبَّ دار بالفضا طال بِلاَهَا ... عكف الركب عليها فبكاها

دَرَسَت إلا بقايا أسطر ... سَمَح الدهر بها ثم محاها

كان لى فيها زمانٌ وانقضى ... فسقى الله زمانى وسقاها

وَقَفَتْ فيها الغوانى وقفة ... ألصقت حر حشاها بثراها

وبكت أطلالها نائبة ... عن جفونى، أحسن الله جزاها

قل لجيران مَوَاثيقهمُ ... كلما أحكمتُهَا رَثَّتْ قواها

كنت مشغوفا بكم إذ كنتم ... شجراً لا يبلغ الطير ذُرَاها

لا تبيت الليلَ إلا حولها ... حرس ترشح بالموت ظُبَاها

وإذا مدت إلى أغصانها ... كفُّ جانٍ قطعت دون جناها

فتراخى الأمر حتى أصبحت ... هَمَلاً يطمع فيها من يراها

تخصب الأرض فلا أقربها ... رائداً إلا إذا عز حماها

لا يرانى الله أرعى روضةً ... سهلة الأكناف من شاء رعاها

وإذا ما طمعٌ أغرى بكم ... عرض اليأس لنفسى فثناها

فصبابات الهوى أولُها ... طمع النفس وهذا منتهاها

لا تظنوا لى إليكم رجعة ... كشف التجريب عن عينى عَمَاها

إن زَيْنَ الدين أولانى يداً ... لم تدع لى رغبة فيما سواها

وهى طويلة أجاد فى مدحها.

وكان أبوه من أهل إربل، وصنعته التجارة، وكان يتردد من إربل إلى البحرين، ويقيم بها مدة لتحصيل اللآلىء من المغاصات أسوة أمثاله من التجار، فاتفق أن ولد له هناك الموفق أبو عبد الله المذكور، ثم انتقل إلى إربل، فنسب

إلى البحرين لهذا السبب .

وله معنى مليح فى غلام اسمه السهم وقد التحى ، وهو [من مخلع البسيط] :

قالوا التحى السهم ُقلت حِصْنٌ ‏ ‏ حاشــاك فالآن لا يطيش

فالسهم لا ينفـذ الرمايا ‏ ‏ إلا إذا كان فيـه ريش

وتوفى ليلة الأحد ثالث شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمـانين وخمسمائة ، بار بل ، ودفن بمقبرة أهله قبلى البَسْت ، رحمه الله تعالى !

والبحرانى ـ بفتح الباء الموحدة ، وسكون الحاء المهملة ، وفتح الراء ، و بعد الألف نون ـ هذه النسبة إلى البحرين المقـدم ذكرها ، وهى بليدة بالقرب من هَجَر ، قال الأزهرى : و إنما سميت البحرين لأن فى ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء ، وَقرى هجر بينها و بين البحر الأخضر عشر فراسخ ، وقدر البحيرة ثلاثة أميال فى مثلها ، ولا يغيض ماؤها ، وهو راكد زُعَاق ، وحدث أبو عبيد عن أبى محمد اليزيدى قال : سألنى المهدى وسأل الـكسائى عن النسبة إلى البحرين وعن الحصنين ، لم قالوا : حصنى ، و بحرانى[1] ؟ فقال الـكسائى: كرهوا أن يقولوا حصنانى لاجتماع النونين ، قال : وقلت أنا : كرهوا أن يقولوا بحرى فتشبه النسبة إلى البحر .

والبَسْــت بفتح الباء الموحدة ، وسكون السين المهملة ، و بعدها تاء مثناة من فوقها ـ واد عريض فى وسط إر بل تجرى فيه مياه السيول فى الشتاء والربيع وفيه شيء كثير من الحجارة الصغار ، والله أعلم .

***

---

(١) يريد أنهم تركوا علامة التثنية فى « حصنى » وأثبتوها فى « بحرانى » مع أن شأنهما واحد ، لأن الـكلمتين من المثنى الذى سمى به ، فما وجه التفرقة ؟

(٦٥٥)

أبو شجاع محمد بن على بن شعيب ، المعروف بابن الدهان ، الملقب فخر الدين ، البغدادى ، الفرضى ، الحاسب ، الأديب

فخر الدين أبو شجاع محمد بن على (ابن الدهان) البغدادى الفرضى الحاسب

هو من أهل بغداد ، وانتقل إلى الموصل ، وصحب جمال الدين الأصبهانى الوزير بها ، ثم تحول إلى خدمة السلطان صلاح الدين ، فولاه ديوان ميّافارقين ، فلم يمش له بها حال مع واليها ، فدخل إلى دمشق ، وأجرى له بها رزق ، ولم يكن كافيا ، وكان يزجى به الوقت ، ثم ارتحل إلى مصر فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ثم عاد منها إلى دمشق ، وجعلها دار إقامة ، وله أوضاع بالجداول وغيرها من الفرائض ، وصنف « غريب الحديث » فى ستة عشر مجلداً لطافا ، ورمز فيه حروفا يستدل بها على أماكن الكلمات المطلوبة منه ، وكان قلمه أبلغ من لسانه ، وجمع تاريخاً وغير ذلك .

وذكره أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل ، وعده فى زمرة الوافدين عليها ، وقال فى حقه : كان عالما فاضلا متفننا ، وله شعر جيد ، وذكر الأبيات التى مدح بها الشيخ تاج الدين أبا اليمن زيد بن الحسن الكندى ، وقد ذكرتها فى ترجمة الكندى .

وذكره أيضاً العماد الكاتب فى « الخريدة » وأثنى عليه ، وأورد له مقاطيع أحسن فيها ، فمن ذلك قوله فى ابن الدهان المعروف بالناصح أبى محمد سعيد ابن المبارك النحوى ، وقد سبق ذكره ، وكان مخلا باحدى عينيه [من السريع] :

لايبعد الدهان أن ابنه   أدهن منه بطريقين

من عجب الدهر فحدث به   بفرد عين وبوجهين

ومنه ما كتبه إلى بعض الرؤساء وقد عوفى من مرضه [من الخفيف] :

نذَرَ الناس يوم برئك صوما   غير أنى نذرت وحدى فطرا

عالما أن يوم بُرْئِكَ عيد ... لا أرى صومه ولو كان نذرا

وله غير ذلك أناشيد حسان ، وكانت له اليد الطولى فى النجوم وحَلِّ الأزياج وتوفى فى صفر سنة تسعين وخمسمائة بالحلة السيفية ، وكان سبب موته أنه حج من دمشق ، وعاد على طريق العراق ، ولما وصل إلى الحلة عثر جمله هناك فأصاب وجهه بعض خشب المحمل ، فمات لوقته ، وكان شيخا دميم الخلقة ، مسود الوجه ، مسترسل اللحية خفيفها ، أبيض تعلوه صفرة ، رحمه الله تعالى ! وقيل : إنه كان يلقب برهان الدين ، والله أعلم أى ذلك كان .

وقد تقدم الكلام على الحلة فلا حاجة إلى إعادته .

***

(٦٥٦)

(ابن عنين) شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الدين الكوفى الدمشقى الشاعر

أبو المحاسن محمد بن نصرالدين بن نصر بن الحسين بن عُنَيْن ، الأنصارى ، الملقب شرف الدين ، الكوفى الأصل ، الدمشقى المولد ، الشاعر المشهور

كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله ، ولا كان فى أواخر عصره من يقاس به ، ولم يكن شعره مع جودته مقصورا على أسلوب واحد ، بل تفنن فيه ، وكان غزير المادة من الأدب ، مطلعاً على معظم أشعار العرب ، و بلغنى أنه كان يستحضر كتاب « الجمهرة » لابن دريد فى اللغة ، وكان مولعا بالهجاء وثَلْب أعراض الناس ، وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً كثيراً من رؤساء دمشق سماها « مقراض الأعراض » وكان السلطان صلاح الدين — رحمه الله تعالى ! — قد نفاه من دمشق بسبب وقوعه فى الناس ، فلما خرج منها قال [من الكامل] :

فعلام أبعدتم أخاثقة ... لم يقترف ذنباً ولاسرقا ؟

انفوا المؤذِّنَ من بلادكم إن كان يُنْفَى كل من صدقا

وطاف البلاد من الشام والعراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان وغَزْنَةَ وخوارزم وما وراء النهر ، ثم دخل الهند واليمن وملكَهَا يومئذ سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين — رحمه الله تعالى ! — المذكور فى حرف الطاء ، وأقام بها مدة ، ثم رجع على طريق الحجاز إلى الديار المصرية ، وعاد إلى دمشق ، وكان يتردد منها إلى البلاد ويعود إليها ، ولقد رأيته بمدينة إربل فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، ولم آخذ عنه شيئاً ، وكان قد وصل إليها رسولا عن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق ، وأقام بها قليلا ، ثم سافر وكتب من بلاد الهند إلى أخيه وهو بدمشق هذين البيتين والثانى منهما لأبى العلاء المعرى استعمله مضمنا فكان أحق به وهما [من الكامل] :

سامحت كُتْبَكَ فى القطيعة عالما أن الصحيفة لم تجد من حامل

وعذَرْتُ طيفك فى الجفاء لأنه يسرى فيصبح دوننا بمراحل

فلله دره ! ما أحسن ما وقع له هذا التضمين ، وقد كرر هذا المعنى فى مواضع من شعره ، فمن ذلك قوله من جملة قصيدة طويلة [من الطويل] :

ألا يا نسيم الريح من تل راهط

وروض الحمى ، كيف اهتديتَ إلى الهند

وقوله من أبيات وهو فى عدن اليمن [من الطويل] :

أأحبابنا لا أسأل الطيف زورة

وهيهاتَ ! أين الديلميات من عدن ؟

الديلميات ، وتل راهط ، والحمى : أسماء مواضع من ضواحى دمشق ، والبيت الذى للمعرى قبله هو :

وسألت كم بين العقيق إلى الحمى فعجبت من بعد المدى المتطاول

والمعرى أخذ هذا المعنى من دِعْبِل بن على الخُزَاعى الشاعر المقدم ذكره ، فانه كان قد هجا الخليفَةَ المعتصم بالله بن هرون الرشيد ، فطلبه ، فهرب من العراق إلى الديار المصرية وسكن فى آخر بلادها ، وقال فى ذلك [من الطويل] :

وإن امرأً أضْحَتْ مطَارح سَهْمه ... بأسْوَانَ لم يترك من الحزم معلما
حَلَلْتُ مُحَلاًّ يقصرُ الطرفُ دونه ... ويعجز عنه الطيفُ أن يتجشّمَا

وقد خرجنا عن المقصود ، ولكن ساق الكلام بعضه بعضاً

ولما مات السلطان صلاح الدين وملك الملك العادل دمشق كان غائباً فى السفرة التى نفى فيها ، فصار متوجهاً إلى دمشق ، وكتب إلى الملك العادل قصيدته الرائية يستأذنه فى الدخول إليها ، ويصف دمشق ، ويذكر ما قاساه فى الغربة ، ولقد أحسن فيها كل الإحسان ، واستعطفه أبلغ استعطاف ، وأولها [من الكامل] :

ماذا على طيف الأحبة لو سَرَى ... وعليهمُ لو سامحونى فى الكَرَى؟!

ووصف فى أوائلها دمشق وبساتينها وأنهارها ومواضع متنزهاتها ، ولما فرغ من وصف دمشق قال مشيراً إلى النفى منها :

فارقْتُها لاعن رِضاً ، وَهَجَرْتُهَا ... لاعن قِلًى ، ورحلتُ لامتخيرا
أسْعى لرزق فى البلاد مشتَّتٍ ... ومن العجائب أن يكون مُقَتَّرَا
وأصون وَجْهَ مدائحى متقنعاً ... وأكفُّ ذيل مطامعى متسترا

ومنها يشكو الغربة وماقاساه فيها :

أشكو إليك نَوًى تمادى عُمْرُهَا ... حتى حَسِبْتُ اليومَ منها أشهرا
لاعيشتى تصفو ، ولارَسْمُ الْهَوَى ... يعفو، ولا جفنى يصافحه الكرى
أضحى عن الأحوى الْمَرِيع مُحَوَّلا ... وأبيت عن ورد النمير مُنَفَّرَا
ومن العجائب أن يَقِيل بظلكم ... كل الورى ، ونبذت وحدى بالعَرَا

وهذه القصيدة من أحسن الشعر ، وعندى هى خير من قصيدة أبى بكر بن عمار الأندلسى التى أولها :

* أدِرِ الزجاجةَ فالنسيم قد انْبَرَى *

وقد تقدم ذكر شىء منها فى ترجمته ، وهى على وزنها ورويها ، فلما وقف عليها الملك العادل أذن له فى الدخول إلى دمشق ، فلما دخلها قال [من المتقارب] :

هجوتُ الأكابر فى جِلَّقٍ ورُعْتُ الوضيعَ بسبِّ الرفيع

وأُخرِجْتُ منها ، ولكننى رَجَعْتُ على رغم أنف الجميع

وكان له فى عمل الألغاز وحلها اليدُ الطولى ، فمتى كتب إليه شىء حله فى وقته وكتب الجوابَ أحسن من السؤال نظما ، ولم يكن له غرض فى جمع شعره ، فلذلك لم يدونه ، فهو يوجد مقاطيع فى أيدى الناس ، وقد جمع له بعض أهل دمشق ديوانا صغيراً لا يبلغ عُشْر ماله من النظم ، ومع هـذا ففيه أشياء ليست له ، وكان من أظرف الناس ، وأخفهم روحا ، وأحسنهم مجونًا ، وله بيت عجيب من جملة قصيدة يذكر فيها أسفاره ويصف توجهه إلى جهة المشرق ، وهو [من الطويل] :

أُشقِّقُ قلب الشرق حتى كأننى أُفتِّش فى سَوْدائه عن سَنَا الفجر

وبالجملة فمحاسن شعره كثيرة

وكنت قد رأيته فى المنام فى بعض شهور سنة تسع وأربعين وستمائة ، وأنا يوم ذاك بالقاهرة المحروسة ، وفى يده ورقة حمراء ، وهى عريضة ، وفيها مقدار خمسة عشر بيتاً تقريباً ، وهو يقول : عملت هذه الأبيات فى الملك المظفر صاحب حَماة وكان الملك المظفر فى ذلك الوقت ميتاً أيضـا ، وكان فى المجلس جماعة حاضرون ، فقرأ علينا الأبيات ، فأعجبنى منها بيت : فردَّدْته فى النوم ، واستيقظت من المنام وقد علق بخاطرى ، وهو [من السريع] :

والبيت لا يَحْسُنُ إنشاده إلا إذا أُحْسِنَ مَنْ شادَهُ

وهـذا البيت غير موجود فى شعره ، وقد تقـدم ذكره فى ترجمة الإمام فخر الدين الرازى وأبياته الفائية ، وكذلك فى ترجمة سيف الإسلام

وكان وافر الحرمة عند الملوك ، وتولى الوزارة بدمشـق فى آخر دولة الملك المعظم ، ومدة ولاية الملك الناصر المعظم ، وانفصل منها لما ملكها الملك الأشرف وأقام فى بيته ، ولم يباشر بعدها خدمة .

وكانت ولادته بدمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة وتوفى عشية نهار الاثنين لعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وستمائة بدمشق أيضا ، ودفن من الغـد بمسجده الذى أنشـأه ، بأرض المزة ، وهى — بكسر الميم ، وتشديد الزاى — قرية على باب دمشق ، رحمه الله تعالى !

قال ابن الدبيثى : سمعته يقول : إن أصلنا من الكوفة من موضع يعرف بمسجد بنى النجار ، ونحن من الأنصار

قلت : هكذا نقلته أولا ، ثم إنى زرت قبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقابر باب الصغير ظاهر دمشق ، فلما خرجت من تربته وجدت على الباب قبراً كبيراً فقيل لى : هذا قبر ابن عُنَين ، فوقفت وترحّمتُ عليه .

وعُنَيْن — بضم العين المهملة ، وفتح النون، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وبعدها نون — والله أعلم .

***

(٦٥٧)

أبو القاسم محمد ، ويدعى نزار ، بن المهدى أبى محمد عبيد الله القائم بالمغرب ،

أبو القاسم محمد ابن عبيد الله المهدى

كان أبو القاسم المذكور يلقب بالقائم ، وقد تقدم ذكر والده المهدى فى حرف العين ، وذكر ولده المنصور إسماعيل فى حرف الهمزة ، وكان أبوه المهدى قد بايع له بولاية العهد فى حياته بافريقية وما معها ، وكانت الكتب تكتب باسمه ، والمظلة تحمل على رأسه ، ولما توفى أبوه فى التاريخ المذكور فى ترجمته جُدِّدت له البيعة ، وكان جهزه أبوه إلى مصر ليأخذها مرتين : المرة الأولى فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة إحدى وثلثمائة ، فوصل إلى الاسكندرية فملكها والفيوم ، وصار فى يده أكثر خراج مصر ، وضيق على أهلها ، والمرة الثانية وصل إلى الإسكندرية فى شهر ربيع الأول سنة سبع وثلثمائة فى عسكر عظيم ، فخرج عامل الإمام المقتدر عنها ودخلها القائم المذكور ، ثم خرج إلى الجيزة فى خلق عظيم ، فخرج عامل الإمام ووردت الأخبار بذلك إلى بغداد ، فجهز المقتدر مؤنساً الخادم إلى محاربته بالرجال والأموال ، فجد فى السير ، فلما وصل إلى مصر كان القائم قد ملك الجيزة والأشمونين وأكثر بلاد الصعيد ، فتلاقيا ، وجرت بين العسكرين حروب لا توصف ، ووقع فى عسكر القائم الوباء والغلاء ، فمات الناسُ والخيل ، فرجع إلى إفريقية وتبعه عسكر مصر إلى أن تباعد عنهم ، وكان وصوله إلى المهدية يوم الثلاثاء ثالث يوم من رجب من السنة المذكورة ، وفى أيامه خرج أبو يزيد مخلد بن كنداد الخارجى وقد تقدم ذكره وماجرى له وكيف مات فى الأسر فى ترجمة المنصور ، والشرح فى ذلك يطول .

وكانت ولادة القائم بمدينة سلمية المذكورة فى ترجمة والده المهدى فى المحرم سنة ثمانين ، وقيل : سنة اثنتين وثمانين ، وقيل : سبع وسبعين ومائتين ، واستصحبه والده معه عند توجهه إلى بلاد المغرب

وتوفى يوم الأحد ثالث عشر سنة أربع وثلاثين وثلثمائة، رحمه الله تعالى !
وأبو يزيد الخارجى محاصر له، فقام بالأمر ولده المنصور إسماعيل، وكتم خبر موته خوفاً من الخارجى أن يطلع عليه فيطمع فيه، وكان بالقرب منه على مدينة سوسة، فأبقى الأمور على حالها، وأكثر من العطايا والصلات، ولم يتسمَّ بالخليفة وكانت كتبه تنفذ من الأمير إسماعيل ولى عهد المسلمين، والله أعلم.

***

(٦٥٨)

المعتمد على الله أبو القاسم محمد
ابن المعتضد
صاحب قرطبة
وإشبيلية

المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله أبى عمرو عبَّاد بن الظافر المؤيد بالله أبى القاسم محمد قاضى إشبيلية بن أبى الوليد إسماعيل ابن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم، اللخمى، من ولد النعمان ابن المنذر اللخمى آخر ملوك الحيرة

كان المعتمد المذكور صاحب قرطبة وإشبيلية وماوالاهما من جزيرة الأندلس وفيه وفى أبيه المعتضد يقول بعض الشعراء [من الخفيف] :

من بنى المنذرين وَهْوَ انتساب زاد فى فخرهم بنو عبَّاد
فتية لم تلد سواها المعالى وَالمعالى قليلة الأولاد

وكان بدء أمرهم فى بلاد الأندلس أن نعيماً وابنه عطافاً أول من دخل إليها من بلاد المشرق، وهما من أهل العريش القرية القديمة الفاصلة بين الشام والديار المصرية فى أول الرمل من جهة الشام، وأقاما بها مستوطنين بقرية بقرب تومين من إقليم طشانة من أرض إشبيلية، وامتد لعطاف عمودُ النسب من الولد إلى الظافر محمد بن إسماعيل القاضى، فهو أول من نبغ منهم فى تلك البلاد وتقدم باشبيلية إلى أن ولى القضاء بها فأحسن

السياسة مع الرعية والملاطفة بهم ، فرمقته القلوب ، وكان يحيى بن على بن حَمُّود الحَسَنى المنعوت بالمستعلى صاحب قرطبة ، وكان مذموم السيرة ، فتوجه إلى إشبيلية محاصراً لها ، فلما نزل عليها اجتمع رؤساء إشبيلية وأعيانها وأتوا القاضى محمدا المذكور وقالوا له : أما ترى ماحل بنا من هذا الظالم وماأفسد من أموال الناس ؟ فقم بنا نخرج إليه ، ونملكك ونجعل الأمر إليك ، ففعل ، ووثَبُوا على يحيى ، فركب إليهم وهو سَكْرَان فقتل وتم له الأمر ، ثم ملك بعد ذلك قرطبة وغيرها من البلاد وقصته مشهورة مع الذى زعم أنه هشام بن الحكم آخر ملوك بنى أمية بالأندلس الذى كان المنصور بن أبى عامر قد استولى عليه وحَجَبه عن الناس ، وكان يصدر الأمور عن إشارته ، ولا يمكنه من التصرف ، وليس له سوى الاسم والخطبة على المنابر ، فانه كان قد انقطع خبره مدة نيف وعشرين سنة ، وجرت أحوال مختلفة فى هذه المدة ، ثم قيل للقاضى محمد المذكور بعد تملكه واستيلائه على البلاد : إن هشام بن الحكم فى مسجد بقَلْعة رياح ، فأرسل إليه من أحضره ، وفوّض الأمر إليه ، وجعل نفسه كالوزير بين يديه ، وفى هذه الواقعة يقول الحافظ أبو محمد بن حزم الظاهرى فى كتاب « نقط العروس » : أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها ، فانه ظهر رجل يقال له خلف الحصرى بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المنعوت بالمؤيد ، وادعى أنه هشام ، فبويع وخطب له على جميع منابر الأندلس فى أوقات شتى ، وسفك الدماء ، وتصادمت الجيوش فى أمره ، وأقام المدّعى أنه هشام نيفاً وعشرين سنة ، والقاضى محمد بن إسماعيل فى رتبة الوزير بين يديه ، والأمر إليه ، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن توفى المدعو هشاماً ، فاستبد القاضى محمد بالأمر بعده ، وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الدول ، ولم يزل ملكا مستقلا إلى أن توفى ليلة الأحد لليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وقيل : إنه عاش قريب الخمسين وأربعمائة ، ودفن بقصر إشبيلية ، واختلفوا أيضا فى مبدأ استيلائه : فقيل : سنة أربع عشرة وأربعمائة ، وهو الذى ذكره العماد

الـكاتب «فى الخريدة» وقيل : أربع وعشرين ، والله أعلم بالصواب فى ذلك كله .

ولما مات محمد القاضى قام مقامه ولده المعتضد بالله أبو عمرو عَبَّاد ، قال أبو الحسن على بن بَسَّام صاحب كتاب «الذخيرة» فى حقه : ثم أفضى الأمر إلى عَبَّاد سنة ثلاث وثلاثين ، وتسمى أولا بفخر الدولة ، ثم بالمعتضد ، قطب رَحَى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، ناهيك من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم منه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فَرَسَ الطلا وهو رابض ، متهور تتحاماه الدهاة ، وجَبَان لا تأمنه الـكُمَاة ، متعسِّف اهتدى ، ومُنْبَتّ قطع فما أبقى (١) ، ثار والناس حرب ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يده واتسع بلده ، وكثر عديده وعدده ، وكان قد أوتى أيضا من جمال الصورة ، وتمام الخلقة ، وفخامة الهيئة ، وسَبَاطة البنان ، وثقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الْحَدْس ، ما فاق على نظرائه ، ونظر مع ذلك فى الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان أدنى نظر بأزكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعمُّد لها ، ولا إمعان النظر فى غمارها ، ولا إكثار من مُطَالعتها ، ولا منافسة فى اقتناء صحائفها ، أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام ، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة فى معان أمدته فيها الطبيعة ، و بلغ فيها الإرادة ، واكتتبها الأدباء للبراعة ، جمع هـذه الخلال الظاهرة إلى جود كفٍّ بارَى السحاب بها

وأخبار المعتضد فى جميع أفعاله وضروب أنحائه غريبة بديعة ، وكان ذا كلف بالنساء فاستوسع فى اتخاذهن ، وخلط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك إلى مدًى لم يبلغه أحد من نظرائه . ففشا نسله لتوسعه فى النـكاح وقوته عليه ، فذكر أنه كان له من الولد نحو العشرين ذكوراً ، ومن الإناث مثلهم ، وأورد له عدة مقاطيع ، فمن ذلك قوله [من الطويل] :

---

(١) أخذ هذا من قوله صلوات الله وسلامه عليه « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » .

شربنا وجفن الليل يغسل كحله ... بماءِ صباحٍ وَالنسيمُ رقيقُ
معتّقة كالتبر أما بُخارها ... فَضْخم وأما جِسْمُها فدقيق

وقد تقدم فى ترجمة أبى بكر محمد بن عمار الأندلسى ذكر شىء من قصيدتيه اللتين مدح المعتضد المذكور بهما : إحداهما رائية ، والأخرى ميمية

ولولده المعتمد فيه من جملة أبيات [من البسيط] :

سَمَيْذَع يهَبُ الآلاف مبتدئاً ... وَيَسْتَقِلُّ عطاياه ويعتذر
له يد كلُّ جبارٍ يُقَبّلُها ... لولا نداها لقلنا إنها الحَجَرُ

ولم يزل فى عز سلطانه ، واغتنام مَساره ، حتى أصابته علة الذبحة ، فلم تطل مدتها ، ولما أحس بتدانى حمامه استدعى مغنياً يغنيه ليجعل أول مايبدأ به فألا فأول ماغنى [من البسيط] :

نَطْوِى الليالى علماً أنْ ستَطوينا ... فشَعْشعيها بماء المزن واسقينا

فتطير من ذلك ، ولم يعش بعده سوى خمسة أيام ، وقيل : إنه ماغنى منها إلا بخمسة أبيات ، وتوفى يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة ، ودفن ثانى يوم بمدينة إشبيلية ، رحمه الله تعالى !

وقام بالمملكة بعده ولده المعتمد على الله أبو القاسم محمد .

قال أبو الحسن على بن القطّاع السعدى المقدم ذكره فى كتاب « لمح الملح » فى حق المعتمد المذكور : إنه أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم عماداً ، وأرفعهم عماداً ، ولذلك كانت حَضْرته ملْقى الرحال ، وموسم الشعراء ، وقِبلة الآمال ، ومألف الفضلاء ، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه .

وقال ابن بسام فى « الذخيرة » : كان للمعتمد بن عَبّاد شعر كما انشق الكِمَام عن الزهر ، لوصار مثله ممن جعل الشعر صناعة ، واتخذه بضاعة ، لكان رائقاً معجبا

ونادراً مستغربا ، فمن ذلك قوله [من الكامل] :

أكْثَرْتَ هجرَكِ غيرَ أنك ربما عطَفَتْكَ أحياناً علىَّ أمورُ
فكأنما زمَنُ التَّهاجر بيننا ليلٌ وساعات الوصال بدورُ

وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من جملة أبيات [من السريع] :

أسفَرَ ضوءُ الصبح عن وَجْهه فقام خالُ الخدِّ فيه بلال
كأنما الخالُ على خَدِّه ساعةُ هجرٍ فى زمان الوصال

وعزم المعتمد على إرسال حظاياه من قرطبة إلى إشبيلية، فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصبح ، فودعهن ورجع ، وأنشد أبياتاً من جملتها [من الكامل] :

سايرتهم والليل أغفل ثوبه حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثمَّ مودعا وتسلمَتْ منى يدالإصباح تلك الأنجما

وهذا المعنى فى نهاية الحسن

وله فى وداعهن أيضاً [من الطويل] :

ولما وَقفنا للوَدَاع غُدَيَّةً
وقد خفَقَتْ فى ساحة القصر رايات
بكينا دما حتى كأن عيوننا
بِجَرْىِ الدموع الحمر منها جراحات

وهذا ينظر إلى قول القائل [من الطويل] :

بكيت دما حتى لقد قال عائدى :
أهذا الفتى من جفن عينيه يُرْعَفُ

وقد سبق فى شعر الأبيوردى نظيره ، ومن شعره أيضاً [من البسيط] :

لولا عيونٌ من الواشين ترمقنى
وما أحاذره من قول حراس

لزرتكم لا أكافيكم بجفوتكم
مشياً على الوجه أو سعياً على الراس

وكتب إلى ندمائه من قصره بقرطبة وقد اصطبحوا بالزهراء يدعوهم إلى الاغتباق عنده [من الخفيف] :

حسد القصرُ فيكم الزهراء ... ولعمرى وعَمْركم ما أساء
قد طلعتم بها شموساً نهاراً ... فاطلعوا عندنا بدوراً مساء

وهذا من بديع المعانى العجيبة .

وصف قصر الزهراء بقرطبة

والزهراء — بفتح الزاى ، وسكون الهاء ، وفتح الراء ، وبعدها همزة ممدودة — سراية ، وهى من عجائب أبنية الدنيا ، أنشأها أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب الناصر أحد ملوك بنى أمية بالأندلس ، بالقرب من قرطبة ، فى أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع ، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع ، وعدد السوارى التى فيها أربعة آلاف سارية ، وثلثمائة سارية ، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر بابا ، وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثاً ، فثلث للجند ، وثلث مدخر ، وثلث ينفقه على عمارة الزهراء ، وكانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار ، وهى من أهول بناء الأندلس ، وأجله خطرا ، وأعظمه شأنا ، ذكر ذلك كله ابن بَشْكُوال المقدم ذكره فى حرف الحاء فى تاريخ الأندلس .

وكان أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمى الدانى الشاعر المشهور مائلا إلى بنى عباد بطبعه ، إذ كان المعتمد الذى جذب بضَبْعه ، وله فيه المدائح الأنيقة ، فمن ذلك قصيدة يمدحه بها ، ويذكر أولاده الأربعة ، وهم : الرشيد عبيد الله ،

والراضى يزيد ، والمأمون ، والمؤتمن ، ومن جملتها قوله ، ولقد أجاد فيه كل الإجادة [من الطويل] :

يغيثك فى محل ، يعينك فى ردًى
يروعك فى درع ، يروقك فى برد

جمال ، و إجمال ، وسبق ، وصَوْلة
كشمس الضحى، كالمزن، كالبرق ، كالرعد

بهمته شاد العلا ثم زادها
بناءً بأبناءٍ جحاجحة لُدِّ

بأربعة مثل الطباع تركبوا
لتعديل جسم المجد والشرف العد

ومع هذه المكارم والإحسان العام لم يسلموا من لسان طاعن ، وفيهم يقول أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقى [من الطويل] :

تعزَّ عن الدنيا ، ومعروف أهلها إذا عدم المعروف فى آل عبَّاد
حللتُ بهم ضيفا ثلاثة أشهر بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

وكان الأذفونش قره كند ملك الإفرنج بالأندلس قد قوى أمره فى ذلك الوقت ، وكانت ملوك الطوائف من المسلمين هنالك يصالحونه ، و يؤدون إليه ضريبة ، ثم إنه أخذ طليطلة فى يوم الثلاثاء مستهلَّ صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بعد حصار شديد ، وكانت للقادر بالله بن ذى النون ، وفى أخذها يقول أبو محمد عبد الله بن فرج بن عزنون اليحصبى ، يعرف بابن العسال الطيطلى ، وهو مذكور فى الصلة لابن بشكوال [من البسيط] :

حثوا رَوَاحلكم يا أهل أندلس
فما المقام بها إلا من الغلطِ

السلك ينثر من أطرافه، وأرى

سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

من جاور الشر لم يأمن عواقبهُ

كيف الحياة مع الحيات فى سَفَطِ

وكان المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأكثرهم بلادا . وكان يؤدى الضريبة للاذفونش، فلما ملك طايطلة لم يقبل ضريبة المعتمد طمعا فى أخذ بلاده، وأرسل إليه يتهدده ويقول له: تنزل عن الحصون التى بيدك، ويكون لك السهل، فضرب المعتمد الرسول وقتل من كان معه، فبلغ الخبر الأذفونش وهو متوجه لحصار قرطبة، فرجع إلى طليطلة لأخذ آلات الحصار .

فلما سمع مشايخ الإسلام وفقهاؤها بذلك اجتمعوا وقالوا: هذه مدن الإسلام قد تغلب عليها الفرنج، ونحن كنا مشتغلون بمقاتلة بعضهم بعضا، وإن استمرت الحال ملك الفرنج جميع البلاد، وجاءوا إلى القاضى عبد الله بن محمد بن أدهم وفاوضوه فيما نزل بالمسلمين، وتشاوروا فيما يفعلونه، فقال كل واحد منهم شيئا، وآخر ما اجتمع رأيهم عليه أن يكتبوا إلى أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ملك الملثمين صاحب مراكش يستنجدونه، وسيأتى ذكره فى حرف الياء إن شاء الله تعالى .

فاجتمع القاضى بالمعتمد وأخبره بما جرى، فوافقه على أنه مصلحة، وقال له تمضى إليه بنفسك، فامتنع، فألزمه بذلك، فقال: أستخير الله سبحانه، وخرج من عنده، وكتب للوقت كتابا إلى يوسف بن تاشفين يخبره بصورة الحال، وسيره إليه مع بعض عبيده، فلما وصله خرج مسرعا إلى مدينة سَبْتة، وخرج القاضى ومعه جماعة إلى سبتة للقائه وإعلامه بحال المسلمين فأمر بعبور عساكره إلى الجزيرة الخضراء، وهى مدينة فى بر الأندلس، وأقام بسبتة — وهى فى بر

مراكش مقابلة الجزيرة الخضراء ، وأرسل إلى مراكش يستدعى من تخلف بها من جيشه ، فلما تكاملوا عنده أمرهم بالعبور ، وعبر آخرُهم وهو فى عشرة آلاف مقاتل ، واجتمع بالمعتمد وقد جمع أيضاً عساكره ، وتسامع المسلمون بذلك ، فخرجوا من كل البلاد طلباً للجهاد ، وبلغ الأذفونش الخبر وهو بطليطلة ، فخرج فى أربعين ألف فارس غير ما انضم إليه ، وكتب الأذفونش إلى الأمير يوسف كتاباً يتهدده ، وأطال الكتاب ، فكتب يوسف الجواب فى ظهره : « الذى يكون ستراه » ورده إليه .

فلما وقف عليه ارتاع لذلك ، وقال : هذا رجل عازم ، ثم سار الجيشان والتقيَا فى مكان يقال له الزَّلاَّقة من بلد بَطَلْيَوْسَ ، وتصافا ، وانتصر المسلمون ، وهرب الأذفونش بعد استئصال عساكره ، ولم يسلم معه سوى نفر يسير ، وذلك يوم الجمعة فى العشر الأول من شهر رمضان المعظم سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، كذا قال بعضهم ، والصحيح أن هذه الواقعة كانت فى منتصف رجب من السنة المذكورة ، وهذا العام يؤرخ به فى بلاد الأندلس كلها ، فيقال: عام الزلاقة ، وهذه الواقعة من أشهر الوقائع ، وثبت المعتمد فى ذلك اليوم ثباتا عظيما ، وأصابه عدة جراحات فى وجهه و بدنه ، وشهد له بالشجاعة ، وغنم المسلمون دوابهم وسلاحهم ، ورجع الأمير يوسف إلى بلاده والمعتمد إلى بلاده ، ثم إن الأمير يوسف عاد إلى الأندلس فى العام الثانى ، وخرج إليه المعتمد ، وحاصر بعض حصون الفرنج ، فلم يقدر عليه ، فرحل عنه ، وعبر على غَرْناطة ، فخرج إليه صاحبها عبد الله بن بُلُكِّين ثم دخل البلد ليخرج إليه التقادم ، فغدر به يوسف ، ودخل البلد وأخرج عبد الله ودخل قصره فوجد فيه من الأموال والذخائر مالا يحد ولا يحصى ، ثم رجع إلى مراكش وقد أعجبه حسن بلاد الأندلس و بهجتها وما بها من المبانى والبساتين والمطاعم وسائر أصناف الأموال التى لا توجد فى مراكش ، فانها بلاد بربر وأجلاف العربان ، وجعل خواص الأمير يوسف يعظمون عنده بلاد الأندلس ، ويحسنون له

أخذها ، و يغرون قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه ، فتغير عليه ، وقصده ، فلما انتهى إلى سَبْتة جهز إليه العساكر ، وقدم عليها سير بن أبى بكر الأندلسى ، فوصل إلى إشبيلية وبها المعتمد ، فحاصره أشد محاصرة ، وظهر من مصابرة المعتمد وشدة بأسه وترامية على الموت بنفسه مالم يسمع بمثله ، والناس بالبلد قد استولى عليهم الفزع ، وخامرهم الجزع ، يقطعون سبلها سياحة ، ويخوضون نهرها سباحة ، ويترامون من شرفات الأسوار ، فلما كان يوم الأحد لعشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة هجم عسكر الأمير يوسف البلد ، وشنوا فيها الغارات ، ولم يتركوا لأحد شيئا ، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأيديهم ، وقبض على المعتمد وأهله ، وكان قد قتل له ولدان قبل ذلك ، أحدهما : المأمون ، وكان ينوب عن والده فى قرطبة فحصروه بها إلى أن أخذوه وقتلوه ، والثانى الراضى ، كان أيضا نائبا عنه فى رُندة ، وهى من الحصون المنيعة فنازلوها وأخذوها وقتلوا الراضى ، ولأبيهما المعتمد فيهما مراث عديدة ، و بعد ذلك جرى باشبيلية على المعتمد ماذكرناه ، ولما أخذ المعتمد قيدوه من ساعته ، وجعل مع أهله فى سفينة ، قال ابن خاقان فى « قلائد العقيان » فى هذا الموضع : ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمتهم كأنهم أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناس قد حشدوا بضفتى الوادى ، يبكون بدموع كالغوادى ، فساروا والبوم يحدوهم ، والنوح باللوعه لا يعدوهم ، وفى ذلك يقول أبو بكر محمد بن عيسى بن إسماعيل الدانى المعروف بابن اللبانة [من البسيط] :

تبكى السماء بدمع رائح غادى على البهاليل من أبناء عباد

ومن جملتها :

ياضيف أقفر بيتُ المكرمات فخذ فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

وهى قصـيدة طويلة لا حاجة إلى ذكرها ، وفى هذه الحال وصفتها يقول أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلى الشاعر المشهور المقدم ذكره [من الطويل]:

ولما رحلتم بالندى فى أكفكم   وقُلْقِل رَضْوى منكم وثَبير
رفعت لسانى بالقيامة قد دنت   فهذى الجبال الراسيات تسير

وهى أبيات كثيرة ، وهذا المعنى مأخوذ من قول عبد الله بن المعتز فى أبى العباس أحمد بن محمد بن الفرات الوزير وقد مات رحمه الله تعالى [من السريع] :

قد استوى الناس ومات الكمال   وصاح صرف الدهر : أين الرجال
هذا أبو العباس فى نعشه   قوموا انظروا كيف تسير الجبال

وقيل : إنه أنشدها لممات الوزير أبو القاسم عبيدالله بن سليمان بن وهب ، والله أعلم بالصواب ، ثم وجدت القول الثانى هو الصحيح ، والله أعلم

وتألم المعتمد يوما من قيده وضيقه وثقله فأنشد [من المتقارب] :

تبدلت من ظل عز البنود   بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدى سنانا ذليقا   وعضبا رقيقا صقيل الحديد
وقد صار ذاك وذا أدهما   يعض بساقَىَّ عض الأسود

ثم أنهم حُملوا إلى الأمير يوسف بمراكش ، فأمر بارسال المعتمد إلى مدينة أغمات ، واعتقله بها ولم يخرج منها إلى الممات ، قال ابن خاقان : ولما أجلى عن بلاده ، وأعرى من طارفه وتلاده ، وحمل فى السفين ، وأحل فى العُدْوة محل الدفين ، تندبه منابره وأعواده ، ولا يدنو منه زُوّاره ولا عُوّاده ، بقى آسفاً تتصعد زفراته ، وتطرد اطراد المذانب عبراته ، لايخلو بمؤانس ، ولا يرى إلا غريبا بدلا عن تلك المكانس ، ولما لم يجد سلوا ولم يؤمل دنوا ، ولم ير وجه سره مجلوا ، تذكر منازله فشاقته ، وتصور بهجتها فراقته ، وتخيل استيحاش أوطانه ، و إجهاش قصره إلى قُطّانه ، و إظلام جوه من أقماره ، وخلوه من حراسه وسماره ، وفى اعتقاله يقول أبو بكر الدانى المذكور قصيدته المشهورة التى أولها [من البسيط] :

لكل شىء من الأشياء ميقات   وللمنى من مناياهن غايات

والدهر فى صبغة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لُعَب الشطرنج فى يده وربما قُمِرت بالبيدق الشاة

قلت : هذا غلط ، فان الشاه بالهاء الملك بالعجمى ، و إذا كان كذلك فلم تسلم له التاء فيه ، لأنها على حرف التاء ، ثم قال :

انْفُضْ يديك من الدنيا وساكنها
فالأرض قد أقفرت ، والناس قد ماتوا
وقل لِعالمها الأرضى : قد كتمت
سريرة العالم العلوى أغمات

وهى طويلة تقارب خمسين بيتا .

وله أيضا فى حبسه قصيدة عملها بأغمات ، سنة ست وثمانين وأربعمائة [من الطويل] :

تَنَشّقْ رَياحِينَ السلامِ فانّما
أفضُّ بِها مِسْكاً عليكَ مُختَّمَا
وَقُلْ لِى مَجازاً إن عدِمْتَ حقيقةً
لعلكَ فى نُعْمى وقد كنتَ مُنعمَا
أفكرُ فى عَصْرٍ مضَى لك مُشْرِقا
فيرجع ضوء الصبح عندىَ مُظلمَا
وأعجبُ من رِفْقِ المجرّةِ إذ رَأى
كسوفك شمسا كيف أطلع أنجمَا
لقَدْ عظُمت فيكَ الرّزيةَ أننا
وَجدناكَ منها فى المَزِيةِ أعظَمَا

قناةٌ سعت للطعنِ حتى تقصدتْ

وسيفٌ أطالَ الضربَ حتى تثلمَا

ومنها :

بكى آلَ عباد ولا كمحمد

وأبنائهِ صَوْبُ الغمامةِ إذ همَى

حبيبٌ إلى قلبي ، حبيبٌ لقولهِ

عسى طَلل يَدنو بهمْ ولعلمـا

صباحُهُمُ كنا بهم نحمد السرَى

فلما عدمناهم سرينا على عمَى

وكنا رعينا العز حولَ حماهمُ

فقد أجْدَبَ المرعى وقد أقفر الحِمَى

وقد ألبست أيدى الليالى محلَّهم

مناسج سَدَّى الغيثُ فيها وألحما

قصورٌ خلت من ساكنيها فما بها

سوى الأدم تمشى حول واقفة الدما

يجيب بها الهام الصدى ولطالما

أجاب القيان الطائر المترنما

كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى

بها الوفد جمعا والخميس عرمرما

حكيتَ وقد فارقت مُلْكك مالكا

ومن وَلَهى أحكى عليك متمما(١)

---

(١) أشار إلى مالك بن نويرة الذى قتله خالد بن الوليد فى حروب الردة ، وإلى أخيه متمم بن نويرة الذى رثاه أحر رثاء .

مصابٌ هوَى بالنيرات من العلا ولم يُبْق فى أرض المكارم معلما
تضيقُ علىّ الأرض حتى كأنْما خلقت و إياها سواراً ومعصما
بكيتك حتى لم يخل لى الأسى دموعاً بها أبكى عليك ولا دَما
و إنى على رسمى مقيم فإن أمت سأجعل للباكين رسمى موسما
بكاك الحيا والريح شقت جيوبها عليك، وناح الرعد باسمك مُعْلِما
ومُزِّقَ ثوبُ البرقِ واكتسب الضحى
حداداً، وقامَتْ أنجم الجوِّ مأتما

ومنها:

وحار ابنُكَ الإصباحُ وَجْداً فما اهتدى
وغاضَ أخوكَ البَحرُ غيضاً فما طَمَا
وَما حلّ بَدْر التمِّ بعدَكَ داره
وَلا أظهرَتْ شمْسُ الظّهيرةِ مبسما
قضى الله أن حطوكَ عن ظَهر أشقَرٍ
أشمّ وأن أمْطَوْكَ أشأم أدْهَمَا

وكان قد انفكت عنه القيود فأشار لذلك بقوله منها:

قيُودك ذابت فانْطَلَقتَ لقد غدَتْ
قيُودُكَ منهُمْ بالمكارم أرْحَمَا
عجبتُ لأن لانَ الحديدُ وَقد قسَوْا
لقد كان منهم بالسريرة أعْلما
سيُنْجيكَ مَنْ نَجَّى من الجبِّ يوسفًا
ويُؤْويكَ من آوى المَسيحَ بْنَ مَرْيَمَا

وله فى البكاء على أيامهم وانتشار نظامهم عدة مقاطيع وقصائد مطولات ، يشتمل عليها جزء لطيف صدر عنه فى تأليف وهيئة تصنيف سماه « نظم السلوك فى وعظ الملوك »

ووفد على المعتمد وهو بأغمات وفادة وفاء ، لا وفادة استجداء ، وحكى أنه لما عزم على الانفصال عنه بعث إليه المعتمدُ عشرين ديناراً وشُقّة بغدادية ، وكتب معها [من الوافر] :

إليك النَّزْرَ من كف الأسير　　فإنْ تَقْبَلْ تكن عينَ الشكور
تَقَبَّلْ ما يكون له حياء　　وإن عَذَرتهُ أحوالُ الفقير

وهى عدّة أبيات ، قال أبو بكر المذكور : فرددتها إليه ، لعلمى بحاله وأنه لم يترك عنده شيئاً ، وكتبت إليه جوابها ، وهو [من الوافر] :

سَقَطْتَ من الوفاء على خَبير　　فذَرْنى والذى لكَ فى ضميرى
تركْتُ هواكَ وهو شقيقُ نفسى　　لئن شقت بُرُودِى عن غدور
ولاكنْتُ الطَّليقَ من الرزايا　　لئن أصبحتُ أُجْحِفُ بالأسير
جَذِيمةُ أنت والزباء خانت　　وما أنا من يُقَصِّرُ عن قصير
أسيرُ ولا أسيرُ إلى اغتنام　　معاذ اللهِ من سوء المصير
أنا أدرى بفضلك منك ، إنى　　لبست الظلَّ منه فى الحَرُور

ومنها أيضاً قوله :

تصرف فى الندى خَيْلَ المعالى　　فتسمحُ من قليل بالكثير
وَأعجبُ منك أنك فى ظلام　　وترفع للعفاة منار نور
رُوَيْدَكَ سوف توسعنى سروراً　　إذا عاد ارتقاؤكَ للسرير
وَسَوْف تُحِلُّنى رتبَ المعالى　　غداة تَحُلُّ فى تلك القصور
تزيدُ على ابن مروان عطاء　　بها وَأزيدُ ثمَّ على جَرير
تأهبْ أن تعودَ إلى طُلوع　　فليسَ الخسفُ ملتزم البدور

ودخل عليه يوما بناته السجن ، وكان يوم عيد ، وكن يغزلن للناس بالأجرة في أغمات ، حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذى كان فى خدمة أبيها وهو فى سلطانه ، فرآهن فى أطمار رثّة وحالة سيئة ، فصدّعن قلبه ، وأنشد [من البسيط] :

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا　　فساءكَ العيدُ فى أغماتَ مأسورا
ترى بناتِكَ فى الأطمار جائعةً　　يَغزِلْنَ للناس لا يملكن قِطْمِيرا
بَرَزْنَ نحوك للتَّسْلِيم خاشعةً　　أبصارهنَّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأنَ فى الطين والأقدامُ حافيةٌ　　كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خد إلا ويشكو الجدب ظاهره　　وليسَ إلا مع الأنفاسِ ممطورا
قد كان دهركَ إن تأمُرْهُ ممتثلا　　فردَّكَ الدهرُ منهيًّا ومأمورا
مَنْ بات بعدَكَ فى مُلكٍ يُسَرُّ به　　فإنما باتَ بالأحلام مغرورا

ودخل عليه وهو فى تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود ، والتوت عليه التواء الأساور السود ، وهو لا يطيق إعمال قدم ، ولا يُريق دمعاً إلا ممتزجاً بدم ، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير ، وفى وسط جنة وحرير ، تخفِق عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ، فلما رآه بكى وقال : [من السريع] :

قَيْدِى أما تعلمنى مسلما　　أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شرابٌ لك واللحم قد　　أكلتَهُ ، لا تهشم الأعظما
يبصرنى فيك أبو هاشم　　فينثنى والقلب قد هشِّما
ارحمْ طفيلا طائشاً لبُّه　　لم يَخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أُخيَّاتٍ له مثله　　جرعتهُنَّ السمَّ والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد　　خِفْنَا عليه للبكاء العمى

والغير لا يفهم شيئا فما　　يفتح إلا لرضاع فمـا

وكان قد اجتمع عليه جماعة من الشعراء، وألحوا عليه فى السؤال، وهو على تلك الحال، فأنشد [من الكامل] :

سألوا اليسـير من الأسير، وإنه　　بسؤالهم لأحـق منهم فاعجَبِ

لولا الحيـاء، وعـزة لخميـة　　طى الحشا لحـكاهُمُ فى المطلب

وأشعار المعتمد وأشعار الناس فيه كثيرة، وقد جاوزنا الحد فى تطويل ترجمته، وسببه أن قصته غريبة لم يعهد مثلها، ودخل فيها حديث أبيه وجده، فطالت.

وكانت ولادته فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة بمدينة بَاجَةَ من بلاد الأندلس، وملك بعد وفاة أبيه فى التاريخ المذكور هنـاك، وخـلع فى التاريخ المقدم ذكره.

وتوفى فى السجن بأغمات لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال، وَقيل: فى ذى الحجة، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، رحمه الله تعالى!.

ومن الغريب النادر أنه نودى فى جنازته بالصلاة على الغريب، بعـد عظم سلطانه، وجلالة شانه، فتبارك من له البقاء، والعزة والـكبرياء، واجتمع عند قبره جماعة من الشعراء الذين كانوا يقصدونه بالمدائح، ويجزل لهم المنائح، فرثوه بقصائد مطولات، وأنشدوها عند قبره، وبكوا عليه، فمنهم أبو بحر عبد الصمد شاعره المختص به، رثاه بقصيدة طويلة أجاد فيها، وأولها [من الـكامل] :

ملكَ المـلوك، أسـامع فأنادى　　أم قد عدتك عن السماع عوَادى

لمـا نقلت عن القصور ولم تـكن　　فيها كما قد كـنت فى الأعياد

أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً　　وَجعلت قبرك موضع الإنشـاد

ولما فرغ من إنشادها قبل الثرى، ومرغ جسمه، وعفر خده، فأبـكى عليه كل من حضر.

و يحكى أن رجلا رأى فى منامه إثر الـكائنة عليه كأن رجلا صعد منبر جامع قرطبة واستقبل الناس وأنشد [من الرمل] :

رب ركب قد أناخوا عيسهم ... فى ذرى مجدهمُ حين بسق
سكت الدهر زماناً عنهمُ ... ثم أبكاهم دماً حين نطق

وَرأى أبو بكر الدانى حفيدَ المعتمد وهو غلام وسيم قد اتخذ الصياغة صناعة وكان يلقب فى أيام دولتهم « فخر الدولة » وهو من الألقاب السلطانية عندهم ، فنظر إليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ ، فقال من جملة قصيدة [من البسيط] :

شكاتنا فيك يا فخر العلا عظمت ... والرزء يعظم فيمن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة ... ضاقت عليك وكم طَوَّقْتَنَا النعما
وعاد طوقك فى دكان قارعة ... من بعدما كنت فى قصر حكى إرَمَا
صرفت فى آلة الصواغ أنملة ... لم تَدْرِ إلا الندى والسيف والقلما
يد عهدتُكَ للتقبيل تبسطها ... فتستقلُّ الثريا أن تكون فما
يا صائغاً كانت العليا تصاغ له ... حَلْياً وكان عليه الحلى منتظما
للنفخ فى الصور هول ما حكاه سوى ... أنى رأيتك فيه تنفخ الفَحَمَا
وددت إذ نَظَرَت عينى عليك به ... لو أن عينيَ تشكو قبل ذاك عمى
ما حطَّكَ الدهر لما حطّ من شرف ... ولا تَحَيَّفَ من أخلاقك الكرما
لُحْ فى العلا كوكبا إن لم تَلُحْ قمرا ... وقم بها ربوة إن لم تقم علما
والله لو أنصفتك الشهبُ لانكسفت ... ولو وَفَى لك دمع العين لانسجما
أبكى حديثك حتى الدهر حين غدا ... يحكيك رهطا وألفاظا ومبتسما

ولا حاجة إلى الزيادة على ما أودعناه هذه الترجمة .

واللُّوْرقى — بضم اللام ، وسكون الواو والراء ، و بعدها قاف — هذه النسبة

إلى لورقة ، وهى مدينة بالأندلس ، وهذا الشاعر ذكره فى « الخريدة » وقال : عاش بعد المائة طويلا ، وأورد كثيراً من شعره .

وأغمات — بفتح الهمزة ، وسكون الغين المعجمة ، وفتح الميم ، وبعد الألف تاء مثناة من فوقها — وهى بليدة وراء مراكش ، بينهما مسافة يوم ، وخرج منها جماعة مشاهير .

وأما أبو بكر بن اللبّانة المذكور فما رأيت تاريخ وفاته فى شىء من الكتب ولا رأيت من يعلم ذلك ، لكن رأيت فى كتاب الحماسة التى صنفها أبو الحجاج يوسف البياسى المذكور بعدها أن ابن اللبانة قدم مَيُورْقَةَ فى آخر شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، ومدح ملكها مبشر بن سليمان بأبيات أولها [من الكامل] :

ملكٌ يروعك فى حِلَى ريعانه   راقت برونقه صفات زمانه

وكنت أظن أنه مات قبل المعتمد ، لأنى ما رأيت له فيه مرثية ، إلى أن رأيت ما قاله البياسى ، والله تعالى أعلم .

***

(٦٥٩)

المعتصم
أبو يحيى محمد
ابن معن
(ابن صمادح)

أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن أحمد [بن] صُمَادح ، المنعوت بالمعتصم ، التجيبي ، صاحب المرِيَّة و بَجَايَة والصُّمادحية من بلاد الأندلس

كان جده محمد بن أحمد بن صمادح صاحب مدينة وَشْقَة وأعمالها ، وذلك فى أيام المؤيد هشام بن الحكم الأموى المذكور فى ترجمة المعتمد بن عباد، فحار به ابن عمه منذر بن يحيى التُّجيبى ، فاستظهر عليه وعجز عن دفعه لكثرة رجاله ، وترك له مدينة وَشْقَة ، وفر بنفسه ، ولم يبق له بالبلد علقة ، وكان صاحب رأى ودهاء ولسان وعارضة لم يكن فى أصحاب السيوف من يعدله فى هذه الخلال فى ذلك العصر ، وكان ولده معن والد المعتصم مصاهراً لعبد العزيز بن أبى عامر صاحب بَلَنْسِية ، فلما قتل زهير مولى أبيه — وكان صاحب المرِيَّة — وثب عبد العزيز على المرِيَّة فملكها لكونها كانت لمولاهم ، فحسده على ذلك مجاهد بن عبد الله العامرى المكنى أبا الجيش صاحب دَانِيَة ، فخرج قاصداً بلاد عبد العزيز وهو بالمرية مشتغل فى تركة زهير ، فلما سمع بخروج مجاهد خرج من المرية مبادراً لاستصلاحه واستخلف بها صهره ووزيره معن بن صمادح والد المعتصم ، فخانه فى الأمانة ، وغدر به ، وطرده عن الإمارة ، فلم يبق فى ملوك الطوائف بالأندلس أحد إلا ذمه على هذه الفعلة ، إلا أنه تم له الأمر ، واستتب ، فلما مات انتقل الملك إلى ولده المعتصم وتسمى بأسماء الخلفاء ، وكان رحب الفناء ، جزيل العطاء ، حليما عن الدماء ، طافت به الآمال ، واتسع فى مدحه المقال ، وأعملت إلى حضرته الرحال ، ولزمه جماعة من فحول الشعراء كأبى عبد الله بن الحداد وغيره ، وله أشعار حسنة ، فمن ذلك ما كتبه إلى أبى بكر بن عمار الأندلسى المقدم ذكره ، يعاتبه بقوله [من الطويل] :

وزهدني في النـاس معرفتي بهم
وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم ترني الأيام خلاًّ تسرني مباديه إلا ساءني في العواقب
ولا صرت أرجوه لدفع ملمة من الدهر إلا كان إحدى النوائب

فكتب إليه ابن عمار جوابها ، وهي أبيات كثيرة فلا حاجة إلى ذكرها .

ومن شعره أيضاً [من المنسرح] :

يا من بجسمي لبعده سقم ما منه غير الدنوّ يبريني
بين جفوني والنوم معترك تصغر منه حروب صِفّين
إن كان صرف الزمان أبعدني عنك فطيف الخيال يدنيني

ومن هنا أنشد بهاء الدين زهير بن محمد الكاتب المقدم ذكره قوله من جملة قصيدة [من مجزوء الرجز] :

بين جفوني والكرى مذ غبت عني معترك

وله غير ذلك مقاطيع كثيرة .

ولأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم المعروف بالحداد القيسي من أهل المريَّة في مديحه قصائد بعيدة ، فمن ذلك قصيدته التي أولها [من الطويل] :

لعلك بالوادي المقدس شاطئ فكالعنبر الهندي ما أنا واطئ
وإنيَ من ريّاك واجد ريحهم فرَوحُ الهوى بين الجوانح ناشئ
ولي في السُّرى من نارهم ومنَارهم حُداة هُداة والنجوم طوافئ
لذلك ما حنَّتْ ركابي وحمحمت عِرابي وأوحى سيرها المتباطئ
فهل هاجها ما هاجني ولعلها
إلى الوجد من نيران قلبي لواجئ

رويداً فذا وادى لُبَينى، وإنه ... لَوِرْدُ لُباناتى وإنى لظامئ

ويا حبذا من آل لُبْنى مواطن ... ويا حبذا من أرض لبنى مواطئ

ميادين تهيامى ومسرح خاطرى ... فللشوق غايات بها ومبادئ

ولا تحسبوا غيداً حوتها مقاصر ... فتلك قلوب ضُمِّنتها جآجئ

وفى الكِلّة الزرقاء مكلوء عزة ... تحفُّ به زرق العوالى الكوالئ

مُحاملة السلوان مبعثُ حسنه ... فكل إلى دين الصبابة صابئ

ومنها أيضاً :

تمنَّى مدى قُرْطيه عُفْرٌ توالع ... وتهوى ضيا عَيْنَيه عِينٌ جوازئ

وفى ملعب الصدغين أبيض ناصع ... تخلّله للحسن أحمر قانئ

أفاتكة الألحاظ ناسكة الهوى ... ورعت ولكن لحظ عينك خاطئ

وآل الهوى جرحى ولكن دماؤهم ... دموع هوَامٍ والجروح مآقئ

وكيف أعانى كَلْم طرفك فى الحشا ... ولكن لتمزيق المهند راقئ

ومن أين أرجو برء نفسى من الجوى ... وما كل ذى سقم من السقم بارئ

ويخرج من هذا إلى المدح، وهذه القصيدة طنانة طويلة .

وقصده أيضاً من شعراء الأندلس أبو القاسم الأسعد بن بليطة، وهو من فحول شعرائهم، ومدحه بقصيدته الطائية التى أولها [من الطويل] :

برامةَ ريم زارنى بعد ما شَطَّا ... فقنَّصته فى الحلم بالشط فاشتطا

رَعَى من أناس فى الحشا ثمر الهوى ... ولم يدعِ النوّار فيها ولا الخمْطا

ومنها :

وقد ذاب كحل العين فى دمع نحره ... إلى أن تبدّى الصبح كاللمة الشمطا

كأن الدجى جيش من الزنج نافر　　وقد أرسل الإصباح فى إثره القبطا

ومنها فى صفة الديك:

كأن أنو شروان أعلاه تاجه　　وناطَتْ عليه كفُّ مارية القُرْطا
سبى حلَّةَ الطاوس حسنُ لباسه　　ولم يكفه حتى سبى المشية البطا

ومنها أيضاً:

توهم عطف الصدغ نونا بخدها　　فبادت بمسك الخال تنقطه نقطا
غلامية جاءت وقد جعل الدجى　　لخاتم فيها فص غالية خطا
غدت تنقع المسواك فى برد ثغرها　　وقد ضمخت مسكا غدائره المشطا
فقلت أحاجيها بماء جفونها　　وما فى الشفاه اللُّعْس من حسنها المعطا
مُفَتَّرة الألحاظ من غير سكرة　　متى شربت ألحاظ عينيك إسفنطا
أرى صفرة المسواك فى حمرة اللَّمَى　　وشماربك المخضر بالمسك قد خطا
عسى قُزَح قبلته فاخاله　　على الشفَة اللمياء قد جاء مختطا

ومنها فى المديح قوله:

كأن أبا يحيى بن معن أجادها　　فعلّمها من كفه الوَكْفَ والبسطا
تألف من در وشزر بحاره　　فجاءت به العلياء على جيدها سمطا
إذا سار سار المجد تحت لوائه　　فليس يحط المجد إلا إذا حطا
رفيع عماد النار فى الليل للسرى　　فما يخبط العشْوَاء طارقُه خبطا
أقول لركب يمموا مسقط الندى　　وقد جاوزالركبان من دونك السقطا
أفى المجد تبغى لابن معن مناقضاً　　ومن يوقدُ المصباح فى الشمس قد أخطأ

وهى قصيدة طويلة مقدار تسعين بيتاً، أحسن فيها ناظمها مع وعورة مسلك حرف رويها.

وكان المعتصم المذكور قد اختص بمؤانسة الأمير يوسف بن تاشفين عند عبوره إلى جزيرة الأندلس حسبما شرحناه فى ترجمة المعتمد بن عباد المذكور قبله وأقبل عليه أكثر من بقية ملوك الطوائف ، فلما تغيرت نية الأمير يوسف بن تاشفين على المعتمد وجاهره المعتمد بالعصيان شاركه فى ذلك المعتصم ، ووافقه على الخروج عن طاعته وعدم الانقياد لأمره ، فلما قصد الأمير يوسف بلاد الأندلس عزم على خلعهما وقبضهما .

قال ابن بسام فى الذخيرة : وكان بينه وبين المعتصم وبين الله سريرة ، أسلفت له عند الحمام يداً مشكورة ، فمات وليس بينه و بين حلول الفاقرة به إلا أيام يسيرة ، فى سلطانه و بلده ، و بين أهله وولده .

حدثنى من لا أرد خبره عن أروى بعض حظايا أبيه قالت : إنى لعنده وهو يوصى بشأنه ، وقد غُلب على أكثر يده وسلطانه ، ومعسكر أمير المسلمين — تعنى يوسف بن تاشفين — يومئذ بحيث نعد خيامهم ونسمع اختلاط أصواتهم إذ سمع وَجْبة من وجباتهم ، فقال : لا إله إلا الله ، نغص علينا كل شىء حتى الموت ! . فقالت أروى : فدمعت عينى ، فلا أنسى طرفا إلى يرفعه ، و إنشاده لى بصوت لا أكاد أسمعه :

ترفق بدمعك لاتفنه فبين يديك بكاء طويل

انتهى كلام ابن بسام .

وقال محمد بن أيوب الأنصارى فى كتابه الذى صنفه للسلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى فى سنة ثمان وستين وخمسمائة فى ترجمة المعتصم بن صمادح المذكور، بعد أن ذكر طرفا من أخباره ، وشيئا من أشعاره ، وحكى صورة حصاره ، وقوله فى مرضه نغص علينا كل شىء حتى الموت : ومات — يعنى المعتصم — فى أثر ذلك عند طلوع الشمس يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة

أربع وثمانين وأربعمائة بالمرِيَّة ، رحمه الله تعالى ! ودفن فى تربة عند باب الخوخة .

وصُمَادح ـ بضم الصاد المهملة ، وفتح الميم ، وبعد الألف دال مكسورة ، ثم حاء مهملة ـ وهو الشديد .

وبِلِّيطة : والد أبى القاسم الأسعد الشاعر المذكور بكسر الباء الموحدة واللام المشددة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الطاء المهملة ، وبعدها هاء ساكنة ، ولا أعرف معناه ، وهو بلغة أعاجم الأندلس .

والتجيبى : قد تقدم الكلام عليه .

وبَجَاية ـ بفتح الباء الموحدة والجيم ، وبعد الألف ياء ، ثم هاء ساكنة ـ وهى مدينة بالأندلس

والمرية قد تقدم الكلام عليها

والصُّمادحية منسوبة إلى صُمَادح المذكور

ووَشْقة ـ بفتح الواو ، وسكون الشين المعجمة ، وفتح القاف ، وبعدها هاء ساكنة ـ بلدة بالأندلس أيضاً ، والله أعلم .

***

(٦٦٠)

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت، المنعوت بالمهدى، الهرغى

أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن تومرت المهدى الهرغى

صاحب دعوة عبد المؤمن بن على بالمغرب، وقد تقدم فى ترجمة عبد المؤمن طرف من خبره، وكان ينتسب إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما!.

وجدت فى كتاب النسيب الشريف العابد بخط أهل الأدب من عصرنا نسبَ ابن تومرت المذكور فنقلته كما وجدته، وهو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء ابن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما! والله أعلم.

وهو من جبل السوس فى أقصى بلاد المغرب، ونشأ هناك ثم رحل إلى المشرق فى شبيبته طالبا للعلم، فانتهى إلى العراق، واجتمع بأبى حامد الغزالى والكيا الهراسى والطُرْطوشى وغيرهم وحج وأقام بمكة مدة مديدة وحصل طرفا صالحاً من علم الشريعة والحديث النبوى وأصول الفقه والدين، وكان ورعاً ناسكا متقشفاً مخشوشناً مخلولقاً كثير الإطراق، بساماً فى وجوه الناس، مقبلا على العبادة، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة، وكان شجاعاً فصيحاً فى لسان العرب والمغرب، شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع، لا يقنع فى أمر الله بغير إظهاره، وكان مطبوعا على الالتذاذ بذلك، متحملا للأذى من الناس بسببه وناله بمكة — شرفها الله تعالى! — شىء من المكروه من أجل ذلك، فخرج منها إلى مصر وبالغ فى الإنكار، فزادوا فى أذاه، وطردته الدولة، وكان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به خلط فى كلامه فينسب إلى الجنون فخرج من مصر إلى

الإسكندرية ، وركب البحر متوجها إلى بلاده ، وكان قد رأى فى منامه وهو فى بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين ، فلما ركب فى السفينة شرع فى تغيير المنكر على أهل السفينة ، وألزمهم باقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم ، ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهدية إحدى مدن إفريقية ، وكان ملكها يومئذ الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى ، وذلك فى سنة خمس وخمسمائة .

هكذا وجدته فى تاريخ القيروان ، وقد تقدم فى ترجمة الأمير تميم والد يحيى المذكور أن محمد بن تومرت المذكور اجتاز فى أيام ولايته بافريقية عند عوده من المشرق ، وكنت وجدته كذلك أيضا والله أعلم بالصواب ، ولم يرحل إلى المشرق مرتين حتى يحمل ذلك على دفعتين ، فان كان عوده فى سنة خمس كما ذكرناه فهى فى ولاية الأمير يحيى ، لأن أباه الأمير تميما توفى سنة إحدى وخمسمائة كما تقدم فى ترجمته ، وإنما نبهت عليه لئلا يتوهم الواقف عليه أنه فاتنى ذلك ، وهو متناقض .

ورأيت فى تاريخ القاضى الأكرم ابن القفطى وزير حلب وهو مرتب على السنين ما صورته : فى هذه السنة ـ وكان آخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة ـ خرج محمد بن تومرت من مصر فى زى الفقهاء بعد الطلب بها و بغيرها ووصل إلى بجَاية ، والله أعلم بالصواب .

ولما وصل إلى المهدية نزل فى مسجد مغلق ، وهو على الطريق ، وجلس فى طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من آلة الملاهى أو أوانى الخمر إلا نزل إليها وكسرها ، فتسامع به الناس فى البلد ، فجاءوا إليه ، وقرأوا عليه كتبا من أصول الدين ، فبلغ خبره الأمير يحيى ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سَمْته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء ، فقال له : أصلحك الله

لرعيتك ، ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلا أياماً يسيرة ، ثم انتقل الى بجَابة ، فأقام بها مدة وهو على حاله فى الإنـكار ، فأخرج منها إلى بعض قراها واسمها ملالة ، فوجد بها عبد المؤمن بن على القيسى المقدم ذكره .

ورأيت فى كتاب «المغرب ، عن سيرة ملوك المغرب» أن محمد بن تومرت كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت ، وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغـرب الأقصى بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو إلى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ى ن م ل ، ورأى فيه أيضا أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فأوقع الله سبحانه وتعالى فى نفسه أنه القائم بأول الأمر ، وأن أوانه قد أزف ، فما كان محمد يمر بموضع إلا و يسأل عنه ، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقد حليته ، وكانت حلية عبد المؤمن معه ، فبينما هو فى الطريق رأى شابا قد بلغ أشده على الصفة التى معه ، فقال له محمد بن تومرت ، وقد تجاوزه : ما اسمك يا شاب ؟ فقال : عبد المؤمن ، فرجع إليه وقال له : الله أكبر ، أنت بغيتى ، ونظر فى حليته فوافقت ماعنده ، فقال له : من أين أنت ، فقال : من كومية ، قال : أين مقصدك ؟ فقال : الشرق ، فقال : ماتبغى ؟ قال : أطلب علما وشرفاً ، قال : وجدت علماً وشرفاً وذكراً ، اصحبنى تنله فوافقه على ذلك ، فألقى محمد إليه أمره ، وأودعه سره ، وكان محمد بن تومرت قد صحب رجلا يسمى عبد الله الونشريشى ففاوضه فيما عزم عليه من القيام ، فوافقه على ذلك أتم موافقة ، وكان الونشريشى ممن تهذب وقرأ فقها ، وكان جميلا فصيحاً فى لغة العرب وأهل المغرب ، فتحدثا يوماً فى كيفية الوصول إلى الأمر المطلوب ، فقال محمد بن تومرت لعبد الله : أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن

الناس وتظهر من العجز واللَّكَن والحصَر والتعرى عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس ، لنتخذ الخروج عن ذلك وا كتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة ليقوم ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه ، فنصدق فيما نقوله ، ففعل عبد الله ذلك ، ثم إن محمدا استدنى أشخاصاً من أهل الغرب جِلاداً فى القوى الجسمانية أغمارا ، وكان أميلَ إلى الأغمار من أولى الفطن والاستبصار ، فاجتمع له منهم ستة سوى عبد الله الونشريشى ، ثم إنه رحل إلى أقصى المغرب ، واجتمع بعبد المؤمن بعد ذلك ، وتوجهوا جميعاً إلى مراكش وملكها يومئذ أبو الحسن على بن يوسف ابن تاشفين ، وقد سبق ذكر والده فى ترجمة المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح ، وكان ملكا عظيما حليما ورعا عادلا متواضعا ، وكان بحضرته رجل يقال له مالك ابن وهيب الأندلسى ، وكان عالما صالحا ، فشرع محمد بن تومرت فى الإنكار على جارى عادته ، حتى أنكر على ابنة الملك ، وله فى ذلك قصة يطول شرحها ، فبلغ خبره الملك ، وأنه يتحدث فى تغيير الدولة ، فتحدث مع مالك بن وهيب فى أمره ، وقال : نخاف من فتح باب يعسر علينا سده ، والرأى أن نحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلد ، فأجاب الملك إلى ذلك ، وكان محمد وأصحابه مقيمين فى مسجد خَرَاب خارج البلد ، فطلبوهم ، فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده : سلوا هذا الرجل ما يبغى منا ، فانتدب له قاضى المرِيَّة واسمه محمد بن أسود فقال : ماهذا الذى يذكر عنك من الأقوال فى حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه ؟

فقال له محمد بن تومرت : أما ما نقل عنى فقد قلته ولى من ورائه أقوال ، وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله تعالى على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ، ليعلم بتعرّيه عن هذه الصفة أنه مغرور بما تقولون له وتطرونه به ، مع علمكم أن الحجة عليه متوجهة ، فهل بلغك ياقاضى أن الخمرة تباع جهاراً ، وتمشى الخنازير بين المسلمين ، وتؤخذ أموال اليتامى ؟ وعدد من ذلك شيئا كثيراً

فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه ، وأطرق حياء ، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع فى المملكة لنفسه ، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم ، فقال مالك بن وهيب ، وكان كثير الاجتراء على الملك : أيها الملك ، إن عندى لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها ، وإن تركتها لم تأمن غائلتها ، فقال الملك : ماهى ؟ فقال : إنى خائف عليك من هذا الرجل ، وأرى أنك تعتقله وأصحابه ، وتنفق عليهم كل يوم دينارا لتكتفى شره ، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها ، ثم لاينفعك ذلك . فوافقه الملك على ذلك ، فقال له وزيره : يقبح منك أن تبكى من موعظة هذا الرجل ثم تسىء إليه فى مجلس واحد ، وأن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك ، وهو رجل فقير لايملك سد جوعه ، فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس ، واستهون أمره ، وصرفه ، وسأله الدعاء .

وحكى صاحب كتاب « المغرب ، فى أخبار أهل المغرب » أنه لما خرج من من عند الملك لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه ، فقيل له : نراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهرك ، فقال : أردت أن لا يفارق وجهى الباطل حتى أغيره ما استطعت انتهى كلامه .

فلما خرج محمد بن تومرت وأصحابه من عند الملك قال لهم : لا مقام لكم عندنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب ، فما نأمن من أن يعاود الملك فى أمرنا فينالنا منه مكروه ، وإن لنا بمدينة أغمات أخا فى الله ، فنقصد المرور به ، فلن نعدم منه رأيا ودعاء صالحا ، واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم ، وهو من فقهاء المصامدة ، فخرجوا إليه ونزلوا عليه ، وأخبره محمد بن تومرت خبرهم ، وأطلعه على مقصدهم ، وماجرى لهم عند الملك ، فقال عبد الحق : هذا الموضع لايحميكم ، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد تينمل ، وبيننا وبينها مسافة يوم فى هذا

الجبل ، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم ، فلما سمع محمد بهذا الاسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذى رآه فى كتاب الجفر ، فقصده مع أصحابه ، فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب العلم ، فقاموا إليهم وأكرموهم ، وتلقوهم بالترحاب ، وأنزلوهم فى أكرم منازلهم ، وسأل الملك عنهم بعد خروجهم من مجلسه فقيل له : إنهم سافروا ، فسره ذلك ، وقال : تخلصنا من الاثم بحبسهم .

ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول محمد بن تومرت إليهم ، وكان قد سار فيهم ذكره ، فجاءوه من كل فج عميق ، وتبركوا بزيارته ، وكان كل من أتاه استدناه ، وعرض عليه ما فى نفسه من الخروج على الملك ، فان أجابه أضافه إلى خواصه ، وإن خالفه أعرض عنه ، وكان يستميل الأحداث وذوى الغرة ، وكان ذوو الحكم والعقل والحلم من أهاليهم ينهونهم ، ويحذرونهم من اتباعه ، ويخوفونهم من سطوة الملك ، فكان لا يتم له مع ذلك حال ، وطالت المدة ، وخاف محمد بن تومرت من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل ، وخشى أن يطرأ على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى تسليمه إليه والتخلى عنه ، فشرع فى إعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه ، فرأى بعض أولاد القوم شقراً زرقاً ، وألوان آبائهم السمرة والكحل ، فسألهم عن سبب ذلك فلم يجيبوه ، فألزمهم بالأجابة ، فقالوا : نحن من رعية هذا الملك ، وله علينا خراج ، وفى كل سنة تصعد مماليكه إلينا وينزلون فى بيوتنا ويخرجونا عنها ويختلون بمن فيها من النساء ، فتأتى أولادنا على هذه الصفة ، ومالنا قدرة على دفع ذلك عنا ، فقال محمد : والله إن الموت خير من هذه الحياة ، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالحربة؟ فقالوا : بالرغم لا بالرضاء ، فقال : أرأيتم لو أن ناصراً نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون؟ قالوا : كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت ، قالوا : من هو ؟ قال : ضيفكم ، يعنى نفسه فقالوا : السمع والطاعة ، وكانوا يغالون فى تعظيمه ، فأخذ عليهم العهود والمواثيق

واطمأن قلبه، ثم قال لهم: استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح، فاذا جاءوكم فأجروهم على عادتهم وخلوا بينهم و بين النساء وميلوا عليهم بالخمور، فاذا سكروا فآذنونى بهم، فلما حضر المماليك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به محمد، وكان ليلا، فأعلموه بذلك، فأمر بقتلهم بأسرهم، فلم يمض من الليل ساعة حتى أتوا على آخرهم، ولم يفلت منهم سوى مملوك واحد كان خارج المنازل لحاجة له، فسمع التكبير عليهم والوقوع بهم فهرب من غير الطريق حتى خلص من الجبل ولحق بمراكش وأخبر الملك بما جرى، فندم على فوات محمد بن تومرت من يده، وعلم أن الحزم كان مع مالك ابن وهيب فيما أشار به، فجهز من وقته خيلا بمقدار ما يسع وادى تينمل فانه ضيق المسلك، وعلم محمد بن تومرت أنه لا بد من عسكر يصل إليهم، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادى ومراصده، واستنجد لهم بعض المجاورين، فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبى الوادى مثل المطر، وكان ذلك من أول النهار إلى آخره، وحال بينهم الليل، فرجع العسكر إلى الملك وأخبروه بما تم لهم، فعلم أنه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم، فأعرض عنهم، وتحقق محمد بن تومرت ذلك منه، وصفت له مودة أهل الجبل، فعند ذلك استدعى الونشريشى المذكور وقال له: هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة لنستميل بذلك قلوب من ليس يدخل فى الطاعة، ثم اتفقا على أنه يصلى الصبح ويقول بلسان فصيح بعد استعمال العجمة واللكنة فى تلك المدة: إنى رأيت البارحة فى منامى أنه قد نزل إلى مَلَكان من السماء وشقَّا فؤادى وغسَلاه وحَشَياه علماً وحكمة وقرآناً، فلما أصبح فعل ذلك، وهو فصل يطول شرحه، فانقاد له كل صَعْب القياد، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن فى النوم، فقال له محمد بن تومرت فعجل لنا بالبُشْرى فى أنفسنا، وعرفنا أسُعَداء نحن أم أشقياء؟ فقال له: أما أنت فانك المهدى القائم بأمر الله، ومن تبعك سعد، ومن خالفك هلك، ثم قال: أعرض أصحابَكَ علىَّ حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وعمل فى ذلك حيلة

قتل بها مَنْ خالف أمر محمد بن تومرت ، وأبقى من أطاعه ، وشرح ذلك يطول ، وكان غرضه أن لا يبقى فى الجبل مخالف لمحمد بن تومرت ، فلما قتل من قتل علم محمد بن تومرت أن فى الباقين من له أهل وأقارب قتلوا وأنهم لا تطيبُ قلوبهم بذلك فجمعهم و بشرهم بانتقال ملك مراكش إليهم ، واغتنام أموالهم ، فسرهم ذلك ، وسلاّهم عن أهلهم ، و بالجملة فان تفصيل هذه الواقعة طويل ، ولسنا بصدد ذلك ، وخلاصة الأمر أن محمد بن تومرت لم يزل حتى جهز جيشاً عددُ رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل ، وفيهم عبد المؤمن والونشريشى وأصحابه كلهم وأقام هو بالجبل ، فنزل القومُ لحصار مراكش ، وأقاموا عليها شهراً ، ثم كسروا كسرة شنيعة ، وهرب مَنْ سلم من القتل ، وكان فيمن سلم عبد المؤمن ، وقتل الونشريشى ، و بلغ محمد بن تومرت الخبر وهو بالجبل وحضرته الوفاة قبل عود أصحابه إليه ، فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين أن النصر لهم ، وأن العاقبة حميدة فلا يضجروا ، وليعاودوا القتال ، و إن الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم والحرب سِجال ، و إنكم ستقوون و يضعفون و يقلون وتكثرون ، وأنتم فى مبدأ أمرٍ هم فى آخره ، ومثل هذه الوصايا وأشباهها ، وهى وصية طويلة

ثم إنه توفى إلى رحمة الله تعالى فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، ودفن فى الجبل ، وقبره هناك مشهور يزار ، وهذه السنة تسمى عندهم عام البحيرة

وكانت ولادته يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وأول ظهوره ودعائه إلى هذا الأمر سنة أربع عشرة وخمسمائة

وكان رجلا رَبْعَة ، فظيعاً ، أسمر ، عظيم الهامة ، حديد النظر ، وقال صاحب كتاب « المغرب ، فى أخبار أهل المغرب » فى حقه :

آثاره تُنْبيك عن أخْبَاره   حتى كأنك بالعيان تَراهُ

له قدم فى الثرى وهمة فى الثريا ، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيَّا ، أغفل المرابطون حله وربطه ، حتى دبَّ دبيبَ الفلق ، فى الغسق ، وترك

فى الدنيا دَويا ، أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم ، لكان لعزمه فيها غير مسلم ، وكان قوته من غزل أخت له فى كل يوم رغيفاً بقليل [من] سمن أو زيت ، ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ، ورأى أصحابه يوما وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه ، فأمر بضم ذلك جميعه وأحرقه ، وقال : من كان يتبعنى للدنيا فما له عندى إلا ما رأى ، ومن تبعنى للآخرة فجزاؤه عند الله تعالى .

وكان على خمول زيه و بسط وجهه مهَيباً منيع الحجاب ، إلا عند مظلمة ، وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه ، وكان له شعر ، فمن ذلك قوله [من المتقارب] :

أخذت بأعضادهم إذ نأوْا — وَخلَّفك القوم إذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهى — وتُسْمع وعظاً ولا تَسْمعْ
فيا حجر السَّنّ حتى متى — تسن الحديد ولا تقطع

وكان كثيرا ما ينشد [من الطويل] :

تجرد من الدنيا فانك إنما — خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكان أيضاً يتمثل بقول المتنبى [من الوافر] :

إذا غامرت فى شرف مرُوم — فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير — كطعم الموت فى أمر عظيم

و بقوله أيضا [من الطويل] :

ومن عرف الأيام معرفتى بها — وبالناس، رَوَّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به — ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

و بقوله أيضا [من الوافر] :

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم — ولكن معدن الذهب الرغام

ولم يفتح شيئاً من البلاد ، و إنما قرر القواعد ومهدها، ورتب الأحوال ووطدها

وكانت الفتوحات على يد عبد المؤمن كما تقدم ذكره فى ترجمته .

والْهَرْغى — بفتح الهاء ، وسكون الراء ، و بعدها غين معجمة — هذه النسبة إلى هَرْغَة وهى قبيلة كبيرة من المصامدة فى جبل السوس فى أقصى المغرب تنسب إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، يقال : إنها نزلت فى ذلك المكان عندما فتح المسلمون البلاد على يد موسى بن نُصَير الآتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وتُومَرْت — بضم التاء المثناة من فوقها ، وسكون الواو ، وفتح الميم ، وسكون الراء ، بعدها تاء مثناة من فوقها أيضا — وهو اسم بر برى .

والونشريسى — بفتح الواو ، وسكون النون ، وفتح الشين المعجمة ، وكسر الراء ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، و بعدها سين مهملة — هذه النسبة إلى ونشريس ، وهى بليدة بافريقية من أعمال بجاية بن باجة وقسطنطينة المغرب .

وتِينَمَلُ — بكسر التاء المثناة من فوقها ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، و بعدها نون ثم ميم مفتوحة ، ولام مشددة

وقد تقدم الكلام على الجفر فى ترجمة عبد المؤمن ، فليكشف من هناك والله أعلم .

***

(٦٦١)

الإخشيد أبو بكر محمد بن طغج الفرغاني

أبو بكر محمد بن أبي محمد طُغْج بن جُفّ بن يَلْتِكِين بن فُوران بن فُوري ابن خاقان ، الفرغاني الأصل

صاحب سرير الذهب ، المنعوت بالإخشيد[1] ، صاحب مصر ، والشام والحجاز .

أصله من أولاد ملوك فَرْغانة ، وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلبوا إليه من فرغانة جماعة كثيرة ، فوصفوا له جُفّ وغيره بالشجاعة والتقدم في الحروب فوجه المعتصم من أحضرهم ، فلما وصلوا إليه بالغ في إكرامهم ، وأقطعهم قطائع بسُرّ من رأى ، وقطائع جُفّ إلى الآن معروفة هناك ، ولم يزل مقيما بها ، وجاءته الأولاد ، وتوفي جُفّ ببغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل ، وكانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ، فخرج أولاده إلى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معايش ، فاتصل طُغْج بن جُفّ بلؤلؤ غلام ابن طولون ، وهو إذ ذاك مقيم بديار مصر ، فاستخدمه على ديار مصر ، ثم انحاز طُغْج إلى جملة أصحاب إسحاق بن كنداج ، فلم يزل معه إلى أن مات أحمد بن طولون ، وجرى الصلح بين ولده أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون المقدم ذكره وبين إسحاق بن كنداج ، ونظر أبو الجيش إلى طغج بن جف في جملة أصحاب إسحاق فأعجب به ، وأخذه من إسحاق ، وقدمه على جميع من معه ، وقلده دمشق وطبرية ، ولم يزل معه إلى أن قتل أبو الجيش في تاريخه المقدم ذكره ، فرجع طُغْج إلى الخليفة المكتفي بالله ، فخلع عليه ، وعرف له ذلك ، وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن ، فسام طغج أن يجري في التذلل له مجرى غيره ، فكبرت نفس طغج عن ذلك ، فأغرى به الملك المكتفي ، فقبض عليه وحبسه وابنه

---

(١) وقع في ب « الإخشيذ » بالذال معجمة هنا وفي جميع الترجمة ، وانظر ص (١٥٣) الآتية

أبا بكر محمد بن طُغْجَ المذكور ، فتوفى طغج فى السجن ، و بقى ولده أبو بكر بعده محبوساً مدة ، ثم أطلق وخلع عليه ، ولم يزل يراصد العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى أخذ بثأر أبيه هو وأخوه عبيد الله فى الوقت الذى قتله فيه الحسين ابن حمدان .

ثم خرج أبو بكر وأخوه عبيد الله فى سنة ست وتسعين ومائتين ، وهرب عبيد الله إلى ابن أبى الساج ، وهرب أبو بكر إلى الشام ، وأقام متغرباً فى البادية سنة ، ثم اتصل بأبى منصور تكين الجزرى ، فكان أكبر أركانه ، ومما كبر به اسمه سَرِيَّتُه فى البعث أى فى الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم ، وذلك سنة ست وثلثمائة ، وهو يومئذ يتقلد عمان وجبل الشراة من قبل تكين المذكور ، وظفر بهم ، ونجا الحجاج وقد فرغ من أمرهم بأسر من أسره وقتل من قتله ، وشرد الباقين ، وكان قد حج فى هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امرأة تعرف بعجوز ، فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت منه ، فأنفذ إليه خلعاً ، وزاده فى رزقه ، ولم يزل أبو بكر فى صحبة تكين إلى سنة ست عشرة وثلاثمائة ، ثم فارقه بسبب اقتضى ذلك ، ولا حاجة بنا إلى التطويل فى ذكره ، وسار إلى الرملة فوردت كتب المقتدر إليه بولاية الرملة ، فأقام بها إلى سنة ثمانى عشرة ، فوردت كتب المقتدر إليه بولاية دمشق ، فسار إليها ، ولم يزل بها إلى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر فى شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، ودعى له بها مدة اثنتين وثلاثين يوما ، ولم يدخلها ، ثم ولى أبو العباس أحمد بن كَيَغْلَغ الولاية الثانية من قبل القاهر أيضاً لتسع خلون من شوال سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، ثم أعيد إليها أبو بكر محمد بن الإخشيد من جهة الخليفة الراضى بالله بن المقتدر بعد خلع عمه القاهر عن الخلافة ، وضم إليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين وغير ذلك ، ودخل مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة

وقيل : إنه لم يزل على مصر فقط إلى أن توفى الراضى بالله فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وتولى أخوه المقتفى لأمر الله فضم إليه الشام والحجاز وغير ذلك ، والله أعلم .

ثم إن الراضى لقبه بالإخشيد فى شهر رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وثلثمائة وإنما لقبه بذلك لأنه لقب ملوك فَرْغَانة ، وهو من أولادهم كما سبق ذكره فى أول هذه الترجمة ، وتفسيره بالعربى ملك الملوك ، وكل من ملك تلك الناحية لقبوه بهذا اللقب ، كما لقبوا كل من ملك فارس كسرى ، وملك الترك خاقان ، وملك الروم قيصر ، وملك الشام هرقل ، وملك اليمن تبع ، وملك الحبشة النجاشى ، وغير ذلك .

وقيصر كلمة فرنجية تفسيرها بالعربية شُقَّ عنه ، وسببه أن أمه ماتت فى المخاض ، فشق بطنها وأخرج ، فسمى قيصر ، وكان يفتخر بذلك على غيره من الملوك ، لأنه لم يخرج من الرحم ، واسمه أغسطس ، وهو أول ملوك الروم ، وقد قيل : إنه فى السنة الثالثة والأربعين من ملكه ولد المسيح عيسى عليه السلام وقيل : فى السنة السابعة عشرة من ملكه ، فسموا ملوك الروم باسمه ، والله أعلم .

ودعى للاخشيد على المنابر بهذا اللقب ، واشتهر به ، وصار كالعلم عليه

وكان ملكا حازما ، كثير التيقظ فى حروبه ومصالح دولته ، حسن التدبير ، مكرما للجند ، شديد القوى ، لا يكاد يجر قوسه غيره ، وذكر محمد بن عبد الملك الهمدانى فى تاريخه الصغير الذى سماه « عيون السير » أن جيشه كان يحتوى على أربعمائة ألف رجل ، وأنه كان جبانا ، وكان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه فى كل ليلة ألفان منهم ، ويوكل بجانب خيمته الخدم إذا سافر ، ثم لا يثق حتى يمضى إلى خيم الفراشين فينام فيها .

ولم يزل على مملكته وسعادته إلى أن توفى فى الساعة الرابعة من يوم الجمعة

لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، بدمشق ، وحمل تابوته إلى بيت المقدس فدفن به .

وقال أبو الحسين الرازى : توفى فى سنة خمس وثلاثين ، والله أعلم .

وكانت ولادته يوم الاثنين منتصف شهر رجب من سنة ثمان وستين ومائتين ، ببغداد ، بشارع باب الكوفة ، رحمه الله تعالى !

وهو أستاذ كافور الإخشيدى وفاتك المجنون ، وقد تقدم ذكر كل واحد منهما فى ترجمة مستقلة فى هذا الكتاب .

ثم قام كافور المذكور بتربية ابنى مخدومه أحسن قيام ، وهما أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن على ، كما تقدم شرحه فى ترجمة كافور فأغنى عن إعادته ههنا ، وقد ذكرت هناك تاريخ مولد كل واحد منهما ، ومدة ولايته ، وتاريخ وفاته ، على سبيل الاختصار .

واستوفيت حديث كافور ، وما كان منه إلى حين وفاته ، وأن الجند أقاموا بعده أبا الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد المذكور ، وأحلت بقية الكلام فى ذلك على ذكره فى هذه الترجمة

وكان عمر أبى الفوارس أحمد يوم ذاك إحدى عشرة سنة ، وجعلوا خليفته فى تدبير أموره أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بن جف ، وهو ابن عم أبيه ، وكان صاحب الرملة من بلاد الشام ، وهو الذى مدحه المتنبى بقصيدته التى أولها [من الطويل] :

أنا لائمى إن كُنتُ وَقتَ اللوائم
علمتُ بما بى بين تلك المعالم

وقال فى مخلصها :

إذا صُلْتُ لم أُترك مَصالا لفاتك
وإن قلتُ لم أُترك مقالا لعالم

وإلا فخانتنى القوافى وعاقنى عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

وما أحسن قوله فيها :

أرى دون ما بين الفرات وبرقة
ضراباً يمشّى الخيل فوق الجماجم
وطعن غطاريف كأن أكفهم
عرفن الرُدَيْنيَّاتِ قبلَ المعاصم
حمته على الأعداء من كل جانب
سُيوفُ بنى طُغْجَ بن جُفَّ القماقم
همُ المحسنونَ الكر فى حومة الوغى
وأحسنُ منه كَرُّهم فى المكارم
وهم يُحْسنون العفو عن كل مُذْنب ويَحتملون الغرم عن كل غارم
حَيِيُّونَ إلا أنهم فى نزالهم أقل حياء من شفار الصوارم
ولولا احتقارُ الأسد شبهتها بهم ولكنها معدودة فى البهائم

ومنها :

كريم نفضت الناس لما بلغته كأنهمُ ماجَفَّ من زاد قادم
وكاد سرورى لايفى بندامتى على تركه فى عُمرىَ المتقادم

وهى قصيدة طويلة من غرر القصائد .

ولما تقرر الأمر على هذه القاعدة تزوج الحسن بن عبيد الله فاطمة ابنة عمه الإخشيد ، ودعوا له على المنابر بعد أبى الفوارس أحمد بن على وهو بالشام ، واستمر الحال على ذلك إلى يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، ودخل إلى مصر رايات المغاربة الواصلين صحبة القائد جوهر المغربى المقدم ذكره ، وانقرضت الدولة الإخشيدية ، وكانت مدتها أربعاً

وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً .

وكان قد مر ابن عبيد الله من الشام منهزماً من القرامطة ، ودخل على ابنة عمه التى تزوجها ، وحكم وتصرف ، وقبض على الوزير جعفر بن الفرات وصادره وعذبه ، ثم سار إلى الشام فى مستهل شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة .

ولما سير القائد جوهر المغربى جعفر بن فَلَاح إلى الشام ، وملك البلاد حسبما شرحته فى ترجمته ، أسر جعفر بن فلاح أبا محمد بن عبيد الله ، وسيره إلى مصر مع جماعة من أمراء الشام إلى القائد جوهر ، ودخلوا مصر فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ، وكان ابن عبيد الله قد أساء إلى أهل مصر فى مدة ولايته عليهم فلما وصلوا إلى مصر تركوهم وقوفا مشهورين مقدار سبع ساعات ، والناس ينظرون إليهم ، وشمت بهم من فى نفسه منهم شىء ، ثم أنزلوا فى مضرب القائد جوهر ، وجعلوا مع المعتقلين .

وفى السابع عشر من جمادى الأولى أرسل القائد جوهر ولده جعفرا إلى مولاه المعز ، ومعه هدايا عظيمة تجل عن الوصف ، وأرسل معه المأسورين الواصلين من الشام ، وفيهم ابن عبيد الله ، وحملوا فى مركب بالنيل ، وجوهر واقف ينظر إليهم ، فانقلب المركب ، فصاح ابن عبيد الله على القائد جوهر : يا أبا الحسن ، أتريد أن تغرقنا ؟ فاعتذر إليه ، وأظهر التوجع له ، ثم نقلوا إلى مركب آخر ، وكانوا مقيدين ، فلم أقف لهم بعدها على خبر ، والله أعلم .

ثم وجدت بعدها فى تاريخ العتقى أن الحسن المذكور توفى ليلة الجمعة لعشر بقين من شهر رجب سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ، وصلى عليه العزيز نزار بن المعز المذكور فى القصر بالقاهرة .

وذكر الفرغانى فى تاريخه أن ولادة الحسن المذكور فى سنة اثنتى عشرة وثلثمائة ، وأنه توفى فى التاريخ المذكور ، وأن أبا الفوارس أحمد بن على المذكور توفى لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلثمائة ، والله أعلم.

والإخشيد — بكسر الهمزة ، وسكون الخاء المعجمة ، وكسر الشين المعجمة وبعدها ياء ساكنة مثناة من تحتها [ثم دال مهملة][1] — وقد تقدم الكلام على هذه الكلمة .

وطغج — بضم الطاء المهملة ، وسكون الغين المعجمة ، وبعدها جيم .

وجُفّ — بضم الجيم وفتحها ، وبعدها فاء مشددة .

ويَلْتِكِين — بفتح الياء المثناة من تحتها ، وسكون اللام ، وكسر التاء المثناة من فوقها ، وبعدها كاف مكسورة ، ثم ياء مثناة من تحتها ، ثم نون .

وفوران : بضم الفاء ، وفورى : بضم الفاء .

وأما تكين المذكور فانه ولى مصر ثلاث مرات ، وتوفى بها فى المرة الثالثة يوم السبت لست عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلثمائة وتولاها بعده أبو بكر الإخشيد كما تقدم ذكره .

وأما أحمد بن كَيَغْلَغ فقد ذكره الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق فى ترجمة مستقلة ، وذكر ولاية مصر ، قال : وجرت بينه وبين محمد بن تكين الخاصة حروب إلى أن خلص الأمر له ، ثم قدم محمد بن طُغْج أميراً على مصر من قبل الراضى فسلم إليه مصر ، وكان أحمد أديباً شاعراً ، ومن شعره [من الرمل] :

لا يكن للكاس فى كفك يوم الغيث لبث
أوما تعلم أن الغيث ساق مستحث

---

(١) وقع فى ب « ثم ذال معجمة » وهو غير المشهور ، وسقطت هذه الكلمة من بعض النسخ رأسا

ومن شعره أيضاً [من مجزوء الرجز] :

واعطشا إلى فم يمج خمراً من برد
إن قسم الناس فحسـ ـبي بك من كل أحد

ثم قال: ومات أخوه إبراهيم بن كَيَغْلَغ في مستهل ذي القعدة سنة ثلاث وثلثمائة وابنه إسحاق بن إبراهيم هو الذي كان بطرابلس ، وعاق بها أبا الطيب المتنبي لما قدمها من الرملة يريد أنطاكية ليمدحه، وهجاه بقصيدة أولها [من الكامل]:

لهوى القلوب سريرة لا تعلم عرضاً نظرتُ وخلت أني أسلم

ثم قام من عنده فبلغه موته بجبلة ، فقال [من البسيط] :

قالوا لنا مات إسحاق فقلت لهم هذا الدواء الذي يشفي من الحمق

وهذه القصيدة والتي من قبلها موجودتان في ديوانه ، فلذلك تركنا ذكرهما ، وله فيه أيضاً غيرهما من الهجاء ، تجاوز الله عنهم أجمعين !

* * *

(٦٦٢)

أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دُقاق ، الملقب ركن الدين طغرلبك ، أول ملوك السلجوقية

ركن الدين طغرلبك أبو طالب محمد ابن ميكائيل السلجوقي

كان هؤلاء القوم قبل استيلائهم على الممالك يسكنون فيما وراء النهر في موضع بينه وبين بخارى مسافة عشرين فرسخاً ، وهم أترك ، وكانوا عدداً يجل عن الحصر والإحصاء ، وكانوا لا يدخلون تحت طاعة سلطان ، وإذا قصدهم جمع لا طاقة لهم به دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمل ، ولا يصل إليهم أحد ، فلما عبر السلطان محمود بن سبكتكين إلى ما وراء النهر ، وكان سلطان خراسان وغَزْنَة وتلك النواحي ، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى ، وجد زعيم بني سلجوق قوى الشوكة ، كثير العدة ، يتصرف في أمره على المخاتلة والمراوغة ، وينتقل من أرض إلى غيرها ، ويغير في أثناء ذلك على تلك البلاد ، فاستماله ، وجذبه ، ولم يزل يخدعه حتى أقدمه إليه ، فأمسكه وحمله إلى بعض القلاع ، واعتقله ، وشرع في إعمال الحيلة في تدبير أمر أصحابه ، واستشار أعيان دولته في شأنهم ، فمنهم من أشار بإغراقهم في نهر جيحون ، وأشار آخرون بقطع إبهام كل رجل منهم ليتعذر عليهم الرمي والعمل بالسلاح ، واختلفت الآراء في ذلك ، وآخر ما وقع الاتفاق عليه أن يعبر بهم جيحون إلى أرض خراسان ويفرقهم في النواحي ، ويضع عليهم الخراج ، ففعل ذلك ، فدخلوا في الطاعة ، واستقاموا ، وأقاموا على تلك الحالة مدة ، فطمع فيهم العمال وظلموهم ، وامتدت إليهم أيدي الناس ، وتهضموا جانبهم ، وأخذوا من أموالهم ومواشيهم ، فانفصل منهم ألفا بيت ، ومضوا إلى بلاد كِرمان ، وملكها يومئذ الأمير أبو الفوارس بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ، فأقبل عليهم ، وخلع على وجوههم ، وعزم على استخدامهم فلم يستتموا عشرة أيام حتى مات أبو الفوارس ، وخافوا من الدَّيْلم ، وهم أهل ذلك الإقليم ، فبادروا إلى قصد أصبهان ، ونزلوا بظاهرها ، وصاحبها علاء الدولة

أبو جعفر بن كاكويه ، فرغب فى استخدامهم ، فكتب إليه السلطان محمود يأمره بالإيقاع بهم ونهبهم ، فتواقعوا ، وقتل من الطائفتين جماعة ، وقصد الباقون أذربيجان وانحاز الذين بخراسان إلى جبل قريب من خوارزم ، فجرد السلطان محمود جيشاً وأرسله فى طلبهم ، فتتبعوهم فى تلك المفاوز مقدار سنتين ، ثم قصدهم محمود بنفسه ولم يزل فى أثرهم حتي شردهم وشتتهم ، ثم توفى محمود عقيب ذلك فى التاريخ الآتى ذكره فى ترجمته إن شاء الله تعالى ، وقام بالأمر بعده ولده مسعود ، فاحتاج إلى الاستظهار بالجيوش ، فكتب إلى الطائفة التى بأذربيجان لتتوجه إليه ، فجاءه منهم ألف فارس ، فاستخدمهم ، ومضى بهم إلى خراسان ، فسألوه فى أمر الباقين الذين شتتهم والده محمود ، فراسلهم ، وشرط عليهم لزوم الطاعة ، فأجابوه إلى ذلك وأمنهم ، وحضروا إليه ، ورتبهم على ما كان والده قد رتبهم أولا ، ثم دخل مسعود بلاد الهند لاضطراب أحوالها عليه ، فخلت لهم البلاد ، وعادوا إلى الفساد ، وبالجملة فان الشرح فى هذا يطول ، وجرى هذا كله والسلطان طغرلبك المذكور وأخوه داود ليسا معهم ، بل كانا فى موضعهم من نواحى ما وراء النهر ، وجرت بينهما وبين ملكشاه صاحب بخارى وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من أصحابهما ، ودعت حاجتهما إلى اللحوق بأصحابهما الذين بخراسان فكاتبوا مسعوداً ، وسألوه الأمان والاستخدام ، فحبس الرسل وجرد جيوشاً لمواقعة من بخراسان منهم ، فكانت منهم مقتلة عظيمة ، ثم إنهم اعتذروا إلى مسعود ، وبذلوا له الطاعة ، وضمنوا له أخذ خوارزم من صاحبها ، فطيب قلوبهم ، وأفرج عن الرسل الواصلين من جهة ما وراء النهر ، وسألوه أن يفرج عن زعيمهم الذى اعتقله أبوه محمود فى أول الأمر ، فأجابهم إلى سؤالهم ، وأنزله من تلك القلعة ، وحمل إلى بلخ مقيداً فاستأذن مسعوداً فى مراسلة ابنى أخيه طغرلبك وداود المقدم ذكرهما ، فأذن له ، وأرسلهما .

وحاصل الأمر أنهما وصلا إلى خراسان ومعهما أيضاً جيش كبير ، فاجتمع الجميع ، وجرت لهم مع ولاة خراسان ونواب مسعود فى البلاد أسباب يطول شرحها

وخلاصة الأمر : أنهم استظهروا عليهم ، وظفروا بهم ، وأول شيء من البلاد ملكوه : طوس ، وقيل : الرى ، وكان تملكهم فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم بعد ذلك بقليل ملكوا نيسابور ، إحدى قواعد خراسان ، فى شهر رمضان من السنة المذكورة ، وكان السلطان طغرلبك المذكور كبيرهم ، وإليه الأمر والنهى فى السلطنة ، وأخذ أخوه داود المذكور مدينة بلخ ، وهو والد ألب أرسلان ، الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، واتسع لهم الملك ، واقتسموا البلاد ، وانحاز مسعود إلى غَزْنَةَ ، وتلك النواحى ، وكانوا يخطبون له فى أول الأمر ، وعظم شأنهم إلى أن راسلهم الإمام القائم بأمر الله ، وكان الرسول الذى أرسله إليهم القاضى أبا الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى ، مصنف « الحاوى » فى الفقه ، وقد تقدم ذكره ، ثم ملك بغداد والعراق ، فى سادس عشر شهر رمضان المعظم ، سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وأوصاهم بتقوى الله تعالى ، والعدل فى الرّعية ، والرفق بهم ، و بثّ الإحسان إلى الناس .

وكان طغرلبك حليما ، كريماً ، محافظاً على الصلوات الخمس فى أوقاتها جماعة ، وكان يصوم الاثنين والخميس ، و يكثر الصدقات ، و يبنى المساجد ، و يقول : أستحيى من الله سبحانه وتعالى أن أبنى لى داراً ، ولا أبنى إلى جانبها مسجداً .

ومن محاسنه المسطورة : أنه سير الشريف ناصر الدين بن إسماعيل رسولا إلى ملكة الروم ، وكانت إذ ذاك امرأة كافرة ، فاستأذنها فى الصلوات الخمس ، بجامع القسطنطينية[1] جماعة يوم الجمعة ، فأذنت له فى ذلك ، فصلى وخطب للامام القائم ، وكان رسول المستنصر العبيدى صاحب مصر حاضراً ، فأنكر ذلك ، وكان من أكبر الأسباب فى فساد الحال بين المصريين والروم ، ولما تمهدت له

(١) لعله يريد فى الكنيسة التى صارت بعد ذلك بزمن طويل مسجدا .

البلاد ، وملك العراق و بغداد ، سير إلى الامام القائم ، وخطب ابنته ، فشق على القائم ذلك ، واستعفى منه ، وترددت الرسل بينهما ، ذكر ذلك فى الشذور سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، فلم يجد من ذلك بداً ، فزوجه بها ، وعقد العقد بظاهر مدينة تبريز ، ثم توجه إلى بغداد فى سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، ولما دخلها سير طلب الزفاف ، وحمل مائة ألف دينار ، برسم حمل القماش ونقله ، فزفت إليه ليلة الاثنين خامس عشر صفر بدار المملكة ، وجلست على سرير ملبس بالذهب ، ودخل إليها السلطان ، فقبل الأرض بين يديها ، ولم يكشف البرقع عن وجهها فى ذلك الوقت ، وقدم لها تحفاً يقصر الوصف عن ضبطها ، وقبل الأرض ، وخدم ، وانصرف ، وظهر عليه سرور عظيم .

وبالجملة فأخبار الدولة السلجوقية كثيرة ، وقد اعتنى بها جماعة من المؤرخين ، وألفوا فيها تآليف ، اشتملت على تفاصيل أمرهم ، وما قصدت من الإتيان بهذه النبذة إلا التنبيه على مبدأ حالهم ، ليكشف جلية ذلك من يروم الوقوف عليه .

وتوفى طغرلبك المذكور يوم الجمعة ، ثامن شهر رمضان ، سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، بالرى ، وعمره سبعون سنة ، ونقل إلى مرو ، ودفن عند قبر أخيه داود ، وسيأتى ذكره ، فى ترجمة ولده ألب أرسلان ، إن شاء الله تعالى .

وقال ابن الهمذانى فى تاريخه : إنه دفن بالرى فى تربة هناك ، وكذا قال السمعانى فى الذيل ، فى ترجمة السلطان سنجر المقدم ذكره .

وحكى وزيره محمد بن منصور الكندى المقدم ذكره عنه ، أنه قال : رأيت وأنا بخراسان فى المنام كأننى رفعت إلى السماء ، وأنا فى ضباب لا أبصر معه شيئاً ، غير أنى أشم رائحة طيبة ، وإذا بمناد ينادى : أنت قريب من

البارى ، جلت قدرته ! فاسأل حاجتك لتقضى ، فقلت فى نفسى : أسأل طول العمر ، فقيل : لك سبعون سنة ، فقلت : يارب لا تكفينى ، فقيل : لك سبعون سنة ، فقلت : لاتكفينى ، فقيل : لك سبعون سنة ، ذكر هذا شيخنا ابن الأثير فى تاريخه .

ولما حضرته الوفاة قال : إنما مثلى مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف ، فتظن أنها تذبح فتضطرب ، حتى إذا أطلقت تفرح ، ثم تشد للذبح فتظن أنه لجز الصوف فتسكن فتذبح ، وهذا المرض الذى أنا فيه هو شد القوائم للذبح ، فمات منه ، رحمه الله تعالى ! ولم تقم بنت الإمام القائم فى صحبته ، إلا مقدار ستة أشهر .

ولم يخلف ولداً ذكراً ، فانتقل ملكه إلى ابن أخيه ألب أرسلان حسبما شرح فى ترجمته .

وماتت زوجته بنت القائم ، فى سنة ست وتسعين وأربعمائة ، فى سادس المحرم.

وطُغْرُلْبَك ـ بضم الطاء المهملة ، وسكون الغين المعجمة، وضم الراء ، وسكون اللام ، وفتح الباء الموحدة ، وبعدها كاف ، وهو : اسم علم تركى ، مركب من طغرل و بك ، وهو اسم علم بلغة الترك ، لطائر معروف عندهم ، و به سمى الرجل وبك معناه الأمير .

وسَلْجُوق : بفتح السين المهملة ، وسكون اللام ، وضم الجيم ، وسكون الواو وبعدها قاف .

ودُقاق : بضم الدال المهملة ، و بين القافين ألف .

وجَيْحُون ـ بفتح الجيم ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وضم الحاء المهملة ، وسكون الواو، وبعدها نون ـ وهو النهر العظيم الفاصل مابين خوارزم و بلاد خراسان وبين بخارى وسمرقند وتلك البلاد ، وكل ما كان من تلك الناحية فهو

ماوراء النهر ، والمراد بالنهر هو النهر المذكور ، وهو أحد أنهار الجنة التى جاء ذكرها فى الحديث ، أنه يخرج منها أربعة أنهار : نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فالظاهران : النيل ، والفرات ، والباطنان: سيحون ،وجيحون.

وسيحون — بفتح السين المهملة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وضم الحاء المهملة ، وسكون الواو ، وبعدها نون ، وهو وراء جيحون فيما يلى بلاد الترك ، وبينهما مسافة خمسة وعشرين يوماً ، وهذان النهران مع عظمهما ، وسعة عرضهما يجمدان فى زمن الشتاء ، وتعبر القوافل عليهما بدوابهم وأثقالهم ويقيمان كذلك مقدار ثلاثة أشهر

وهذا كله وإن كان خارجا عن مقصودنا ، لكنه متعلق بما نحن فيه ، فانتشر الكلام ، وما يخلو من فائدة يقف عليها من كان يتوقعها ممن بعدت بلاده ، ولا يعرف صورة الحال .

***

(٦٦٣)

عضد الدولة أبو شجاع محمد ابن داود السلجوقى

أبو شجاع محمد بن جعر بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دُقاق ، الملقب عضد الدولة ألب أرسلان ، وهو ابن أخى السلطان طغرلبك المقدم ذكره

وقد تقدم فى ترجمة طغرلبك طرف من أخبار والده داود المذكور ، ولما مات السلطان طغرلبك فى التاريخ المذكور فى ترجمته نص على تولية الأمر لسليمان بن داود أخى ألب أرسلان المذكور ، ولم ينص عليه إلا لأن أمه كانت عنده ، فتبع هواها فى ولدها ، فقام سليمان بالأمر ، وثار عليه أخوه ألب أرسلان ، وعمه شهاب الدولة قتلمش ، وجرت بينهم خطوب ، فلم يتم

لسليمان الأمر ، وكانت النصرة لأخيه ألب أرسلان ، فاستولى على الممالك ، وعظمت مملكته ، ورهبت سطوته ، وفتح من البلاد مالم يكن لعمه طُغْرُلْبَك مع سعة ملك عمه ، وقصد بلاد الشام ، فانتهى إلى مدينة حلب ، وصاحبها يومئذ محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابى ، فحاصره مدة ، ثم جرت المصالحة بينهما ، فقال ألب أرسلان : لا بد له من وطء بساطى ، فخرج إليه محمود ليلا ، ومعه أمه ، فتلقاها بالجميل ، وخلع عليهما وأعادهما إلى البلد ، ورحل عنها .

وقال المأمون فى تاريخه : قيل : إنه لم يعبر الفرات فى قديم الزمان ولا حديثه فى الإسلام ملك تركى قبل ألب أرسلان ، فانه أول من عبره من ملوك الترك ، ولما عاد عزم على قصد بلاد الترك ، وقد كمل عسكره مائتى ألف فارس ، أو يزيدون ، فمد على جيحون المقدم ذكره جسراً ، وأقام العسكر يعبر عليه شهراً ، وَعبر هو بنفسه أيضاً ، ومد السماط فى بليدة يقال لها « فربر » ولتلك البلدة حصن على شاطىء جيحون ، فى السادس من شهر ربيع الأول ، سنة خمس وستين وأربعمائة ، فأحضر إليه أصحابه مستحفظ الحصن ، ويقال له : يوسف الخوارزمى ، وكان قد ارتكب جريمة فى أمر الحصن ، فحمل إليه مقيداً ، فلما قرب منه أمر أن تضرب أربعة أوتاد لتشد أطرافه الأربعة إليها ، ويعذبه ثم يقتله ، فقال يوسف المذكور : مثلى يفعل به هذه المثلة ، فغضب ألب أرسلان ، وأخذ قوسه ، وجعل فيها سهماً ، وأمر بحل قيده ، ورماه فأخطأه وكان مُدِلا برميه ، وكان جالساً على سريره ، فنزل عنه ، فعثر ، ووقع على وجهه ، فبادره يوسف المذكور ، وضربه بسكين كانت معه فى خاصرته ، فوثب عليه فراش أرمنى ، فضربه فى رأسه بمرزبة ، فقتله ، فانتقل ألب أرسلان إلى خيمة أخرى مجروحا ، فأحضر وزيره نظام الملك أبا على الحسن المذكور فى حرف الحاء ،

وأوصى إليه ، وجعل ولده ملك شاه ولى عهده ، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى . ثم توفى يوم السبت ، عاشر الشهر المذكور ، وكانت ولادته سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، وكانت مدة ملكه تسع سنين وأشهراً ، ونقل إلى مرو ، ودفن عند قبر أبيه داود وعمه طُغْرُلْبَك ، ولم يدخل بغداد ولا رآها ، مع أنها كانت داخلة فى ملكه ، وهو الذى بنى على قبر الإمام أبى حنيفة مشهداً ، و بنى ببغداد مدرسة أنفق عليها أموالا عظيمة .

وذكر فى كتاب « زبدة التواريخ » أنه جرح يوم السبت ، سلخ شهر ربيع الأول سنة خمس وستين ، وعاش بعد الجراحة ثلاثة أيام ، والله أعلم .

وقد تقدم ذكر أبيه ، وأنه كان صاحب بَلْخَ ، وتوفى بها فى رجب ، سنة إحدى وخمسين ، وقيل : سنة خمسين وأربعمائة ، ونقل إلى مرو ، ودفن بها ، وقيل : إنه توفى بمرو ، والله أعلم بالصواب ، وقيل : توفى فى صفر ، سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة ، ودفن بمدرسة مرو ، رحمه الله تعالى !.

وقد تقدم ذكر ولده تتش فى حرف التاء .

وأَلْب أرسلان : بفتح الهمزة وسكون اللام و بعدها باء موحدة ، و بقية الاسم معروفة فلا حاجة إلى تفسيرها ، وهو اسم تركى ، معناه شجاع أسد ، فألب شجاع ، وأرسلان أسد .

وأما شهاب الدولة قتلمش بن ميكائيل بن سلجوق ، فانه والد سليمان بن قتلمش جد الملوك أصحاب الروم إلى الآن ، وكان له حصون وقلاع ، من جملتها كردكوه وغيرها من عراق العجم ، وعصى على ابن أخيه ألب أرسلان المذكور وحاربه بالقرب من الرى ، فلما انجلى الأمر وجد قتلمش ميتاً لايدرى كيف كان موته ، وذلك فى المحرم سنة ست وخمسين وأربعمائة ، قيل : إنه مات من الخوف على الملك ، فشق ذلك على ألب أرسلان ، والله تعالى أعلم بالصواب .

(٦٦٤)

غياث الدين
أبو شجاع محمد
ابن ملكشاه
السلجوقي

أبو شجاع محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان المذكور
قبله ، الملقب غياث الدين

وقد تقدم في ترجمة جده تتمة نسبه ، فلا حاجة إلى الإعادة .

ولما توفي والده ملكشاه اقتسم مملكته أولاده الثلاثة ، وهم بركياروق ، وسنجر وقد تقدم ذكرهما ، ومحمد المذكور ، ولم يكن لمحمد وسنجر — وهما من أم واحدة — مع وجود بركياروق حديث ، لأنه كان السلطان المشار إليه ، وهما كالأتباع له ، ثم اختلف محمد وبركياروق ، فدخل محمد المذكور وأخوه سنجر إلى بغداد ، وخلع عليهما الإمام المستظهر بالله ، وكان محمد قد التمس من أمير المؤمنين أن يجلس له ولأخيه سنجر ، فأجيب إلى ذلك ، وجلس لهما في قبة التاج ، وحضر أرباب المناصب وأتباعهم ، وجلس أمير المؤمنين على سُدَّته ، ووقف سيف الدولة صَدَقَة ابن مزيد صاحب الحلة عن يمين السدة ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسه العمامة ، وبين يديه القضيب ، وأفيض على محمد الخلع السبع التي جرت عادة السلاطين بها ، وألبس الطوق والتاج والسوارين ، وعقد له الخليفة اللواء بيده ، وقلده سيفين ، وأعطاه خمسة أفراس بمراكبها ، وخلع على أخيه سنجر خلعة أمثاله ، وخطب لمحمد بالسلطنة في جامع بغداد كجاري عادتهم في ذلك الزمان وتركوا الخطبة لبركياروق لسبب اقتضى ذلك ، ولا حاجة إلى شرحه لطوله ، قال محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه : وكان ذلك في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وقال صاحب تاريخ السلجوقية : أقيمت الخطبة ببغداد للسلطان محمد في سابع عشر ذي الحجة من سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، ووافقه على ذلك غيره ، ثم قال الهمذاني : وكان من الاتفاق العجيب أن خطيب جامع القصر ببغداد لما بلغ إلى الدعاء للسلطان بركياروق ، وأراد أن يذكره ، سبق لسانه للسلطان محمد ودعا له ،

فأتى أصحاب بركياروق وشنعوا بما جرى فى الديوان العزيز، فعزل الخطيب بهذا السبب، ورتبوا ولده موضعه، فلم تتأخر خطبة السلطان محمد عن هذه الواقعة إلا أياما قلائل، وكان ذلك فألا للسلطان محمد، وأما بركياروق فانه كان مريضاً وانحدر إلى واسط، ثم قوى أمره، واستظهر، وجرى بينه وبين أخيه محمد المصاف على الرى، وانكسر محمد، وبالجملة فان شرح ذلك يطول.

وكان السلطان محمد المذكور رجل الملوك السلجوقية وفحلهم، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة، والمعدلة الشاملة، والبر للفقراء والأيتام، والحرب للطائفة الملحدة والنظر فى أمور الرعية، وذكره أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل، وذكر أنه وصل إليها فى تاسع شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ورحل عنها متوجها إلى الموصل فى ثانى عشر الشهر المذكور، ثم قال: ووجدت فى كتاب ذكره الإمام أبو حامد الغزالى فى مخاطبته للسلطان محمد بن ملكشاه: اعلم ياسلطان العالم أن بنى آدم طائفتان: طائفة غفلاء نظروا إلى شاهد حال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل، ولم يتذكروا فى اليقين الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا اليقين الأخير نصب أعينهم، لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم، وما الذى ينزل من الدنيا فى قبورهم، وما الذى يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله.

ثم إن السلطان محمدا استقل بالملك بعد موت أخيه بركياروق فى التاريخ المذكور فى ترجمته، ولم يبق له منازع، وصفت له الدنيا، وأقام على ذلك مدة، ثم مرض زمانا طويلا، وتوفى يوم الخميس الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، بمدينة أصبهان، وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وهو مدفون بأصبهان فى مدرسة عظيمة، وهى موقوفة على الطائفة الحنفية، وليس بأصبهان مدرسة مثلها، ولما أيس من نفسه أحضر ولده محمودا الآتى ذكره إن شاء الله تعالى فقبله وبكى كل واحد منهما، وأمره أن يخرج ويجلس

على تخت السلطنة ، وينظر فى أمور الناس ، فقال لوالده : إنه يوم غير مبارك ، يعنى من طريق النجوم ، فقال : صدقت ، ولكن على أبيك ، وأما عليك فمبارك بالسلطنة ، فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين ، ولم يخلف أحد من الملوك السلجوقية ما خلفه من الذخائر وأصناف الأموال والدواب وغير ذلك مما يطول شرحه ، رحمه الله تعالى !

وسيأتى ذكر والده فى هذا الحرف ، إن شاء الله تعالى .

وتزوج الإمام المقتفى لأمر الله فاطمة ابنة السلطان محمد المذكور ، وكان الوكيل فى قبول النكاح الوزير شرف الدين أبا القاسم على ابن طراد الزينبى ، وذلك فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، وحضر أخوها مسعود العقد ، ونقلت فاطمة ابنة السلطان المذكورة إلى دار الخلافة للزفاف فى سنة أربع وثلاثين ، ويقال: إنها كانت تقرأ وتكتب ، ولها التدبير الصائب ، وسكنت فى الموضع المعروف بدركاه خاتون ، وتوفيت فى عصمته يوم السبت الثانى والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، ودفنت بالرُّصافة ، رحمها الله تعالى ! والله أعلم بالصواب .

***

(٦٦٥)

الملك العادل سيف الدين محمد بن أيوب ابن شادى

أبو بكر محمد بن أبى الشكر أيوب بن شادى بن مروان ،
الملقب بالملك العادل سيف الدين ، أخو السلطان
صلاح الدين ، رحمهما الله تعالى !

وقد تقدم ذكر والده فى حرف الهمزة ، وسيأتى ذكر أخيه صلاح الدين فى حرف الياء إن شاء الله تعالى .

وكان الملك العادل قد وصل إلى الديار المصرية صحبة أخيه وعمه أسد الدين شيركوه المقدم ذكره ، وكان يقول : لما عزمنا على المسير إلى مصر احتجت إلى حرمدان ، فطلبته من والدى ، فأعطانى ، وقال : ياأبا بكر إذا ملكتم مصر أعطنى ملأه ذهباً ، فلما جاء إلى مصر قال : ياأبا بكر أين الحرمدان ؟ فرحت وملأته من الدراهم السود ، وجعلت أعلاها شيئا من الذهب ، وأحضرته إليه ، فلما رآه اعتقده ذهباً ، فقلبه ، فظهرت الفضة السوداء ، فقال : ياأبا بكر ، تعلمت زغل المصريين .

ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه فى حال غيبته فى الشام ، ويستدعى منه الأموال للانفاق فى الجند وغيرهم ، ورأيت فى بعض رسائل القاضى الفاضل أن الحمول تأخرت مدة ، فتقدم السلطان إلى العماد الأصبهانى أن يكتب إلى أخيه الملك العادل يستحثه على إنفاذها حتى قال : يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله ؟ فلما وصل الكتاب إليه ووقف على هذا الفصل شق عليه ، وكتب إلى القاضى الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك ، فكتب القاضى الفاضل جوابه ، وفى جملته « وأما ماذكره المولى من قوله يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله ، فتلك لفظة ما المقصود بها من الملك النجعة ، وإنما المقصود بها من الكاتب السجعة ، وكم من لفظة فظة ، وكلمة فيها غلظه ، حيرت عى الأقلام ،

فسدت خلل الـكلام ، وعلى المملوك الضمان فى هذه النـكتة ، وقد فات لسان القلم منها أى سكتة ، وكان المملوك حاضرا وقد جرت قوارع الاستحثاث ، وصرصر البازى وقوت نفس العاد قوة نفس البغاث ، والسلام » .

ولما ملك السلطان مدينة حلب فى صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة كما تقدم فى ترجمة عماد الدين زنـكى أعطاها لولده الملك الظاهر غازى ، ثم أخذها منه وأعطاها للملك العادل ، فانتقل إليها ، وقصد قلعتها يوم الجمعة الثانى والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة ، ثم نزل عنهما للملك الظاهر غازى ابن السلطان المقدم ذكره لمصلحة وقع الاتفاق عليها بينه و بين أخيه صلاح الدين ، وخرج منها فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول ، ثم أعطاه السلطان قلعة الـكرك ، وتنقل فى الممالك فى حياة السلطان و بعد وفاته ، وقضاياه مشهورة مع الملك الأفضل والملك العزيز والملك الظاهر ، فلا حاجة إلى الإطالة بشرحها .

وآخر الأمر أنه استقل بمملـكة الديار المصرية ، وكان دخوله إلى القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيـع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة ، واستقرت له القواعد .

وقال أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل ، فى ترجمة ضياء الدين أبى الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الوزير الجزرى ، ما مثاله : وجدت بخطه : خطب للملك العادل أبى بكر بن أيوب بالقاهرة ومصر يوم الجمعة الحادى والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وخطب له بحلب يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وملك معها البلاد الشامية والشرقية ، وصفت له الدنيا ، ثم ملك بلاد اليمن فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ، وسير إليها ولده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف المعروف بأطسيس ابن الملك الكامل الآتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وكان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ينوب عنه فى ميّافارقين وتلك النواحى ، فاستولى على مدينة خلاط و بلاد أرمينية ، واتسعت مملكته ، وذلك فى سنة أربع وستمائة .

ولما تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده ، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية والملك المعظم البلاد الشامية ، والملك الأشرف البلاد المشرقية ، والأوحد فى البلاد التى ذكرناها .

وكان ملكا عظيما ، ذا رأى ومعرفة تامة ، قد حنكته التجارب ، حسن السيرة ، جميل الطوية ، وافر العقل ، حازما فى الأمور ، صالحا ، محافظا على الصلوات فى أوقاتها ، متبعا لأرباب السنة ، مائلا إلى العلماء ، حتى صنف له فخر الدين الرازى كتاب «تأسيس التقديس» وذكر اسمه فى خطبته ، وسيره إليه من بلاد خراسان ، و بالجملة فانه كان رجلا مسعودا ، ومن سعادته أنه خلف أولاداً لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم فى نجابتهم و بسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم ، ودانت لهم العباد ، وملكوا أخيار البلاد ، ولما مدح ابن عنين المقدم ذكره الملك العادل بقصيدته الرائية المذكور بعضها فى ترجمته جاء منها فى مديح أولاده المذكورين قوله [من الكامل] :

وله البنون بكل أرض منهم ملك يقود إلى الأعادى عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاله بدراً ، وإن شهد الوغى فغضنفرا
متقدم حتى إذا النقع انجلى بالبيض عن سبى الحريم تأخرا
قوم زكوا أصلا ، وطابوا محتدا وتدفقوا جودا ، وراقوا منظرا
وتعاف خيلهم الورود بمنهل مالم يكن بدم الوقائع أحمرا
يعشو إلى نار الوغى شغفا بها ويجل أن يعشو إلى نار القرى

وكم للشعراء فيهم من القصائد المختارة ، لكن ذكرت هذه لكونها جامعة لجميعهم ، ومن جملة هذه القصيدة فى مدح الملك العادل قوله ولقد أحسن فيه :

العادل الملك الذى أسماؤه ... فى كل ناحية تشرف منبرا
وبكل أرض جنة من عدله الصـــافى أسال نداه فيها كوثرا
عدل يبيت الذئب منه على الطوى
غرثان وهو يرى الغزال الأعفرا
ما فى أبى بكر لمعتقد الهدى ... شك مريب أنه خير الورى
سيف صقال المجد أخلص متنه ... وأبان طيب الأصل منه الجوهرا
ما مدحه بالمستعار له ، ولا ... آيات سودده حديث يفترى
بين الملوك الغابرين وبينه ... فى الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما أتى
فى الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
ملك إذا خفَّت حلوم ذوى النهى ... فى الروع زاد رصانة وتوقُّرا
ثبت الجنان تراع من وثباته ... وثباته يوم الوغى أسدُ الشرى
يقظ يكاد يقول عما فى غد ... ببديهة أغنته أن يتفكرا
حلم تخف له الحلوم وراءه ... رأى وعزم يحقر الإسكندرا
يعفو عن الذنب العظيم تكرما ... ويصد عن قول الخنا متكبرا
لا تسمعن حديث ملك غيره
يُرْوَى فكل الصيد فى جوف الفَرَا

وبالجملة فانها من القصائد المختارة .

ولما قسم البلاد بين أولاده كان يتردد بينهم ، وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى . وكان بالغالب يصيف بالشام لأجل الفواكه والثلج والمياه الباردة، ويشتى فى الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد ، وعاش فى أرغد عيش ، وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد ، حتى يقال : إنه يأكل وحده خروفا لطيفاً مشويا ، وكان له فى النكاح نصيب وافر ، وحاصل الأمر أنه كان ممتعا فى دنياه .

وكانت ولادته بدمشق فى المحرم سنة أربعين ، وقيل : ثمان وثلاثين وخمسمائة .

وتوفى فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، بعالقين ، ونقل إلى دمشق ودفن بالقلعة ثانى يوم وفاته ، ثم نقل إلى مدرسته المعروفة به ، ودفن فى التربة التى بها ، وقبره على الطريق يراه المجتاز من الشباك المركب هناك ، رحمه الله تعالى ! .

وعالقين – بفتح العين المهملة ، و بعد الألف لام مكسورة ، وقاف مكسورة أيضاً ، وياء مثناة من تحتها ساكنة و بعدها نون – وهى قرية بظاهر دمشق ، وكان ذلك عند وصول الفرنج إلى ساحل الشام ، وقصدوا أولا لقاء الملك العادل ، فتوجه قدامهم إلى جهة دمشق ليتجهز و يتأهب إلى لقائهم ، فلما وصل إلى الموضع المذكور توفى به ، فحينئذ أعرض جميع الفرنج عن الشام ، وقصدوا الديار المصرية فكانت وقعة دمياط المشهورة فى ذلك التاريخ ، وتاريخها مضبوط فى ترجمة يحيى بن منصور المعروف بابن جراح فى حرف الياء .

وأطسيس – بفتح الهمزة ، وسكون الطاء المهملة ، وكسر السين المهملة ، و بعدها ياء مثناة من تحتها ، ثم سين ثانية – وهى كلمة تركية معناها بالعربية ماله اسم ، و يقال : إنما سمى بذلك لأن الملك الكامل ما كان يعيش له ولد ، فلما ولد له المسعود المذكور قال بعض الحاضرين فى مجلسه من الأتراك : فى بلادنا إذا كان الرجل لا يعيش له ولد سماه أطسيس ، فسماه أطسيس ، والناس يقولون أقسيس بالقاف ، وصوابه بالطاء ، كذا قالوا والله أعلم .

ثم ظفرت بتاريخ تسلم حلب محرراً ، وهو أن عماد الدين زنكى نزل من قلعتها يوم الخميس الثانى والعشرين من صفر ، وصعد صلاح الدين إليها يوم الاثنين السادس والعشرين من صفر المذكور ، والله أعلم .

***

(٦٦٦)

الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن العادل الأيوبى

أبو المعالى محمد ، ابن الملك العادل المذكور ، الملقب بالملك الكامل ناصر الدين

قد سبق فى ترجمة والده طرف من خبره .

ولما وصل الفرنج إلى دمياط كما تقدم ذكره كان الملك الكامل فى مبدأ استقلاله بالسلطنة ، وكان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء ، وفيهم عماد الدين أحمد بن المشطوب المذكور فى حرف الهمزة ، فاتفقوا مع أخيه الملك الفائز سابق الدين إبراهيم بن الملك العادل ، وانضموا إليه ، وظهر للملك الكامل منهم أمور تدل على أنهم عازمون على تفويض السلطنة إليه ، وخلع الملك الكامل ، واشتهر ذلك بين الناس .

وكان الملك الكامل يداريهم لكونه فى قبالة العدو ، ولا يمكنه المناظرة والمنافرة ، وطول روحه معهم ، ولم يزل على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المعظم صاحب دمشق المذكور فى حرف العين يوم الخميس تاسع عشر ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة ، فأطلعه الملك الكامل فى الباطن على صورة الحال ، وأن رأس هذه الطائفه ابن المشطوب ، فجاءه يوما على غفلة إلى خيمته ، واستدعاه فخرج إليه ، فقال له : أريد أن أتحدث معك سراً فى خلوة ، فركب فرسه وسار معه وهو جريده وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ، ويثق إليهم ، وقال لهم : اتبعونا ، ولم يزل [الملك] المعظم يشاغله بالحديث ، ويخرج معه من شىء إلى شىء ، حتى أبعد عن المخيم ، ثم قال له : يا عماد الدين ، هذه البلاد لك ، ونشتهى أن تهبها لنا ، ثم أعطاه شيئاً من النفقة ، وقال لأولئك المجردين : تسلموه حتى تخرجوه من الرمل ، فلم يسعه إلا امتثال الأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة فى تلك الحال .

ثم عاد المعظم إلى أخيه الكامل ، وعرفه صورة ما جرى ، ثم جهز أخاه الملك الفائز المذكور إلى الموصل لإحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق ، فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد ، فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقى من الأمراء الموافقين لهما ، ودخلوا فى طاعة الملك الكامل كرها لا طوعا ، وجرى فى قضية دمياط ما هو مشهور ، فلا حاجة إلى الإطالة بذكره ، ولما ملك الفرنج دمياط وصارت فى قبضتهم خرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر ، ونزلوا فى رأس الجزيرة التى دمياط فى برها ، وكان المسلمون قبالتهم فى القرية المعروفة بالمنصورة ، والبحر حائل بينهم ، وهو بحر أشموم ، ونصر الله تعالى بمنه وجميل لطفه المسلمين عليهم ، كما هو مشهور ، وجلا الفرنج عن منزلهم ليلة الجمعة سابع شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة ، وتم الصلح بينهم و بين المسلمين فى حادى عشر الشهر المذكور ، ورحل الفرنج عن البلاد فى شعبان من السنة المذكورة ، وكانت مدة إقامتهم فى بلاد الإسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهراً وأربعة عشر يوما ، وكفى الله شرهم ، والحمد لله على ذلك ، وقد فصلت ذلك فى ترجمة يحيى بن جراح فيكشف هناك .

فلما استراح خاطر الملك الكامل من جهة هذا العدو تفرغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد ، و بدد شملهم وشردهم ، ودخل إلى القاهرة وشرع فى عمارة البلاد واستخراج الأموال من جهاتها ، وكان سلطانا عظيم القدر ، جميل الذكر ، محباً للعلماء ، متمسكا بالسنة النبوية ، حسن الاعتقاد ، معاشراً لأرباب الفضائل ، حازما فى أموره ، لا يضع الشىء إلا فى موضعه من غير إسراف ولا إقتار وكان يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ، و يشاركهم فى مباحثاتهم ، و يسألهم عن المواضع المشكلة من كل فن ، وهو معهم كواحد منهم ، وكان يعجبه هذان البيتان و ينشدهما كثيراً ، وهما [من مخلع البسيط] :

ما كنت من قبل ملك قلبى　　تصدُّ عن مدنف حزين

وإنما قد طمعت لما حللت فى موضع حصين

وبنى بالقاهرة دار حديث، ورتب لها وقفاً جيداً، وكان قد بنى على ضريح الإمام الشافعى – رضى الله عنه! – قبة عظيمة، ودفن أمه عنده، وأجرى إليها الماء ومدده بعيد، وأنفق على ذلك مالا عظيما.

ولما مات أخوه الملك المعظم صاحب الشام فى التاريخ المذكور فى ترجمته وقام الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصرية قاصداً أخذ دمشق منه، وجاءه أخوه الملك الأشرف مظفر الدين موسى الآتى ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى، فاجتمعا على أخذ دمشق، بعد فصول جرت يطول شرحها، وملك دمشق فى أول شعبان سنة ست وعشرين وستمائة، وكان يوم الاثنين، فلما ملكها دفعها إلى أخيه الملك الأشرف، وأخذ عوضها من بلاد الشرق حران والرها وسروج والرقة ورأس عين، وتوجه إليها بنفسه فى تاسع شهر رمضان المعظم من السنة.

واجتزت بحران فى شوال سنة ست وعشرين وستمائة، والملك الكامل مقيم بها بعسكر الديار المصرية، وجلال الدين خوارزم شاه يوم ذاك محاصر خِلاط، وكانت لأخيه الملك الأشرف، ثم رجع إلى الديار المصرية.

ثم تجهز فى جيش عظيم وقصد آمد فى سنة تسع وعشرين وستمائة فأخذها مع حصن كيفا وتلك البلاد من الملك المسعود ركن الدين مودود بن الملك الصالح أبى الفتح محمد بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود ابن نور الدولة سقمان – ويقال: سكمان – بن أرتق، وقد تقدم ذكر جدهم أرتق، أخبرنى بعض أهل آمد ممن عنده معرفة أن آمد انبرم أمرها وتسلمها الملك الكامل فى تاسع عشر ذى الحجة من السنة المذكورة، ودخلها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب فى العشرين من الشهر المذكور، ودخلها الكامل فى مستهل المحرم سنة ثلاثين وستمائة.

ولما مات الملك الأشرف فى التاريخ الآتى ذكره إن شاء الله تعالى فى

ترجمته جعل ولى عهده أخاه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل ، فقصده الملك الكامل وانتزع منه دمشق ، بعد مصالحة جرت بينهما ، وذلك فى التاسع من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وأبقى له بعلبك وأعمالها و بصرى وأرض السواد وتلك البلاد .

ولما ملك البلاد الشرقية وآمد وتلك النواحى استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أبا المظفر أيوب ، واستخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصرية ، وقد تقدم فى ترجمة الملك العادل أنه سير الملك المسعود إلى اليمن ، وكان أكبر أولاد الملك الكامل ، وملك الملك المسعود مكة حرسها الله تعالى و بلاد الحجاز مضافة إلى اليمن ، وكان رحيل الملك المسعود عن الديار المصرية متوجها إلى اليمن يوم الاثنين سابع عشر رمضان المعظم سنة إحدى عشرة وستمائة ، ودخل مكة شرفها الله تعالى فى الثالث من ذى القعدة من السنة ، وخطب له بها ، وحج ، ودخل زبيد وملكها مستهل المحرم سنة اثنتى عشرة ثم ملك مكة شرفها الله تعالى فى ربيع الآخر من سنة عشرين وستمائة ، أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسنى ، واتسعت المملكة للملك الكامل ، ولقد حكى لى من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة شرفها الله تعالى أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال : مالك مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، خادم الحرمين الشريفين ، الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين .

و بالجملة فقد خرجنا عن المقصود ، ولقد رأيته بدمشق فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة عند رجوعه من بلاد الشرق ، واستنقاذه إياها من يد علاء الدين كيقباد ابن كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش ابن إسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقى صاحب الروم ، وهى وقعة مشهورة

يطول شرحها ، وفى خدمته يومئذ بضعة عشر ملكا منهم أخوه الملك الأشرف ولم يزل فى علو شأنه ، وعظم سلطانه ، إلى أن مرض بعد أخذ دمشق ولم يركب ، وكان ينشد فى مرضه كثيراً [من الخفيف] :

يا خليلى خبرانى بصدق　　كيف طعم الكرى فانى نسيت

ولم يزل كذلك إلى أن توفى يوم الأربعاء بعد العصر ، ودفن فى القلعة بدمشق يوم الخميس الثانى والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكنت بدمشق يومئذ ، وحضرت الصبحة يوم السبت فى جامع دمشق لأنهم أخفوا موته إلى وقت صلاة الجمعة ، فلما حضرت الصلاة قام بعض الدعاة على العريش الذى بين يدى المنبر ، وترحم على الملك الكامل ، ودعا لولده الملك العادل صاحب مصر ، وكنت حاضراً فى ذلك الموضع ، فضج الناس ضجة واحدة ، وكانوا قد أحسوا بذلك ، لكنهم لم يتحققوه إلا ذلك اليوم .

وترتب ابن أخيه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل فى نيابة السلطنة بدمشق ، عن الملك العادل بن الملك الكامل صاحب مصر ، باتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق ، ثم بنى له تربة مجاورة للجامع ، ولها شباك إلى الجامع ، ونقل إليها .

وكانت ولادته فى سنة ست وسبعين وخمسمائة فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول ، كذا وجدته بخط من يعتنى بالتاريخ ، والله أعلم .

وتوفى ولده الملك المسعود بمكة شرفها الله تعالى فى ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة ، ومولده فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان بمكة رجل من المجاورين يقال له « الشيخ صديق بن بدر بن جناح » من أكراد بلد إربل ، وكان من كبار الصالحين ، فلما حضرت الملك المسعود الوفاة أوصى أنه إذا مات لا يجهز بشىء من ماله ، بل يسلم إلى الشيخ صديق يجهزه من عنده بما يراه ، فلما

مات تولى الشيخ صديق أمره ، وكفنه فى إزار كان يحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة ، وجهزه تجهيز الفقراء على حسب قدرته ، وكان أوصى أنه لا يبنى عليه قبة ، بل يدفن فى جانب المعلى جبانة مكة شرفها الله تعالى ، و يكتب على قبره « هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى أطسيس بن محمد بن أبى بكر بن أيوب » ففعل به ذلك ، ثم إن عتيقه الصارم قايماز المسعودى الذى تولى القاهرة بعد ذلك بنى عليه قبة ، ولما بلغ الملك الكامل ما فعله الشيخ صديق كتب إليه وشكره فقال : مافعلت ما أستحق به الشكر ، فان هذا رجل سألنى القيام بأمره فساعدته بما يجب على كل أحد القيام به من موارة الميت ، فقيل له : تكتب جواب الملك الكامل؟ فقال : ليس لى إليه حاجة ، وكان قد سأله أن يسأله حوائجه كلها ، فما رد له جوابا ، أخبرنى بذلك كله من كان حاضراً ، و يعرف مايقول ، والله أعلم .

وأما ولده الملك العادل فانه أقام فى المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وستمائة ، فقبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبيس ، وطلبوا أخاه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان الصالح قد صالح الملك الجواد على أن أعطاه دمشق ، وعوضه عنها سنجار وعانة ، وقدم الصالح دمشق متملكا لها فى مستهل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة ، ثم إن عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بعلبك اتفق مع الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص على أخذ دمشق اغتيالا ، وكان الملك الصالح نجم الدين قد خرج منها قاصداً الديار المصرية ليأخذها من أخيه الملك العادل ، فلما استقر بنابلس وأقام بهامدة جرت هذه الكائنة فى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر ، فهجما دمشق بعساكرهما ، وأخذاها ، وهى قضية مشهورة ، فلما أخذا دمشق رجع العساكر التى كانت مع الصالح نجم الدين إليها ليدرك كل واحد منهم أهله و بنيه ، وتركوا الملك الصالح بنابلس وحيداً فى نفر قليل من غلمانه وأتباعه ، فجاءه الملك الناصر ابن الملك

المعظم صاحب الكرك ، وقبض عليه ليلة السبت الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة ، وأرسله إلى الكرك ، واعتقله بها ، ثم إنه أفرج عنه فى ليلة السبت السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة ، وشرح ذلك يطول ، واجتمع هو والملك الناصر على نابلس ، فلما قبض الملك العادل فى التاريخ المذكور وطلب الأمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب فجاءهم ومعه الملك الناصر صاحب الكرك ، ودخلا القاهرة فى الساعة الثانية من يوم الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وكنت إذ ذاك بالقاهرة ، وأدخل أخاه الملك العادل فى محفة وحوله جماعة كثيرة من الأجناد يحفظونه ، وحمله من خارج البلد إلى القلعة ، واعتقله عنده فى داخل الدار السلطانية ، و بسط العدل فى الرعية وأحسن إلى الناس ، وأخرج الصدقات ، ورمم ماتهدم من المساجد ، وسيرته طويلة ، ثم إنه أخذ دمشق من عمه الملك الصالح فى يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وأبقى عليه بعلبك ، ومضى بعد ذلك إلى الشام فى سنة ست وأربعين ، بعد أن كان عاد إلى مصر ، ودخل دمشق فى أوائل شعبان من السنة ، وسير العساكر لحصار مصر ، وقد كان الملك الناصر صاحب حلب أخذها من صاحبها الأشرف ابن صاحب حمص ، ثم رجع فى أوائل سنة سبع وأربعين وهو مريض ، وقصد الفرنج دمياط وهو مقيم بأشموم ينتظر وصولهم ، وكان وصولهم إليها يوم الجمعة لعشرين من صفر سنة سبع وأربعين وستمائة ، وملكوا بر الجزيرة يوم السبت ، وملكوا دمياط يوم الأحد ثلاثة أيام متوالية لأن العسكر وجميع أهلها تركوها وهربوا منها ، وانتقل الملك الصالح من أشموم إلى المنصورة ، ونزل بها وهو فى غاية المرض ، وأقام بها على تلك الحال إلى أن توفى هناك ليلة الاثنين نصف شعبان من السنة المذكورة ، وحمل إلى القلعة الجديدة التى فى الجزيرة ، وترك بها فى مسجد هناك ، وأخفى موته مقدار ثلاثة أشهر ، والخطبة باسمه ، إلى أن وصل ولده الملك المعظم توران شاه من حصن كيفا على البرية إلى المنصورة ، فعند

ذلك أظهروا موته ، وخطب لولده المذكور ، ثم بعد ذلك بنى له بالقاهرة إلى جنب مدارسه تربة ، ونقل إليها فى رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة .

وكانت ولادته فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة ، هكذا وجدته بخط ابنه مكتوباً ، ورأيت فى مكان آخر أنه ولد فى ليلة الخميس الخامس عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وفى مكان آخر أنه ولد فى الرابع من المحرم سنة أربع وستمائة ، والله تعالى أعلم .

وأمه جارية مولدة سمراء اسمها ورد المنى ، رحمه الله تعالى !.

وكانت ولادة الملك العادل فى ذى الحجة سنة سبع عشرة وستمائة ، بالمنصورة ووالده فى قبالة العدو على دمياط ، وتوفى فى الاعتقال يوم الاثنين ثانى عشر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة ، بقلعة القاهرة ، ودفن فى تربة شمس الدولة خارج باب النصر ، رحمه الله تعالى !

هذه الفصول ذكرت خلاصتها ، ولو فصلتها لطال الشرح ، والمقصود الاختصار وطلب الإيجاز مع أنى كنت حاضراً أكثر وقائعها .

وكان للملك العادل ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيما بالقلعة ، فلما وصل ابن عمه الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة سيره من هناك ، ونقله إلى قلعة الشوبك .

فلما جرت الكائنة على المعظم أحضر متسلم قلعة الكرك الملك المغيث من الشوبك ، وسلم إليه الكرك والشوبك وتلك النواحى ، وهو الآن ملكها ، ولم يزل مالكها إلى سنة إحدى وستين وستمائة ، فنزل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس المذكور فى ترجمة القاضى مجلى صاحب كتاب الذخائر ، بالغور ، وراسله و بذل له من تسليم البلد بدلا ، وحلف له ، ويقال : إنه ورى فى اليمين ، ولم يستقص فيها ، فنزل [إليه] إلى منزله بالطور من الغور ، فقبض عليه ساعة وصوله (١) وجهزه إلى قلعة الجبل بمصر ، واعتقله بها .

---

(١) فى ب «فقبض عليه ساعة ، ووصله »

وكان للمغيث ولد ينعت بالعزيز فخر الدين عثمان صغير السن ، فأمّره الملك الظاهر ، ولم يزل فى خدمته أميرا إلى أن فتح أنطاكية فى شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة ، وتوجه من الشام بعد ذلك إلى مصر ، فلما دخل إليها قبض عليه واعتقله ، وهو الآن معتقل بقلعة الجبل المذكورة ، وهذه قلعة الكرك هى المذكورة فى ترجمة القاضى [مجلى] أيضاً ، وكان الملك الظاهر يخاف على أولاده فكان يبالغ فى تحصين القلعة المذكورة ، ويملؤها بالذخائر والأموال ، ولما جرى لولده السعيد ما ذكرنا فى ترجمة القاضى مجلى وتوجه إلى الكرك نفعته تلك الذخائر ووجدها عوناً له على زمانه .

ولما توفى الملك السعيد ابن الملك الظاهر فى الكرك — كما ذكرنا فى الترجمة المذكورة — ملكها بعده أخوه الملك المسعود نجم الدين خضر ابن الملك الظاهر باتفاق ممن كان بها من مماليك أبيه ومن أمرائه ، وهو الآن متملكها مقيم بها ، ثم نزل منها بالأمان بعد حصاره فيها فى مدة الأمير حسام الدين طريطر المنصورى كان نائب المملكة ، وتقدم العساكر ، ونزل معه أخوه الملك العادل سلامش بعد أخيه السعيد ، وتوجه إلى الديار المصرية إلى خدمة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى المذكور فى ترجمة القاضى مجلى فى أوائل هذا الحرف ، فأحسن السلطان إليهما ، وجعل الملك خضرا وأخاه سلامش أميرين ، وأقطعهما الإقطاعات الجيدة ، وأسكنهما بقلعة الجبل المنصور ، واستمر الأمر على ذلك ، وهما مختلطان به فى جملة أهله ملازمان للركوب مع ولديه السلطان الملك الصالح علاء الدين والملك الأشرف صلاح الدين خليل .

(1)[ولم يزل الأمر كذلك إلى سنة ثمان وثمانين وستمائة ، فجرى من الأمر ما اقتضى الحال معه للقبض على الأميرين نجم الدين خضر و بدر الدين سلامش المذكورين واعتقالهما بقلعة الجبل ، والملك الصالحى الملك المنصور المذكور ، فانه كان ولى

---

(١) من هنا إلى نهاية السطر التاسع فى صفحة ١٨١ ساقط من أكثر أصول ب ، وهو الحق لأنه حكاية عن حوادث وقعت بعد ابن خلكان الذى توفى فى عام ٦٨١ من الهجرة

عهد أبيه ، وكان حازما شديد الرأى . وتوفى فى حياة والده فى شهر شعبان سنة سبع وثمانين وستمائة ، ثم إن والده جعل ولاية العهد إلى ولده الملك الأشرف المذكور ، وقلده الملك فى شهر شوال سنة سبع وثمانين المذكورة .

وهو من الملوك المشهورين بعلو الهمة والسعادة والحزم

وتوفى الملك المنصور قلاوون فى يوم السبت من شهر ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة فى دهليزه بمسجد التين (١) .

وكان قد خرج على نية الغزاة إلى عكا ، فعرض له مرض ، فقضى به نحبه وعادت العساكر إلى مستقرها

واستقر ولده السلطان الملك الأشرف بالمملكة بجمع المعاقل والبلاد ، ولم ير فى الملوك أكثر سعادة منه ، ولا أعلى همة ، ولا أكرم نفساً ، ولا أكثر وفاء لمن خدمه ولاذ به .

وفى أيام الملك المنصور فتحت طرابلس الشام يوم الثلاثاء تاسع ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وستمائة ، وكان نازلها بنفسه وعساكره ، وفتحها قهراً بالسيف ، واستولى القتل والأسر والنهب على أهلها ، وملك ما جاورها من قلعة جبيل والبشرون وغير ذلك ، ثم إن الملك الأشرف المذكور بعد استقلاله بالملك بمدة كثيرة خرج بنفسه وجمع عساكره وتوجه إلى عكا ، فنازلها فى يوم ، وكان خروجه من مصر فى يوم ، واجتمع على عكا جميع الناس الجند والمتطوعة وغيرهم وسائر البلاد ، ويسَّر الله فتحها فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة ، فى مثل الساعة من اليوم من الشهر الذى أخذت فيه من المسلمين ، إلا أن الشهر كان الأولى ، وأخذت من المسلمين فى أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب فى الآخرة سنة ثمان وخمسين ، وأن السلطان الملك الأشرف صلاح الدين أخرج أهلها منها وقتلهم جميعاً بالسيف ، وكذلك عمل الفرنج بالذى كان فيها من المسلمين لما ملكوها فى أيام صلاح الدين ، فانظروا إلى هذا الاتفاق العجيب فى أمور كثيرة

---

(١) مسجد التين : كان فى قرب المطرية

كما أخذت من صلاح الدين مَلَكَهَا صلاح الدين وقتل المسلمون بها ثم قتل الكافرون بها ، وأخذت من المسلمين ثانى ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، ثم ملكها المسلمون ثانى ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ، فسبحان مقدر الأمور .

ثم أخذت عزائم الفرنج بأخذ عكا ، فهرب من كان ببيروت وعليت وهما حصنان عظيمان لا تطرق الأوهام إليهما ، وملكها المسلمون بحول الله وقوته من غير منازع .

وملكوا أيضاً بيروت وحيفا فلم يبق للفرنج من الساحل قلعة ولا بلد ولا قرية ولا جزيرة إلا وملك المسلمون ذلك جميعه] (١) .

وتوفى المعظم توران شاه يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة ، والله تعالى أعلم .

***

(١) إلى هنا ينتهي الساقط من أكثر أصول ب ، وانظر ص ١٧٩

(٦٦٧)

أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، المعروف بابن الزيات ، وزير المعتصم

أبو جعفر محمد ابن عبد الملك (ابن الزيات) وزير المعتصم

كان جده أبان رجلا من أهل جَبُّل من قرية كان بها يقال لها الدسكرة ، يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد ، فسمت بمحمد المذكور همته على ما يأتي ذكره فيه ، وكان من أهل الأدب الظاهر ، والفضل الباهر ، أديباً فاضلا بليغاعالمابالنحو واللغة .

ذكر ميمون بن هرون الكاتب أن أباعثمان المازنى لما قدم بغداد فى أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى علم النحو ، فاذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان : ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب ، يعنى ابن الزيات المذكور ، فاسألوه ، واعرفوا جوابه ، فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذى يرتضيه أبو عثمان و يوقفهم عليه .

وقد ذكره دِعْبِل بن على الخزاعى المقدم ذكره فى كتاب «طبقات الشعراء» وذكره أبو عبد الله هرون بن المنجم الآتى ذكره إن شاء الله تعالى فى كتاب «البارع» وأورد له من شعره عدة مقاطيع .

وكان فى أول أمره من جملة الكتاب ، وكان أحمد بن شاذى البصرى وزير المعتصم ، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه ، وكان فى الكتاب ذكر الكلأ ، فقال له المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب ، فقال المعتصم : خليفة أمى ووزير عامى ؟! وكان المعتصم ضعيف الكتابة ، ثم قال : ابصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد بن الزيات المذكور ، فأدخلوه إليه ، فقال له : ما الكلأ ؟ فقال : الكلأ العشب على الإطلاق ، فان كان رطبا فهو الخلا ، فاذا يبس فهو الحشيش ، وشرع فى تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره ، وحكمه ، وبسط يده .

وقد ذكرنا ما كان بينه و بين القاضى أحمد بن أبى دواد الإيادى فى ترجمته .

وحكى أبو عبد الله البيمارستانى أن أبا حفص الكرمانى كاتب عمرو بن مسعدة كتب إلى محمد بن عبد الملك المذكور : أما بعد ، فانك ممن إذا غرس سقى غرسه ، و إذا أسس بنى أسه ، و يجتنى ثمرة غرسه ، و بناؤك فى وُدّى قد وهى وشارف الدروس ، وغرسك عندى قد عطش وأشفى على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست وسقْى ما غرست ، فقال البيمارستانى : فحدثت بذلك عبد الرحمن العطوى ، فقال فى هذا المعنى يمدح محمد بن عمران بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، ثم وجدت الأبيات فى ديوان أبى نواس الذى جمعه الأصبهانى ، وهى [من الكامل] :

إن البرامكة الكرام تعلموا ... فعل الجميل وعلموه الناسا
كانوا إذا غرسوا سقَوْا ، و إذا بنوا ... لا يهدمون لما بنوه أساسا
و إذا هُمُ صنعوا الصنائع فى الورى ... جعلوا لها طيب البقاء لباسا
فعلام تسقينى — وأنت سقيتنى ... كأس المودة — من جفائك كاسا
آنستنى متفضلا ، أفلا ترى ... أن القطيعة توحش الإيناسا ؟

وقد تقدم فى ترجمة عبد المحسن الصورى هذا المعنى أيضا .

ولابن الزيات المذكور أشعار رائقة ، فمن ذلك قوله [من الوافر] :

سماعا يا عباد الله منى ... وكفوا عن ملاحظة الملاح
فان الحب آخره المنايا ... وأوله يهيج بالمزاح
وقالوا دع مراقبة الثريا ... ونم فالليل مسودُّ الجناح
فقلت وهل أفاق القلب حتى ... أفرق بين ليلى والصباح .

وله على ما نقلته من خط بعض الأفاضل [من مجزوء الخفيف] :

ظالم ما علمته ... معتدٍ لا عدمته
مُطْمِع فى الوصال ممـ ... ـتنع حين رمته

قال إذ أفصح البكا ء بما قد كتمته
لو بكى طول عمره بدم ما رحمته
رب هم طويت فيـه وغيظ كظمته
وحياة سئمتها والهوى ماسئمته

وذكر الخطيب فى تاريخ بغداد أن ابن الزيات المذكور كان يعشق جارية من جوارى القيان ، فبيعت من رجل من أهل خراسان ، فأخرجها ، قال : فذهل عقل ابن الزيات حتى غشى عليه ، ثم إنه أنشأ يقول [من البسيط] :

ياطول ساعات ليل العاشق الدنفِ وطول رعيته للنجم فى السدف
ماذا توارى ثيابى من أخى حُرَق كأنما الجسم منـه دقة الألف
ما قال يا أسفا يعقوبُ من كمد إلا لطول الذى لاقى من الأسف
مَنْ سره أن يرى مَيْت الهوى دنفا فليستدلّ على الزيات وليقف

ومن شعره ماذكره فى كتاب « البارع » يرثى جاريتـه ، وقد خلفت له ابن ثمان سنين ، وكان يبكى عليها فيتألم بسببه وهو [من الطويل] :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بُعَيْدَ الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمـه يبيتان تحت الليل ينتجيان(١)
وبات وحيداً فى الفراش تجيبه بلابل قلب دائم الخفقان
فهبنى أطلت الصبر عنها لأننى جليد، فمن للصـبر بابن ثمان؟
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسمه ولا يأتسى بالناس فى الحَدَثان

وله ديوان رسائل جيد .

ومدحه البحترى بقصيدته الدالية وأحسن فى وصف خطه وبلاغته ، وقال فى آخرها [من الخفيف] :

وأرى الخلق مجمعين على فضـ ـلك من بين سيد ومَسُودِ

---

(١) فى ب « ينتحبان »

عرف العالمون فضلك بالعلـــم وقال الجهال بالتقليد

ولأبى تمام فيه مدائح وجماعة من شعراء عصره ، ولإبراهيم بن العباس الصولى فيه مقاطيع يعبث به فيها ، فمن ذلك قوله [من الطويل] :

أخ كنت آوى منه عند ادكاره إلى ظل آباء من العز شامخ

سعت نُوَبُ الأيام بينى و بينه فأقلعن منــه عن ظلوم وصارخ

وإنى وإعدادى لدهرى محمدا كملتمسٍ إطفاءَ نار بنافخ

ومن ذلك قوله [من الطويل] :

دعوتك عن بلوى ألمت ضرورة فأوقدت عن طعن علىَّ سعيرَها

وإنى إذا أدعوك عند ملمة كداعية عند القبور نصيرَها

وله أيضا فيه [من الطويل] :

أبا جعفر خفْ نبْوة بعد دولة وقصِّر قليلا عن مَدَى غلَوَاتكا

فإن يك هذا اليوم يوم حويته فإن رجائى فى غد كرجائكا

وله فيه أيضا [من المنسرح] :

قلت لها حين أ كثرت عذَلى : ويحك ! أزرت بنا المروآت

قالت : فأين السراة ؟ قلت لها : لا تسألى عنهمُ فقد ماتوا

قالت : ولم ذاك ؟ قلت لها : هذا وزير الإمام زيات

وله أيضاً فيه [من الطويل] :

لئن صدرت بى زورة عن محمد بمنع لقد فارقته ومعى قدْرى

أليست يداً عنــدى لمثل محمد صيانته عن مثل معروفه شكرى

وله فيه أيضا [من الطويل] :

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر

فقد كشف الإثراء منك خلائقا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

(١) فى ب « عرف العاملون » ولا يتفق مع عجز البيت

وله فيه أيضاً [من الكامل] :

من يشترى منى إخاء محمد   أم من يريد إخاءه مجّانا

أم من يخلّص من إخاء محمد   وله مناه كائنا ما كانا

وله أشياء غير ذلك ، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح.

وفيه يقول بعضهم ، ولا أستحضره الآن ، ثم ظفرت به بعد ذلك ، وهو القاضى أحمد بن أبى دواد الإيادى المقدم ذكره ، وكان ابن الزيات المذكور قد هجاه بتسعين بيتاً ، فعمل القاضى أحمد فيه بيتين وهما [من السريع] :

أحسن من تسعين بيتاً سدى   جمعك معناهن فى بيت

ما أحوج الملك إلى مطْرة   تغسل عنه وضَر الزيت

ونسب صاحب العقد هذين البيتين إلى على بن الجهم ، والأول حكاه فى الأغانى والله تعالى أعلم .

ولما مات المعتصم وقام بالأمر ولده الواثق هرون أنشد ابن الزيات المذكور [من المنسرح] :

قد قلت إذ غيّبوكَ وانصرفوا   فى خير قبر لخير مدفون

لن يجبر الله أمة فقدت   مثلك إلا بمثل هرون

وأقره الواثق على ما كان عليه فى أيام المعتصم ، بعد أن كان متسخطا عليه فى أيام أبيه ، وحلف يمينا مغلظة أنه ينكبه إذا صار الأمر إليه ، فلما ولى أمر الكتاب أن يكتبوا ما يتعلق بأمر البيعة ، فكتبوا، فلم يرض بما كتبوه ، فكتب ابن الزيات نسخة رضيها ، وأمر بتحرير المكاتبات عليها ، فكفر عن يمينه ، وقال : عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض ، فلما مات وتولى المتوكل كان فى نفسه منه شيء كثير ، فسخط عليه بعد ولايته بأربعين يوما ، فقبض عليه ، واستصفى أمواله ، وكان سبب قبضه عليه أنه لما

مات الواثق بالله أخو المتوكل أشار محمد المذكور بتولية ولد الواثق، وأشار القاضى أحمد ابن أبى دُواد المذكور بتولية المتوكل ، وقام فى ذلك وقعد حتى عممه بيده، وألبسه البردة وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل فى أيام الواثق يدخل على الوزير المذكور فيتجهمه و يغلظ عليه الكلام ، وكان يتقرب بذلك إلى قلب الواثق ، فحقد المتوكل ذلك عليه ، فلما ولى الخلافة خشى إن نكبه عاجلا أن يسير أمواله فيفوته ، فاستوزره ليطمئن ، وجعل القاضى أحمد يغريه و يجد لذلك عنده موقعا ، فلما قبض عليه ومات فى التنور كما سيأتى ذكره لم يجد من جميع أملاكه وضياعه وذخائره إلا ما كانت قيمته مائة ألف دينار ، فندم على ذلك ، ولم يجد عنه عوضا ، وقال للقاضى أحمد : أطمعتنى فى باطل ، وحملتنى على شخص لم أجد عنه عوضا .

وكان ابن الزيات المذكور قد اتخذ تنورا من حديد وأطراف مساميره المحدودة إلى داخل ، وهى قائمة مثل رؤس المسالّ ، فى أيام وزارته ، وكان يعذب فيه المصادَرِينَ وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال ، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه ، فيجدون لذلك أشد الألم ، ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة ، وكان إذا قال له أحد منهم «أيها الوزير ارحمنى» فيقول له « الرحمة خَوَر فى الطبيعة » ، فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله فى التنور ، وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمنى ، فقال له : الرحمة خور فى الطبيعة ، كما كان يقول للناس ، فطلب دواة و بطاقة فأحضرتا إليه فكتب [من البسيط] :

هى السبيل فمن يوم إلى يوم كأنه ما تُريك العينُ فى النوم
لا تجزعنّ ، رويدا إنها دول دنيا تَنَقَّلُ من قوم إلى قوم

وسيرها إلى المتوكل ، فاشتغل عنها ، ولم يقف عليها إلا فى الغد ، فلما قرأها المتوكل أمر باخراجه ، فجاؤا إليه فوجدوه ميتا ، وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وكانت مدة إقامته فى التنور أربعين يوما ، وكان القبض عليه لثمان مضين من صفر من السنة المذكورة .

ولما مات وجد فى التنور مكتوب بخطه قد خَطَّه بالفحم على جانب التنور يقول [من مجزوء الرمل] :

من له عهد بنوم يرشد الصب إليه
رحم الله رحيما دل عينيَّ عليه
سهرَتْ عيني ونامت عين من هنْتُ لديه

وقال أحمد الأحول : لما قبض على ابن الزيات تلطفتُ إلى أن وصلت إليه فرأيته فى حديد ثقيل ، فقلت له : يعز على ما أرى ، فقال [من الرمل] :

سل ديار الحى من غيَّرَهَا وعفاها ومحا منظرها
وهى الدنيا إذا ما أقبلت صيرت معروفها منْكَرَها
إنما الدنيا كظل زائل نَحْمَد الله الذى قدرها

ولما جعل فى التنور قال له خادمه : ياسيدى ، قد صرت إلى ماصرت إليه، وليس لك حامد ، فقال : ومانفع البرامكة صنعهم؟ فقال : ذكرك لهم هذه الساعة ، فقال : صدقت ، رحمه الله تعالى !.

***

(٦٦٨)

أبو الفضل محمد
ابن الحسين
(ابن العميد)
وزير ركن
الدولة

أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد
الكاتب ، المعروف بابن العميد

والعميد لقب والده ، ولقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم ، وكان فيه فضل وأدب ، وله ترسل ، وأما ولده أبو الفضل فانه كان وزير ركن الدولة أبي على الحسن بن بويه الديلمي والد عضد الدولة ، وقد تقدم ذكرهما وتولى وزارته عقيب موت وزيره أبي على بن القمي ، وذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، وكان متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم ، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه ، وكان يسمى الجاحظ الثاني ، وكان كامل الرياسة ، جليل القدر من بعض أتباعه الصاحبُ بن عبَّاد المتقدم ذكره ، ولأجل صحبته قيل له الصاحب ، وكان له في الرسائل اليد البيضاء .

قال الثعالبي في كتاب اليتيمة : كان يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد ، وقد تقدم ذكر عبد الحميد .

وكان الصاحب بن عبَّاد قد سافر إلى بغداد ، فلما رجع إليه قال له : كيف وجدتها ؟ فقال : بغداد في البلاد ، كالأستاذ في العباد ، وكان يقال له « الأستاذ » وكان سائساً ، مدبرا للملك ، قائما بحقوقه ، وقصده جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة ، ومدحوه بأحسن المدائح ، فمنهم أبو الطيب المتنبي ، وورد عليه وهو بأرَّجانَ ، ومدحه بقصائد إحداها التي أولها [من الكامل] :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا ... وبُكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

ومنها عند مخلصها :

أرجانَ أيتها الجيادُ فانه ... عزمي الذي يذر الوشيج مكسرا

لو كنت أفعل ما اشتهيت فعاله ... ما شق كوكبك العجاج الأكدرا

أمىُّ أبا الفضل المبر ، أليتى لأيمَمَنَّ أجلَّ بحر جوهرا
أفتى برؤيته الأنام ، وحاش لى من أكون مقصِّرا أو مقْصرا
من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وملات نحر عشارها فأضافنى من ينحر البِدَرَ النضار لمن قرَى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصُرَا
نُسِقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى فذالك إذ أتيت مؤخرا

وهى من القصائد المختارة ، وقال ابن الهمذانى فى كتاب «عيون السير» : أعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وقد استعمل أرجان بتخفيف الراء ، وهى مشددة على ما ذكره الجوهرى فى كتاب «الصحاح» والحازمى فى كتاب «ما اتفق لفظه وافترق مسماه» وابن الجواليقى فى كتاب «المعرب» ، وقد سبق ذكر هذه القصيدة فى ترجمة أبى الفضل جعفر بن الفرات ، وأن المتنبى نظمها فيه وهو بمصر ، فلما لم يرضه لم ينشده إياها ، فلما توجه إلى بلاد فارس صرفها لابن العميد ، وكان أبو نصر عبد العزيز بن نُبَاتة السعدى المقدم ذكره قد ورد عليه وهو بالرى وامتدحه بقصيدته التى أولها [من مجزوء الكامل] :

بَرْحُ اشتياق وادكار ولهيب أنفاس حرارِ
ومدامع عبراتها ترفضّ عن نوم مُطار
لله قلبى ما يجنُّ من الهموم وما يوارى
لقد انقضى سكر الشبا ب وما انقضى وصب الخُمَارِ
وكبرت عن وصل الصغا ر وما سلوت عن الصغار
سقيا لتفليسى إلى باب الرُّصافة وابتكارى
أيام أخطر فى الصبا نشوان مسحوب الإزار
حَجْرِى إلى حُجَرَ الصَّرَا ة وفى حدائقها اعتمارى

ومواطن اللذات أو طانى ودار اللهو دارى
لم يبق لى عيش يلذ سوى معاقرة العقار
حتى بألحان قمر ت بين ألحان القمارى
وإذا استهل ابن العميد تضاءلت دِيَمُ القطار
خرق صفت أخلاقه صفو السبيك من النضار
فكأنما زفت موا هبه بأمواج البحار
وكأن نَشْرَ حديثه نشر الخُزَامى والعرار
وكأننا مما تفرق راحتاه فى نثار
كلف بحفظ السر يحسب صدره ليل السِّرار
إن الكبار من الأمو ر تنال بالهمم الكبار
وإلى أبى الفضل اتبعـ
ـت هواجس النفس السوارى

فتأخرت صلته عنه ، فشفع هذه القصيدة بأخرى ، وأتبعها برقعة ، فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع رقة حاله التى ورد عليها إلى بابه ، فتوصل إلى أن دخل عليه يوم الخميس وهو فى مجلس حفل بأعيان الدولة ومقدمى أرباب الديوان ، فوقف بين يديه ، وأشار إليه بيده ، وقال : أيها الرئيس ، إنى لزمتك لزوم الظل ، وذللت لك ذل النعل ، وأكلت النوى المحرق انتظاراً لصلتك ، والله مابى من الحرمان ، ولكن شماتة الأعداء ، وهم قوم نصحونى فأغششتهم ، وصدقونى فاتهمتهم ، فبأى وجه ألقاهم ؟ و بأى حجة أقاومهم ، ولم أحصل من مدح بعد مديح ومن نثر بعد نظم إلا على ندم مؤلم ، ويأس مسقم ؟ فان كان للنجاح علامة فأين هى ؟ وما هى إلا أن الذين نحسدهم على مامدحوا به كانوا من طينتك ، وأن الذين هجوا كانوا مثلك ، فزاحم بمنكبك أعظمهم شأنا ، وأنورهم شعاعا ، وأمدهم باعا ، وأشرفهم بقاعا ، فحار رشد ابن العميد ، ولم يدر ما يقول ، فأطرق ساعة ، ثم رفع

رأسه وقال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك فى الاستزادة ، وعن الإطالة منى فى المعذرة ، وإذا تواهبنا مادفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه ، فقال ابن نُبَاتة : أيها الرئيس ، هـذه نفثة مصدور منذ زمان ، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر ، والغنى إذا مطل لئيم ، فاستشاط ابن العميد ، وقال : والله مااستوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ، ولقد نافرت ابن العميد من دون ذا حتى دفعنا إلى قرى عائم ، ولجاج قائم ، ولست ولى نعمتى فأحتملك ، ولا صنيعتى فأغضى عليك وإن بعض ما أقررته فى مسامعى ينغص مرة الحليم ، ويبدد شمل الصبر ، هذا ومااستقدمتك بكتاب ، ولااستدعيتك برسول ، ولاسألتك مدحى ، ولا كلفتك تقريظى [١] ، فقال ابن نباتة : صدقت أيها الرئيس ما استقدمتنى بكتاب ، ولااستدعيتنى برسول ، ولاسألتنى مدحك ، ولا كلفتنى تقريظك [١] ، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأبهتك ، وقلت : لايخاطبنى أحد إلابالرياسة ، ولاينازعنى خلق فى أحكام السياسة ، فانى كاتب ركن الدولة ، وزعيم الأولياء والحضرة ، والقيم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال ، فثار ابن العميد مغضبا ، وأسرع فى صحن داره إلى أن دخل حجرته ، وتقوض المجلس ، وماج الناس ، وسمع ابن نُبَاتة وهوفى صحن الدار مارا يقول : والله إن سف التراب والمشى على الجمر أهون من هذا ، فلعن الله الأدب إذا كان بائعه مهينا له ، ومشتريه مما كسا فيه ، فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه التمسه من الغد ليعتذر إليه ، ويزيل آثار ما كان منه ، فكأنما غاص فى سمع الأرض وبصرها ، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد ، إلى أن مات ، ثم إنى وجدت هذه القصيدة وصورة هذا المجلس منسوبين إلى غير ابن نُبَاتة ، وكشفت ديوان ابن نباتة فلم أر هذه القصيدة فيه ، والله أعلم بالصواب ، ثم وجدت فى كتاب «ثلب الوزيرين» تأليف أبى حيان التوحيدى هذه القصيدة لأبى محمد عبد الرزاق بن الحسن المعروف

---

(١) فى ب «تقريض» بالضاد فى الموضعين ، والضاد والظاء يتقارضان فى لغة العرب فتقع إحداهما فى مكان الأخرى ، والتقريض والتقريظ : المدح ، سواء أكان بحق أم بباطل

بابن السياب البغدادى اللغوى المنطقى الشاعر ، وهذه المخاطبة لشاعر من أهل الكرخ يعرف بموته ، والله أعلم.

وكان أبو الفرج أحمد بن محمد الكاتب مكينا عند مخدومه ركن الدولة ابن بُوَيه ، وله الرتبة العلية لديه ، وكان ابن العميد لا يوفيه حقه من الإكرام ، فعاتبه مرارا فلم يفد ، فكتب إليه [من السريع] :

مالُكَ موفور فما باله ... أكسبك التيه على المعدم
ولِمْ إذا جئت نهضنا وإن ... جئنا تطاولت ولم تَتَمِمِ ؟
وإن خرجنا لم تقل مثل ما ... نقول قَدِّمْ طِرْفهُ قدم
إن كنت ذا علم فمن ذا الذى ... مثل الذى تعلم لم يعلم
ولست فى الغارب من دولة ... وَنحن من دونك فى المنسم
وقد ولينا وعزلنا كما ... أنت فلم نصغر ولم تعظم
تكافأت أحوالنا كلها ... فَصِلْ على الإنصاف أو فاصْرِمِ

وللصاحب ابن عباد فيه مدائح كثيرة ، وكان ابن العميد قد قدم مرة إلى أصبهان والصاحب فيها فكتب إليه [من مجزوء الكامل] :

قالوا ربيعك قد قدم ... قلت البشارة إن سلم
أهو الربيع أخو الشتا ... ء أم الربيع أخو الكريم
قالوا الذى بنواله ... أمن المقلُّ من العدم
قلت الرئيس ابن العميد إذاً ، فقالوا لى نعم

وكان ابن العميد كثير الإعجاب بقول بعضهم [من الطويل] :

وجاءت إلى ستر على الباب بيننا ... تخاف وقد قامت عليه الولائد
لتسمع شعرى وهو يقرع قلبها ... بوحيٍ تؤديه إليه القصائد
إذا سمعت منى لطيفا تنفست ... له نفسا تنقد منه القلائد

ولابن العميد شعر ، وما أعجبنى الذى وقفت عليه منه حتى أثبته ، سوى ماذكره ابن الصابى فى كتاب الوزراء ، وهو قوله [من المنسرح] :

رأيت فى الوجه طاقة بقيت   سوداء عينى تحبُّ رؤيتها

فقلت للبيض إذ تروعها   بالله إلا ما رحمت غربتها

فقلّ لبث السوداء فى بلد   تكون فيه البيضاء ضرتها

وذكر [له] الأمير أبو الفضل الميكالى فى كتاب المنتحل [من مجزوء الكامل] :

آخ الرجال من الأبا   عدوالأقاربَ لاتُقارب

إن الأقارب كالعقا   رب بل أضر من العقارب

وتوفى ابن العميد المذكور فى صفر ، وقيل : فى المحرم ، بالرى ، وقيل : ببغداد ، سنة ستين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى !

وذكر أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى فى كتاب الوزراء أنه توفى فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة .

وكان أبو الفضل بن العميد يعتاده القولنج تارة والنقرس أخرى ، تسلمه هذه إلى هذه ، وقال لسائل سأله : أيهما أصعب عليك وأشق ؟ قال : إذا عارضنى النقرس فكأنى بين فكى سبع يمضغنى ، وإذا اعترانى القولنج وددت لو استبدلت النقرس عنه ، ويقال : إنه رأى أكاراً فى بستان يأكل خبزاً ببصل ولبن ، وقد أمعن منه ، فقال : وددت لو كنت كهذا الأكار آكل ما أشتهى ! قلت : وهذه شيمة الدنيا ، قل أن تصفو من الشوائب ، وكذا قال جده إبراهيم الخطابى فى كتاب التاريخ ، والله أعلم .

ورأيت فى بعض المجاميع أن الصاحب بن عباد عبر على باب داره بعد وفاته فلم ير هناك أحداً بعد أن كان الدهليز يَغَصُّ من زحام الناس ، فأنشد [من الخفيف] :

أيها الربع لم علاك اكتئاب   أين ذاك الحجاب والحجاب

أين من كان يفزع الدهر منه فهو اليوم فى التراب تراب
قل بلا رقبة وغير احتشام مات مولاى فاعترانى اكتئاب

ثم رأيت فى كتاب اليمنى للعتبى هذه الأبيات ، وقد نسبها إلى أبى العباس الضبى ، ثم قال : إنها لأبى بكر ، ويقال : الخوارزمى ، وقد اجتاز بباب الصاحب ابن عباد ، ولايمكن أن تكون على هذا التقدير للخوارزمى ، لأنه مات قبل الصاحب كما تقدم ذكره .

ومثل هذه الحكاية ماحكاه على بن سليمان قال : رأيت بالرى دار قوم لم يبق منها إلا رسم بابها ، وعليه مكتوب [من المنسرح] :

اعجب لصرف الدهر معتبرا فهذه الدار من عجائبها(١)
عهدى بها والملوك زاهية قد سطع النور من جوانبها
تبدلتْ وحشة بساكنها ما أوحش الدار بعد صاحبها

ولما مات رتب مخدومه ركن الدولة ولده ذا الكفايتين أبا الفتح عليا مكانه فى دست الوزارة ، وكان جليلا نبيلا سريا ذا فضائل وفواضل ، وهو الذى كتب إليه المتنبى الأبيات الخمسة الدالية الموجودة فى ديوانه [فى] أثناء مدائح والده ، ولا حاجة إلى ذكرها ، وذكره الثعالبى فى اليتيمة فى ترجمة والده ، وقال : كتب إلى صديق له يستهديه خمراً مستوراً عن والده « قد اغتنمت الليلة — أطال الله بقاءك ياسيدى ! — رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا هذا النظام ، باهداء المدام ، عدنا كبنات نعش والسلام » وذكر له مقاطيع من الشعر ، ولم يزل أبو الفتح المذكور فى وزارة ركن الدولة إلى أن توفى فى التاريخ المذكور فى ترجمته فى حرف الحاء ، وقام بالأمر ولده مؤيد الدولة فاستوزره أيضاً ، وأقام على ذلك مدة مديدة ، وكانت بينه وبين الصاحب ابن عباد منافرة ، ويقال : إنه أغرى قلب مؤيد الدولة

أبو الفتح ابن ابن العميد

(١) فى ب « اعجب لصرف الدهر » ولا يستقيم معه الوزن

عليه ، فظهر له منه التنكر والإعراض ، وقبض عليه فى بعض شهور سنة ست وستين وثلثمائة ، وله فى اعتقاله أبيات شرح فيها حاله ، وقال الثعالبى: اجتاح ماله، وقطع أنفه ، وجز لحيته ، وقال غيره : وقطع يديه ، فلما أيس من نفسه وعلم أنه لامخلص له مما هو فيه ولو بذل جميع ماتحتوى عليه يده ، فشق [1] جيب جبة كانت عليه ، واستخرج منها رقعة فيها تذكرة بجميع ما كان له ولوالده من الذخائر والدفائن، وألقاها فى النار ، فلما علم أنها قد احترقت قال للمتوكل به : افعل ما أمرت به ، فوالله لا يصل إلى صاحبك من أموالنا درهم واحد ، فما زال يعرضه على أنواع العذاب حتى تلف ، وكان القبض عليه يوم الأحد ثامن عشر ربيع الآخر سنة ست وستين وثلثمائة ، وكانت ولادته سنة سبع وثلثمائة .

ولما انصرف أهل خراسان فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة أيام الغزاة من الرى بعد الحادثة التى جرت هناك ـ وهى واقعة مشهورة ودفع الله شرها ـ شرع الرئيس أبو الفضل بن العميد فى بناء حائط عظيم حول دار مخدومه ركن الدولة ، فقال له عارض الجيش : هذا كما يقال : الشد بعض الضراط ، فقال ابن العميد : هذا أيضاً جيد ، لئلا تنفلت أخرى ، فاستحسن منه هذا الجواب .

وفيه يقول بعض أصحابه [من الكامل] :

آلَ العميد وآل برْمَكَ مالكم … قلَّ المعينُ لكم وذل الناصر
كان الزمانُ يحبكم فبداله … إن الزمان هو الخؤون الغادر

وتولى موضعه الصاحب ابن عباد ، وقد تقدم ذكره فى ترجمته فينظر هناك فى حرف الهمزة .

وكان أبو الفتح المذكور قبل أن يقتل بمدة قد لهج بانشاد هذين البيتين [من الرمل] :

دخل الدنيا أناس قبلنا … رحلوا عنها وخلوها لنا
ونزلناها كما قد نزلوا … ونخليها لقوم بعدنا

---

(١) الفاء من قوله « فشق » لاداعى لها

ومن المنسوب إلى أبى الفتح بن العميد [من الطويل] :

يقول لىَ الواشون : كيف تحبها ؟ فقلت لهم : بين المقصر والغالى [١]

ولولا حذارى منهم لصدقتهم فقلت : هوى لم يهوه قط أمثالى

وكم من شفيق قال : مالك واجما؟ فقلت : ترى مابى وتسأل عن حالى

وكان أبو حيان على بن محمد التوحيدى البغدادى قد وضع كتابا سماه « مثالب الوزيرين [٢] » ضمنه معايب أبى الفضل بن العميد المذكور والصاحب ابن عباد ، وتحامل عليهما ، وعدد نقائصهما ، وسلبهما ما اشتهر عنهما من الفضائل والإفضال ، وبالغ فى التعصب عليهما ، وما انصفهما ، وهذا الكتاب من الكتب المحذورة ، ما ملكه أحد إلا وانعكست أحواله ، ولقد جربت ذلك وجر به غيرى على ما أخبرنى مَنْ أثق به ، وكان أبو حيان المذكور فاضلا مصنفا له من الكتب المشهورة « الإمتاع والمؤانسة » فى مجلدين ، وكتاب « البصائر والذخائر » ، وكتاب « الصديق والصداقة » فى مجلد واحد ، وكتاب « المقابسات » فى مجلد أيضاً ، وكتاب « مثالب الوزيرين [٢] » فى مجلد أيضاً ، وغير ذلك ، وكان موجودا فى السنة الأربعمائة ، ذكر ذلك فى كتاب « الصديق والصداقة » .

والتوحيدى — بفتح التاء المثناة من فوقها ، وسكون الواو ، وكسر الحاء المهملة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، و بعدها دال مهملة — ولم أر أحداً ممن وضع كتب الأنساب تعرض إلى هذه النسبة ، لا السمعانى ولا غيره ، لكن يقال : إن أباه كان يبيع التوحيد ببغداد ، وهو نوع من التمر بالعراق ، وعليه حمل بعض من شرح ديوان المتنبى قوله [من الخفيف] :

يترشفنَ من فمى رشفات هنَّ فيه أحلى من التوحيد

والله أعلم بالصواب .

* * *

(١) فى ب « يقولون لى الواشون » ومع استقامة الوزن معها هى لغة مهجورة من لغات العرب تنسب إلى طىء ، وتنسب إلى أزدشنوءة

(٢) قد تقدم ذكره فى هذه الترجمة باسم « ثلب الوزيرين »

(٦٦٩)

أبو على محمد بن على بن الحسين بن مُقْلَة ، الكاتب المشهور

أبو على محمد بن على (ابن مقلة) الكاتب الوزير

كان فى أول أمره يتولى بعض أعمال فارس ، ويجبى خراجها ، وتنقلت أحواله ، إلى أن استوزره الإمام المقتدر بالله ، وخلع عليه لأربع عشرة ليلة ، بقيت من شهر ربيع الآخر ، سنة ست عشرة وثلثمائة ، وقبض عليه يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، سنة ثمان عشرة وثلثمائة ثم نفاه إلى بلاد فارس ، بعد أن صادره ، ثم استوزره الإمام القاهر بالله ، فأرسل إليه إلى بلاد فارس رسولا يجىء به ، ورتب له نائبا عنه ، فوصل ابن مقلة من فارس بكرة يوم الخميس ، عيدالأضحى ، من سنة عشرين وثلثمائة ، وخلع عليه ، ولم يزل وزيره حتى اتهمه بمعاضدة على بن بليق على الفتك به ، وبلغ ابن مقلة الخبر ، فاستتر فى أول شعبان ، من سنة إحدى وعشرين وثلثمائة .

ولما ولى الراضى بالله ، لست خلون من جمادى الأولى ، من سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، استوزره أيضا لتسع خلون من جمادى الأولى ، من السنة المذكورة ، وكان المظفر بن ياقوت مستحوذا على أمور الراضى ، وكان بينه وبين أبى على الوزير وحشة ، فقرر ابن ياقوت المذكور مع الغلمان الحجرية أنه إذا جاء الوزير أبو على قبضوا عليه ، وأن الخليفة لا يخالفهم فى ذلك ، وربما سره هذا الأمر ، فلما حصل الوزير فى دهليز دار الخلافة وثب الغلمان عليه ، ومعهم ابن ياقوت المذكور ، فقبضوا عليه ، وأرسلوا إلى الراضى يعرفونه صورة الحال ، وعددوا له ذنوبا وأسباباً تقتضى ذلك ، فرد جوابهم ، وهو يستصوب رأيهم فيما فعلوه ، وذلك كان فى يوم الاثنين ، لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، سنة أربع وعشرين وثلثمائة ، واتفق رأيهم على تفويض الوزارة إلى

عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح ، فقلده الراضي الوزارة ، وسلم إليه أبا على بن مُقْلة ، فضربه بالمقارع ، وجرى عليه من المكاره بالتعليق وغيره من العقوبة شيء كثير ، وأخذ خطه بألف ألف دينار ، ثم خلص وجلس بطالا في داره ، ثم إن أبا بكر محمد بن رائق استولى على الخلافة ، وخرج عن طاعتها فأنفذ إليه الراضي واستماله ، وفوض إليه تدبير المملكة وجعله أمير الأمراء ورد عليه تدبير أعمال الخراج والضياع في جميع النواحي ، وأمر أن يخطب له على جميع المنابر ، فقوى أمره ، وعظم شأنه ، وتصرف على حسب اختياره ، واحتاط على أملاك ابن مقلة المذكور وضياعه ، وأملاك ولده أبي الحسين ، فحضر إليه ابن مُقْلة ، وإلى كاتبه ، وتذلل لهما في معنى الإفراج عن أملاكه ، فلم يحصل منهما إلا على المواعيد ، فلما رأى ابن مُقْلة ذلك أخذ في السعي بابن رائق المذكور من كل جهة ، وكتب إلى الراضي يشير عليه بإمساكه والقبض عليه وضمن له أنه متى فعل ذلك وقلده الوزارة استخرج له ثلثمائة ألف ألف دينار ، وكانت مكاتبته على يد على بن هرون المنجم النديم ، المقدم ذكره ، فأطمعه الراضي بالإجابة إلى ما سأل ، وترددت الرسائل بينهما في ذلك ، فلما استوثق ابن مقلة من الراضي اتفقا على أن ينحدر إليه سراً ، و يقيم عنده إلى أن يتم التدبير فركب من داره ، وقد بقى من شهر رمضان ليلة واحدة ، واختار هذا الطالع لأن القمر يكون تحت الشعاع ، وهو يصلح للأمور المستورة ، فلما وصل إلى دار الخليفة لم يمكنه من الوصول إليه ، واعتقله في حجرة ، ووجه الراضي من غد إلى ابن رائق ، وأخبره بما جرى ، وأنه احتال على ابن مُقْلة حتى حصله في أسره وترددت بينهما المراسلات في ذلك .

فلما كان رابع عشر شوال ، سنة ست وعشرين وثلثمائة ، أظهر الراضي أمر ابن مقلة ، وأخرجه من الاعتقال ، وحضر حاجب ابن رائق وجماعة من القواد

وتقابلا ، وكان ابن رائق قد التمس قطع يده اليمنى التى كتب بها تلك المطالعة ، فلما انتهى كلامهما فى المقابلة قطعت يده اليمنى ، ورد إلى محبسه ، ثم ندم الراضى على ذلك ، وأمر الأطباء بملازمته للمداواة ، فلازموه حتى برىء ، وكان ذلك نتيجة دعاء أبى الحسن محمد بن شنبوذ المقرى عليه بقطع اليد ، وقد تقدم ذكر سبب ذلك فى ترجمته ، وذلك من عجيب الاتفاق .

وقال أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الطبيب ، وكان يدخل عليه لمعالجته : كنت إذا دخلت عليه فى تلك الحال يسألنى عن أحوال ولده أبى الحسن ، فأعرفه استتاره وسلامته ، فتطيب نفسه ، ثم ينوح على يده ويبكى ويقول : خدمت بها الخلفاء ، وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين ، تقطع كما تقطع أيدى اللصوص ؟ فأسليه وأقول له : هذا انتهاء المكروه ، وخاتمة القطوع فينشدنى ويقول [من الوافر] :

إذا ما مات بعضك فابك بعضا ... فإن البعضَ من بعض قريب

ثم عاد وأرسل الراضى من الحبس بعد قطع يده ، وأطمعه فى المال وطلب الوزارة ، وقال : إن قطع اليد ليس مما يمنع الوزارة ، وكان يشد القلم على ساعده ويكتب به .

ولما قدم بَجْكم التركى من بغداد ، وكان من المنتمين الى ابن رائق أمر بقطع لسانه أيضا ، فقطع ، وأقام فى الحبس مدة طويلة ثم لحقه ذَرَبٌ ، ولم يكن له من يخدمه ، فكان يستقى الماء لنفسه من البئر ، فيجذب بيده اليسرى جذبة ، وبفمه أخرى .

وله أشعار فى شرح حاله ، وما انتهى أمره إليه ، ورثى يده ، والشكوى من المناصحة وعدم تلقيها بالقبول ، فمن ذلك قوله [من الخفيف] :

ماسئمت الحياة لكن توثقـــت بأيمانهم فبانت يمينى

بعتُ ديني لهم بدنياى حتى حرمونى دنياهم بعد دينى
ولقد حُطْتُ ما استطعت بجهدى حفظ أرواحهم فما حفظونى
ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتى بانت يمينى فبينى

ومن المنسوب الى ابن مقلة أيضا [من الخفيف] :

لست ذا ذلة إذا عضنى الدهـ ـر ولا شامخا إذا واتانى
أنا نار فى مرتقى نفس الحا سد ماء جارٍ مع الإخوان

وفى الوزير المذكور يقول بعضهم [من الوافر] :

وقالوا : العزل للوزراء حيض لحاه الله من أمر بغيض
ولكن الوزير أبا على من اللائى يئسن من المحيض

ومن شعره أيضا ماقاله الثعالبى فى يتيمة الدهر [من الكامل] :

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة فى شامخ من عزه المترفع
قالت لى النفس العروف بقدرها ما كان أولانى بهذا الموضع

ولم يزل على هذه الحالة إلى أن توفى فى موضعه يوم الأحد ، عاشر شوال ، سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، ودفن فى مكانه ، ثم نبش بعد زمان ، وسلم إلى أهله .

وكانت ولادته يوم الخميس بعد العصر ، لتسع بقين من شوال ، سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، ببغداد ، رحمه الله تعالى ! .

وقد تقدم طرف من خبره فى ترجمة ابن البواب الكاتب ، وأنه أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين إلى هذه ، هو أو أخوه ، على الخلاف المذكور فى ترجمة ابن البواب ؛ وأن ابن البواب تبع طريقته ونهج أسلوبه .

ولابن مقلة ألفاظ منقولة مستعملة ، فمن ذاك قوله : إذا أحببت تهالكت ،

وإذا أبغضت أهلكت ، وإذا رضيت آثرت ، وإذا غضبت أثرت .

ومن كلامه أيضا : يعجبنى من يقول الشعر تأدبا لا تكسبا ، ويتعاطى الغناء تطربا لا تطلبا ، وله كل معنى مليح فى النظم والنثر .

وكان ابن الرومى الشاعر المتقدم ذكره يمدحه :

فمن معانيه الغريبة فيه قوله [من الطويل] :

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت
له الرقابُ ودانتْ خوفَهُ الأممُ
فالموتُ ، والموت لا شىء يعادله ،
ما زال يتبع ما يجرى به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت
أن السيوف لها مذ أرهفت خَدَمُ

وكان أخوه أبو عبد الله الحسن بن على بن مقلة كاتبا أديبا بارعا ، والصحيح أنه صاحب الخط المليح ، ومولده يوم الأربعاء طلوع الفجر ، سلخ شهر رمضان ، سنة ثمان وستين ومائتين . وتوفى فى شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى ! .

وأما ابن رائق ، فإن الحافظ ابن عساكر ذكر فى تاريخ الإمام المتقى بالله أنه ولاه أمر دمشق ، وأخرج منها بدر بن عبد الله الإخشيدى ، ثم توجه إلى مصر ، وتواقع هو وصاحبها محمد بن طُغج الإخشيدى المقدم ذكره ، فهزمه الإخشيدى ، فرجع إلى دمشق ، ثم توجه إلى بغداد ، وقتل بالموصل سنة ثلاثين وثلثمائة ، وقيل : إن بنى حمدان قتلوه بالموصل ، قتله ناصر الدولة الحسن المقدم ذكره .

***

(٦٧٠)

الوزير أبو الطاهر محمد بن بقية[1] بن علي، الملقب نصير الدولة، وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه، المقدم ذكره

نصير الدولة أبو الطاهر محمد بن بقية الوزير

كان من أجلة الرؤساء، وأكابر الوزراء، وأعيان الكرماء. وقد تقدم في ترجمة عز الدولة طرف من خبره في قضية الشمع، وأن الشماع لما سئل عن راتب عز الدولة في الشمع كم كان، فقال: كان راتب وزيره محمد بن بقية ألف منٍّ في كل شهر، فإذا كان هذا راتب الشمع خاصة مع قلة الحاجة إليه، فكم يكون غيره مما تشتد الحاجة إليه؟ وكان من أهل وانا من عمل بغداد، وكان في أول أمره قد توصل إلى أن صار صاحب مطبخ معز الدوله والد عز الدولة، ثم انتقل إلى غيرها من الخدم. ولما مات معز الدوله وأفضى الأمر إلى عز الدولة حسنت حاله عنده، ورعى خدمته لأبيه، وكان فيه توصل وسعة صدر، وتقدم إلى أن استوزره عز الدولة يوم الاثنين لسبع ليال خلون من ذي الحجة، سنة اثنتين وستين وثلثمائة، ثم إنه قبض عليه لسبب اقتضى ذلك يطول شرحه. وحاصله: أنه حمله على محاربة ابن عمه عضد الدولة، فالتقيا على الأهواز، وكُسر عز الدولة، فنسب ذلك إلى رأيه ومشورته، وفي ذلك يقول أبو غسان الطبيب بالبصرة [من الطويل]:

أقام على الأهواز خمسين ليلة ... يدبر أمر الملك حتى تدمَّرا

فدبر أمراً كان أوله عَمًى ... وأوسطه بلوى وآخره خرا

وكان قبضه يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ست وستين وثلثمائة بمدينة واسط وسمل عينيه ولزم بيته وكان في مدة وزارته يبلغ عضد الدولة بن بويه عنه أمور يسوءه سماعها: منها أنه كان يسميه أبا بكر العذري، تشبيهاً له برجل أشقر أزرق يسمى أبا بكر كان يبيع العذرة برسم البساتين ببغداد، وكان عضد الدولة بهذه الحلية

---

(١) الذي يستفاد من المنتظم لابن الجوزي في الكلام عن أخيه أنه « محمد ابن محمد بن بقية» وقد صرح بذلك في النجوم الزاهرة (٤/١٣٠).

وكان الوزير يفعل ذلك تقرباً إلى قلب مخدومه عز الدولة لما كان بينه و بين ابن عمه عضد الدولة من العداوة ، فلما قتل عز الدولة كما وصفناه فى ترجمته وملك عضد الدولة بغداد ودخلها طلب ابن بقية المذكور ، وألقاه تحت أرجل الفيـلة ، فلما قتل صلبه بحضرة البيمارستان العضدى ببغداد ، وذلك فى يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة سبع وستين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى ! .

وقال ابن الهمذانى فى كتاب « عيون السير » : لما استوزر عزُّ الدولة بختيار ابن بويه ابنَ بقية المذكور ، بعد أن كان يتولى أمر المطبـخ ، قال النـاس : من الغضارة إلى الوزارة ، وستر كرمُه عيوبَه ، وخلع فى عشرين يوما عشرين ألف خلعة ، قال أبو إسحاق الصابى : رأيته وهو يشرب فى بعض الليالى ، وكلما لبس خلعة خلعها على أحد الحاضرين ، فزادت على مائتى خلعة ، فقالت له مغنيتـه : ياسيدى الوزير فى هذه الثياب زنابير ما تدعها تثبت على جسمك ، فضحك وأمر لها بحصة خان ، وهو أول وزير لقب بلقبين ، فان الإمام المطيع لقبه بالنـاصح ، ولقبه والده الطائع بنصير الدولة[1] ، ولما حضرت الحرب بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة قبض عز الدولة عليه وسمله وحمله إلى عضد الدولة مسمولا ، فشهره عضد الدولة وعلى رأسه برنس ، ثم طرحه للفيلة فقتلته ، ثم صلبه عند داره بباب الطاق ، وعمره نيف وخمسون سنة .

ولما صلب رثاه أبو الحسن محمد بن عمر بن[2] يعقوب الأنبارى أحد العدول ببغداد بقوله [من الوافر] :

علو فى الحياة وفى الممات ... لحقٌّ أنت إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصِّـلات

كأنك قائم فـيهم خطيبـاً ... وكلهمُ قيام للصَّـلاة

مددت يديك نحوهم احتفالا ... كمدهما إليهم بالهبات

---

(١) فى ب هنا « نصر الدولة » مع ذكرها « نصير الدولة » فى صدر الترجمة

(٢) فى ب « محمد بن عمران يعقوب » وسماه في النجوم الزاهرة محمد بن عمر

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك فى النفوس تبيت تُرْعَى بحفاظ وحراس ثقات
وتُشْعَلُ عندك النيران ليلا كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبلُ زيدٌ علاها فى السنينَ الماضياتِ
وتلك فضيلة فيها تأسٍّ تباعد عنك تعيير العداة
ولم أر قبل جذعك قط جذعا تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت فأنت قتيل ثأر النائبات
وكنت تجير من صَرْف الليالى فعاد مطالباً لك بالتِّرات
وسير دهرك الإحسان فيهم إلينا من عظيم السيئات
وكنت لمعشر سعداً ، فلما مضيت تفرقوا بالمنحسات
غليل باطن لك فى فؤادى يخفف بالدموع الجاريات
ولو أنى قدرت على قيام لفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافى ونحت بها خلاف النائحات
ولكنى أصبر عنك نفسى مخافة أن أعد من الجناة
وما لك تربة فأقول تسقى لأنك نُصْبُ هَطْلِ الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى برحمات غواد رائحات

ولم يزل ابن بقية مصلوبا إلى أن توفى عضد الدولة فى التاريخ المذكور فى ترجمته فى حرف الفاء ، فأنزل عن الخشبة ، ودفن فى موضعه ، فقال فيه أبو الحسن ابن الأنبارى صاحب المرثية المذكورة [من البسيط] :

لم يُلحِقوا بك عاراً إذ صلبت بلى باؤا بإثمك ثم استرجعوا ندما

وأيقنوا أنهم فى فعلهم غلطوا وأنهم نصبوا من سؤدد علما
فاسترجعوك ووارَوا منك طَوْدَ علا بدفنه دفنوا الإفضال والكرما
لئن بليت فلا يبلى نداك ، ولا تنسى ، وكم هالك ينسى إذا قدما
تقاسم الناس حسن الذكر فيك كما ما زال مالُكَ بين الناس منقسما

وقال الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق : لما صنع أبو الحسن المرثية التائية كتبها ورماها بشوارع بغداد ، فتداولتها الأدباء ، إلى أن وصل الخبر إلى عضد الدولة ، فلما أنشدت بين يديه تمنى أن يكون هو المصلوب دونه ، فقال : على بهذا الرجل ، فطلب سنة كاملة ، واتصل الخبر بالصاحب ابن عباد وهو بالرى فكتب له الأمان ، فلما سمع أبو الحسن بن الأنبارى بذكر الأمان قصد حضرته فقال له : أنت القائل هذه الأبيات ؟ قال : نعم ، قال : أنشدنيها من فيك ، فلما أنشد :

ولم أر قبل جذعك قط جذعا تمكن من عناق المكرمات

قام إليه الصاحب وعانقه ، وقبل فاه ، وأنفذه إلى عضد الدولة ، فلما مثل بين يديه قال له : ما الذى حملك على مرثية عدوى ؟ فقال : حقوق سلفت ، وأياد مضت ، فجاش الحزن فى قلبى ، فرثيته ، فقال : هل يحضرك شىء فى الشموع ، والشموع تزهر بين يديه ، فأنشأ يقول [من المتقارب]:

كأن الشموع وقد أظهرت من النار فى كل رأس سنانا
أصابعُ أعدائك الخائفين تضرَّعُ تطلب منك الأمانا

فلما سمعها خلع عليه ، وأعطاه فرساً و بدرة ، انتهى كلام الحافظ .

قلت : قوله فى الأبيات :

ركبت مطية من قبل زيد علاها فى السنين الماضيات

وزيد هذا هو أبو الحسين زيد بن زين العابدين على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، رضى الله عنه ! وكان قد ظهر فى أيام هشام بن عبد الملك فى سنة اثنتين وعشرين ومائة ، ودعا إلى نفسه . فبعث إليه يوسف بن عمر الثقفى والى العراقين يومئذ جيشاً مقدمه العباس المرى ، فرماه رجل منهم بسهم فأصابه فمات ، وصلب بكناسة الكوفة ، ونقل رأسه إلى البلاد .

وقال ابن قانع : كان ذلك فى صفر سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل : سنة اثنتين وعشرين ومائة فى صفر أيضاً ، بالكوفة ، ولزيد من العمر اثنتان وأربعون سنة يومئذ .

وقال ابن الكلبى فى كتاب جمهرة النسب : إن زيد بن على رضى الله عنهما أصابه سهم فى جبهته ، فاحتمله أصحابه ، وكان ذلك عند المساء ، ثم دعوا الحجام فانتزع النشابة ، وسالت نفسه .

وذكر أبو عمرو الكندى فى كتاب « أمراء مصر » أن أبا الحكم بن أبى الأبيض القيسى قدم إلى مصر برأس زيد بن على يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين ومائة ، واجتمع إليه الناس فى المسجد ، وهو صاحب المشهد الذى بين مصر وبركة قارون ، بالقرب من جامع ابن طولون يقال : إن رأسه مدفون به ، والله أعلم بالصواب .

وقتل ولده يحيى بن زيد سنة خمس وعشرين ومائة ، وقصته مشهورة ، بالجوزجان ، قتله سالم بن أحوز المازنى ، وقيل : جهم بن صفوان صاحب الجهمية

وهذه القصيدة لم يعمل فى بابها مثلها باتفاق علماء الفن .

وقد ذكر أبو تمام أيضاً المصلوبين فى قصيدته التى مدح بها المعتصم لما صلب الأفشين خيذر بن كاوس مقدم قواده وبابك ومازريار فى سنة ست وعشرين ومائتين ، وقصتهم مشهورة ، فمنها قوله [من الكامل] :

ولقد شفى الأحشاء من بُرَحائها إذ صار بابك جار مازريار

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن   كاثنين ثان إذ هما فى الغار
وكأنما انتبذا لكيما يطويا   عن ناطس خبراً من الأخبار
سود اللباس كأنما نَسَجَتْ لهم   أيدى السموم مدارعا من قار
بكروا وأسروا فى متون ضوامر   قيدت لهم من مربط النجار
لايبرحون ومَنْ رآهم خالهم   أبداً على سفر من الأسفار

وقيل : هذا فى وصف الأفشين خاصة

رمقوا أعالى جذعه فكأنما   رمقوا الهلال عشية الإفطار

وهى من القصائد الطنانة ، والأفشين مشهور فلا حاجة إلى ضبطه ، وهو بكسر الهمزة وفتحها ، واسمه خيذر — بفتح الخاء المعجمة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح الذال المعجمة ، وبعدها راء — وإنما قيدته لأنه يتصحف على كثير من الناس بحيدر ، بالحاء المهملة.

ومن شعر أبى الحسن [بن] الأنبارى المذكور فى الباقلاء الخضراء[١] قوله [من الوافر] :

فصوص زمرد فى غلف در   بأقماع حكت تقليم ظفر
وقد خلع الربيع لها ثيابا   لها لونان من بيض وخُضْرِ[٢]

وقد ذكره الخطيب فى تاريخ بغداد[٣] ، وقال : إنه من المقنين فى الشعر ، رحمه الله تعالى !

***

---

(١) في ب « الباقلاء الأخضر »
(٢) فى نسخة « من بيض وحمر » وما أثبتناه موافق لما فى ب
(٣) لم أعثر على ترجمته فى تاريخ بغداد ، ولعله فيما سقط من تراجم المحمدين من الأصل الذى طبع هذا الكتاب عنه .

(٦٧١)

فخر الملك
أبو غالب محمد
ابن على، الوزير

أبو غالب محمد بن على بن خلف ، الملقب فخر الملك ، وزير
بهاء الدولة أبى نصر بن عضد الدولة بن بويه

و بعد وفاته وزر لولده سلطان الدولة أبى شجاع فَنّاخُسْرُو .

وكان فخر الملك المذكور من أعظم وزراء آل بويه على الإطلاق بعد أبى الفضل محمد بن العميد والصاحب بن عباد المقدم ذكرهما ، وكان أصله من واسط ، وأبوه صيرفيا ، وكان واسع النعمة ، فسيح مجال الهمة ، جم الفضائل والإفضال ، جزيل العطايا والنوال ، قصده جماعة من أعيان الشعراء ومدحوه، وقَرَّضُوه بنخب المدائح ، منهم أبو نصر عبد العزيز بن نباتة الشاعر المقدم ذكره ، له فيه قصائد مختارة ، منها قصيدته النونية التى من جملتها يقول [من الوافر] :

لكل فتى قرين حين يسمو — وفخر الملك ليس له قرين
أنِخْ بجنابه واحكم عليه — بما أملته وأنا الضمين

أخبرنى بعض علماء الأدب أن بعض الشعراء امتدح فخر الملك بعد هذه القصيدة ، فأجازه إجازة لم يرضها ، فجاء الشاعر إلى ابن نُباتة ، وقال له : أنت غررتنى ، وأنا ما مدحته إلا ثقة بضمانك ، فتعطينى ما يليق بمثل قصيدى ، فأعطاه من عنده شيئا رضى به ، فبلغ ذلك فخر الملك ، فسير لابن نباته جملة مستكثرة لهذا السبب .

و يقرب من معنى هذين البيتين فى شدة الوثوق بالعطاء قول المتنبى [من الطويل] :

وثقنا بأن تُعْطِى ، فلو لم تجد لنا
لخلناك قد أعطيت من قوة الوهم

وحكى فى هذا المعنى أيضا أن بعض الشعراء مدح بعض الأكابر بقصيدة ، فلما أصبح كتب إليه [من الخفيف] :

كم أعاجلك بالرقاع إلى أن   عاجلتنى رقاع أهل الديون
علموا أننى بمدحك أمسيـــت مليًّا فأصبحوا يرفعونى

ومن جملة مداحه مهيار بن مرزويه الكاتب الشاعر المشهور ، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى ، وفيه يقول قصيدته الرائية التى منها [من الوافر] :

أرى كبدى وقد بردت قليلا   أمات الهم أم عاش السرور
أم الأيام خافتنى لأنى   بفخر الملك منها أستجير

ومدائحه كثيرة ، ولأجله صنف أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخى كتاب « الفخرى » فى الجبر والمقابلة ، وكتاب « الكافى » فى الحساب .

ورأيت فى بعض المجاميع أن رجلا شيخا رفع إلى فخر الملك المذكور قصة سعى فيها بهلاك شخص ، فلما وقف فخر الملك عليها قلبها وكتب فى ظهرها « السعاية قبيحة ، وإن كانت صحيحة ، فان كنت أجريتها مجرى النصح ، فخسرانك فيها أكثر من الربح ، ومعاذ الله أن نقبل من مهتوك فى مستور ، ولولا أنك فى خفارة من شيبك لقابلناك بما يشبه مقالك ، ونردع به أمثالك ، فاكتم هذا العيب ، واتق من يعلم الغيب ، والسلام » .

وذكر أبو منصور الثعالبى فى كتاب « يتيمة الدهر » للأشرف بن فخر الملك قوله [من السريع] :

مر بى الموكب لكننى   لم أر فيه قمر الموكب
قل لأمير الجيش ياسيدى   ما لأمير الحسن لم يركب[1]

ومحاسن فخر الملك كثيرة ، ولم يزل فى عزه وجاهه وحرمته إلى أن نقم عليه مخدومه سلطان الدولة المذكور بسبب اقتضى ذلك ، فحبسه ، ثم قتله بسفح جبل قريب من الأهواز ، يوم السبت ، وقيل : يوم الثلاثاء ، لثلاث بقين من شهر

(١) فى ب « ما لأمير الحصن لم يركب » ونعتقده محرفا عما أثبتناه

ربيع الأول سنة سبع وأربعمائة ، ودفن هناك ، ولم يستقص فى دفنه ، فنبشت الكلاب قبره وأكلته ، ثم أعيد دفن رمته ، فشفع فيه بعض أصحابه ، فنقلت عظامه إلى مشهد هناك ، فدفنت فيه ، فى سنة ثمان وأربعمائة .

وقال أبو عبد الله أحمد بن القادسى فى « أخبار الوزراء » : وكان الوزير فخر الملك قد أهمل بعض الواجبات ، فعوقب سريعا ، وذلك أن بعض خواصه قتل رجلا ظلما ، فتصدت له زوجة المقتول تستغيث ، فلم يلتفت إليها ، فلقيته ليلة فى مشهد باب التبن وقد حضر للزيارة ، فقالت له : يافخر الملك ، القصص التى أرفعها إليك ولا تلتفت إليها صرت أرفعها إلى الله ، وأنا منتظرة خروج التوقيع من جهته ، فلما قبض عليه قال : لا شك أن توقيعها خرج ، واستدعى إلى مضرب سلطان الدولة ، ثم قبض عليه ، وعدل به إلى جركاه ، وقد أحيط على أمواله وخزائنه وكراعه وولده وأصحابه ، وقتل فى التاريخ المذكور أعلاه ، وأخذ من ماله ستمائة ألف دينار ونيف وثلاثون ألف دينار ، وقيل : إنه وجد له ألف ألف ومائتا ألف دينار منطبعة .

ورثاه الشريف الرضى بأبيات مااخترت منها شيئا حتى أثبته ههنا ، فسبحان اللطيف الخبير ، الفعال لما يريد .

ومولده بواسط يوم الخميس الثانى والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، وقد استوفى هلال بن الصابى أخباره فى تاريخه ، والله تعالى أعلم .

***

(٦٧٢)

أبو نصر محمد بن محمد بن جهير ، الملقب فخر الدولة مؤيد الدين ، الموصلى ، الثعلبى

فخر الدولة أبو نصر محمد ابن محمد الموصلى الثعلبى، الوزير

كان ذا رأى وعقل وحزم وتدبير ، خرج من الموصل لأمر يطول شرحه ، وصار ناظر الديوان بحلب ، ثم صرف عنه ، وانتقل إلى آمد ، وأقام بها مدة بطالا ، ثم توصل إلى أن وزر للأمير نصر الدولة أحمد بن مروان الكردى صاحب ميَّافارقين وديار بكر ، وقد تقدم ذكر ذلك فى ترجمة نصر الدولة ، وكان نافذ الكلمة ، مطاع الأمر ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى نصر الدولة فى التاريخ المذكور فى ترجمته ، وقام بالأمر ولده نظام الدين ، فأقبل عليه ، وزاد فى إكرامه فرتب أمور دولته ، وأجراها على الأوضاع التى كانت فى أيام أبيه ، ثم خطر له التوجه إلى بغداد ، فعمد على ذلك ، وكان يكاتب الإمام القائم بأمر الله ، ولم يزل يتوصل ويبذل الأموال حتى خرج إليه نقيب النقباء ابن طراد الزينبى ، فقرر معه ما أراد تقريره ، ثم خرج لوداعه ، ويمم إلى بغداد ، وأرسل ابن مروان خلفه من يرده فلم يقدر عليه ، فلما بلغها تولى وزارة القائم بدلا من أبى الغنائم بن دارست فى سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، ودام فيها إلى أن توفى القائم ، وتولى ولد ولده المقتدى بأمر الله فأقره على الوزارة مدة سنين ، ثم عزله عنها يوم عرفة الأمير أبو الغنائم بن دارست ، باشارة الوزير نظام الملك ، وكان ولده عميد الدولة شرف الدين أبو منصور محمد ينوب عنه فيها ، فلما عزل والده خرج هو إلى نظام الملك أبى الحسن وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى المقدم ذكره ، واسترضاه ، وأصلح حاله معه ، وعاد إلى بغداد ، وتولى الوزارة مكان أبيه ، وخرج أبوه فخر الدولة فى سنة ست وسبعين إلى جهة السلطان ملكشاه المذكور باستدعائه إياه ، فعقد له على ديار بكر ، وسار معه الأمير أرتق بن أكسب صاحب

حلوان المقدم ذكره في جماعة من التركمان والأكراد والأمراء ، فلما وصلوا إلى ديار بكر فتح ولده أبو القاسم زعيم الرؤساء مدينة آمد بعد حصار شديد ، ثم فتح أبوه فخر الدولة ميَّافارقين بعد ثلاثة أشهر من فتح آمد ، وكان أخذها من ناصر الدولة أبي المظفر منصور بن نظام الدين ، واستولى على أموال بني مروان وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

ومن عجيب الاتفاق أن منجماً حضر إلى ابن مروان نصر الدولة ، وحكم له بأشياء ، ثم قال له : ويخرج على دولتك رجل قد أحسنت إليه ، فيأخذ الملك من أولادك ، فأفكر ساعة ثم رفع رأسه إلى فخر الدولة وقال : إن كان هذا القول صحيحا فهو الشيخ هذا ، ثم أقبل عليه وأوصاه على أولاده ، فكان الأمر كما قال ، فانه وصل إلى البلاد وكان فتحها على يديه كما ذكرنا ، والشرح في ذلك يطول.

وكان رئيسا جليلا ، خرج من بيته جماعة من الوزراء والرؤساء ، ومدحهم أعيان الشعراء ، فمنهم أبو منصور على بن الحسن المعروف بصَرَّدُرَّ ، أنفذ إلى فخر الدولة المذكور من واسط عند تقلده الوزارة قصيدة ، وهي من مشاهير القصائد (١) ، وأولها [من الطويل] :

لجاجة قلب ما يفيق غرورها ... وحاجة نفس ليس يقضى يسيرها
وقفنـا صفوفا في الديار كأنها ... صحائف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانح : ... أهذا الذى تهوى ؟ فقلت : نظيرها
لئن شابهت أجيادها وعيونها ... لقد خالفت أعجازها وصدورها
فيا عجبا منها يصيد أنيسها ... ويدنو على ذعر إلينا نَفُورها
وما ذاك إلا أن غزلان عامر ... تيقَّنُ أن الزائرين صقورها
ألم يكفها ما قد جنته شموسها ... على القلب حتى ساعدتها بُدُورُهَا
نكصنا على الأعقاب خوف إنائها ... فما بالها تدعو نزَالِ ذكورها

(١) أقمنا تحريف هذه الكلمة والتى بعدها عن ديوان صردر

ووالله ما أدرى غـداة نظرتنـا ... أتلك سهـام أم كؤس تديرهـا

فان كن من نبل فأين حفيفهـا ... وإن كن من خمر فأين سرورها

أيا صاحبيَّ استـأذنا لى خِمَـارها

فقـد أذنت لى فى الوصول خدورها

هباها تجافت عن خليل يروعها ... فهل أنا إلا كالخيـال يزورها

وقد قلتمالى ليس فى الأرض جنة ... أما هذه فوق الركائب حُورُهَا

فـلا تحسبا قلبى طليقـا فانمـا ... لها الصدر سجن وهو فيه أسيرها

يعز على الهيم الخوامس وردها ... إذا كان ما بين الشفاه غديرها

أراكَ الحمى قل لى بأى وسيلة ... توسَّلْتَ حتى قبلَتْكَ ثغورها

ومن مديحها :

أعدت إلى جسم الوزارة روحها ... وما كان يرجى بعثها ونشورها

أقامت زمانا عند غيرك طامثا ... وهـذا الزمان قرؤها وطهورها

من الحق أن يُحْبَى بها مستحقها ... ويُنْزَعَهَا مردودة مستعيرها

إذاملك الحسناء من ليس كفؤها ... أشـار عليها بالطلاق مشيرها

وأنشده أيضاً لمـا عاد إلى الوزارة فى صفر سنة إحدى وستين وأربعمائة بعد العزل ، وكان المقتدى بالله قدأعاده إلى الوزارة بعد العزل وقبل الخروج إلى السلطان ملـكشاه ، فعمل فيه صدر هذه القصيدة [من الرجز] :

قد رجع الحق إلى نصابه ... وأنت من كل الورى أولى به

ما كنت إلا السيف سلته يد ... ثم أعادته إلى قرابه

هزته حتى أبصرته صارما ... رونقه يغنيـه عن ضرابه

أكرم بها وزارة ماسلمت ... ما استودعت إلا إلى أصحابه

مشوقة إليك مـذ فارقتهـا ... شوق أخى الشيب إلى شبابه

مثلك محسود ولـكن معجز ... أن يدرك البارق فى سحابه

حاولها قوم ، ومن هذا الذى يخرج ليثاً خادرا من غابه
يُدْمى أبو الأشبال من زاحمه فى خيسه بظفره ونابه
وهل رأيت أو سمعت لابسا ما خلع الأرقم من إهابه
تيقنوا لما رأوها صَعْبة أن ليس للجو سوى عقابه
إن الهلال يرتجى طلوعه بعد السِّرار ليلة احتجابه
والشمس لا يُوءَسُ من طلوعها وإن طواها الليل فى جلبابه
ما أطيب الأوطان إلا أنها المرء أحلى أثر اغترابه
كم عودة دلت على مآبها والخلد للإنسان فى مآبه
لو قرب الدر على جالبه ما لَجَّجَ الغائص فى طلابه
ولو أقام لازما أصدافه لم تكن التيجان فى حسابه
ما لؤلؤ البحر ولا مَرْجَانه إلا وراء الهول من عبابه

وهى قصيدة طويلة اقتصرنا منها على هذا القدر.

وقد سبق فى ترجمة سابور بن أردشير ثلاثة أبيات كتبها إليه أبو إسحاق الصابى لما عاد إلى الوزارة بعد العزل ، ولم يعمل فى هذا الباب مثلها .

وممن مدحه أيضاً القائد أبو الرضاء الفضل بن منصور الظريف الفارقى ، وفيه عمل الأبيات الحائية المشهورة ، وهى [من المنسرح] :

يا قالة الشعر قد نصحت لكم ولست أدهى إلا من النصح
قد ذهب الدهر بالكرام ، وفى ذاك أمور طويلة الشرح
وأنتمُ تمدحون بالحسن والظرف وجوها فى غاية القبح
وتطلبون السماح من رجل قد طُبعت نفسه على الشح
من أجل ذا تحرمون كدكم لأنكم تكذبون فى المدح
صونوا القوافى فما أرى أحداً يعثر فيها الرجاء بالنجح
فان شككتم فيما أقول لكم فكذبونى بواحد سمح

سوى الوزير الذى رياسته تعرك أذْنَ الزمان بالملح

وكانت ولادة فخر الدولة المذكور سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، بالموصل .

وتوفى بها فى شهر رجب — وقيل : فى المحرم — سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ودفن فى تل توبة ، وهو تل قبالة الموصل يفصل بينهما عرض الشط ، رحمه الله تعالى !

وكان قد عاد إلى ديار ربيعة متوليا من جهة ملكشاه أيضا فى سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، فأول ما ملك نصيبين فى شهر رمضان من هذه السنة ، ثم ملك الموصل وسنجار والرحبة والخابور وديار ربيعة أجمع ، وخطب له على منابرها نيابة عن السلطان ، وأقام بالموصل إلى أن توفى .

عميد الدولة ابن فخر الدولة

وأما ولده عميد الدولة المذكور فقد ذكره محمد بن عبد الملك الهمذانى فى تاريخه فقال : انتشر عنه الوقار والهيبة والعفة وجودة الرأى ، وخدم ثلاثة من الخلفاء ، ووزر لاثنين منهم ، وكان عليه رسوم كثيرة وصلات جمة ، وكان نظام الملك يصفه دائما بأوصاف عظيمة ، ويشاهده بعين الكافى الشهم ، ويأخذ برأيه فى أهم الأمور ويقدمه على الكفاة والصدور ، ولم يكن يعاب بأشد من الكبر الزائد ، فإن كلماته كانت محفوظة مع ضنه بها ، ومَنْ كلمه بكلمة قامت عنده مقام بلوغ الأمل ، فمن جملة ذلك ما قاله لولد الشيخ الإمام أبى نصر بن الصباغ : اشتغل وتأدب ، وإلا كنت صباغا بغير أب ، انتهى كلام ابن الهمذانى .

وكان نظام الملك الوزير قد زوجه زبيدة ابنته ، وكان قد عزل من الوزارة ثم أعيد إليها بسبب المصاهرة ، وفى ذلك يقول الشريف أبو يعلى بن الهبّارية المقدم ذكره [من البسيط] :

قل للوزير ولا تفزعك هيبته وإن تعاظم واستولى لمنصبه
لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانية فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به

ووجدت بخط أسامة بن منقذ المقدم ذكره أن السابق بن أبى مهزول الشاعر المعرى قال : دخلت العراق فوجدت ابن الهبّارية ، فقال لى فى بعض الأيام : امض

بنا لنخدم الوزير ابن جهير ، وكان قد عزل ثم استوزر ، قال السابق : فدخلت معه حتى وقفنا بين يدى الوزير ، فدفع إليه رقعة صغيرة ، فلما قرأها تغير وجهه ، ورأيت فيه الشر ، وخرجنا من مجلسه ، فقلت : ما كان فى الرقعة ؟ فقال : خير ، الساعة تضرب رقبتى ورقبتك ، فأشفقت وقلقت ، وقلت : أنا رجل غريب صحبتك هذه الأيام ، وسعيت فى هلاكى ، فقال : كان ما كان ، فقصدنا باب الدار لنخرج ، فردنا البواب ، فقال : أمرت بمنعكما ، فقال السابق : أنا رجل غريب من أهل الشام ما يعرفنى الوزير ، وإنما القصد هذا ، فقال البواب : لا تطول فما إلى خروجك من سبيل ، فأيقنت بالهلاك ، فلما خف الناس من الدار خرج إليه غلام معه قرطاس فيه خمسون دينارا ، وقال : قد شكرنا فاشكر ، فانصرفنا ، ودفع لى عشرة دنانير منها ، فقلت : ما كان فى الرقعة ؟ فأنشدنى البيتين المذكورين ، فآليت أن لا أصحبه بعدها

وله شعر ذكره فى الخريدة لكنه غير مرضى ، وذكره ابن السمعانى فى كتاب « الذيل » ومدحه خلق كثير من شعراء عصره ، وفيه يقول صردر المذكور قصيدته العينية التى أولها [من الكامل] :

قد بان عذرك والخليط مودِّع ... وهوى النفوس مع الهوادج يرفع
لك حيثما سرت الركائب لفتة ... أترى البدور بكل واد تطلع
فى الظاعنين من الحمى ظبى له الـ ... أحشاء مرعًى والمآقى مكرع
ممنوع أطراف الجمال رقيبه ... حذرا عليه من العيون البرقع (١)
عهد الحبائلَ صائداتِ شبيهِهِ ... فارتاع فهو لكل حبل يقطع
لم يدر حامى سربه أنى إذا ... حرم الكلام له لسانى الأصبع
وإذا الطيوف إلى المضاجع أرسلت ... بتحية منه فعينى تسمع

وهذه القصيدة طويلة ، وهى من غرر الشعر ، وقوله فيها :

عهد الحبائل صائدات شبيهه ... فارتاع فهو لكل حبل يقطع

---

(١) فى الديوان « رقيبه * حذر عليه ، والغيور البرقع »

نظير قول ابن الحمارة الأندلسى [من الطويل] :

عن النوم سل عينا به طَال عهدها وكان قليلا فى ليال قلائل
إذا ظن وكرا مقلتى طائرُ الكرى رأى هُدْبَهَا فارتاع خوف الحبائل

ولا أدرى أيهما أخذ من الآخر . لأنى لم أقف على تاريخ وفاة ابن الحمارة حتى أعرف عصره . ويجوز أن يكون ذلك بطريق التوارد على هذا المعنى من غير أن يأخذ أحدهما من الآخر .

وعزل عميد الدولة المذكور عن الوزارة ، وحبس ، وقيد فى شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وتوفى فى شوال من السنة ، وإليه كتب أبو الكرم بن العلاف الشاعر قوله :

ولولا مدأخنا لم تبن فعال المسىء من المحسن
فهبك احتجبت عن الناظرين فهلا احتجبت عن الألسن

وتوفيت زوجته بنت نظام الملك المذكور فى شعبان سنة سبعين وأربعمائة وكان تزوجها فى سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وتوفى فى سنة ثلاث وتسعين[١] فى حصن مقابل لتل بها .

ولصردر أيضا فى زعيم الرؤساء أبى القاسم بن فخر الدولة قصيدته القافية التى أولها [من الرجز] :

صبحها الدمع ومَساها الأرَق هل بين هذين بقاء للحدق

وهى بديعة مختارة مشهورة فلا حاجة إلى التطويل فى الإتيان بها .

وتولى زعيم الرؤساء أبو القاسم بن فخر الدولة وزارة الإمام المستظهر بالله ، فى شعبان من سنة ست وتسعين وأربعمائة ، ولقبه نظام الدين .

وجهير : بفتح الجيم وكسر الهاء ، وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها

(١) قد ذكر قبل ذلك بسطرين أن وفاته فى شوال من ٤٩٢

راء ، وقال السمعانى : بضم الجيم ، وهو غلط ، يقال : رجـل جَهِير ، بَيِّنُ الجهارة ، أى ذو منظر ، ويقال أيضا : جهير الصوت ، بمعنى جهورى الصوت ، والله تعالى أعلم .

***

(٦٧٣)

أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم ، الملقب ظهير الدين ، الرُّوذْراوَرِى الأصل ، الأهوازى المولد

ظهير الدين أبو شجاع محمد ابن الحسين الروذراورى الأهوازى الوزير

قرأ الفقه على الشيخ أبى إسحاق الشيرازى ، وقرأ الأدب ، وولى الوزارة للامام المقتدى بأمر الله بعد عزل عميـد الدولة منصور بن جَهِير المذكور قبـله فى ترجمة أبيـه فخر الدولة ، وذلك فى سنة ست وسبعين وأربعمائة ، وعزل عنها يوم الخميس ، تاسع عشر صفر سنة أربع وثمـانين وأربعمائة ، وأعيد عميد الدولة ابن جَهِير ، ولما قرأ أبو شجاع التوقيع بعزله أنشد [من الوافر] :

تولاها وليس له عـدو وفارقها وليس له صديق

وخرج بعـد عزله ماشيا يوم الجمعة إلى الجامع من داره ، وانثالت عليـه العامة تصافحه وتدعو له ، وكان ذلك سـببا لالزامه بالقعود فى داره ، ثم خرج إلى رُوذْرَاوَرَ ، وهى موطنه قديما ، فأقام هناك مدة ، ثم خرج إلى الحج فى الموسم سنة سبع وثمـانين وأربعمائة ، وخرجت العرب على الركب الذى هو فيه بقرب الربذة ، فلم يسلم من الرفقة سواه ، وجاور بعد الحج بمدينة النبى صـلى الله عليه وسلم إلى أن توفى فى النصف من جمادى الآخرة ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، ودفن بالبقيع عند القبة التى فيها قبر إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت ولادته سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى !.

قال العماد الكاتب فى « الخريدة » فى حقه : وكان عصره أحسن العصور ، وزمانه أنضر الأزمان ، ولم يكن فى الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله ، صعبا شديداً فى أمور الشرع ، سهلا فى أمور الدنيا ، لا تأخذه فى الله لومة لائم .

ثم قال : ذكره ابن الهمذانى فى الذيل ، فقال : كانت أيامه أوفى الأيام سعادة للدولتين ، وأعظمها بركة على الرعية ، وأعمها أمنا ، وأشملها رخصا ، وأكملها صحة ، لم يغارها بؤس ، ولم تشبها مخافة ، وقامت للخلافة فى نظره من الحشمة والاحترام ، ما أعادت سالف الأيام ، وكان أحسن الناس خطا ولفظا .

وذكره الحافظ ابن السمعانى فى الذيل ، فقال : كان يرجع إلى فضل كامل ، وعقل وافر ، ورزانة ، ورأى صائب ، وكان له شعر رقيق مطبوع ، أدركته حرفة الأدب ، وصُرف عن الوزارة ، وكلف لزوم البيت ، فانتقل من بغداد إلى جوار النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقام بالمدينة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام إلى حين وفاته ، وزرت قبره غير مرة عند قبر إبراهيم ابن نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، بالبقيع .

ثم قال السمعانى بعد ذلك : سمعت من أثق به يقول : إن الوزير أباشجاع وقت أن قرب أمره ، وحان ارتحاله من الدنيا حمل إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف عند الحضرة وبكى ، وقال : يا رسول الله ، قال الله سبحانه وتعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) ولقد جئتك معترفا بذنوبى وجرائمى ، أرجو شفاعتك وبكى ، ورجع ، وتوفى من يومه .

وله شعر حسن مجموع فى ديوان ، فمن ذلك قوله [من الكامل] :

لأعذبن العين غير مفكر   فيها ، بكت بالدمع أوفاضت دما
ولأهجرن من الرقاد لذيذه   حتى يعود على الجفون محرما
هى أوقعتنى فى حبائل فتنة   لولم تكن نظرت لكنت مسلما
سفكت دمى فلأسفكن دموعها   وهى التى بدأت فكانت أظلما

وله أيضا [من الطويل] :

وإنى لأبدى فى هواك تجلدا   وفى القلب منى لوعة وغليل
فلا تحسبن أنى سلوت فربما   ترى صحة بالمرء وهو عليل

وله أيضا [من الطويل] :

أيذهب جل العمر بينى وبينكم   بغير لقاء ؟ إن ذا لشديد
فان سمح الدهر الخؤون بوصلكم   على فاقتى إنى إذا لسعيد

وعمل ذيلا على كتاب « تجارب الأمم » ، تأليف أبى على أحمد بن محمد المعروف بمسكويه ، وهو التاريخ المشهور بأيدى الناس .

وقال محمد بن عبد الملك الهمذانى فى تاريخه : وظهر منه من التثبت فى الدين وإظهاره ، وإعزاز أهله ، والرأفة بهم ، والأخذ على أيدى الظلمة ماأذكر به عدل العادلين . وكان لايخرج من بيته حتى يكتب شيئا من القرآن العظيم ، ويقرأ من القرآن فى المصحف ما تيسر . وكان يؤدى زكاة أمواله الظاهرة فى سائر أملاكه وضياعه وأقطاعه ، ويتصدق سرا .

وعرضت عليه رقعة فيها : إن الدار الفلانية ، بدرب القبار ، فيها امرأة معها أربعة أيتام ، وهم عراة جياع ، فاستدعى صاحبا له ، وقال له : اكسهم وأشبعهم ، وخلع ثيابه ، وحلف لا لبستها ولا دفئت حتى تعود إلى ، وتخبرنى

أنك كسوتهم وأشبعتهم. ولم يزل يُرْعَد إلى أن جاء صاحبه، وأخبره بذلك.
وكانت له مبار كثيرة.

والرُّوذْرَاوَرِى — بضم الراء، وسكون الواو، والذال المعجمة، وفتح الراء والواو بينهما ألف، فى آخرها راء أخرى — هذه النسبة إلى رُوذْرَاوَرَ، وهى: بليدة بنواحى همذان، والله تعالى أعلم.

* * *

(٦٧٤)

عميد الملك أبو نصر محمد ابن منصور الكندرى الوزير

أبو نصر محمد بن منصور بن محمد، الملقب عميد الملك، الكندرى

كان من رجال الدهر جوداً، وسخاء، وكتابة، وشهامة، واستوزره السلطان طُغْرُلْبَك السلجوقى، المقدم ذكره، ونال عنده الرتبة العالية، والمنزلة الجليلة، ولم يكن لأحد من أصحابه معه كلام، وهو أول وزير كان لهذه الدولة، ولم تكن له منقبة إلا صحبة إمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك ابن الشيخ أبى محمد الجوينى، الفقيه الشافعى، صاحب نهاية المطلب على ما ذكره السمعانى فى ترجمة أبى المعالى فى كتاب الذيل، فانه قال — بعد الإطناب فى وصف إمام الحرمين وذكر تنقله فى البلاد — ثم قال: وخرج إلى بغداد، وصحب العميد الكندرى أبا نصر مدة يطوف معه ويلتقى فى حضرته بالأكابر من العلماء ويناظرهم، وتحنك بهم حتى تهذب فى النظر، وشاع ذكره، وذكره شيخنا ابن الأثير فى تاريخه فى سنة ست وخمسين وأربعمائة، وقال: إن الوزير المذكور كان شديد التعصب على الشافعية كثير الوقيعة فى الشافعى، رضى الله عنه! بلغ من تعصبه أنه خاطب السلطان ألب أرسلان السلجوقى فى لعن الرافضة على منابر خراسان، فأذن فى ذلك،

فلعنهم وأضاف إليهم الأشعرية ، فأنف من ذلك أئمة خراسان منهم أبوالقاسم القشيرى ، وإمام الحرمين الجوينى ، وغيرهما ، ففارقوا خراسان ، وأقام إمام الحرمين بمكة شرفها الله تعالى أربع سنين يدرس ويفتى ، فلهذا قيل له : إمام الحرمين ، فلما جاءت الدولة النظامية أحضر من انتزح منهم ، وأكرمهم وأحسن إليهم . وقيل : إنه تاب عن الوقيعة فى الشافعى ، فان صح فقد أفلح . وكان ممدوحا مقصدا للشعراء ، مدحه جماعة من أكابر شعراء عصره ، منهم أبوالحسن عبد الملك على بن الحسن الباخرزى ، المقدم ذكره ، والرئيس أبو منصور على ابن الحسن بن الفضل ، الكاتب المشهور بصردر ، المقدم ذكره أيضا ، وفيه يقول قصيدته النونية ، وهى [من الكامل] :

أكذا يُجازَى ودُّ كل قرين ... أم هذه شيم الظباء العين
قُصُّوا على حديث من قتلَ الهوى ... إن التأسى رَوْحُ كل حزين
ولئن كتمتم مشفقين لقد درى ... بمصارع العذرى والمجنون (1)
فوق الركاب ولا أطيل مشبها ... بل ثم شهوة أنفس وعيون
هزأت قدودهم وقالت للصبا ... هزُؤاً أعند البان مثل غصونى
ووراء ذياك المقبل مورد ... حصباؤه من لؤلؤ مكنون
إما بيوت النحل بين شفاههم ... منظومة أو حانة الزرجون
ترمى بعينيك الفجاج مقلبا ... ذات الشمال بها وذات يمين
لو كنت زرقاء اليمامة ما رأت ... من بارق حيا على جيرون
شكواك من ليل التمام وإنما ... أرقى بليل ذوائب وقرون
ومعنفٍ فى الوجد قلت له ائتد ... فالدمع دمعى والحنين حنينى
ما نافعى إذ كان ليس بنافع ... جاه الصبا وشفاعة العشرين
لا تطرقن خجلا للومة لائم ... ما أنت أول حازم مفتون

(١) فى الديوان « فقدونى بمصارع العذرى والمجنون »

أأسومهم، وهم الأجانب، طاعة ... وهواى بين جوانحى يعصينى
دينى على ظبياتهم ما يقتضى ... فبأى حكم يقتضون ديونى[1]
وخشيت من قلبى الفرار إليهم ... حتى لقد طالبته بضمين
كلَّ النكال أطيق إلا الذلة ... إن العزيز عذابه بالهون
ياعين مثل فذاك رؤية معشر ... عارٍ على دنياهم والدين
لم يشبهوا الإنسان إلا أنهم ... متكونون من الحما المسنون
نجس العيون فان رأتهم مقلتى ... طهرتُها فنزحت ماء عيونى
إنا إن همُ حسبوا الذخائر دونهم ... وهم إذا عدوا الفضائل دونى
لا يشمتِ الحسادَ أن مطامعى ... عادت إلىَّ بصفقة المغبون
ما يستدير البدر إلا بعدما ... أبصرته فى الضمر كالعرجون
هذا الطريق اللحب زاجر ناقتى ... واليم قاذف فلكى المشحون
فاذا عميد الملك حَلّى ربعه ... ظفرا بفأل الطائر الميمون
ملك إذا ما العزمُ حث جياده ... مرحت بأزهر شامخ العرنين
يا عز ما أبصرت نور جبينه ... إلا اقتضانى بالسجود جبينى
يجلو النواظر من نواحى دسته ... والسرج بدر دجى وليث عرين
عمت فضائله البرية فالتقى ... شكر الغنى ودعوة المسكين
قالوا وقد شنوا عليه غارة ... أصلاَت جود أم قضاء ديون
لو كان فى الزمن القديم تظلمت ... منه الكنوز إلى يدَىْ قارون
أما خزائن ماله فمباحة ... فاستوهبوا من علمه المخزون
ما الرزق محتاجاً بعرصته إلى ... طلب، وليس الأجر بالممنون
أقسمت أن ألقى المكارم عالما ... أنى برؤيته أبر يمينى
ساس الأمور فليس يخلى رغبة ... من رهبة وبسالة من لين
كالسيف رونق أثرِه فى متنه ... ومضاؤه فى حده المسنون

(١) فى الديوان « يقتضون رهونى »

شهدت علاه أن عنصر ذاته مسك ، وعنصر غيره من طين

وكان إنشاده إياه هذه القصيدة عند وصول عميد الملك إلى العراق ، وهو فى دَسْتِ وزارته وعلو منصبه ، وهذه القصيدة من الشعر المختار الفائق ، وقد أثبتُّها بكمالها ما خلا ثلاثة أبيات فانها لم تعجبنى فأهملتها ، وقد وازن هذه القصيدة جماعة من الشعراء منهم ابن التعاويذى المقدم ذكره ، وازنها بقصيدته التى أولها [من الكامل] :

إن كان دينك فى الصبابة دينى فقِفِ المطى برملتَى يَبْرِ ين

وهى من القصائد النادرة ، وأرسلها من العراق إلى الشام ممتدحاً بها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى ، رحمه الله تعالى ! ولولا خوف الإطالة لأثبتها ، ثم ذكرتها فى ترجمة صلاح الدين يوسف فتطلب هناك ، ووازنها أيضا ابن المعلم المقدم ذكره بقصيدته التى أولها [من الكامل] :

ما وقفة الحادى على يَبْـرِين وهو الخلىُّ من الظباء العين

وهى أيضاً قصيدة جيدة ، وقد ذكرت بعضها فى ترجمته ، وقد وازنها الأبله أيضاً ، وبالجملة فما قاربها إلا ابن التعاويذى ، وقد خرجنا عن المقصود ،وقدانتشر الكلام فلم يكن بد من استيفائه .

ولم يزل عميد الملك فى دولة طُغْرُلْبَك عظيم الجاه والحرمة ، إلى أن توفى طغرلبك فى التاريخ المذكور فى ترجمته ، وقام فى المملكة ابن أخيه ألب أرسلان المقدم ذكره ، فأقره على حاله ، وزاد فى إكرامه ورتبته ، ثم إنه سيره إلى خوارزم شاه ليخطب له ابنته ، فأرجف أعداؤه أنه خطبها لنفسه ، وشاع ذلك بين الناس وبلغ عميد الملك الخبر ، فخاف تغير قلب مخدومه عليه ، فعمد إلى لحيته فحلقها ، وإلى مذاكيره فجبَّهاَ ، فكان ذلك سبب سلامته من ألب أرسلان ، وقيل : إن السلطان خصاه ، فلما عمل ذلك عمل أبو الحسن الباخَرْزِى المذكور [من الكامل] :

قالوا : محا السلطان عنه بَعْدكم
سِمَةَ الفحولِ وكانَ قَرْماً صائلا

قلتُ : اسكتوا ، فالآنَ زادَ فُحولَةً
لمّا اغتدَى من أنثييه عاطلا

فالفحلُ يأنفُ أن يُسمى بعضهُ
أنثى ، لذلك جدَّهُ مستأصلا

وهذا من المعانى الغريبة البديعة .

ثم إن ألب أرسلان عزله من الوزارة فى المحرم من سنة ست وخمسين وأربعمائة لسبب يطول شرحه ، وفوض الوزارة إلى نظام الملك أبى على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى المقدم ذكره .

وحبس عميد الملك بنيسابور فى دار عميد خراسان ، ثم نقله إلى مروالروذ وحبسه فى دار ، فكان فى حجرة تلك الدار عياله ، وكانت له بنت واحدة لاغير ، فلما أحس بالقتل دخل الحجرة وأخرج كَفنه وودع عياله وأغلق باب الحجرة واغتسل وصلى ركعتين ، وأعطى الذى هم بقتله مائة دينار نيسابورية ، وقال : حق عليك أن تكفننى فى هذا الثوب الذى غسلته بماء زمزم ، وقال لجلاده : قل للوزير نظام الملك : بئس ما فعلت ، علَّمت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر مَهْوَاة وقع فيها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ورضى بقضاء الله المحتوم .

وقتل يوم الأحد سادس عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين وأربعمائة وعمره يومئذ نيف وأربعون سنة ، فعمل فى ذلك الباخَرْزِى الشاعر المذكور مخاطباً السلطان ألب أرسلان قوله [من الطويل] :

وعمك أدناه وأعلى محله
وَبوأه من ملكه كنفاً رحبا

قضى كل مولى منكما حق عبده

فخوله الدنيا وخولته العقبى

ومن العجائب أنه دفنت مذا كيره بخوارزم ، وأريق دمه بمروالروذ ، ودفن جسده بقرية كندر ، وجمجمته ودماغه بنيسابور ، وحشيت سوأته بالتبن ، ونقلت إلى كِرْمَان ، وكان نظام الملك هناك ، ودفنت ثَمّ ، وفى ذلك عبرة لمن اعتبر ، رحمه الله تعالى ! بعد أن كان رئيس عصره .

والكُنْدُرى — بضم الكاف ، وسكون النون ، وضم الدال المهملة ، و بعدها راء — هذه النسبة إلى كندر ، وهى قرية من قرى طُرَيْثِيث — بضم الطاء المهملة ، وفتح الراء ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وكسر الثاء المثلثة ، وسكون الياء المثناة من تحتها أيضاً ، وبعدها ثاء مثلثة — وهى كورة من نواحى نيسابور ، خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم ، والله تعالى أعلم بالصواب .

***

(٦٧٥)

أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور ، الملقب جمال الدين ،
المعروف بالجواد الأصفهانى ، وزير صاحب الموصل

جمال الدين الجواد الأصفهاني أبو جعفر محمد بن علي، الوزير

كان جده أبو منصور فهّاداً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، فتأدب ولده ، وسَمَتْ همته ، فاشتهر أمره ، وخدم فى مناصب علية ، وصاهر الأكابر ، فلما ولد له جمال الدين المذكور عنى بتأديبه وتهذيبه ، ثم ترتب فى ديوان العرض للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه الآتى ذكره ، إن شاء الله تعالى ، فظهرت كفايته ، وحمدت طريقته ، فلما تولى أتابك زنكى بن آق سنقر المقدم ذكره الموصل وما والاها استخدم جمال الدين المذكور ، وقربه ، واستصحبه معه إليها ، فولاه نصيبين ، فظهرت كفايته ، وأضاف إليه الرحبة ، فأبان عن كفاية وعفة ، وكان من خواصه وأكبر ندمائه ، فجعله مشرف مملكته كلها ، وحكمه تحكيما لا مزيد عليه ، وكان الوزير يومئذ ضياء الدين أبو سعد بهرام بن الخضر الكَفَرْتُوثِى ، استوزره أتابك زنكى فى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، وتوفى خامس شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وهو على وزارته ، وتولى الوزارة بعده أبو الرضى بن صَدَقَةَ ، وجمال الدين المذكور على وظائفه ، وكان جمال الدين دمث الأخلاق ، حسن المحاضرة ، مقبول المفاكهة ، فخف على أتابك زنكى المذكور ، وأعجبه حديثه ومحاورته ، وجعله من ندمائه ، وعول عليه فى آخر مدته فى أشراف ديوانه ، وزاد ماله ، ولم يظهر منه فى أيام أتابك زنكى كرم ولا جود ولا تظاهر بموجود ، فلما قتل أتابك على قلعة جعبر — كما تقدم فى ترجمته — أراد بعض العسكر قتل الوزير المذكور ونهب ماله ، فتعرضوا له ورموا خيمته بالنشاب ، فحماه جماعة من الأمراء ، وتوجه بالعسكر إلى الموصل ، فأقره سيف الدين غازى بن أتابك زنكى المقدم ذكره على وزارته ، وفوض الأمور وتدبير

أحوال الدولة إليه و إلى زين الدين على بن بكتكين والد مظفر الدين صاحب إربل ، وقد تقدم طرف من خبره فى ترجمة ولده فى حرف الكاف ، فظهر حينئذ جود الوزير المذكور ، وانبسطت يده ، ولم يزل يعطى و يبذل الأموال و يبالغ فى الإنفاق حتى عرف بالجواد ، وصار ذلك كالعلم عليه ، حتى لا يقال له إلا « جمال الدين الجواد » .

ومدحه جماعة من الشعراء ، من جملتهم محمد بن نصر القَيْسَرانى الشاعر المقدم ذكره ، فانه قصده بقصيدته المشهورة التى أولها [من الطويل] :

سقى الله بالزوراء من جانب الغربى　　مَهاً وردت عين الحياة من القلب

وأثر آثارا جميلة ، وأجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم من مكان بعيد ، وعمل الدرج من أسفل الجبل إلى أعلاه ، و بنى سور مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان خرب من مسجده ، وكان يحمل فى كل سنة إلى مكة شرفها الله تعالى والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام من الأموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدة سنة كاملة ، وكان له ديوان مرتب باسم أرباب الرسوم والقصاد لا غير ، ولقد تنوع فى فعل الخير حتى جاء فى زمنه بالموصل غلاء مفرط فواسى الناس حتى لم يُبْقِ له شيئاً ، وكان إقطاعه عُشْر مُغَل البلاد على جارى عادة وزراء الدولة السلجوقية ، فأخبر بعض وكلائه أنه دخل عليه يوماً فناوله بقياره ، وقال له : بع هذا واصرف ثمنه إلى المحاويج ، فقال له الوكيل : إنه لم يبق عندك سوى هذا البقيار والذى على رأسك ، و إذا بعت هذا ربما تحتاج إلى تغيير البقيار فلا تجد ما تلبسه ، فقال له : إن هذا الوقت صعب كما ترى ، وربما لا أجد وقتاً أصنع فيه الخير كهذا الوقت ، وأما البقيار فانى أجد عوضه كثيراً ، فخرج الوكيل و باع البقيار ، وتصدق بثمنه .

وله من هذه النوادر أشياء كثيرة .

وأقام على هذه الحالة إلى أن توفى مخدومه غازى فى التاريخ المذكور، فى ترجمته، وقام بالأمر من بعده أخوه قطب الدين مودود، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى، فاستولى عليه مدة، ثم إنه استكثر إقطاعه، وثقل عليه أمره، فقبض عليه فى شهر رجب الفرد سنة ثمان وخمسين وخمسمائة.

وفى أخبار زين الدين، صاحب إربل، طرفٌ من خبر قبضه، وحبسه فى قلعة الموصل، ولم يزل مسجوناً بها إلى أن توفى فى العشر الأخير، من شهر رمضان المعظم، وقيل: شعبان، سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وصلى عليه، وكان يوماً مشهوداً من ضجيج الضعفاء والأرامل والأيتام حول جنازته، ودفن بالموصل إلى بعض سنة ستين، ثم نقل إلى مكة — حرسها الله تعالى! — وأطيف به حول الكعبة، وكان بعد أن صعدوا به ليلة الوقفة إلى جبل عرفات وكانوا يطوفون به كل يوم مرارا مدة مقامهم بمكة، شرفها الله تعالى! وكان يوم دخوله مكة يوماً مشهوداً من اجتماع الخلق والبكاء عليه، ويقال: إنه لم يعهد عندهم مثل ذلك اليوم، وكان معه شخص مرتب يذكر محاسنه، ويعدد مآثره، إذا وصلوا به إلى المزارات والمواضع المعظمة، فلما أتوا به إلى الكعبة وقف، وأنشد [من السريع]:

يا كعبة الإسلام، هذا الذى
جاءك يسعى كعبةُ الجودِ
قصدتِ فى العام، وهذا الذى
لم يخل يوماً غير مقصود

ثم حمل إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، ودفن فيها بالبقيع بعد أن دخل المدينة، وطيف به حول حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم مراراً، وأنشد الشخص الذى كان مرتبا معه، فقال [من الطويل]:

سرى نعشه فوق الرقاب ، وطالما
سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمرُّ على الوادى فتثنى رماله
عليه ، وبالنادى فتبكى أرامله

قلت : وهذان البيتان من جملة القصيدة المذكورة فى ترجمة المقلد بن نصر ابن منقذ الشيرازى[1] ، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى ، رحمه الله تعالى! .

وكان ولده أبو الحسن على ، الملقب جلال الدين ، من الأدباء الفضلاء ، البلغاء الكرماء ، رأيت له ديوان رسائل ، أجاد فيه ، وجمعه مجد الدين أبو السعادات المبارك المعروف بابن الأثير الجزرى ، صاحب جامع الأصول ، وقد تقدم ذكره ، وسماه كتاب « الجواهر واللآلى ، من إملاء المولوى الوزير الجلالى » . وكان مجد الدين المذكور فى أول أمره كاتبا بين يديه ، يملى رسائله وإنشاءه عليه ، وهو كاتب يده ، وقد أشار مجد الدين إلى ذلك فى أول هذا الكتاب ، وبالغ فى وصف جلال الدين المذكور وتقريضه ، وفضله على كل من تقدم من الفصحاء ، وذكر أنه كان بينه وبين حَيْصَ بَيْصَ ، الشاعر المقدم ذكره مكاتبات ، ولولا خوف الإطالة لذكرت بعض رسائله .

وفى جملة ما ذكره أن حيص بيص كتب إليه على يد رجل عليه دين رسالة مختصرة ، فأتيت بها لقصرها ، وهى « الكرم غابر ، والذكر سائر ، والعَوْنُ على الخطوب أكرم ناصر ، وإغاثة الملهوف من أعظم الذخائر ، والسلام » .

وكان جلال الدين المذكور وزير سيف الدين غازى بن قطب الدين ، وقد تقدم ذكره أيضا فى حرف الغين .

---

(١) كذا ، ولعله « الشيزرى » فإن الأمراء من بنى منقذ ملكوا شيزر ، وهى قلعة قرب المعرة بينها وبين حماة

وتوفى جلال الدين المذكور سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، بمدينة دُنَيْسَر ، وحمل إلى الموصل ، ثم نقل إلى المدينة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، ودفن فى تربة والده ، رحمهما الله تعالى !.

ودُنَيْسَر – بضم الدال المهملة ، وفتح النون ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح السين المهملة ، وبعدها راء — وهى مدينة بالجزيرة الفراتية بين نصيبين ورأس عين ، تطرقها التجار من جميع الجهات ، وهى مجمع الطرقات ، ولهذا قيل لها : دنيسر ، وهى لفظ مركب عجمى ، وأصله : دنياسر ، ومعناه رأس الدنيا ، وعادة العجم فى الأسماء المضافة أن يؤخروا المضاف عن المضاف إليه ، وسر بالعجمى رأس.

والكَفْرَتُوثى الوزير المذكور – بفتح الكاف ، وسكون الفاء ، وفتح الراء ، وضم التاء المثناة من فوقها ، وسكون الواو ، وبعدها ثاء مثلثة – هذه النسبة إلى كفرتوثا ، وهى قرية من أعمال الجزيرة الفراتية ، بين رأس عين ودارا ، والله أعلم.

***

(٦٧٦)

أبو عبد الله
عماد الدين
محمد بن صفى
الدين، الكاتب
الأصفهانى

أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد بن نفيس الدين أبى الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله ، المعروف بأَلُهْ ، الملقب عماد الدين ، الكاتب الأصبهانى ، المعروف بابن أخى العزيز

وقد تقدم ذكر عمه العزيز فى حرف الهمزة .

كان العماد المذكور فقيها ، شافعى المذهب ، تفقه بالمدرسة النظامية زمانا ، وأتقن الخلاف ، وفنون الأدب ، وله من الشعر والرسائل ما يغنى عن الإطالة فى شرحه ، وكان قد نشأ بأصبهان ، وقدم بغداد فى حداثته ، وتفقه على الشيخ أبى منصور سعيد بن محمد بن الوزان ، مدرس النظامية ، وسمع بها الحديث من أبى الحسن على بن هبة الله بن عبد السلام ، وأبى منصور محمد بن عبد الملك ابن جيرون ، وأبى المكارم المبارك بن على السمرقندى ، وأبى بكر أحمد بن على ابن الأشقر ، وغيرهم ، وأقام بها مدة ، ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد ، فولاه النظر بالبصرة ، ثم بواسط ، ولم يزل ماشى الحال مدة حياته ، فلما توفى فى التاريخ الآتى ذكره فى ترجمته إن شاء الله تعالى ، تشتت شمل أتباعه والمنتسبين إليه ، ونال المكروه بعضهم ، وأقام العماد مدة فى عيش منكد ، وجفن مسهد ، ثم انتقل إلى مدينة دمشق ، فوصلها فى شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين ، أبو القاسم محمود بن أتابك زنكى ، الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، وحاكمها ومتولى أمورها وتدبير دولتها القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزورى المقدم ذكره ، فتعرف به ، وحضر مجالسه ، وذكر لديه مسألة فى الخلاف ،

وعرفه الأمير الكبير نجم الدين أبو الشكر أيوب ، والد السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى ! وكان يعرف عمه العزيز من قلعة تكريت ، فأحسن إليه ، وأكرمه ، وميزه عن الأعيان والأماثل ، وعرفه السلطان صلاح الدين من جهة والده ، ومدحه فى ذلك الوقت بدمشق المحروسة ، وذكر العماد ذلك فى كتابه « البرق الشامى » ، وأورد القصيدة التى مدحه بها يومئذ .

ثم إنّ القاضى كمال الدين نوّه بذكره عند السلطان نور الدين ، وعدد عليه فضائله ، وأهله لكتابة الإنشاء .

قال العماد : فبقيت متحيراً فى الدخول فيما ليس من شأنى ولا وظيفتى ، ولا تقدمت لى به دراية ، ولقد كانت مواد هذه الصناعة عتيدة عنده ، لكنه لم يكن قد مارسها ، فجبن عنها فى الابتداء ، فلما باشرها هانت عليه ، وأجاد فيها وأتى فيها بالغرائب . وكان ينشىء الرسائل باللغة العجمية أيضا ، وحصل بينه و بين صلاح الدين فى تلك المدة مودة أكيدة ، وامتزاج تام ، وعلت منزلته عند نور الدين ، وصار صاحب سره ، وسيره إلى دار السلام بغداد رسولا فى أيام الإمام المستنجد ، ولما عاد فوض إليه تدريس المدرسة المعروفة به فى دمشق ، أعنى العماد ، وذلك فى شهر رجب سنة سبع وستين وخمسمائة ، ثم رتبه فى أشراف الديوان ، فى سنة ثمان وستين ، ولم يزل مستقيم الحال ، رخى البال ، إلى أن توفى نور الدين فى التاريخ الآتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وقام ولده الملك الصالح إسماعيل مقامه وكان صغيرا فاستولى عليه جماعة كانوا يكرهون العماد فضايقوه وأخافوه إلى أن ترك جميع ماهو فيه وسافر قاصداً بغداد فوصل إلى الموصل ومرض بها مرضا شديدا .

ثم بلغه خروج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية ، لأخذ دمشق ، فانثنى عزمه عن قصد العراق وعزم على العود إلى الشام وخرج من الموصل رابع

جمادى الأولى سنة سبعين وخمسمائة ، وسلك طريق البرية ، فوصل إلى دمشق في ثامن جمادى الآخرة وصلاحُ الدين يومئذ نازل على حلب ، ثم قصد خدمته وقد تسلم قلعة حمص فى شعبان من السنة ، فحضر بين يديه ، وأنشده قصيدة أطال نفسه فيها ، ثم لزم الباب ينزل لنزول السلطان و يرحل لرحيله ، فاستمر على عطلته [مدة] مديدة ، وهو يغشى مجالس السلطان و ينشده فى كل وقت مدائح ، و يعرض بصحبته القديمة ، ولم يزل على ذلك حتى نظمه فى سلك جماعته ، واستكتبه ، واعتمد إليه ، وقرب منه ، فصار من جملة الصدور المعدودين ، والأماثل المشهورين يضاهى الوزراء و يجرى فى مضمارهم ، وكان القاضى الفاضل فى أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان و يتوفر على مصالح الديار المصرية ، والعماد ملازم للباب بالشام وغيره ، وهو صاحب السر المكتوم .

وصنف التصانيف الفائقة ، من ذلك كتاب « خريدة القصر ، وجريدة العصر » جعله ذيلا على « زينة دمية الدهر »[1] تأليف أبى المعالى سعد بن على الوراق الحظيرى ، والحظيرى جعل كتابه ذيلا على « دمية القصر ، وعصرة أهل العصر » للباخَرْزِى ، والباخرزى جعل كتابه ذيلا على « يتيمة الدهر » للثعالبى ، وقد تقدم ذكر هؤلاء الثلاثة المؤلفين ، والثعالبى جعل كتابه ذيلا على كتاب « البارع » لهرون بن على المنجم ، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى ، وقد ذكر العماد فى خريدته الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ، ولم يترك أحداً إلا النادر الخامل ، وأحسن فى هذا الكتاب ، وهو فى عشر مجلدات ، وصنف كتاب « البرق الشامى » فى سبع مجلدات ، وهو مجموع تاريخ ، و بدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق إلى الشام ، وما جرى له فى خدمة السلطان نور الدين محمود ، و كيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين ، وذكر شيئا من الفتوحات بالشام ، وهو من الكتب الممتعة ، و إنما سماه « البرق الشامى » لأنه شبه أوقاته فى تلك

---

(١) سمى الكتاب فى ترجمة الحظيرى « زينة الدهر »

الأيام بالبرق الخاطف لطيها وسرعة انقضائها ، وصنف كتاب « الفتح القدسى» فى الفتح القدسى » فى مجلدين ، يتضمن كيفية فتح البيت المقدس ، وصنف كتاب « السيل ، على الذيل» جعله ذيلا على « الذيل» لابن السمعانى المقدم ذكره الذى ذيل به « تاريخ بغداد » تأليف الخطيب الحافظ ، هكذا كنت قد سمعت ثم إنى وقفت عليه فوجدته ذيلا على كتابه « خريدة القصر » المذكور ، وصنف كتاب « نصرة الفطرة ، وعصرة القطرة ، فى أخبار الدولة السلجوقية» وله ديوان رسائل ، وديوان شعر فى أربع مجلدات ، ونفَسه فى قصائده طويل ، وله ديوان صغير جميعه دو بيت .

وكان بينه و بين القاضى الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف ، فمن ذلك ما يحكى عنه أنه لقيه يوما وهو راكب على فرس ، فقال له : سر فلا كبابك الفرس فقال له الفاضل : دام علا العماد ! وهذا مما يقرأ مقلوبا وصحيحا ، سواء ، واجتمعا يوما فى موكب السلطان ، وقد انتشر من الغبار لكثرة الفرسان ما سد الفضاء ، فتعجبا من ذلك ، فأنشد العماد فى الحال [من مجزوء الكامل] :

أما الغبار فإنه ... مما أثارته السنابك

والجو منه مظلم ... لكن أنارته السنابك

يا دهر لى عبد الرحيـ

ـم فلست أخشى مَسَّ نابك

وقد اتفق له الجناس فى الأبيات الثلاثة ، وهو فى غاية الحسن .

وكان القاضى الفاضل قد حج من مصر فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، وركب البحر فى طريقه ، فكتب إليه العماد الكاتب : طوبى للحِجْر والحَجُون من ذى الحجر والحجا ، منيل الجدا ومنير الدجا ، ولندى الكعبة من كعبة الندى ، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى ، وللمقام الكريم من مقام الكريم ، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم ، ومتى رؤى هرم فى الحرم ، وحاتم ماتح زمزم ؟ ومتى ركب البحر

البحر ؟ وسلك البر البر ، لقد عاد قُس إلى عكاظه ، وعاد قيس لِحِفَاظه ، و ياعجبا لـكعبة يقصدها كعبة الفضل والإفضال ، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال ، والسلام ، لقد أبدع فى هذه الرسالة وما أودعها من الصناعة ، لـكن الظاهر أنه غلط فى قوله قيس لحفاظه ، فان المشهور أنس للحفاظ ، وهم أر بعة أخوة لـكل واحد منهم لقب ، ولولا خوف الإطالة والانتقال عما نحن بصدده لذكرت قصتهم .

ولما توفى الوزير عون الدين بن هبيرة اعتقل الديوان العزيز جماعة من أصحابه وكان العماد فى جملة من اعتقل ، لأنه كان ينوب عنـه فى واسط تلك المدة ، فـكتب من الحبس إلى عماد الدين بن عضد الدين بن رئيس الرؤساء ، وكان حينئذ أستاذ الدار المستنجدية ، وذلك فى شعبان سنة ستين وخمسمائة من قصيدة [من الـكامل] :

قل للامام : علام حبس وليكم أولوا جميلـكم جميلَ ولائه
أو ليس إذ حبس الغمام وليه خـلى أبوك سـبيله بدعائه

فأمر باطلاقه ، وهذا معنى مليح غريب ، وفيه إشارة إلى قضية العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فان الغيث قد انقطع فى زمن خلافته ، وأمحلت الأرض ، فخرج للاستسقاء ومعه العباس والناس ، فلما وقف للدعاء قال : اللهم إنا كنا إذا قحطنا توسلنـا إليك بنبينا فتسقينا ، و إنا نتوسل إليك اليوم بعم نبينا فاسقنا ، فسقوا ، وأما الولىُّ فهو المطر الذى يأتى بعد الوسمى ، وسمى وليا لأنه يلى الوسمى ، والوسمى : مطر الربيع الأول ، وسمى بذلك لأنه يَسِمُ الأرض بالنبات ، وهو منسوب إلى الوسم ، وقد جمعهما المتنبى فى بيت واحد وهو [من الطويل] :

أمُنْعِمة بالعودة الظبيةُ التى بغير ولى كان نائلها الوسمى

يعنى أنه لم تكن لزيارتها الأولى ثانية .

ولم يزل العماد الـكاتب على مكانته ورفعة منزلته إلى أن توفى السلطان

صلاح الدين رحمه الله تعالى ! فاختلت أحواله ، وتعطلت أوصاله ، ولم يجد فى وجهه بابا مفتوحا ، فلزم بيته ، وأقبل على الاشتغال بالتصانيف ، وقد ساق فى أوائل « البرق الشامى » طرفا من ذلك ، وتقدم فى ترجمة ابن التعاويذى مادار بينهما فى طلب الفروة والرسالة والقصيدة وجوابهما .

وكانت ولادته يوم الإثنين ثانى جمادى الآخرة ، وقيل : فى شعبان ، سنة تسع عشرة وخمسمائة ، بأصبهان .

وتوفى يوم الإثنين مستهل شهر رمضان المعظم ، سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، بدمشق ، ودفن فى مقابر الصوفية خارج باب النصر ، رحمه الله تعالى ! .

أخبرنى بعض الرؤساء ممن كان ملازمه مدة مرضه أنه كان إذا دخل عليه يعوده أنشده [من مجزوء الخفيف] :

أنا ضيف ربعكم　　أين أين المضيفُ ؟

أنكرتنى معارفى　　مات من كنت أعرف

وأَلُهْ — بفتح الهمزة ، وضم اللام ، وسكون الهاء — وهو اسم عجمى معناه بالعربى العقاب ، وهو الطائر المعروف ، وقد قيل : إن العقاب لا يوجد فيه ذكر ، بل جميعه أنثى ، وإن الذى يسافده طائر آخر من غير جنسه ، وقيل : إن الثعلب يسافده ، وهذا من العجائب .

ولابن عنين الشاعر المقدم ذكره فى هجو شخص يقال له ابن سيده [من الكامل] :

ما أنت إلا كالعقاب فأمه　　معروفة وله أب مجهول

وهذه إشارة إلى ما نحن فيه ، والله تعالى أعلم بالصواب .

* * *

(٦٧٧)

أبو نصر محمد بن طَرْخَان بن أُوْزَلَغ ، الفارابى ، التركى ، الحكيم المشهور

أبو نصر محمد ابن طرخان الفارابى الفيلسوف

صاحب التصانيف فى المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم ، وهو أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه ، والرئيسُ أبو على بن سينا المقدم ذكره بكتبه تخرج ، و بكلامه انتفع فى تصانيفه ، وكان رجلا تركيا ، ولد فى بلده ونشأ بها ، وسيأتى الكلام عليها فى آخر الترجمة إن شاء الله تعالى ، ثم خرج من بلده وانتقلت به الأسفار إلى أن وصل إلى بغداد ، وهو يعرف اللسان التركى وعدة لغات غير العربى ، فتعلمه وأتقنه غاية الإتقان ، ثم اشتغل بعلوم الحكمة ، ولما دخل بغداد كان بها أبو بشر متى [بن] يونس الحكيم المشهور ، وهو شيخ كبير ، وكان يقرأ الناسُ عليه فن المنطق ، وله إذ ذاك صيت عظيم وشهرة وافية ، و يجتمع فى حلقته كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق ، وهو يقرأ كتاب أرسطاطاليس فى المنطق و يملى على تلامذته شرحه ، فكتب عنه فى شرحه سبعين سفراً ، ولم يكن فى ذلك الوقت أحد مثله فى فنه ، وكان حسن العبارة فى تآليفه لطيف الإشارة ، وكان يستعمل فى تصانيفه البسط والتذييل ، حتى قال بعض علماء هذا الفن : ما أرى أبا نصر الفارابى أخذ طريق تفهيم المعانى الجزلة بالألفاظ السهلة إلا من أبى بشر يعنى المذكور ، وكان أبو نصر يحضر حلقته فى غمار تلامذته فأقام أبو نصر كذلك برهة ثم ارتحل إلى مدينة حرّان وفيها يوحنا بن خيلان الحكيم النصرانى ، فأخذ عنه طرفا من المنطق أيضا ، ثم إنه قفل راجعا إلى بغداد ، وقرأ بها علوم الفلسفة ، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس ، وتمهر فى استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها ، و يقال : إنه وجد كتاب النفس لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط أبى نصر الفارابى : إنى قرأت هذا الكتاب مائة مرة .

ونقل عنه أنه كان يقول : قرأت السماع الطبيعي لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة ، وأرى أنى محتاج إلى معاودة قراءته ، ويروى عنه أنه سئل : من أعلم الناس بهذا الشأن أنت أم أرسطاطاليس ؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلامذته .

وذكره أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد القرطبي فى كتاب « طبقات الحكماء » فقال : الفارابى فيلسوف المسلمين بالحقيقة ، أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن خيلان المتولى بغداد المستوفى بمدينة السلام فى أيام المقتدر ، فبذ جميع أهل الإسلام ، وأربى عليهم فى التحقيق لها ، وشرح غامضها فى كشف سرها ، وقرب تناولها ، وجميع مايحتاج إليها منها فى كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الإشارة ، منبها على ما أغفله الكندى وغيره من صناعة التحليل ، وأنحاء التعاليم ، وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمسة ، وأفاد وجوه الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها ، وكيف تتصرف صورة القياس فى كل مادة منها ، فجاءت كتبه فى ذلك الغاية الكافية ، والنهاية الفاضلة ، ثم له بعد هذا كتاب شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، لم يُسْبق إليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ولا تستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به ، انتهى كلام ابن صاعد ، وذكر بعد ذلك شيئا من تآليفه ومقاصده فيها .

ولم يزل أبو نصر ببغداد مكبا على الاشتغال بهذا العلم والتحصيل له إلى أن برز فيه وفاق أهل زمانه ، وألف بها معظم كتبه ، ثم سافر منها إلى دمشق ، ولم يقم بها ، ثم توجه إلى مصر ، وقد ذكر أبو نصر فى كتابه الموسوم بالسياسة المدنية أنه ابتدأ بتأليفه فى بغداد ، وأكمله بمصر ، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها ، وسلطانها يومئذ سيف الدولة بن حمدان ، فأحسن إليه ، ورأيت فى بعض المجاميع أن أبا نصر لما ورد على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء فى جميع المعارف ، فأدخل عليه وهو بزى الأتراك ، وكان ذلك زيه دائماً ، فوقف ، فقال له سيف الدولة : اقعد ،

فقال : حيث أنا أم حيث أنت ؟ فقال : حيث أنت ، فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان خاص يسارهم به قلّ أن يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وإنى مسائله عن أشياء إن لم يوف بها فاخرقوا به ، فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير ، اصبر فان الأمور بعواقبها ، فعجب سيف الدولة منه ، وقال له : أتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم أحسن أكثر من سبعين لسانا ، فعظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين فى المجلس فى كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقى يتكلم وحده ، ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك فى أن تأكل ؟ فقال : لا ، فقال : فهل تشرب ؟ فقال : لا ، فقال : فهل تسمع ؟ فقال : نعم ، فأمر سيف الدولة باحضار القيان ، فحضر كل ماهر فى هذه الصناعة بأنواع الملاهى ، فلم يحرك أحد منهم آلته إلا وعابه أبو نصر وقال له : أخطأت ، فقال له سيف الدولة : وهل تحسن فى هذه الصنعة شيئاً ؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيدانا وركبها ، ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيبا آخر ، ثم ضرب بها فبكى كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها ، وضرب بها ضربا آخر فنام كل من فى المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج .

ويحكى أن الآلة المسماة بالقانون من وضعه ، وهو أول من ركبها هذا التركيب وكان منفرداً بنفسه ، لا يجالس الناس ، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشتغلون عليه ، وكان أكثر تصنيفه فى الرقاع ، ولم يصنف فى الكراريس إلا القليل ، فلذلك جاءت أكثر تصانيفه فصولا وتعاليق ، ويوجد بعضها ناقصاً منثوراً ،

وكان أزهد الناس فى الدنيا ، لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن ، وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم ، وهو الذى اقتصر عليها لقناعته .

ولم يزل على ذلك إلى أن توفى فى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، بدمشق ، وصلى عليه سيف الدولة فى أربعة من خواصه ، وقد ناهز ثمانين سنة ، ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير ، رحمه الله تعالى !.

وتوفى متى بن يونس ببغداد فى خلافة الراضى ، هكذا حكاه ابن صاعد القرطبي فى طبقات الأطباء .

وظفرت فى مجموع بأبيات ، منسوبة إلى الفارابى ، ولا أعلم صحتها ، وهى [من المتقارب] :

أخى خَلِّ حَيِّزَ ذى باطل   وكن للحقائق فى حَيِّز
فما الدار دار مقام لنا   وما المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على   أقَلَّ من الكلم الموجز
وهل نحن إلا خطوط وقعن   على نقطة وَقْعَ مستوفز
محيط السموات أولى بنا   فماذا التنافس فى مركز

ورأيت هذه الأبيات فى الخريدة ، منسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الملك الفارقى ، البغدادى الدار .

وقال العماد مؤلف الخريدة : إنه اجتمع به يوم الجمعة ، ثامن عشر شهر رجب ، سنة إحدى وستين وخمسمائة ، وتوفى بسنيات بعد ذلك .

وطرخان : بفتح الطاء المهملة ، وسكون الراء ، وفتح الخاء المعجمة ، وبعد الألف نون .

وأُوْزَلَغ : بفتح الهمزة ، وسكون الواو ، وفتح الزاى واللام ، و بعدها غين معجمة ، وهما من أسماء الترك .

والفارابى ـ بفتح الفاء والراء ، و بينهما ألف ، و بعد الألف الثانية باء موحدة ـ هذه النسبة إلى فاراب ، وتسمى فى هذا الزمان أطرار — بضم الهمزة وسكون الطاء المهملة ، وَ بين الراءين ألف ساكنة — وقد غلب عليها هذا الاسم ، وهى مدينة فوق الشاش ، قريبة من مدينة بلاساغون ، وجميع أهلها على مذهب الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ! وهى قاعدة من قواعد مدن الترك ، ويقال لها : فاراب الداخلة ، ولهم فاراب الخارجة ، وهى فى أطراف بلاد فارس .

و بلاساغون — بفتح الباء الموحدة ، واللام ألف ، والسين المهملة ، و بعد الألف غين معجمة ، ثم واو ساكنة ، و بعدها نون ـ وهى : بلدة فى بعض ثغور الترك ، وراء نهر سيحون ، المقدم ذكره ، بالقرب من كاشْغَر .

وكاشْغَر — بفتح الكاف ، و بعد الألف شين معجمة ساكنة ، ثم غين معجمة مفتوحة ، وفى آخرها راء – وهى : من المدن العظام فى تخوم الصين ، والله تعالى أعلم .

* * *

(٦٧٨)

أبو بكر محمد بن زكريا الرازى ، الطبيب المشهور

أبو بكر محمد بن زكريا الرازى، الطبيب

ذكر ابن جلجل فى تاريخ الأطباء أنه دبر مارستان الرى ، ثم مارستان بغداد فى أيام المكتفى .

ومن أخباره أنه كان فى شبيبته يضرب بالعود و يغنى ، فلما التحى وجهه قال : كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف ، فنزع عن ذلك ، وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة ، فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها ، فبلغ من معرفة غوابرها الغاية ، واعتقد الصحيح منها ، وعلّلَ السقيم ، وألف فى الطب كتبا كثيرة .

وقال غيره : كان إمام وقته فى علم الطب ، والمشار إليه فى ذلك العصر ، وكان متقنا لهذه الصناعة ، حاذقا بها ، عارفا بأوضاعها وقوانينها ، تشد إليه الرحال لأخذها عنه ، وصنف فيها الكتب النافعة ، فمن ذلك كتاب « الحاوى » وهو من الكتب الكبار ، يدخل فى مقدار ثلاثين مجلداً ، وهو عمدة الأطباء فى النقل منه ، والرجوع إليه عند الاختلاف . ومنها كتاب « الجامع » ، وهو أيضا من الكتب الكبار النافعة . وكتاب « الأعصاب » وهو أيضا كبير ، وله أيضا كتاب « المنصورى » المختصر المشهور ، وهو — على صغر حجمه — من الكتب المختارة ، جمع فيه بين العلم والعمل ، ويحتاج إليه كل أحد ، وكان قد صنفه لأبى صالح منصور بن نوح بن نصر بن إسماعيل بن أحمد بن أسد ابن سامان ، أحد الملوك السامانية ، فنسب الكتاب إليه ، وله غير ذلك تصانيف كثيرة ، وكلها يحتاج إليها .

ومن كلامه : مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية ، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب . ومن كلامه : إذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعا فما أقل لبث العلة . ومن كلامه : عالج فى أول العلة بما لا تسقط به القوة .

ولم يزل رئيس هذا الشأن ، وكان اشتغاله به على كبر ، يقال : إنه لما شرع فيه كان قد جاوز أربعين سنة من العمر ، وطال عمره ، وعمى فى آخر مدته .

وتوفى سنة إحدى عشرة وثلثمائة ، رحمه الله تعالى !

وكان اشتغاله بالطب على الحكيم أبى الحسن على بن زين الطبرى صاحب التصانيف المشهورة . منها « فردوس الحكمة » وغيره . وكان مسيحيا ثم أسلم .

وقد تقدم الكلام على الرازى .

وأما الملوك السامانية فكانوا سلاطين ما وراء النهر ، وخراسان ، وكانوا أحسن الملوك سيرة ، ومن ولى منهم كان يقال له سلطان السلاطين ، لا ينعت إلا به ، وصار كالعلم لهم ، وكان يغلب عليهم العدل والدين والعلم ؛ ونتج من بيتهم جماعة ، ولم تنقرض دولتهم إلا بدولة السلطان محمود بن سُبُكْتكين ، الآتى ذكره إن شاء الله تعالى . وكانت مدة ولايتهم مائة سنة وستين وستة أشهر وعشرة أيام

وكانت وفاة أبى صالح منصور المذكور فى شوال سنة خمس وستين وثلثمائة وكان قد صنف له الرازى المذكور الكتاب المذكور فى حال صغره ، ليشتغل به .

ثم رأيت نسخة كتاب « المنصورى » ، وعلى ظهره : أن المنصور الذى وَسَم الرازى هذا الكتاب باسمه هو المنصور بن إسحاق بن أحمد بن نوح من ولد بهرام جور صاحب كرمان وخراسان ، وكنيته أبو صالح ، والله أعلم بالصواب .

وحكى ابن جلجل، المقدم ذكره، فى تاريخه أيضا: أن الرازى المذكور صنف لمنصور المذكور كتابا فى إثبات صناعة الكيمياء، وقصده به من بغداد فدفع له الكتاب، فأعجبه، وشكره عليه، وحباه بألف دينار. وقال له: أردت أن تخرج هذا الذى ذكرت فى الكتاب إلى الفعل، فقال له الرازى: إن ذلك مما يتمون له المؤن، ويحتاج إلى آلات وعقاقير صحيحة، وإلى إحكام صنعة ذلك كله، وكل ذلك كلفة. فقال له منصور: كل ما احتجت إليه من الآلات، ومما يليق بالصناعة أحضره لك كاملا حتى تخرج ما ضمنته كتابك إلى العمل. فلما حقق عليه ذلك كاع من مباشرة ذلك، وعجز عن عمله. فقال له المنصور: ما اعتقدتُ أن حكيما يرضى بتخليد الكذب فى كتب ينسبها إلى الحكمة، يشغل بها قلوب الناس، ويتعبهم فيما لا يعود عليهم من ذلك منفعة. ثم قال له: قد كافأناك على قصدك وتعبك بما صار إليك من الألف دينار، ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب، فحمل السوط على رأسه، ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى ينقطع. ثم جهزه وسير به إلى بغداد. فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء فى عينيه، ولم يسمح بقدحهما، وقال: قد رأيت الدنيا!.

وكانت وفاة والده أبى محمد نوح بن نصر، فى شهر ربيع الآخر، سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة.

وكانت وفاة جده أبى الحسن نصر بن إسماعيل فى رجب، سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة.

وكانت وفاة جد أبيه إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد فى صفر، ليلة الثلاثاء، لأربع عشرة ليلة خلت منه، سنة خمس وتسعين ومائتين، ببخارى.

ومولده سنة أربع وثلاثين ومائتين ، بفَرْغَانة ، وكان يكتب الحديث ، ويكرم العلماء .

وكانت وفاة أحمد بن أسد بن سامان سنة خمسين ومائتين ، بفَرْغَانة ، رحمهم الله تعالى !

وسامان ـ بفتح السين المهملة والميم ، وبينهما ألف ، وبعد الألف الثانية نون ـ وهذا وإن كان خارجا عن المقصود ، لكن مساق الكلام جره ، وفيه فائدة لا يستغنى عنها ، والله تعالى أعلم بالصواب .

* * *

(٦٧٩)

أبو عبد الله
محمد بن موسى
ابن شاكر

أبو عبد الله محمد بن موسى بن شاكر

أحد الإخوة الثلاثة ، الذين ينسب إليهم جبل بنى موسى ، وهم مشهورون بها ، واسم أخويه : أحمد ، والحسن ، وكانت لهم همم عالية فى تحصيل العلوم القديمة ، وكتب الأوائل ، وأتعبوا أنفسهم فى شأنها ، وأنفذوا إلى بلاد الروم مَنْ أخرجها لهم ، وأحضروا النَقَلَة من الأصقاع الشاسعة ، والأماكن البعيدة بالبذل السَّنِيّ ، فأظهروا عجائب الحكمة .

وكان الغالب عليهم من العلوم: الهندسة ، والحيل ، والحركات ، والموسيقى ، والنجوم ، وهو الأقل .

ولهم فى الحيل كتاب عجيب نادر ، يشتمل على كل غريبة ، ولقد وقفتُ عليه ، فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها ، وهو مجلد واحد .

ومما اختصوا به فى ملة الإسلام وأخرجوه من القوّة إلى الفعل ـ وإن كان

أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه ، لكنه لم ينقل أن أحدا من أهل هذه الملة تصدى له وفعله ، إلا هم – وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها ، ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل كل ثلاثة أميال فرسخ ، فيكون المجموع : ثمانية آلاف فرسخ ، بحيث لو وضع طرف حبل على أى نقطة كانت من الأرض ، وأدرنا الحبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض ، والتقى طرفا الحبل ، فإذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله أربعة وعشرين ألف ميل ، فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك ، فسأل بنى موسى المذكورين عنه ، فقالوا : نعم ، هذا قطعى . وقال : أريد منكم أن تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا ، فسألوا عن الأراضى المتساوية فى أى البلاد هى ؟ فقيل لهم : صحراء سنجار فى غاية الاستواء ، وكذلك وطاآت الكوفة ، فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ، ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا إلى سنجار ، وجاءوا إلى الصحراء المذكورة ، فوقفوا فى موضع منها ، فأخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات ، وضربوا فى ذلك الموضع وَتِداً ، وربطوا فيه حبلا طويلا ، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان . فلما فرغ الحبل نصبوا فى الأرض وتداً آخر ، وربطوا فيه حبلا طويلا ، ومشوا إلى جهة الشمال أيضا كفعلهم الأول .

المأمون يأمر بضبط محيط الأرض

ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور ، فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة ، فمسحوا ذلك القدر الذى قدروه من الأرض بالحبال ، فبلغ ستة وستين ميلا وثلثى ميل ، فعلموا أن كل درجة من درج الفلك ، يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلا وثلثان .

ثم عادوا إلى الموضع الذى ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلا ، وتوجهوا إلى جهة الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا فى جهة الشمال : من نصب الأوتاد ، وشد الحبال ، حتى فرغت الحبال ، التى استعملوها فى جهة الشمال ، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالى قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة ، فصح حسابهم ، وحققوا ما قصدوه من ذلك ، وهذا إذا وقف عليه من له يد فى علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك .

ومن المعلوم ، أن عدد درج الفلك ثلثمائة وستون درجة ، لأن الفلك مقسوم باثنى عشر برجا ، وكل برج ثلاثون درجة ، فتكون الجملة ثلثمائة وستين درجة ، فضربوا عدد درج الفلك فى ستة وستين ميلا — أى التى هى حصة كل درجة — فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل ، وهى : ثمانية آلاف فرسخ ، وهذا محقق لا شك فيه .

فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا ، وكان موافقا لما رآه فى الكتب القديمة من استخراج الأوائل ، طلب تحقيق ذلك فى موضع آخر ، فسيرهم إلى أرض الكوفة ، وفعلوا كما فعلوا فى سنجار ، فتوافق الحسابان ، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء فى ذلك ، وهذا الفصل هو الذى أشرت إليه فى ترجمة أبى بكر محمد بن يحيى الصولى .

قلت : لولا التطويل لبينت ذلك .

وكانت لبنى موسى المذكورين أوضاع نادرة غريبة ، ولو لا الإطالة لذكرت شيئا منها .

وتوفى محمد المذكور فى شهر ربيع الأول ، سنة تسع وخمسين ومائتين ، رحمه الله تعالى ! والله أعلم بالصواب .

* * *

(٦٨٠)

أبو عبد الله
محمد بن جابر
الحرانى البتانى
الحاسب

أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان ، الْحَرَّانى الأصل ، الْبَتَّانى ، الحاسب ، المنجم المشهور

صاحب الزيج الصابى ، له الأعمال العجيبة ، والأرصاد المتقنة .

وأول ما ابتدأ بالرصد ، فى سنة أربع وستين ومائتين ، إلى سنة ست وثلثمائة ، وأثبت الكواكب الثابتة فى زيجه ، لسنة تسع وتسعين ومائتين .

وكان أوحد عصره فى فنه ، وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه .

وتوفى سنة سبع عشرة وثلثمائة ، عند رجوعه من بغداد ، بموضع يقال له : قصر الْحَضْر .

ولم أعلم أنه أسلم ، لكن اسمه يدل على إسلامه .

وله من التصانيف « الزيج » وهى نسختان : أولى ، وثانية ، والثانية أجود وكتاب « معرفة مطالع البروج ، فيما بين أرباع الفلك » ورسالة فى « مقدار الاتصالات » ، وكتاب شرح فيه أربعة أرباع الفلك ، ورسالة فى تحقيق أقدار الاتصالات ، وشرح أربع مقالات بطليموس ، وغير ذلك .

والبتانى ـ بفتح الباء الموحدة ، وقال أبو محمد هبة الله بن الأكفانى : بكسرها ، وبتشديد التاء المثناة من فوقها ، وبعد الألف نون ـ هذه النسبة إلى بتَّان ، وهى ناحية من أعمال حران .

والْحَضْر ـ بفتح الحاء المهملة ، وسكون الضاد المعجمة ، وبعدها راء ـ وهى مدينة قديمة ، بالقرب من الموصل ، ومن تكريت ، بين دجلة والفرات فى البرية .

وكان صاحبها الساطرون ، فحاصره أردشير بن بابك ، أول ملوك الفرس وأخذ البلد وقتله ، وفي ذلك يقول أبو دُوَاد الإيادي [١] ، واسمه : حارثة بن حجاج ، وقيل : حنظلة بن شرقي [من الخفيف] :

وأرى الموت قد تدلى من الحَضْـــر على رب أهله الساطرون
صرعته الأيام من بعد ملك ونعيم وجوهر مكنون

وذكره أيضا عدي بن زيد العِبادِيّ في قوله [من الخفيف] :

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـــلة تُجْبَى إليه والخابور

وجاء ذكره في الشعر كثيرا . وقيل : إن الذي حصره سابور ذو الأكتاف وهو الذي ذكره ابن هشام ، في سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأول أصح .

والساطرون: بفتح السين المهملة ، وبعد الألف طاء مهملة مكسورة ، ثم راء مضمومة ، ثم واو ساكنة ، وبعدها نون ، وهو لفظ سرياني ، ومعناه الملك ، واسمه ضيزن ـ بفتح الضاد المعجمة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح الزاي وبعدها نون ـ بن معاوية .

وضيزن : اسم صنم كان في الجاهلية ، وبه سمي الرجل ، وهذا قضاعي ، وكان من ملوك الطوائف ، وإذا اجتمعوا لحرب غيرهم تقدم عليهم ، لعظمته عندهم .

فأقام أردشير على حصاره أربع سنين ، وهو لا يقدر عليه ، وكان للساطرون ابنة يقال لها نضيرة ـ بفتح النون ، وكسر الضاد المعجمة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح الراء ، وبعدها هاء ساكنة ـ وفيها يقول الشاعر :

---

(١) في ب « أبو داود الإيادي » محرفا

أقفر الحَضْر من نضيرة فالمر باع منها فجانب الثرثار

وكانت فى غاية الجمال ، وكانت عادتهم إذا حاضت المرأة أنزلوها إلى الرَبَض ، فحاضت نضيرة ، فأنزلت إلى رَبَض الحَضْر ، فأشرفت ذات يوم فأبصرت أردشير وكان من أجمل الرجال ، فهويته ، فأرسلت إليه أن يتزوجها وتفتح له الحصن ، واشترطت ذلك عليه ، والتزم لها ما طلبته ، ثم اختلفوا فى السبب الذى دلته عليه حتى فتح الحصن ، والذى قاله الطبرى أنها دلته على طِلَّسْم كان فى الحصن ، وكان فى علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء ويخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء ، ثم ترسل الحمامة فتنزل على سور الحصن ، فيقع الطِّلَّسْم فيفتح الحصن ، ففعل أردشير ذلك ، واستباح الحصن وخربه وأباد أهله ، وسار بنضيرة وتزوجها ، فبينما هى نائمة على فراشها ليلا إذ جعلت تتململ لا تنام ، فدعا بالشمع ، ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس ، فقال لها أردشير : أهذا الذى أسهرك ؟ قالت : نعم ، قال : فما كان أبوك يصنع ؟ قالت : كان يفرش لى الديباج ، ويلبسنى الحرير ، ويطعمنى المخ والزبد وشهد أبكار النحل ، ويسقينى الخمر الصافى ، قال : فكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ أنت إلىّ بذلك أسرع ، ثم أمر بها فربطت قرون رأسها بذَنَب فرس ، ثم ركض الفرس حتى قتلها ، والحصن إلى الآن آثاره باقية ، وفيه بقايا عمائر ، لكنه لم يسكن منذ ذلك الوقت ، وقد طال الكلام فيه ، وإنما هى حكاية غريبة فأحببت إثباتها .

ورأيت فى تاريخ آخر أنه دخل بغداد وخرج منها وتوفى فى الطريق بقصر الحَضْر فى التاريخ المذكور ، قال ياقوت الحموى فى كتابه المشترك : قصر الحضر بقرب سامرا من أبنية المعتصم ، والله تعالى أعلم .

***

(٦٨١)

أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس ،
البوزجانى ، الحاسب المشهور

أبو الوفاء محمد ابن محمد بن يحيى البوزجانى الحاسب

أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس — تغمده الله برحمته ! — وهو القيم بهذا الفن يبالغ فى وصف كتبه ، ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ، ويحتج بما يقوله .

وكان عنده من تآليفه عدة كتب ، وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع .

وكانت ولادته يوم الأربعاء مستهل شهر رمضان المعظم سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، بمدينة بوزجان .

وتوفى سنة ست وسبعين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى !

وبُوزجان — بضم الباء الموحدة ، وسكون الواو والزاى ، وفتح الجيم ، وبعد الألف نون — وهى بليدة بخراسان بين هراة ونيسابور .

وكان قد قدم العراق سنة ثمان وأربعين وثلثمائة .

وكنت وقفت على تاريخ ولادته على هذه الصورة فى كتاب الفهرست تأليف أبى الفرج بن النديم ، ولم يذكر تاريخ وفاته .

فكتبت هذه الترجمة ، وذكرت تاريخ الولادة ، فأخليت بياضا لأجل تاريخ الوفاة لعلى أظفر به ، فان قصدى فى هذا التاريخ إنما هو ذكر الوفاة كما ذكرته فى أول الكتاب .

ثم إنى وجدت تاريخ الوفاة فى تاريخ شيخنا ابن الأثير قد ذكرها فى هذه السنة المذكورة فألحقتها .

وكان بين شروعى فى هذا التاريخ وظفرى بالوفاة أكثر من عشرين سنة ، والله تعالى أعلم .

* * *

(٦٨٢)

أبو القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشرى

أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر ، الخوارزمى ، الزمَخشَرى ، الإمام الكبير فى التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان

كان إمام عصره من غير مدافع ، تُشَد إليه الرحال فى فنونه ، أخذ الأدب عن أبى منصور نصر[1] ، وصنف التصانيف البديعة : منها « الكشاف » فى تفسير القرآن العزيز ، لم يصنف قبله مثله ، و « المحاجاة بالمسائل النحوية » و « المفرد والمركب » فى العربية ، و « الفائق » فى تفسير الحديث ، و « أساس البلاغة » فى اللغة ، و « ربيع الأبرار ، ونصوص الأخبار » و « متشابه أسامى الرواة » و « النصائح الكبار » و « النصائح الصغار » و « ضالة الناشد والرائض فى علم الفرائض » و « المفصل ، فى النحو » وقد اعتنى بشرحه خلق كثير ، و « الأنموذج » فى النحو ، و « المفرد والمؤلف » فى النحو ، و « رءوس المسائل » فى الفقه ، و « شرح أبيات سيبويه » و « المستقصى ، فى أمثال العرب » و « صميم العربية » و « سوائر الأمثال » و « ديوان التمثيل » و « شقائق النعمان ، فى حقائق النعمان » و « شافى العى ، من كلام الشافعى » رضى الله عنه ! و « القسطاس فى العروض » ، و « معجم الحدود » و « المنهاج » فى الأصول ، و « مقدمة الأدب » و « ديوان الرسائل » و « ديوان الشعر » و « الرسالة الناصحة » و « الأمالى » فى كل فن ، وغير ذلك .

(١) كذا ، وسيأتى له بيتان يكنيه بأبى مضر فيهما ، ويسميه المؤلف قبلهما منصوراً

وكان شروعه فى تأليف المفصل فى غرة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وفرغ منه فى غرة المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وكان قد سافر إلى مكة — حرسها الله تعالى ! — وجاور بها زمانا ، فصار يقال له « جار الله » لذلك ، وكان هذا الاسم علما عليه ، وسمعت من بعض المشايخ أن إحدى رجليه كانت ساقطة ، وأنه كان يمشى فى جارن خشب ، وكان سبب سقوطها أنه كان فى بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير و برد شديد فى الطريق فسقطت منه رجله ، وأنه كان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفا من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قطعت لريبة ، والثلج والبرد كثيراً مايؤثر فى الأطراف فى تلك البلاد فتسقط، خصوصا خوارزم ، فإنها فى غاية البرد ، ولقد شاهدت خلقا كثيرا ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب ، فلا يستبعده من لايعرفه ، ورأيت فى تاريخ بعض المتأخرين أن الزمخشرى لما دخل بغداد واجتمع بالفقيه الحنفى الدامغانى سأله عن سبب قطع رجله ، فقال : دعاء الوالدة ، وذلك أنى كنت فى صباى أمسكت عصفورا ، وربطته بخيط فى رجله ، فأفلت من يدى ، فأدركته وقد دخل فى خرق، فجذبته فانقطعت رجله فى الخيط، فتألمت والدتى لذلك وقالت : قطع الله رجلك الأبعد كما قطعت رجله ! فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم ، فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلى ، وعملت على عملا أوجب قطعها ، والله أعلم بالصحة .

وكان الزمخشرى المذكور معتزلى الاعتقاد ، متظاهرا به ، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحبا له واستأذن عليه فى الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن : قل له أبو القاسم المعتزلى بالباب ، وأول ماصنف كتاب الكشاف كتب استفتاح الخطبة « الحمد لله الذى خلق القرآن » فيقال : إنه قيل له : متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه ، فغيره بقوله « الحمد لله الذى جعل القرآن » وجعل عندهم بمعنى خلق ، والبحث فى ذلك يطول ، ورأيت فى

كثير من النسخ « الحمد لله الذى أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف .

وكان الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السِّلَفى المقدم ذكره - رحمه الله تعالى - قد كتب إليه من الإسكندرية — وهو يومئذ مجاور بمكة - حرسها الله تعالى - يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته ، فرد جوابه بما لا يشفى الغليل ، فلما كان فى العام الثانى كتب إليه أيضاً مع الحُجّاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ، ثم قال فى آخرها : ولا يحوج — أدام الله توفيقه ! — إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ، وقد كاتبته فى السنة الماضية فلم يجب بما يشفى الغليل ، وله فى ذلك الأجر الجزيل ، فكتب إليه الزمخشرى جوابه ، ولولا خوف التطويل لكتبت الاستدعاء والجواب ، لكن نقتصر على بعض الجواب ، وهو « ما مثَلى مع أعلام العلماء إلا كمثل السُّهَا مع مصابيح السماء ، والجَهَام الصفر من الرهام مع الغوادى الغامرة للقيعان والآكام ، والسُّكَيْت المخلف مع خيل السباق ، والبغاث مع الطير العتاق ، وما التلقيب بالعلامة ، إلا شبه الرقم بالعلامة ، والعلم مدينة أحدُ بابيها الدراية ، والثانى الرواية ، وأنا فى كلا البابين ذو بضاعة مزْجَاه ، ظلى فيه أقلص من ظل حصَاه ، أما الرواية فحديثة الميلاد ، قريبة الإسناد ، لم تستند إلى علماء نحارير ، ولا إلى أعلام مشاهير ، وأما الدراية فثَمَد لا يبلغ أفواها ، وبرض ما يبلُّ شفاها » ثم كتب بعد هذا « لا يغرنكم قول فلان فى ولا قول فلان » وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر ، وأوردها كلها ، ولا حاجة إلى الاتيان بها ههنا ، فلما فرغ من إيرادها كتب « فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموَّه ، وجهل بالباطن المشوَّه ، ولعل الذى غرهم منى ما رأوا من حسن النصح للمسلمين وتبليغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع عنهم ، وإفادة المبار والصنائع عليهم وعزة النفس والرَّبْء بها عن السفاسف الدنيات ، والإقبال على خويصّتى ، والإعراض عما لا يعنينى ، فجلت فى عيونهم ، وغلطوا فى ونسبونى إلى مالست

منه فى قَبيل ولا دَبير ، وما أنا فيما أقول بهاضم لنفسى كما قال الحسن البصرى - رحمه الله تعالى ! - فى قول أبى بكر الصديق رضوان الله عليه «وليتكم ولست بخيركم» : إن المؤمن ليهضم نفسه ، وإنما صدقت الفاحص عنى وعن كنه روايتى ودرايتى ومن لقيت وأخذت عنه ، وما بلغ علمى وقصارى فضلى ، وأطلعته طِلعَ أمرى ، وأفضيت إليه بخبيئة سرى ، وألقيت إليه عُجَرى وبُجَرى ، وأعلمته نجمى وشجرى ، وأما المولد فقرية مجهولة من قرى خوارزم تسمى زَمَخْشَر ، وسمعت أبى - رحمه الله تعالى ! - يقول : اجتاز بها أعرابى ، فسأل عن اسمها واسم كبيرها ، فقيل له : زمخشر ، فقال لا خير فى شر ، ورد ، ولم يُلْمِم بها ، ووقت الميلاد شهر الله الأصم فى عام سبع وستين وأربعمائة ، والله المحمود ، والمصلى على محمد وآله وأصحابه » هذا آخر الإجازة ، وقد أطال الكلام فيها ، ولم يصرح له بمقصوده فيها ، وما أعلم هل أجازه بعد ذلك أم لا ، وبينى وبينه فى الرواية شخص واحد ، فإنه أجاز زينب بنت الشَّعْرِى ، ولى منها إجازة كما تقدم فى ترجمتها فى حرف الزاى ، ومن شعره السائر قوله ، وقد ذكره السمعانى فى الذيل قال : أنشدنى أحمد ابن محمود الخوارزمى إملاء بسمرقند ، قال : أنشدنا محمود بن عمر الزمخشرى لنفسه بخوارزم ، وذكر الأبيات ، وهى [من الطويل] :

ألا قل لسعدى مالنا فيك من وَطَرْ
وما تطلبين النجل من أعين البقر

فانا اقتصرنا بالذين تضايقت   عيونهمُ والله يجزى من اقتصر

مليح ولكن عنده كل جفوة   ولم أر فى الدنيا صفاء بلا كدر

ولم أنس إذ غازلته قرب روضة
إلى جَنْب حوض فيه للماء مُنْحَدَرْ

فقلت له : جئنى بورد ، وإنما   أردت به ورد الخدود وما شعر

فقال : انتظرنى رَجْعَ طرفٍ أجىء به

فقلت له : هيهات مالىَ منتظر

فقال : ولا ورد سوى الخد حاضر

فقلت له : إنى قنعت بما حضر

ومن شعره يرثى شيخه أبا مضر منصورا المذكور أولا [من الطويل] :

وقائلة : ما هذه الدرر التى

تساقط من عينيك سِمْطين سمطين ؟

فقلت : هو الدر الذى كان قد حشا

أبو مضر أذْنِى تساقطَ من عينى

وهذا مثل قول القاضى أبى بكر الأرجانى المتقدم ذكره ، ولا أعلم أيهما أخذ من الآخر لأنهما كانا متعاصرين ، وهو [من الكامل] :

لم يُبكنى إلا حديث فراقكم

لَمَّا أسر به إلى مُوَدِّعى

هو ذلك الدر الذى أودعتُمُ

فى مسمعى أجريته من مدمعى

وهذان البيتان من جملة قصيدة طويلة بديعة

ومن المنسوب إلى القاضى الفاضل فى هذا المعنى [من الرمل] :

لا تزدنى نظرة ثانية كفت الأولى ووفَتْ نمى

لك فى قلبى حديث مودع

لا جحدت الحب ما أودعنى

خذه من جفنى عقودًا إنه بعضُ ما أودعتَهُ فى أذنى

ومما أنشده لغيره فى كتابه الكشاف عند تفسيره قول الله تعالى فى سورة البقرة (إن الله لايستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فمافوقها) فانه قال: أنشدت

لبعضهم [من الكامل] :

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليلِ
ويرى عروق نياطها في نحرها
والمخ في تلك العظام النحّلِ
اغفر لعبد تاب من فرطاته
ما كان منه في الزمان الأول

وكان بعض الفضلاء قد أنشدني هذه الأبيات بمدينة حلب وقال : إن الزمخشري المذكور أوصى أن تكتب على لوح قبره هذه الأبيات ، ثم أنشدني الفاضل الرئيس بيتين وذكر أن صاحبهما أوصى أن يكتبا على قبره وهما [من الطويل] :

إلهيَ قد أصبحتُ ضيفك في الثرى   وللضيف حق عند كل كريم
فهب لي ذنوبي في قراي فإنها   عظيم ولا يُقْرَى بغير عظيم

وأخبرني بعض الأصحاب أنه رأى بجزيرة سواكن تربة ملكها عزيز الدولة ريحان وعلى قبره مكتوب [من المنسرح] :

يا أيها الناس كان لي أمل   قَصَّر بي عن بلوغه الأجَلُ
فليتق الله ربه رجل   أمكنه قبل موته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى   كل إلى ما نقلت ينتقل

وكانت ولادة الزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة ، بزمخشر .

وتوفي ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، بجُرْجانية خوارزم ، بعد رجوعه من مكة ، رحمه الله تعالى !

وَرثاه بعضهم بأبيات ، ومن جملتها :

فأرض مكة تذرى الدمع مقلتها
حزناً لفرقة جار الله محمود

وزَمَخْشَر — بفتح الزاى والميم، وسكون الخاء المعجمة، وفتح الشين المعجمة وبعدها راء — وهى قرية كبيرة من قرى خوارزم .

وجُرْجَانية — بضم الجيم الأول وفتح الثانية، وسكون الراء بينهما، وبعد الألف نون مكسورة، وبعدها ياء مثناة من تحتها مفتوحة مشددة، ثم هاء ساكنة — وهى قصبة خوارزم .

قال ياقوت الحموى فى تاريخ البلدان : يقال لها بلغتهم كركانج، وقد عربت فقيل لها الجرجانية، وهى على شاطئ جيحون، والله تعالى أعلم بالصواب .

***

(٦٨٣)

أبو طالب محمود بن على بن أبى طالب بن عبد الله بن أبى الرجاء ، التميمى الأصبهانى ، المعروف بالقاضى

أبو طالب محمود ابن علي التميمي الأصفهانى القاضى

صاحب الطريقة فى الخلاف ، تفقه على الشهيد محمد بن يحيي المقدم ذكره ، وبرع فى الخلاف ، وصنف فيه التعليقة [المشهورة] التى شهدت بفضله وتحقيقه وتبريزه على أكثر نظرائه ، وجمع فيها بين الفقه والتحقيق ، وكان عمدة المدرسين فى إلقاء الدروس عليها ، ومن لم يذكرها فانما كان لقصور فهمه عن إدراك دقائقها ، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ، وصاروا علماء مشاهير .

وكان له فى الوعظ اليد الطولى ، وكان متفننا فى العلوم ، خطيبا بأصبهان مدة طويلة .

وتوفى فى شوال سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى !

* * *

(٦٨٤)

أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبى منصور سُبُكْتِكِين ، الملقب أولا سيف الدولة

سيف الدولة ويمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين

ثم لقبه الإمام القادر بالله لما سلطنه بعد موت أبيه « يمين الدولة ، وأمين الملة » واشتهر به.

وكان والده سبكتكين قد ورد مدينة بخارا فى أيام نوح بن منصور أحد ملوك السامانية المذكورين فى ترجمة أبى بكر محمد بن زكريا الرازى الطبيب ، وكان وروده فى صحبة أبى إسحاق بن بلتكين ، وهو حاجبه وعليه مدار أموره ، فعرفه أركانُ تلك الدولة بالشهامة والصرامة ، وتوسموا فيه الارتفاع إلى اليفاع ، ولما خرج أبو إسحاق المذكور إلى غَزْنَةَ والياً عليها وساداً مسدَّ أبيه انصرف الأمير سبكتكين بانصرافه فى جملته فى زعامة رجاله ومراعاة ما وراء بابه ، فلم يلبث أبو إسحاق بعد موافاتها أن انقضى نحبه ، ولم يبق من ذوى قرابته مَنْ يصلح لمكانته واحتاج الناس إلى من يتولى أمورهم ، فاختلفوا فيمن يصلح لذلك ، ثم وقع اتفاقهم واجتمعت كلمتهم على تأمير الأمير سبكتكين ، فبايعوه على ذلك ، وانقادوا لحكمه ، فلما تمكن واستحكم شرع فى الغُزَاة والإغارة على أطراف الهند ، فافتتح قلاعا كثيرة منها ، وجرت بينه و بين الهنود حروب يقصر الشرح عن وصفها ، ولم يلبث أن اتسعت رقعة ولايته وعظم حجم جريدته ، وعمرت أرض خزانته ، وأشفقت النفوس من هيبته.

وكان من جملة فتوحاته ناحية بُسْت ، وكان من جملة ما استفاده من صفاياها أبو الفتح على بن محمد البستى الشاعر المقدم ذكره ، فانه كان كاتباً لملك الناحية المذكورة ، واسمه أبو نور ، فلما تعلق بخدمته اعتمد عليه فى أموره ، وأسر إليه بأحواله ، وشرحُ ذلك يطول .

وآخر الأمر أن الأمير سبكتكين كان قد وصل إلى مدينة بلخ من طوس فمرض بها، واشتاق إلى غَزْنَةَ نخرج إليها فى تلك الحال، فمات فى الطريق قبل وصوله، وذلك فى شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة، ونقل تابوته إلى غزنة، ورثاه جماعة من شعراء عصره منهم كاتبه أبو الفتح البستى المذكور بقوله [من الخفيف] :

قلت إذ مات ناصر الدين والدو لة حَيَّاه ربه بالكرامه
وتداعت جموعه بافتراق: هكذا هكذا تكون القيامه!

واجتاز بعض الأفاضل بداره بعد موته وقد تشعثت، فأنشد [من الطويل] :

عليك سلام الله من منزل قفر
فقد هِجْتَ لى شوقا قديما وما تدرى
عهدتك من شهر جديداً ولم أخل
صروف الردى تبلى مغانيك فى شهر

وكان الأمير المذكور قد جعل ولى عهده من بعده ولده إسماعيل، واستخلفه على الأعمال، وأوصى إليه بأمور أولاده وعياله، وجمع وجوه حجابه وقواده على طاعته ومتابعته، وجلس على سرير السلطنة، وتحكم واعتبر بيوت الأموال، وكان أخوه السلطان محمود بخراسان مقيما بمدينة بلخ و إسماعيل بغزْنَـة، فلما بلغه نعى أبيه كتب إلى أخيه إسماعيل ولاطفه فى القول، وقال له : إن أبى لم يستخلفك دونى إلا لكونك كنت عنده وأنا كنت بعيداً عنه، ولو أوقف الأمر على حضورى لفاتت مقاصده، ومن المصلحة أن نتقاسم الأموال بالميراث فتكون أنت مكانك بغزنة وأنا بخراسان، وندبر الأمور، ونتفق على المصالح فلا يطمع فينا عدو، ومتى ماظهر للناس اختلاف طمعوا فينا، فأبى إسماعيل من موافقته على ذلك

وكان فيه لين ورخاوة ، فطمع فيه الجند وشغبوا عليه وطالبوه بالأموال فاستنفد فى مرضاتهم الخزائن ، ثم خرج محمود إلى هَرَاة وجدد مكاتبة أخيه ، وهو لا يزداد إلا اعتياصاً ، فدعا محمود عمه بغراجق إلى موافقته فأجابه

وكان أخوه أبو المظفر نصر بن سبكتكين أميراً بناحية بُسْتَ ، فنهض إليه ، وعرض عليه الانقياد لمتابعته ، فلم يتوقف عليه ، فلما قوى جأشه بعمه وأخيه قصد أخاه إسماعيل بغَزْنة وهما معه فنازلها فى جيش عظيم وجم غفير ، وحاصرها ، واشتد القتال عليها ، ففتحها ، وانحاز إسماعيل إلى قلعتها متحصناً بها ، ثم تلطف فى طلب الأمان من أخيه محمود ، فأجابه إلى سؤاله ، ونزل فى حكم أمانه ، وتسلم منه مفاتيح الخزائن ، ورتب فى غَزْنة النواب والأكفاء ، وانحدر إلى بلْخَ

وكان السلطان محمود قد اجتمع بأخيه إسماعيل فى مجلس الأنس بعد ظفره به ، فسأله عما كان فى نفسه أنه يعتمده فى حقه لو ظفر به ، فحملته سلامة صدره ونَشْوة السكر على أن قال : كان فى عزمى أن أسيرك إلى بعض القلاع مُوَسَّعاً عليك فيما تقترحه من دار وغلمان وجوار ورزق على قدر الكفاية ، فعامله بجنس ما كان قد نواه له ، وسيره إلى بعض الحصون ، وأوصى عليه الوالى أن يمكنه من جميع ما يشتهى

ولما انتظم الأمر للسلطان محمود ، وكان فى بعض بلاد خراسان نواب لصاحب ما وراء النهر من ملوك بنى سامان ، فجرى بين السلطان محمود وبينهم حروب انتصر فيها عليهم ، وملك بلاد خراسان . وانقطعت الدولة السامانية منها ، وذلك فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، واستتب له الملك ، وسير له الإمام القادر بالله خلعة السلطنة ، ولقبه بالألقاب المذكورة فى أول ترجمته ، وتبوأ سرير المملكة ، وقام بين يديه أمراء خراسان سماطين مقيمين برسم الخدمة ، وملتزمين حكم الهيبة ، وأجلسهم بعد الإذن العام على مجلس الأنس ، وأمر لكل واحد

منهم ولسائر غلمانه وخاصته ووجوه أوليائه وحاشيته من الخلع والصلات ونفائس الأمتعة بما لم يسمع بمثله ، واتسعت الأمور عن آخرها فى كنف إيالته ، واستوسقت الأعمال فى ضمن كفالته ، وفرض على نفسه فى كل عام غزْوَ الهند

ثم إنه ملك سجستان فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، بدخول قوادها وولاة أمرها فى طاعته من غير قتال ، ولم يزل يفتتح فى بلاد الهند حتى انتهى إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية ، ولم تتل به قط سورة ولا آية ، فَرَحَضَ عنها أدناس الشرك ، وبنى بها مساجد وجوامع ، وتفصيل حاله يطول شرحه

ولما فتح بلاد الهند كتب إلى الديوان العزيز ببغداد كتاباً يذكر فيه ماافتتح الله تعالى على يديه من بلاد الهند ، وأنه كسر الصنم المعروف بسومنات ، وذكر فى كتابه أن هذا الصنم عند الهنود يُحيي ويميت ويفعل مايشاء ويحكم مايريد ، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل ، وربما كان يتفق لشقوتهم إبلال عليل يقصده فيوافقه طيب الهواء وكثرة الحركة فيزيدون به افتتانا ويقصدونه من أقاصى البلاد رجالا وركبانا ، ومن لم يصادف منهم انتعاشاً احتج بالذنب ، وقال : إنه لم يخلص له الطاعة ، ولم يستحق منه الإجابة ، ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت لديه على مذهب أهل التناسخ ، فينشئها فيمن يشاء ، وأن مد البحر وَجَزْره عبادة له على قدر طاقته ، وكانوا بحكم هذا الاعتقاد يحجونه من كل صقع بعيد ، ويأتون من كل فج عميق ، ويتحفونه بكل مال نفيس ، ولم يبق فى بلاد السند والهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولاسوقة إلا تقرب إلى هذا الصنم بما عز عليه من أمواله وذخائره حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية مشهورة فى تلك البقاع ، وامتلأت خزائنه من أصناف الأموال ، وفى خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه ، وثلثمائة رجل يحلقون رؤس حجيجه ولحاهم عند الورود عليه وثلثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه ، ويجرى من مال الأوقاف المرصَدَة له لكل طائفة من هؤلاء رزق معلوم ، وكان بين المسلمين وبين القلعة

حديث صنم كان فى بلاد الهند

التى فيها الصنم مسيرة شهر فى مفازة موصوفة بقلة المياه وصعوبة المسالك واستيلاء الرمل على طرقها ، فسار إليها السلطان محمود فى ثلاثين ألف فارس جريدة مختارة من بين عدد كثير ، وأنفق عليهم من الأموال مالا يحصى

فلما وصلوا إلى القلعة وجدوها حصناً منيعاً ، وفتحوها فى ثلاثة أيام ، ودخلوا بيت الصنم وحوله من الأصنام الذهب المرصع بأصناف الجوهر عدة كثيرة محيطة بعرشه ، ويزعمون أنها الملائكة ، وأحرق المسلمون الصنم المذكور ، فوجدوا فى أذنه نيفاً وثلاثين حلقة ، فسألهم محمود عن معنى ذلك ، فقالوا : كل حلقة عبادة ألف سنة ، وكانوا يقولون بقدم العالم

ويزعمون أن هذا الصنم يعبد أكثر من ثلاثين ألف سنة ، وكلما عبدوه ألف سنة علقوا فى أذنه حلقة ، وبالجملة فان شرح ذلك يطول .

وذكر شيخنا ابن الأثير فى تاريخه أن بعض الملوك بقلاع الهند أهدى له هدايا كثيرة من جملتها طائر على هيئة القمرى ، من خاصيته أنه إذا حضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر ، وجرى منها ماء ، وتحجر ، فاذا حك ووضع على الجراحات الواسعة ألحمها ، ذكر ذلك فى سنة أربع عشرة وأربعمائة

وقد جمع سيرته أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبى الفاضل فى كتاب سماه اليمينى ، وهو مشهور ، وذكر فى أوله أن السلطان المذكور ملك الشرق بجنبيه ، والصدر من العالم ويديه ، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس فى حوزة ملكه وحصول ممالكها الفسيحة وولاياتها العريضة فى قبضة ملكه ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته وجبايته ، واستذراهم من آفات الزمان بظل ولايته ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض لعزته ، وارتياعهم بفائض هيبته ، واحتراسهم على تقاذف الديار ، وتحاجز الأنجاد والأغوار ، من فاجىء ركضه ، واستخفاء الهند تحت جيوبها عند ذكره ، واقشعرارهم لمهب الرياح من أرضه ، وقد كان من حين لفظه المهد وجفاه الرضاع ، وانحلت عن لسانه عقدة الكلام ، واستغنى

عن الإشارة بالإفهام ، مشغولَ اللسان بالذكر والقرآن الكريم ، مشغوف النفس بالسيف والسنان ، ممدود الهمة إلى معالى الأمور ، معقود الأمنية بسياسة الجمهور لعبه مع الأتراب جد وجده مستكدياً لما لا يعلم حتى يقتله جبراً ، ويحزن لما يحزن حتى يدمثه قسراً وقهراً .

وذكر إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجوينى المقدم ذكره فى كتابه الذى سماه « مغيث الخلق ، فى اختيار الأحق » أن السلطان محموداً المذكور كان على مذهب أبى حنيفة ، رضى الله عنه ! وكان مولعاً بعلم الحديث ، وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه ، وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث ، فوجد أكثرها موافقاً لمذهب الشافعى رضى الله عنه ! فوقع فى خلده حكمه ، فجمع الفقهاء من الفريقين فى مَرْوَ ، والتمس منهم الكلام فى ترجيح أحد المذهبين على الآخر ، فوقع الاتفاق على أن يصلوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ! وعلى مذهب أبى حنيفة ، رضى الله عنه ! لينظر فيه السلطان ، ويتفكر ويختار ماهو أحسنهما ، فصلى القفال المروزى — وقد تقدم ذكره — بطهارة مسبغة وشرائط معتبرة من الطهارة والسترة واستقبال القبلة ، وأتى بالأركان والهيآت والسنن والآداب والفرائض على وجوه الكمال والتمام ، وقال : هذه صلاة لايجوز الإمام الشافعى دونها رضى الله تعالى عنه ! ثم صلى ركعتين على مايجوز أبو حنيفة رضى الله عنه ، فلبس جلد كلب مدبوغاً[1] ، ثم لطخ ربعه بالنجاسة ، وتوضأ بنبيذ التمر ، وكان فى صميم الصيف فى المفازة ، واجتمع الذباب والبعوض ، وكان وضوءه منكساً منعكساً ، ثم استقبل القبلة ، وأحرم بالصلاة من غير نية فى الوضوء ، وكبر بالفارسية ، ثم قرأ آية بالفارسية دو بركك سبز ، ثم نقر نقرتين كنقرات الديك من غير فصل ومن غير ركوع ، وتشهد ، وضرط فى آخره من غير نية السلام ،

(١) فى تصوير مذهب أبى حنيفة — رضى الله عنه ! — بهذه الصورة من مبالغة التعصب المذهبى ماليس يخفى على منصف .

وقال : أيها السلطان ، هذه صلاة أبى حنيفة ، فقال السلطان : لولم تكن هذه الصلاة صلاة أبى حنيفة لقتلتك ، لأن مثل هذه الصلاة لايجوزها ذو دين ، فأنكرت الحنفية أن تكون هذه الصلاة صلاة أبى حنيفة ، فأمر القفال باحضار كتب أبى حنيفة ، وأمر السلطان نصرانيا كاتبا يقرأ المذهبين جميعا ، فوجدت الصلاة على مذهب أبى حنيفة على ماحكاه القفال ، فأعرض السلطان عن مذهب أبى حنيفة ، وتمسك بمذهب الشافعى رضى الله عنه ! انتهى كلام إمام الحرمين .

وكانت مناقب السلطان محمود كثيرة ، وسيره من أحسن السير ، ومولده ليلة عاشوراء سنة إحدى وستين وثلثمائة .

وتوفى فى شهر ربيع الآخر ، وقيل : حادى عشر صفر ، سنة إحدى ، وقيل : اثنتين ، وعشرين وأربعمائة ، بغَزْنَة ، رحمه الله تعالى !

وقام بالأمر من بعده ولده محمد بوصية من أبيه ، واجتمعت عليه الكلمة ، وغمرهم بانفاق الأموال فيهم ، وكان أخوه أبو سعيد مسعود غائبا ، فقدم نيسابور وقد استتب أمر أخيه محمد ، فراسله ، ومال الناس إليه لقوة نفسه وتمام هيبته ، وزعم أن الإمام القادر بالله قلده خراسان ، ولقبه الناصر لدين الله ، وخلع عليه وطوقه سوارا ، فقوى أمره لذلك .

وكان محمد هذا سىء التدبير ، منهمكا فى ملاذه ، فأجمع الجند على عزل محمد وتولية الملك لمسعود ، ففعلوا ذلك ، وقبضوا على محمد ، وحملوه إلى قلعة ، ووكلوا به ، واستقر الملك للأمير مسعود ، وجرى له مع بنى سلجوق خطوب يطول شرحها .

وله فى ترجمة المعتمد بن عباد حكاية فى المقام ، فلينظر هناك .

وقتل سنة ثلاثين وأربعمائة ، واستولى على المملكة بنو سلجوق ، وقد تقدم فى ترجمة السلطان طُغْرُلْبَك السلجوقى طرف من الخبر ، وكيفية ما اعتمده السلطان محمود فى حقهم ، وكيف تغلبوا على الأمر .

وسُبُكْتِكِين — بضم السين المهملة والباء الموحدة ، وسكون الكاف ، وكسر التاء المثناة من فوقها والكاف الثانية ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، و بعدها نون — وتفسير «دو بركك سبز» ورقتان خضراوان ، وهو معنى قوله تعالى فى سورة الرحمن « مدهامتان » والله تعالى أعلم .

***

(٦٨٥)

أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، السلجوقى ، الملقب مغيث الدين ، أحد الملوك السلجوقية المشاهير

مغيث الدين أبو القاسم محمود بن محمد ابن ملكشاه السلجوقى

وقد تقدم ذكر والده وجماعة من أهل بيته ، وسيأتى ذكر جده وغيره منهم إن شاء الله تعالى ، وتقدم طرف من خبره فى ترجمة العزيز أبى نصر أحمد بن حامد الأصبهانى عم العماد الكاتب .

وتولى أبو القاسم المذكور السلطنة بعد وفاة والده ، وخطب له بمدينة بغداد على جارى عادة الملوك السلجوقية ، يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، فى خلافة المستظهر بالله ، وهو يومئذ فى سن الحلم ، وكان متوقدا ذكاء ، قوى المعرفة بالعربية ، حافظا للأشعار والأمثال ، عارفا بالتواريخ والسير ، شديد الميل إلى أهل العلم والخير ، وكان حَيْصَ بَيْصَ الشاعر المقدم ذكره قد قصده من العراق ومدحه بقصيدته الدالية المشهورة التى أولها [من البسيط]:

ألق الحدائجَ ترعى الضمر القودُ — طال السرى وتشكت وَخْدَكَ البيدُ
ياسارى الليل لاجَدْبٌ ولا فرق — فالنبتُ أغيد والسلطان محمود
قَيْلٌ تألفتِ الأضدادُ خيفته — فالمورد الضنك فيه الشاء والسِّيدُ

وهى طويلة من غرر القصائد ، وأجازه عليها جائزة سنية .

وقد كان تزوج بنتى عمه السلطان سنجر المقدم ذكره حسبما شرحناه فى ترجمة العزيز الأصبهانى ، واحدة بعد الأخرى ، وكانت السلطنة فى أواخر أيامه قد

ضعفت ، وقلت أموالها ، حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعى ، فدفعوا له يوما بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها فى حاجته ، وكان فى آخر مدته قد دخل بغداد ، ثم خرج منها ، فمرض فى الطريق ، واشتد به المرض ، وتوفى يوم الخميس خامس عشر شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى !

وذكر ابن الأزرق الفارقى فى تاريخه أنه مات خامس عشر شوال سنة أربع وعشرين ، بباب أصبهان ، ودفن بها .

وولى السلطنة أخوه طُغْرُلْبَك ، ومات سنة سبع وعشرين ، وتولى أخوه مسعود وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وابنه محمد شاه بن محمود بن محمد هو الذى حاصر بغداد ومعه زين الدين أبو الحسن على بن بلتكين صاحب إربل فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وقال شيخنا : ابن الأثير فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، قال ذلك فى تاريخه الصغير المعروف بالأتابكى ، ومات محمد شاه المذكور فى ذى الحجة سنة أربع وخمسين وخمسمائة ،

وتاريخ وفاة زين الدين المذكور مذكور فى ترجمة ولده مظفر الدين صاحب إربل فى حرف الكاف

ومات محمد شاه بباب همذان ، ومولده فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

***

(٦٨٦)

أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر، الملقب
الملك العادل نور الدين

الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى

قد تقدم ذكر أبيه فى حرف الزاى، ولما حاصر أبوه قلعة جعبر، حسبما تقدم ذكره فى ترجمته، وكان ولده نور الدين المذكور فى خدمته، فلما قتل أبوه سار نور الدين وفى خدمته صلاح الدين محمد بن أيوب اليغسانى وعساكر الشام إلى مدينة حلب فملكها فى ذلك التاريخ.

وملك أخوه سيف الدين غازى المذكور فى حرف الغين مدينة الموصل وما والاها من تلك النواحى، ثم إنه نزل على دمشق محاصراً لها وصاحبُها يومئذ مجير الدين أبو سعيد أرتق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بورى بن ظهير الدين طغتكين، وهو أتابك الملك دُقَاق بن تُتُش المقدم ذكره فى ترجمة تتش فى حرف التاء. وكان نزوله عليها ثالث صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وملكها يوم الأحد تاسع الشهر المذكور، وعوض مجير الدين أرتق عوضاً عن دمشق حمص ثم أخذها منه وعوضه عنها نابلس، فانتقل إليها وأقام بها مدة ثم قصد بغداد فى أيام الإمام المقتفى.

وكان أتابكه معين الدين بن عبد الله عتيق جد أبيه ظهير الدين طغتكين هناك أيضاً.

ثم استولى نور الدين محمود على بقية بلاد الشام من حَمَاة وبعلبك، وهو الذى بنى سورها وما بين ذلك، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وبهنسا وتلك الأطراف، وكان فتحه مرعش فى ذى القعدة من سنة ثمان وستين وخمسمائة والبهنسا فى ذى الحجة من السنة، وافتتح أيضاً من بلاد الفرنج حارم، وكان فتحها فى أواخر شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وفتح عزاز وبانياس

وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصناً .

ثم سير الأمير أسد الدين شيركوه المقدم ذكره إلى مصر ثلاث دفعات ، وملكها السلطان صلاح الدين فى الدفعة الثالثة نيابة عنه ، وضرب باسمه السكة والخطبة ، وهى قضية مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة فى شرحها ، وسيأتى ذلك فى ترجمة صلاح الدين إن شاء الله تعالى .

وكان ملكا عادلا ، زاهداً عابداً ، ورعا ، مستمسكا بالشريعة مائلا إلى أهل الخير ، مجاهداً فى سبيل الله تعالى ، كثير الصدقات ، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص و بعلبك ومنبج والرحبة ، وقد تقدم ذلك فى ترجمة الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون ، و بنى بمدينة الموصل الجامع النورى ، ورتب له ما يكفيه ، و بحماة الجامع الذى على ظهر العاصى ، وجامع الرها ، وجامع منبج ، و بيمارستان دمشق ، ودار الحديث بها أيضاً ، وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف .

وكان بينه و بين أبى الحسن سنان بن سلمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام ، و إليه تنسب الطائفة السنانية ، مكاتبات ومحاورات بسبب المجاورة ، فكتب إليه نور الدين فى بعض الأزمنة كتابا يتهدده فيه و يتوعده لسبب اقتضى ذلك ، فشق على سنان فكتب جوابه أبياتاً ورسالة ، وهما [من البسيط] :

يا ذا الذى بقراع السيف هدَّدَنا ... لا قام مصرع جنبى حين تصرعه
قام الحَمَام إلى البازى يهدده ... واستيقظت لأسود البر أضْبُعه
أضحى يسدُّ فم الأفعى بأصبعه ... يكفيه ما قد تلاقِى منه أصبعه

وقفنا على تفاصيله وجمله ، وعلمنا ما هددَنا به من قوله وعمله ، فيالله العجب من ذبابة تطن فى أذن فيل ، و بعوضة تُعدُّ فى التماثيل ، ولقد قالها من قبلك قوم

آخرون ، فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين ، أو للحق تدحضون ، وللباطل تنصرون ؟ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، وأما ما صدر من قولك فى قطع راسى ، وقلعك لقلاعى من الجبال الرواسى ، فتلك أمانى كاذبة ، وخيالات غير صائبة ، فان الجواهر لا تزول بالأعراض ، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض ، كم بين قوى وضعيف ، ودنى وشريف ؟ وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات ، وعدلنا عن البواطن والمعقولات ، فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « ماأوذى نبى ماأوذيت » ولقد علمتم ماجرى على عترته ، وأهل بيته وشيعته ، والحال ما حال ، والأمر ما زال ، ولله الحمد فى الأولى والآخرة إذ نحن مظلومون لا ظالمون ، ومغصوبون لا غاصبون ، وإذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، ولقد علمتم ظاهر حالنا ، وكيفية رجالنا ، وما يتمنونه من الفوت ، ويتقربون به إلى حياض الموت ، قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ، وفى أمثال العامة السائرة : أو للبط يتهددون بالشط ؟ فهيئ للبلايا جلباباً ، وتدرع للرزايا أثواباً ، فلأظهرن عليك منك ، ولأفنينهم فيك عنك ، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه ، وما ذلك على الله بعزيز .

وهذه الرسالة نقلت من خط القاضى الفاضل على هذه الصورة ، ورأيت فى نسخة زيادة على هذا ، وهى : فاذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ، ومن حالك على اقتصاد ، واقرأ أول النحل وآخر صاد .

والصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والله أعلم

ورأيت فى بعض النسخ زيادة بيت فى أول الأبيات الثلاثة ، وهو :

يا للرجال لأمرٍ هالَ مفظعه
ما مر قط على سمعى توقعه

وكتب سنان المذكور مرة أخرى إليه ، وقد جرت بينهما وحشة [من الطويل] :

بنا نِلتَ هذا الملك حتى تأثّلَتْ
بيوتُكَ فيها واشمخَرَّ عمودها

فأصبحتَ ترمينا بنبل بنا استوى
مغارسها منا ، وفينا حديدها

و بالجملة فان محاسن نور الدين كثيرة .

وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة .

وتوفى يوم الأربعاء حادى عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، بقلعة دمشق، بعلة الخوانيق ، وأشار عليه الأطباء بالفَصْد فامتنع ، وكان مهيباً فما روجع .

ودفن فى بيت بالقلعة كان يلازم الجلوس فيه والمبيت أيضاً ، ثم نقل إلى تربته بمدرسته التى أنشأها عند باب سوق الخواصين ، وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون : إن الدعاء عند قبره مستجاب ، ولقد جربت ذلك فصح ، رحمه الله تعالى ! .

وكان اسمر اللون ، طويل القامة ، حسن الصورة ، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه .

وكان قد عهد بالملك إلى ولده الملك الصالح عماد الدين إسماعيل وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة ، فقام بالأمر من بعده ، وانتقل من دمشق إلى حلب ودخل قلعتها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة ، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر ، وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ، ولم يبق

عليه سوى مدينة حلب ، ولم يزل الصالح بها إلى أن توفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة ، والله أعلم .

وكان مبدأ مرضه فى تاسع شهر رجب من السنة المذكورة ، وحدث له قولنج فى مستهل جمادى الأولى ، وكان لموته وقع عظيم فى قلوب الناس ، وتأسفوا عليه لأنه كان محسناً محمود السيرة ، ودفن فى المقام الذى فى القلعة ، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة ، وهو مشهور هناك ، رحمه الله تعالى ! .

وتوفى مجير الدين أرتق المذكور فى سنة أربع وستين وخمسمائة ، ببغداد ، ودفن فى داره ، كذا وجدته فى بعض المسودات التى بخطى ، والله أعلم ، ومولده يوم الجمعة ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، ببعلبك ، والله تعالى أعلم .

* * *

(٤٨٧)

أبو السمط مروان بن أبى حفصة الشاعر

أبو السمط – وقيل : أبو الهندام – مروان بن أبى حفصة سليمان بن يحيى ابن أبى حفصة يزيد ، الشاعر المشهور

كان جده أبو حفصة مولى مروان بن الحكم بن أبى العاص الأموى ، فأعتقه يوم الدار ، لأنه أبلى يومئذ ، فجعل عتقه جزاءه ، وقيل : إن أبا حفصة كان يهوديا طبيباً أسلم على يد عثمان بن عفان رضى الله عنه ! وقيل : على يد مروان ابن الحكم بن أبى العاص الأموى ، ويزعم أهل المدينة أنه كان من موالى السَّمَوْأل ابن عادياء اليهودى المشهور بالوفاء صاحب القصة المشهورة مع امرىء القيس بن حُجْر [الكندى] الشاعر المشهور ، وأن أبا حفصة سبي من إصطخر وهو غلام ، فاشتراه عثمان رضى الله عنه ، ووهبه لمروان بن الحكم .

ومروان بن أبى حفصة الشاعر المذكور من أهل اليمامة ، وقدم بغداد ومدح المهدى وهرون الرشيد ، وكان يتقرب إلى الرشيد بهجاء العلويين ، ومروان المذكور من الشعراء المجيدين ، والفحول المتقدمين ، ذكره أبو العباس بن المعتز فى كتاب « طبقات الشعراء » فقال فى حقه : وأجود ما قاله مروان قصيدته الغراء اللامية وهى التى فضل بها على شعراء زمانه ، يمدح فيها معن بن زائدة الشيبانى ، ويقال : إنه أخذ منه عليها مالا كثيراً لا يقدر قدره ، ولم ينل أحد من الشعراء الماضين ما ناله مروان بشعره ، فمما ناله ضربة واحدة ثلثمائة ألف درهم من بعض الخلفاء بسبب بيت واحد ، انتهى كلام ابن المعتز .

والقصيدة اللامية طويلة تناهز الستين بيتا ، ولولا خوف الإطالة لذكرتها ، ولكن نأتى ببعض مديحها ، وهو فى أثنائها فنقول [من الطويل] :

بنو مَطَرٍ يوم اللقاء كأنهم أُسودٌ لهم فى بطن خَفَّانَ أشْبُلُ

تجنب «لا» فى القول حتى كأنه ... حرام عليه قول «لا» حين يسأل
تشابه يوماه علينا فأشكلا ... فلا نحن ندرى أى يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بؤسه ... وما منهما إلا أغر مُحجّلُ
بهاليل فى الإسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم فى الجاهلية أول
هم القوم إن قالوا أصابوا، و إن دعوا ... أجابوا، و إن أعطوا أطابوا وأجزلوا
وما يستطيع الفاعلون فعالهم ... و إن أحسنوا فى النائبات وأجملوا
ثُلاث بأمثال الجبال حُبَاهُمُ ... وأحلامهم منها لدى الوزن أثقل

هذا لعمرى هو السحر الحلال ، المنقح لفظا ومعنى ، وحقه أن يفضل على شعراء عصره وغيرهم ، وله فى مدائح معن ومراثيه كل معنى بديع ، وسيأتى شىء من ذلك فى أخبار معن ، إن شاء الله تعالى .

وحكى ابن المعتز أيضاً عن شراحيل بن معن بن زائدة أنه قال : عرضت فى طريق مكة ليحيي بن خالد البرمكى ، وهو فى قبة ، وعديلُه القاضى أبو يوسف الحنفى وهما يريدان الحج ، قال شراحيل : فانى لأسير تحت القبة إذ عرض له رجل من بنى أسد فى شارة حسنة ، فأنشده شعراً ، فقال له يحيي بن خالد فى بيت منها : ألم أنهك عن مثل هذا البيت أيها الرجل ؟ ثم قال : ياأخا بنى أسد ، إذا قلت الشعر فقل كقول الذى يقول ، وأنشده الأبيات اللامية المقدم ذكرها ، فقال له القاضى أبو يوسف ، وقد أعجبته الأبيات جدا : مَنْ قائل هذه الأبيات ياأبا الفضل ؟ فقال يحيي : يقولها مروان بن أبى حفصة يمدح بها أبا هذا الفتى الذى تحت القبة ، قال شراحيل : فرمقنِي أبو يوسف بعينيه وأنا راكب على فرس لى عتيق ، وقال لى : من أنت يافتى حياك الله تعالى وقربك ؟ ! قلت : أنا شراحيل بن معن بن زائدة الشيبانى ، قال شراحيل : فوالله ماأتت على ساعة قط كانت أقر لعينى من تلك الساعة ارتياحا وسروراً .

ويحكى أن ولداً لمروان بن أبى حفصة المذكور دخل على شراحيل المذكور فأنشده [من البسيط] :

أيا شراحيل بن معن بن زائدة   يا أكرم الناس من عجم ومن عرب (١)
أعطى أبوك أبى مالا فعاش به   فأعطنى مثل ما أعطى أبوك أبى
ما حل قط أبى أرضاً أبوك بها   إلا وأعطاهُ قنطاراً من الذهب

فأعطاه شراحيل بن معن بن زائدة قنطاراً من الذهب .

ومما يقارب هذه الحكاية ما يروى عن أبى مليكة جَرْوَل بن أوس المعروف بالْحُطَيْئة الشاعر المشهور لما اعتقله عمر بن الخطاب — رضى الله عنه ! — لبذاءة لسانه وكثرة هجوه الناس كتب إليه من الاعتقال [من البسيط] :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ   حمر الحواصل لا ماء ولا شجر (٢)
ألقيت كاسبهم فى قعر مُظْلِمةٍ   فارحم عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه   ألقت إليك مقاليدَ النهى البشرُ
ما آثروك بها إذ قدموك لها   لكن لأنفسهم قد كانت الأثر

فأطلقه ، وشرط عليه أن يكف لسانه عن الناس ، فقال له : يا أمير المؤمنين اكتب لى كتاباً إلى علقمة بن عُلَاثة لأقصده به ، فقد منعتنى التكسب بشعرى وكان علقمة مقيما بحُورَان ، وهو من الأجواد المشهورين ، قال ابن الكلبى فى كتاب جمرة النسب : هو علقمة بن عُلَاثة بن عوف بن ربيعة ، ويقال له « الأحوص » لصغر عينيه ، ابن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هَوَازن ، وكان عمر — رضى الله عنه ! — استعمله على حوران ، فامتنع عمر رضى الله عنه من ذلك ، فقيل : يا أمير المؤمنين وما عليك من ذلك ؟ علقمة ليس من عمالك فتخشى من ذلك أن تأثم ، وإنما هو رجل من المسلمين تشفع بك إليه ، فكتب له بما أراد ، فمضى الحطيئة بالكتاب ، فصادف علقمة قد مات والناس منصرفون

---

(١) صدر هذا البيت غير مستقيم الوزن   (٢) المحفوظ « زغب الحواصل »

من قبره ، وابنه حاضر ، فوقف عليه ثم أنشد [من الطويل] :

لعمرى لنعم المرء من آل جعفر ... بحوران أمسى علقته الحبائل

فان تحى لا أملك حياتى ، و إن تمت ... فما فى حياتى بعد موتك طائل

وما كان بينى لو لقيتك سالما ... و بين الغنى إلا ليال قلائل

فقال له ابنه : كم ظننت أن علقمة كان يعطيك لو وجدته حيا ؟ فقال : مائة ناقة يتبعها مائة من أولادها ، فأعطاه ابنه إياها .

والبيتان الأخيران من هذه الثلاثة وجدتهما فى ديوان النابغة الذبيانى ، واسمه زياد بن معاوية بن جابر ، من جملة قصيدة يرثى بها النعمان بن أبى شمر الغسانى .

وأخبار ابن أبى حفصة ونوادره ومحاسنه كثيرة ، فلا حاجة إلى الإطناب بذكرها .

وكانت ولادته سنة خمس ومائة .

وتوفى سنة إحدى وثمانين ، وقيل : سنة اثنين وثمانين ومائة ، ببغداد ، ودفن بمقبرة نصر بن مالك الخزاعى ، رحمه الله تعالى ! .

مروان بن أبى الجنوب حفيد مروان ابن أبى حفصة

وحفيده مروان الأصغر ، وهو أبو السمط مروان بن أبى الجنوب بن مروان الأكبر المذكور ، وكان من شعراء عصره المشاهير المقدمين ، وذكر المبرد فى كتاب الكامل طرفا من أخبار عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصارى ، ثم قال : ويروى أن عبد الرحمن المذكور لدغه زنبور فجاء أباه يبكى ، فقال له : مابك ؟ قال : لسعنى طائر كأنه ملتف فى بردى حبرة ، فقال أبوه : قلت الشعر والله ! ثم قال بعد ذلك : وأعرف قوماً كانوا فى الشعر إلى حسان ، فانهم كانوا يعدون ستة فى نسق كلهم شاعر ، وهم : سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، و يعد هؤلاء فى الوقت إلى أبى حفصة فانهم أهل بيت كل واحد منهم شاعر يتوارثونه كابراً عن كابر ، ويحيى بن أبى حفصة كنيته أبو جميل ، وأمه حيًا بنت ميمون ، يقال : إنها من ولد النابغة الجعدى ، و إن الشعر أتى إلى

أبى حفصة بذلك السبب، وكل واحد من هؤلاء كان يضرب بلسانه أرنبة أنفه ، وهو دليل على الفصاحة والبلاغة ، والله تعالى أعلم .

* * *

(٦٨٨)

أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى الحافظ

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القُشَيْرى ، النيسابورى

صاحب الصحيح ، أحد الأئمة الحفاظ ، وأعلام المحدثين ، رحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر ، وسمع يحيى بن يحيى النيسابورى وأحمد بن حنبل و إسحاق ابن راهويه وعبد الله بن مسلمة القعنبى وغيرهم ، وقدم بغداد غير مرة فروى عنه أهلها ، وآخر قدومه إليها فى سنة تسع وخمسين ومائتين ، وروى عنه الترمذى ، وكان من الثقات .

وقال محمد الماسرجسى : سمعت مسلم بن الحجاج يقول : صنفت هذا المسند الصحيح من ثلثمائة ألف حديث مسموعة .

وقال الحافظ أبو على النيسابورى : ماتحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم فى علم الحديث .

وقال الخطيب البغدادى : كان مسلم يناضل عن البخارى ، حتى أوحش مابينه و بين محمد بن يحيى الذهلى بسببه .

وقال أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ : لما استوطن البخارى نيسابور أكثر مسلم من الاختلاف إليه ، فلما وقع بين محمد بن يحيى والبخارى ماوقع فى مسألة اللفظ ، ونادى عليه ، ومنع الناس من الاختلاف إليه ، حتى هجر وخرج من نيسابور فى تلك المحنة ـ قطعه أكثر الناس ، غير مسلم ، فانه لم يتخلف عن

زيارته ، فأنهى إلى محمد بن يحيى أن مسلم بن الحجاج على مذهبه قديما وحديثاً وأنه عوتب على ذلك بالحجاز والعراق ، ولم يرجع عنه ، فلما كان يوم مجلس محمد ابن يحيى قال فى آخر مجلسه : ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا ، فأخذ مسلم الرداء فوق عمامته ، وقام على رؤوس الناس ، وخرج من مجلسه ، وجمع كل ما كتب منه ، وبعث به على ظهر حمال إلى باب محمد بن يحيى ، فاستحكمت بذلك الوحشة ، وتخلف عنه وعن زيارته .

وتوفى مسلم المذكور عشية يوم الأحد ودفن بنصر أباد ظاهر نيسابور يوم الإثنين لخمس ، وقيل : لست بقين من شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين ومائتين ، بنيسابور ، وعمره خمس وخمسون سنة ، هكذا وجدته فى بعض الكتب ، ولم أر أحداً من الحفاظ ضبط مولده ، ولا تقدير عمره ، وأجمعوا على أنه ولد بعد المائتين .

وكان شيخنا تقى الدين أبو عمرو عثمان المعروف بابن الصلاح يذكر مولده ، وغالب ظنى أنه قال : سنة اثنتين ومائتين ، ثم كشفت ما قاله ابن صلاح الدين فاذا هو فى سنة ست ومائتين ، نقل ذلك من كتاب «علماء الأمصار» تصنيف الحاكم أبى عبد الله بن البَيِّع النيسابورى الحافظ ، ووقفت على الكتاب الذى نقل منه ، وملكت النسخة التى نقل منها أيضاً ، وكانت ملكه ، وبيعت فى تركته ، ووصلت إلى وملكتها ، وصورة ما قاله بأن مسلم بن الحجاج توفى بنيسابور لخمس بقين من شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين ومائتين ، وهو ابن خمس وخمسين سنة ، فتكون ولادته فى سنة ست ومائتين ، والله أعلم ، رحمه الله تعالى !

وقد تقدم الكلام على القشيرى صاحب الرسالة ، فأغنى عن الإعادة .

محمد بن يحيي الذهلي

وأما محمد بن يحيي المذكور فهو أبو عبد الله محمد بن يحيي بن عبد الله بن خالد ابن فارس بن ذؤيب الذهلى النيسابورى ، وكان أحد الحفاظ الأعيان ، روى عنه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة القزوينى ، وكان ثقة مأموناً .

وكان سبب الوحشة بينه وبين البخارى أنه لما دخل البخارى مدينة نيسابور شعث عليه محمد بن يحيي فى مسألة خلق اللفظ ، وكان قد سمع منه ، فلم يمكنه ترك الرواية عنه ، وروى عنه فى الصوم والطب والجنائز والعتق وغير ذلك مقدار ثلاثين موضعاً ، ولم يصرح باسمه فيقول : حدثنا محمد بن يحيي الذهلى ، بل يقول : حدثنا محمد ، ولا يزيد عليه ، و يقول محمد بن عبد الله ، فينسبه إلى جده و ينسبه أيضاً إلى جد أبيه .

وتوفى محمد المذكور سنة اثنين ، وقيل : سبع ، وقيل : ثمان وخمسين ومائتين رحمه الله تعالى ! والله أعلم .

***

(٦٨٩)

قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد النيسابورى الطريثيثى الشافعى

أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود ، النيسابورى ، الطريثيثى ، الفقيه الشافعى ، الملقب قطب الدين

تفقه بنيسابور ومرو على أئمتهما ، وسمع الحديث من غير واحد ، ورأى الأستاذ أبانصر القشيرى ، ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور نيابة عن ابن الجُوَينى ، وكان قد قرأ القرآن الكريم والأدب على والده ، وقدم بغداد ، ووعظ بها ، وتكلم فى المسائل فأحسن ، وقدم بدمشق سنة أربعين وخمسمائة ، ووعظ بها وحصل له قبول ، ودرس بالمدرسة المجاهدية بالزاوية الغربية من جامع دمشق بعد موت الفقيه أبى الفتح نصرالله المصيصى

وذكره الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق ، ثم خرج إلى حلب وتولى التدريس فى المدرستين اللتين بناهما نورالدين محمود وأسدالدين شيركوه ، ثم مضى إلى همدان وتولى التدريس بها ، ثم رجع إلى دمشق ودرس بالزاوية الغربية ، وحدث ، وتفرد برياسة أصحاب الشافعى رضى الله عنه! وكان عالماً صالحاً ، صنف كتاب « الهادى » فى الفقه ، وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلا بالقول الذى عليه الفتوى ، وجمع للسلطان صلاح الدين عقيدةً تجمَعُ جميعَ مايحتاج إليه فى أمر دينه ، وحفظها أولادُه الصّغار حتى يرسخ فى آذانهم من الصغر ، قال ابن شداد فى سيرة السلطان : ورأيته — يعنى السلطان — وهو يأخذها عليهم ، وهم يقرؤنها بين يديه من حفظهم ، وكان متواضعاً قليل الصنع ، مطرحاً للتكليف

وكانت ولادته سنة خمس وخمسمائة ، فى الثالث عشر من شهر رجب الفرد

وتوفى فى آخر يوم من شهر رمضان المعظم ، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ،

بدمشق ، وصلى عليه يوم العيد ، وكان نهار الجمعة ، ودفن بالمقبرة التى أنشأها جوار مقبرة الصوفية غربى دمشق ، وزرت قبره غير مرة ، رحمه الله تعالى !

وكان والده من طُرَيْثِيثَ ، وقد تقدم الكلام عليها فى ترجمة عميد الملك[١] الكندرى ، فلا حاجة إلى إعادته ، وهى من نواحى نيسابور ، فقال بعضُ أصحابه :

أنشدنا الشيخ قطب الدين لبعضهم [من الطويل] :

يقولون إنّ الحبّ كالنار فى الحشا
ألا كذبوا فالنارُ تذكو وتخمد
وما هى إلا جَذْوَةٌ مَسَّ عودها
نَدًى فهى لا تخبو ولا تتوقد

والله تعالى أعلم بالصواب .

* * *

(١) وقع فى الأصول كلها « عبد الملك الكندرى » محرفا ، ووقع اسم البلد « طرثيث » محرفا أيضا ، والصواب ما أثبتناه فى الموضعين ، وقد تقدم ضبط « طريثيث » فى ترجمة محمد بن منصور بن محمد الملقب « عميد الملك » الكندرى ، وهى الترجمة رقم ٦٧٤ ص ٢٢٢ — ٢٢٧ من هذا الجزء

(٦٩٠)

أبو جعفر مسعود بن عبد العزيز، البياضى الشاعر

الشريف البياضى ، أبو جعفر مسعود بن عبد العزيز

ابن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق ،

البياضى ، الشاعر المشهور

هكذا وجدته بخط بعض الحفاظ المتقنين ، ورأيت فى أول ديوانه أنه أبو جعفر مسعود بن المحسن بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، القرشى الهاشمى ، والله أعلم بالصواب

وهو من الشعراء المجيدين فى المتأخرين ، وديوان شعره صغير ، وهو فى غاية الحسن والرقة ، وليس فيه من المدائح إلا اليسير ، فمن أحسن شعره قصيدته القافية التى أولها [من الكامل] :

إن غاضَ دَمْعُكَ والركابُ تُساقُ ... مع ما بقلبك فهو منك نِفاقُ

لا تحبسنّ ماء الجفون فإنه ... لك يا لديغَ هواهمُ تِرْياقُ

واحْذَرْ مصاحبة العذول فإنه ... مُغْرٍ ، وظاهرُ عذله إشفاقُ

لا يبعدَنْ زمنٌ مضت أيامه ... وعلى متون غصونها أوراقُ

أيام نرجسنا العُيُونُ ووردنا ... غَضُّ الخدود وخمرنا الأرياقُ

ولنا بزوراء العراق مواسمٌ ... كانت تقامُ لطيبها أسواقُ

ولئن بكت عيني دماً شوقاً إلى ... ذاك الزمان فمثله يشتاقُ

أين الأُغَيلمة الأُلى لولاهمُ ... ما كان طعمُ هوى الملاح يُذاقُ

ومنها :

وكأنما أرواحُهُم بأكفِّهِمْ ... أجسامُهُم ونصولها الأحداقُ

شنُّوا الإغارة في القلوب بأعين لا يرتجى لأسيرها إطلاقُ
واستعذبوا ماء العيون فعذَّبوا الأُسراء حتى درّت الآماقُ
ونمى الحديثُ بأنهم نذرُوا دمى أوَلِى دمٌ يوم الفراقِ يراقُ

وله ، وهو مما يغنى به [من مجزوء الرمل] :

كيف يذوى عشب أشوا قى ولى طرفٌ مطير
إن يكن فى العشقِ حُرٌّ فأنا العبد الأسير
أو على الحسنِ زكاة فأنا ذاك الفقيرُ

وله أيضاً [من البسيط] :

ياليلة بات فيها البدر معتنقى إلى الصباح بلا خوفٍ ولا حذرِ
كلامه الدر يغنى عن كواكبها
وَوَجههُ عِوض فيها عن القمر
فبينما أنا أرعى فى محاسنه
سمعى وطرفى إذ أنذرت بالسحر
ولم يكن عيبها إلا تقاصرها
وأى عيب لها أشنى من القصر
وددت لو أنها طالت على ولو
أمددتها بسواد القلب والبصر

والبيت الأخير منها ينظر إلى قول أبى العلاء بن سليمان المعرى ، وهو [من البسيط] :

يود أن ظلام الليل زيد له
وزيد فيه سواد القلب والبصر

وشعره كله على هذا الأسلوب ، وقد تقدم له بيتان فى ترجمة صَرّدُرّ الشاعر .

وتوفى البياضى المذكور يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة ، ببغداد ، ودفن بمقبرة باب أبرز .

وإنما قيل له البياضى لأن أحد أجداده كان فى مجلس بعض الخلفاء مع جماعة من العباسيين ، وكانوا قد لبسوا سواداً ، ما عداه ، فانه كان قد لبس بياضاً فقال الخليفة : من ذلك البياضى ؟ فثبت ذلك الاسم عليه ، واشتهر به

وذكر ابن الجوزى فى كتاب الألقاب أن صاحب هذه الواقعة هو محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، رضى الله عنهم أجمعين ! وهو الذى يقال له البياضى .

ورأيت بخط أسامة بن منقذ المقدم ذكره أن الذى لقبه بهذا اللقب هو الخليفة الراضى بالله ، والله تعالى أعلم .

* * *

(٦٩١)

أبو الفتح غياث الدين مسعود بن محمد ابن ملكشاه السلجوقى

أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى ، الملقب غياث الدين ، أحد ملوك السلجوقية المشاهير

وقد تقدم ذكر والده وأخيه محمود وجماعة من أهل بيته .

كان مسعود المذكور قد سلمه والده فى سنة خمس وخمسمائة إلى الأمير مودود صاحب الموصل ليربيه ، فلما قتل مودود فى سنة سبع وخمسمائة وتولى الأمير آق سنقر البرسقى المذكور فى حرف الهمزة مكان حكمه سلمه والده إليه أيضا ، ثم أرسله من بعده إلى جوش[1] بك صاحب الموصل أيضا ، فلما توفى والده وتولى موضعه ولده محمود المقدم ذكره أخذ جوش بك[1] يحسّن لمسعود المذكور الخروج على أخيه محمود وأطمعه فى السلطنة ، ولم يزل على ذلك حتى جمع العساكر واستكثر منها ، وقصد أخاه ، والتقيا بالقرب من همذان فى ربيع الأول سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان النصر لمحمود ، وقتل فى هذه الواقعة الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائى ، وقد سبق شىء من خبره فى حرف الحاء ، ثم تنقلت الأحوال ، وتقلبت بمسعود المذكور واستقل بالسلطنة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، وقصد بغداد ، واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد القاشانى الذى كان وزير المسترشد ، وقد تقدم ذكره فى ترجمة الحريرى صاحب المقامات[2] .

وكان سلطانا عادلا ، لين الجانب ، كبير النفس ، فرق مملكته على أصحابه ، ولم يكن له من السلطنة غير الاسم ، وكان — مع لين جانبه — ما ناوأه أحد إلا وظفر به ، وقتل من الأمراء الأكابر خلقا كثيراً ، ومن جملة من قتل الخليفتان المسترشد بالله والراشد ، لأنه كان قد وقع بينه و بين الخليفة المسترشد وحشة قبل استقلاله فى السلطنة ، فلما استقل ستطال نوابه على العراق ، وعارضوا الخليفة فى أملاكه ، فقويت الوحشة بينهما ، وتجهز المسترشد ، وخرج لمحاربته ، وكان السلطان

---

(١) هكذا ، ومن أصحاب الموصل من اسمه « جكرمش »

(٢) وقع اسم الوزير فى ج ٣ ص ٢٢٨ « أنوشروان بن محمد بن خالد »

مسعود بهمذان ، فجمع جيشا عظيما ، وخرج للقائه ، وتصافا بالقرب من همذان فكسر عسكر الخليفة ، وأسر هو وأرباب دولته ، وأخذه السلطان مسعود مأسوراً ، وطاف به بلاد أذربيجان ، وقتل على باب المراغة ، حسبما شرحناه فى ترجمة دبيس بن صَدَقَةَ .

ثم أقبل مسعود على الاشتغال باللذات ، والانعكاف على مواصلة وجوه الراحات ، متكلا على السعادة ، يعمل له ما يؤثره ، إلى أن حدث له علة القيء وغلبه الغَثَيَان ، واستمر به ذلك إلى أن توفى فى حادى عشر جمادى الآخرة ، سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وقيل : يوم الأربعاء ، الثانى والعشرين من الشهر المذكور ، بهمذان ، ودفن فى مدرسة بناها جمال الدين إقبال الخادم .

وقال ابن الأزرق الفارقى فى تاريخه : رأيت السلطان المذكور ببغداد ، فى السنة المذكورة ، وسار إلى همذان ، ومات بباب همذان ، وحمل إلى أصبهان رحمه الله تعالى ! .

وقد تقدم شيء من خبره فى ترجمة دبيس بن صدقة ، صاحب الحِلّة .

ومولده يوم الجمعة ، لثلاث خلون من ذى القعدة ، سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

ولما ولى السلطنة جرت بينه وبين عمه سنجر ، المقدم ذكره ، منازعة ، ثم خطب له بعد عمه المذكور ببغداد ، يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، والله أعلم .

***

(٦٩٢)

أبو الفتح عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل

أبو الفتح ، وأبو المظفر، مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر، أتابك ، صاحب الموصل ، الملقب عز الدين

قد تقدم خبر جده وجد أبيه ، وخبر ولده نور الدين أرسلان شاه ، وغيرهم من أهل بيته ، وسيأتى ذكر أبيه فى هذا الحرف ، إن شاء الله تعالى .

ولما توفى والده ، قام بالملك ولده سيف الدين غازى، المقدم ذكره ، لأنه كان أكبر الإخوة ، وكان قد خلف هذين الولدين ، وعماد الدين زنكى صاحب سنجار المذكور عقيب ترجمة جده عماد الدين زنكى ، وكان عز الدين المذكور مقدم الجيوش فى أيام أخيه غازى .

ولما خرج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود ، المقدم ذكره ، وأخذ دمشق ، وتقدم إلى حلب ، وحاصرها ، فخاف غازى منه ، وعلم أنه قد استفحل أمره ، وعظم شأنه ، واستشعر أنه متى استحوذ على الشام تعدى الأمر إليه، فجهز جيشاً عظيما ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعودا المذكور ، وسار يريد لقاء السلطان ، وضرب المصاف معه ليرده عن البلاد ، فلما بلغ السلطان خروجه رحل عن حلب ، وذلك فى مستهل رجب الفرد سنة سبعين وخمسمائة ، وسار إلى حمص ، وأخذ قلعتها .

وكان قد أخذ البلاد ، فى جمادى الأولى ، من السنة المذكورة بعد خروجه من دمشق ، قاصدا حلب .

ووصل عز الدين مسعود إلى حلب لينجد ابن عمه الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين ، صاحب حلب .

هذا ما كان فى الصورة الظاهرة .

وفى الباطن : كان غرضهم ما ذكرناه من خوفهم على بلادهم ، فانضم إلى عز الدين مسعود عسكر حلب ، وخرج فى جمع كثير .

ولما عرف السلطان مسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حَمَاة ، وراسلهم وراسلوه ، واجتهد فى أن يصالحوه ، فلم يفعلوا ، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به الغرض الأكبر ، والمقصود الأوفر ، والقضاء يجر إلى أمور لا يشعرون بها ، فقام المصاف بين العسكرين ، وقضى الله تعالى أن انكسر جيش عز الدين .

وأسر السلطان جماعةً من أمرائه ، ثم أطلقهم ، وذلك يوم الأحد ، التاسع عشر ، من شهر رمضان المعظم ، من السنة المذكورة ، وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة .

ثم سار السلطان عقيبَ الكسرة إلى حلب ، ونزل عليها ، وهى الدفعة الثانية ، فصالحه الملك الصالح إسماعيل على أخذ المعرة ، وكفرطاب ، وبارين ثم رحل عنها . وشرحُ ذلك يطولُ ، وتتمة هذه القضية مذكورة فى ترجمة أخيه سيف الدين غازى .

ولما توفى أخوه سيف الدين ، فى التاريخ المذكور فى ترجمته استقل عز الدين المذكور بالملك من بعده ، ولم يزل إلى أن حضرت الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الوفاةُ فى التاريخ المذكور فى ترجمة أبيه نور الدين ، فأوصى بمملكة حلب وما معها لابن عمه عز الدين مسعود المذكور ، واستحلف له الأمراء والأجناد ، فلما توفى وبلغ الخبر عز الدين مسعودا ، بادر متوجها إليها خوفا من صلاح الدين أن يسبقه فيأخذها .

وكان وصوله إليها فى العشرين من شعبان ، سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وصعد القلعة ، واستولى على ما بها من الخزائن والحواصل .

وتزوج أم الملك الصالح ، فى خامس شوال ، من السنة ، وأقام بها إلى سادس عشر شوال .

ثم علم أنه لا يمكنه حفظ الشام والموصل ، وخاف من جانب صلاح الدين ، وألح عليه الأمراء فى طلب الزيادات ، وتبسطوا عليه فى المطالب ، وضاق عنهم عطَنه . وكان المستولى على أمره مجاهد الدين قايماز الزينى ، المقدم ذكره فى حرف القاف ، فرحل عن حلب ، وخلف بها مظفر الدين ولده ، ومظفر الدين ابن زين الدين صاحب إربل المذكور فى حرف الكاف .

ولما وصل إلى الرقة ، لقيه بها أخوه عماد الدين زنكى ، صاحب سنجار ، فقرر معه مقايضة حلب بسنجار ، وتحالفا على ذلك ، وسير عماد الدين من يتسلم حلب ، وسير عز الدين من يتسلم سنجار .

وفى ثالث عشر المحرم ، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، صعد عماد الدين إلى قلعة حلب ، وكان قد تقرر الصلح بين عز الدين المذكور وابن عمه الملك الصالح ، وبين صلاح الدين ، على يد قليج أرسلان ، صاحب الروم ، وصعد السلطان صلاح الدين إلى الديار المصرية ، واستناب بدمشق ، ابنَ أخيه عز الدين فروخ شاه بن شاهان شاه بن أيوب ، فلما بلغه خبر وفاة الملك الصالح وهذه الأمور المتجددة عاد إلى الشام .

وكان وصوله إلى دمشق فى سابع عشر صفر ، سنة ثمان وسبعين ، وبلغه بها أن رسول عزالدين مسعود وصل إلى الفرنج يحثهم على قتال السلطان ويبعثهم على قصده ، فعلم أنه قد غدر به ونكث اليمين ، فعزم على قصد حلب والموصل وأخذ فى التأهب للحرب ، فبلغ عماد الدين صاحب حلب ذلك ، فسير إلى أخيه صاحب الموصل يعلمه ذلك ، ويستدعى منه العساكر .

فسار السلطان صلاح الدين من دمشق ، ونزل على حلب ، فى ثانى عشر

جمادى الأولى ، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وأقام عليها ثلاثة أيام .

ثم رحل فى الحادى والعشرين ، من الشهر ، ثم جاءه مظفر الدين ابن زين الدين ، صاحب إربل ، وكان يوم ذلك فى خدمة صاحب الموصل ، وهو صاحب حران ، وكان قد استوحش من عز الدين مسعود صاحب الموصل وخاف من مجاهد الدين قايماز الزينى المذكور فى حرف القاف ، فالتجأ إلى السلطان صلاح الدين ، وقطع الفرات ، وعبر إليه ، وقوى عزمه على قصد بلاد الجزيرة ، وسهل أمرها عليه ، فعبر السلطان صلاح الدين الفرات ، وأخذ الرها ، والرقة ، ونصيبين ، وسروج ، ثم أشحن على بلاد الخابور وأقطعها .
وتوجه إلى الموصل ، ونزل عليها يوم الخميس ، حادى عشر رجب ، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ليحاصرها ، فأقام أياما ، وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة ، وأن طريق أخذه أخذ قلاعه و بلاده و إضعاف أهله على طول الزمان ، فرحل عنها .

ونزل على سنجار ، فى سادس عشر شعبان من السنة ، وأخذها فى شهر رمضان المعظم ، وأعطاها لابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر ، المقدم ذكره ، وشرحُ ذلك يطول .

وخلاصة الأمر أنه رجع إلى الشام فكان وصوله إلى حرّان فى أول ذى القعدة ثم عاد إلى منازلة الموصل ، وكان وصوله إليها فى أول شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين ، ونزلت إليه والدةُ عز الدين ومعها جماعة من نساء بنى أتابك وابنه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ، وقد سبق ذكره فى حرف الهمزة ، وطلبت منه المصالحة ، فردّها خائبة ظناً منه إلى أن عزالدين أرسلها عجزاً عن حفظ الموصل ، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك ، و بذل أهل الموصل نفوسهم فى القتال

لكونه رد النساء والولد بالخيبة ، فأقام عليها إلى أن أتاه خبر وفاة شاه أرمن ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سكمان القبطى صاحب خِلَاط ، وقيام مملوكه بكتمر بالأمر من بعده ، وطمع فيه من جاوره من الملوك ، وعزموا على قصده ، فسير إلى السلطان ، وأطمعه فى خِلَاط ، وقرر معه تسليمها إليه ، وأن يعوضه عنها ما يرضيه .

وكانت وفاة شاه أرمن يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة .

فرحل السلطان صلاح الدين عن الموصل لهذا السبب فى العشرين من الشهر المذكور ، وتوجَّه نحو خلاط ، وفى مقدمته مظفر الدين صاحب إربل وهو يوم ذاك صاحب حران ، وناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه وهو ابن عم صلاح الدين ، فنزلوا بالطوابة البليدةِ التى هى بالقرب من خِلَاط ، وسير الرسل إلى بكتمر لتقرير القاعدة ، فوصلت الرسل إليه وشمس الدين بهلوان بن الذكر صاحب أذربيجان وأران وعراق العجم قد قرب من خلاط ليحاصرها ، فبعث إليه بكتمر يعرفه أنه إن لم يرجع عنه وإلا سلم البلاد إلى السلطان صلاح الدين ، فصالحه وزوجه ابنته ، ورجع عنه ، وسير بكتمر إلى السلطان صلاح الدين يعتذر عما قاله من تسليم خلاط ، وكان السلطان قد نزل على مَيَّا فارقين يحاصرها ، فقاتلها قتالا شديداً ، ثم أخذها عن صلح بالخديعة فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وكان صاحبها قطب الدين غازى بن الى بن كرماس بن غازى بن أرتق ، فمات وتركها لولده حسام الدين يولق أرسلان ، وهو طفل صغير ، فطمع فى أخذها من واليها فأخذها ، ولما أيس السلطان من خلاط عاد إلى الموصل ، وهى الدفعة الثالثة ، ونزل بعيداً عنها بموضع يقال له كفر زمار ، فأقام به مدة ، وكان الحر شديداً ، فمرض السلطانُ مرضاً شديداً أشفى على الموت ، فرحل طالباً حران فى مستهل شوال من السنة

ولما علم عز الدين مسعود المذكور بمرض السلطان ، وأنه رقيق القلب ، انتهز الفرصة وسير القاضى بهاء الدين بن شداد الآتى ذكره إن شاء الله تعالى فى حرف الياء ، ومعه بهاء الدين الربيب ، فوصلا إلى حران فى الرسالة والتماس الصلح ، فأجاب إلى ذلك ، وحلف يوم عرفة من السنة ، وقد تماثل الصحة ، ولم يتغير عن تلك اليمين إلى أن مات رحمه الله تعالى ! ثم رحل إلى الشام ، فأَمِنَ حينئذ عز الدين مسعود ، وطابت نفسه ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى فى السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة بعلة الإسهال ، وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية ، فدفن بهذه المدرسة فى تربة هى بداخلها ، رحمه الله تعالى !

ورأيت المدرسة والتربة ، وهى من أحسن المدارس والترب ، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه فى قبالتها ، وبينهما ساحة كبيرة

ولما مات خلف ولده نور الدين المذكور ، وقد تقدم ذكره فى حرف الهمزة ولما مات نور الدين فى التاريخ المذكور فى ترجمته خلف ولدين أحدهما الملك القاهر عز الدين مسعود ، والآخر المنصور عماد الدين زنكى ، ولما حضرته الوفاة قسّم البلاد بينهما ، فأعطى الملك القاهر — وهو الأكبر — الموصلَ وأعمالها ، وأعطى عماد الدين العمادية والعقر وتلك النواحى .

فأما الملك القاهر فكانت ولادته فى سنة تسعين وخمسمائة بالموصل ، وتوفى بها فجأةً يوم الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وستمائة ، وكان قد بنى مدرسة أيضاً ، فدفن بها .

وأما عماد الدين فانه أخذ بعد موت أخيه الملك القاهر قلعةَ العمادية ، ثم أخذت منه ، وهى من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل ، وكذلك عدة قلاع مما يجاورها ، وانتقل إلى إربل ، وكان زوج ابنة مظفر الدين صاحب إربل ، فأقام بها زمانا ، وكنا فى جواره ، وكان من أحسن الناس صورة ، ثم

قبض عليه مظفر الدين لأمر يطول شرحه ، وسيره إلى سنجار إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، فأفرج عنه الملك الأشرف ، وعاد إلى إربل ، وقايضه مظفر الدين عن العقر بشهرزور وأعمالها ، فانتقل إليها ، وأقام بها إلى أن توفى فى حدود سنة ثلاثين وستمائة ، وخلف ولداً أقام بعده قليلا ثم مات ، رحمهما الله تعالى !

ولما مات عز الدين مسعود بن أرسلان شاه خلف ولدين نور الدين أرسلان شاه ، وكان سمى عليًا فى حياة جده أرسلان شاه ، فلما مات جده نور الدين سموه باسمه ، وناصر الدين محمود ، فتولى بعده نور الدين المذكور ، وكان تقدير عمره عشر سنين ، و بقى بعد أبيه قليلا ، وتوفى فى بقية السنة ، وتولى أخوه بعده ناصر الدين محمود ، والمدبر لأمر المملكة بدر الدين لؤلؤ الذى ملك الموصل فيما بعد .

وتوفى بهلوان بن الذكر المذكور ، فى سلخ ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى !

وتوفى والده شمس الدين الذكر الأتابك فى أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة ، بنقجوان ، ودفن بها رحمه ، الله تعالى !

وكان أتابك السلطان أرسلان شاه بن طغْرُليك بن محمد بن ملكشاه بن محمد السلجوقى .

و بعد الذكر بمقدار شهر توفى أرسلان شاه المذكور بهمذان ، رحمه الله تعالى !

وقتل قزل بن الذكر المذكور فى أوائل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

وكان ملكا كبيرا ، وهو ابن الذكر المذكور ، رحمهم الله تعالى أجمعين ! والله تعالى أعلم بالصواب .

* * *

(٦٩٣)

أبو أيوب مطرف بن مازن ، الكناني بالولاء .

وقيل : القيسي بالولاء ، الصنعاني

أبو أيوب مطرف بن مازن، الكناني الصنعاني ، القاضي

ولي القضاء بصنعاء اليمن ، وحدث عن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج وجماعة كثيرة ، وروى عنه الإمام الشافعي ، رحمة الله تعالى عليه ! وخلق كثير ، واختلفوا في روايته ، فنقل عن يحيي بن معين أنه سئل عنه فقال : كذاب ، وقال النسائي : مطرف بن مازن ليس بثقة ، وقال السعدي : مطرف بن مازن الصنعاني يتثبت في حديثه حتى يملي ماعنده ، وقال أبو حاتم محمد بن حيان البستي : مطرف ابن مازن الكناني قاضي اليمن يروي عن معمر وابن جريج ، وروى عنه الشافعي وأهل العراق ، وكان يحدث بما لا يسمع ، و يروي ما لا يكتب عمن لم يره ، ولا تجوز الرواية عنه إلا عند الخواص للاعتبار فقط ، قال حاجب بن سليمان : كان مطرف ابن مازن قاضي صنعاء وكان رجلا صالحا ، وذكر عنه حكاية في إبراره قسم من أقسم على أمر شنيع يفعله به ، وذكر أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني أحاديث من رواية مطرف بن مازن ، وقال : لمطرف غير ما ذكرت أفراد يتفرد بها عمن يرويها عنه ، ولم أر فيما يرويه شيئا منكراً ، وقال أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : أخبرنا أبو سعيد قال : حدثنا أبو العباس قال : أخبرنا الربيع قال : قال الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وقد كان من حكام الآفاق : من يستحلف على المصحف وذلك عندي حسن ، وقال : وأخبرني مطرف بن مازن باسناد لا أحفظه أن ابن الزبير أمر بأن يحلف على المصحف ، قال الشافعي — رضي الله عنه ! — : ورأيت مطرفا بصنعاء اليمن يحلف على المصحف ، وقال غيره : قال الشافعي رضي الله عنه : ورأيت ابن مازن — وهو قاضي صنعاء — يغلظ باليمين بالمصحف .

وتوفي مطرف المذكور بالرقة ، وقيل : بمنبج ، وكانت وفاته في أواخر خلافة

هارون الرشيد ، وتوفى هارون الرشيد ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، بطوس ، وكانت ولايته يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، رحمه الله تعالى !.

وهذا مطرف ليس من المشاهير الذين يحتاج إلى ذكرهم ، والذى حملنى على ذكره أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازى ـ رحمه الله تعالى ! ـ ذكره فى كتاب المهذب فى باب ليمين فى الدعاوى وفى فصل التغليظ ، فقال : « وإن حلف بالمصحف وما فيه من القرآن فقد حكى الشافعى رضى الله عنه عن مطرف بن مازن أن ابن الزبير رضى الله عنهما كان يحلف على المصحف ، قال : ورأيت مطرفا بصنعاء يستحلف على المصحف ، قال الشافعى رضى الله عنه : وهو حسن » انتهى كلام صاحب المهذب ورأيت الفقهاء يسألون عن مطرف المذكور ، ولا يعرفه أحد ، حتى غلط فيه صاحبنا عماد الدين أبو المجد إسماعيل بن أبى البركات هبة الله بن أبى الرضى بن باطيش الموصلى الفقيه الشافعى فى كتابه الذى وضعه على المهذب فى أسماء رجاله والكلام على غريبه فقال : « مطرف بن عبد الله بن الشخير » ثم قال « وتوفى سنة سبع وثمانين » يعنى للهجرة ، فيالله العجب ! شخص يموت فى هذا التاريخ كيف يمكن أن يراه الشافعى رضى الله عنه ؟ ومولد الشافعى سنة خمسين ومائة بعد موت ابن الشخير بثلاث وستين سنة ، وما أدرى كيف وقع هذا الغلط ؟ فلو أنه ما حكى تاريخ وفاته كان يمكن أن يقال : ظن أنه أدركه الشافعى ! .

ولما انتهيت فى هذه الترجمة إلى هذا الموضع رأيت فى تاريخ أبى الحسن عبد الباقى بن قانع الذى جعله مرتبا على السنين أن مطرف بن مازن توفى سنة إحدى وتسعين ومائة ، وهذا يوافق ما قاله الأول من أنه توفى فى أواخر خلافة هارون الرشيد .

والذى أفادنى هذه الترجمة على الصورة المحكية فى الأول هو الشيخ الحافظ

زكى الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى ، نفع الله به !.

ومطرف : بضم الميم ، وفتح الطاء المهملة ، وتشديد الراء المكسورة ، وبعدها فاء .

والباقى معروف ، فلا حاجة إلى ضبطه وتقييده .

مطرف بن عبد الله بن الشخير

وأما مطرف الذى ذكره عماد الدين فهو أبو عبد الله مطرف بن عبد الله ابن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس[1] عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، الحريشى ، كان فقيها ، وكان لوالده عبد الله صحبة ، وكان مطرف من أعبد الناس وأنسكهم ، فذكروا أنه وقع بينه وبين رجل منازعة ، فرفع يديه ، وكان ذلك فى مسجد البصرة ، وقال : اللهم إنى أسألك أن لا يقوم من مجلسه حتى تكفينى إياه ، فلم يفرغ مطرف من كلامه حتى صُرِع الرجل فمات ، وأخذ مطرف وقدموه إلى القاضى ، فقال القاضى : لم يقتله ، وإنما دعا عليه ، فأجاب الله دعاءه ، فكان بعد ذلك تُتَّقى دعوته ، ومات فى سنة سبع وثمانين من الهجرة ، وقال ابن قانع : سنة خمس وتسعين ، والله تعالى أعلم .

* * *

(١) فى ب « بن قيس بن عيلان » وانظر ص ٣٠٤ من هذا الجزء فقد حكى المؤلف ما نبهنا عليه فيما سبق مرارا من أن بعض العلماء يقول « قيس عيلان » على الإضافة ، وهذا هو الأشهر الأكثر ، وبعضهم يقول «قيس بن عيلان » وهو ضعيف وسيتبين لك من كلام المؤلف فى الموضع الذى أحلناك عليه وجه الإضافة فى كلام الأولين

(٦٩٤)

قطب الدين أبو منصور المظفر بن أزدشير المروزى الواعظ

أبو منصور المظفر بن أبى الحسن بن أزدشير بن أبى منصور العَبَّادى ، الواعظ ، المروزى ، الملقب قطب الدين ، المعروف بالأمير

كان من أهل مرو ، وله اليد الطولى فى الوعظ والتذكير وحسن العبارة ، ومارس هذا الفن من صغره إلى كبره ، ومهر فيه حتى صار ممن يضرب به المثل فى ذلك ، وصار عَيْنَ ذلك العصر ، وشهد له الكل بالفضل ، وحيازة قصب السبق ، وقدم بغداد فأقام بها قريباً من ثلاث سنين يعقد له فيها مجالس الوعظ ، ولقى من الخلق قبولا تاما ، وحظى عند الإمام المقتفى لأمر الله ، ثم خرج منها رسولا إلى جهة السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقى المقدم ذكره ، فوصل إلى خراسان ، ثم عاد إلى بغداد ، وخرج منها إلى خوزستان فى رسالة فمات بعسكر مكرم فى سلخ ربيع الآخر يوم الخميس ـ وقيل : الاثنين ـ سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وحمل تابوته إلى بغداد ، ودفن بها فى الشونيزية فى حظيرة الشيخ الجنيد بن محمد العبد الصالح ، رضى الله عنه !.

ومولده فى شهر رمضان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وسمع الحديث الكثير بنيسابور من أبى على نصر الله بن أحمد بن عثمان الخشنامى وأبى عبد الله إسماعيل ابن الحافظ عبد الغافر الفارسى وغيرهما ، وروى عنه الحافظ أبو سعيد السمعانى ، وقال عنه : كان صحيح السماع ، ولم يكن موثوقاً به فى دينه ، رأيت منه أشياء ، وطالعت بخطه رسالة جمعها فى إباحة شرب الخمر ، سامحه الله تعالى وعفا عنه !.

وكان والده أبو الحسن يعرف بالأمير أيضا ، وكان مليح الوعظ ، حسن السيرة توفى سنة نيف وتسعين وأربعمائة ، رحمهما الله تعالى !.

والعَبَّادى ـ بفتح العين المهملة ، وتشديد الباء الموحدة ، وبعد الألف دال مهملة ـ هذه النسبة إلى سنج عبَّاد ، وهى قرية من قرى مرو ، وسنج : بكسر السين المهملة ، وسكون النون ، وبعدها جيم .

وبأعمال مرو أيضاً قرية كبيرة يقال لها سِنْج ، منها الفقيه أبو على السنجى وقد تقدم ذكره فى حرف الحاء ، وتكلمنا على سنج هناك ، فلا يظن ظان أنهما موضع واحد ، بل هما قريتان ، وقد نبه على ذلك جماعة من أرباب هذا الفن .

وأما أزدشير فقد تقدم الكلام على ضبطه فى ترجمة الوزير سابور ، فلا حاجة إلى إعادته ، والله تعالى أعلم .

* * *

(٦٩٥)

أبو العز موفق الدين مظفر ابن إبراهيم المصرى ، الشاعر

أبو العز مظفر بن إبراهيم بن جماعة بن على بن شامى بن أحمد بن ناهض بن عبدالرزاق ، الشاعر العيلانى ، الحنبلى المذهب الملقب موفق الدين ، الشاعر المشهور ، المصرى

كان أديبا عروضيا شاعراً مجيداً ، صنف فى العروض مختصراً جيداً دل على حذقه فيه ، وله ديوان شعر رائق ، وكان ضريراً ، فمن شعره [من مجزوء الكامل] :

قالوا عشقت وأنت أعمى ظبياً كحيل الطرف ألمى
وحُلاهُ ما عاينتَها فنقولَ قد شَغلتكَ همَّا
وخيالهُ بكَ فى المنا م فما أطافَ ولا ألمَّا
من أينَ أرسلَ للفؤا دِ ، وأنتَ لم تنظرهُ ، سهما
وبأىِّ جارحةٍ وصلـ ـتَ لوصفهِ نثراً ونظما
فأجبت إنى موسَـوى العشق إنصاتا وفهما
أهوى بجارحة السما ع ، ولا أرى ذاك المسمى

ولقد ذكرتني هذه الأبيات أبياتاً لرجل ضرير أيضاً ، والشيء بالشيء يذكر، وهي هذه [من السريع] :

وغادة قالت لأترابها ياقوم ما أعجب هذا الضرير
أيعشق الإنسان ما لا يرى فقلت والدمع بعيني غزير :
إن لم تكن عيني رأت شخصها فإنها قد مثلت في الضمير

ومثل هذا قول المهذب عمر بن محمد المعروف بابن الشيخ الموصلي الأديب الشاعر المشهور من جملة قصيدة طويلة مدح بها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والبيت المقصود قوله [من الطويل] :

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها ، والأذن كالعين تعشق

وقد أخذ هذا المعنى من قول بشار بن برد المقدم ذكره [من البسيط] :

يا قوم أذني لظبي الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً (١)

وكان الوزير صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي ، عرف بابن شكر ، قد عاد من الشام إلى مصر ، فخرج أصحابه للقائه إلى الخشبي المنزلة المجاورة للعباسة ، فكتب مظفر المذكور إليه هذه الأبيات ، يعتذر من تأخره عن الخروج إليه ، وهي [من البسيط]

قالوا إلى الخشبي سرنا على عجل نلقى الوزير جميعاً من ذوي الرتب
ولم تسر أيها الأعمى ، فقلت لهم : لم أخش من تعب ألقى ولا نصب
وإنما النار في قلبي لوحشته فخفت أجمع بين النار والخشب

وهذا المعنى مطروق ، لكنه استعمله حسناً .

وأخبرني أحد أصحابه أن شخصاً قال له : رأيت في بعض تآليف أبي العلاء المعري ما صورته : أصلحك الله وأبقاك ! لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم

---

(١) حفظي في صدر البيت * ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة *

إلى منزلنا الخالى ، لكى نحدث عهداً بك يا زين الأخلاء ، فما مثلك من غير عهداً أو غفل ، وسأله : من أى الأبحر هذا ؟ وهل هو بيت واحد أم أكثر ؟ فان كان أكثر فهل أبياته على روى واحد أم هى مختلفة الروى ؟ قال : فأفكر فيه ، ثم أجابه بجواب حسن ، فلما قال لى الخبر ذلك قلت له : اصبر على حتى أنظر فيه ولا تقل ما قاله ، ثم أفكرت فيه ، فوجدته يخرج من بحر الرجز ، وهو المجزوء منه ، وتشتمل هذه الكلمات على أربع أبيات على روى اللام ، وهى على صورة يسوغ استعمالها عند العروضيين ، ومن لا يكون له بهذا الفن معرفة فانه ينكرها ، لأجل قطع الموصول منها ، ولا بد من الإتيان بها لتظهر صورة ذلك ، وهى :

أصلحك الله وأبـ ـقاك لقد كان من الـ
ـواجب أن تأتينا اليـ ـوم إلى منزلنا الـ
خالى لكى نحدث عهـ ـداً بك يا زين الأخـ
ـلاء فما مثلك من غير عهداً أو غفل

وهذا إنما يذكره أهلُ هذا الشأن للمعاياة ، لا لأنه من الأشعار المستعملة ، فلما استخرجته عرضته على ذلك الشخص ، فقال : هكذا قال المظفر الأعمى .

وقال الشيخ زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المحدث المصرى — رحمه الله تعالى ! — أخبرنى الأديب موفق الدين مظفر الضرير الشاعر المصرى أنه دخل على القاضى السعيد بن سناء الملك — قلت : وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى ، واسمه هبة الله — قال : فقال لى : يا أديب ، قد صنعت نصف بيت ، ولى أيام أفكر فيه ، ولا يأتى لى تمامه ، فقلت : وما هو ؟ فأنشدنى [من الطويل] :

* بياض عذارى من سواد عذاره *

قال مظفر : فقلت : قد حصل تمامه ، وأنشدت :

* كما جُلُّ نارى فيه من جلناره *

فاستحسنه ، وجعل يعمل عليه ، فقلت فى نفسى : أقوم و إلا يعمل المقطوع من كيسى .

و بالجملة فقد خرجنا عن المقصود ، لكن الكلام يسوق بعضه بعضا .

وكانت ولادة مظفر المذكور لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، بمصر .

وتوفى بها سحر يوم السبت التاسع من المحرم سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، رحمه الله تعالى !

والعيلانى — بفتح العين المهملة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، و بعد اللام ألف نون — هذه النسبة إلى قيس عَيْلَان ، وقيل : قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن عدنان ، فمن قال إنه قيس عيلان فقد اختلفوا فى عيلان ماذا ؟ فمنهم من قال : اسم فرس كان له هو فأضيف إليه ، وقيل : اسم كلب كان له ، وقيل : اسم رجل كان قد حضنه وهو صغير ، و إنما أضيف إلى عيلان لأنه كان فى عصره شخص يقال له قيس كُبَّة — بضم الكاف وتشديد الباء الموحدة — وهو اسم فرس كان له أيضا ، فكان كل واحد منهما يضاف إلى ماله ليتميز عن الآخر ، والله أعلم ، وقد قيل : إن قيس عيلان (1) اسمه الناس — بالنون — وهو أخو إلياس — بالياء — جد النبى صلى الله عليه وسلم .

***

(١) ويقال : إن الناس كان متلافا ، وكان يأتى أخاه الياس ، فيقاسمه ماله ، فلما كثر ذلك منه قال له الياس : لقد ركبتك العيلة ، ما أنت إلا عيلان ، فجرت عليه .

(٦٩٦)

أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء ، النحوى ، الكوفى ، من موالى
محمد بن كعب القرظى

أبو مسلم معاذ ابن مسلم الهراء النحوى الكوفى

قرأ عليه الكسائى ، وروى عنه ، وحُكِيت عنه فى القراآت حكايات كثيرة ، وصنف فى النحو كثيرا ، ولم يظهر له شىء من التصانيف ، وكان يتشيع ، وله شعر كشعر النحاة ، وكان فى عصره مشهورا بالعمر الطويل ، وكان له أولاد وأولاد أولاد ، فمات الكل وهو باق .

وحكى بعض كتابه قال : صحبت معاذ بن مسلم زمانا ، فسأله رجل ذات يوم : كم سنك ؟ فقال : ثلاث وستون ، قال : ثم مكث بعد ذلك سنين وسأله : كم سنك ؟ فقال : ثلاث وستون ، فقلت : أنا معك منذ إحدى وعشرين سنة ، وكلما سألك أحد : كم سنك ؟ تقول : ثلاث وستون ، فقال : لو كنت معى إحدى وعشرين سنة أخرى ما قلت إلا هذا ! .

وقال عثمان بن أبى شيبة : رأيت معاذ بن مسلم الهراء ، وقد شد أسنانه بالذهب من الكبر ، وفيه يقول أبو السرى سهل بن أبى غالب الخزرجى الشاعر المشهور [من المنسرح] :

إن معاذ بن مسلم رجل ليس لميقات عمره أمَدُ
قد شاب رأس الزمان واكتهل الدهر وأثواب عمره جُدُدُ
قل لمعاذ إذا مررت به قد ضج من طول عمرك الأمد
يا بكر حوّاء كم تعيش وكم تسحب ذيل الحياة يا لُبَدُ
قد أصبحت دار آدم خربا وأنت فيها كأنك الوَتِدُ
تسأل غربانها إذا نعبت كيف يكون الصداع والرمد
مصححا كالظليم ترفل فى بُرْديك مثل السعير تتقد

صاحبْتُ نوحاً ورضتُ بغلةَ ذى الـقرنين شيخاً لولدك الولد
فارحل ودعنا لأن غايتك الـموت وإن شد ركنك الجلد

قوله « تسحب ذيل الحياة يالبد » فهذا لُبَدُ آخر نسور لقمان بن عاد ، وكان لقمان قد سيره قومه — وهم عاد الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه العزيز — إلى الحرم يستسقى لها ، فلما هلكت عاد خُيِّر لقمان بين أن يعيش عمر سبع بعرات سمر أو عمر سبعة أنسر ، كلما هلك نسر خلف بعده نسر ، فاختار النسور ، فكان يأخذ الفرخ عند خروجه من البيضة فيربيه فيعيش ثمانين سنة ، وهكذا ، حتى هلك منها ستة ، و بقى السابع ، فسمى لبدا ، فلما كبر و عجز عن الطيران كان يقول له لقمان : انهض لبد ، فلما هلك لبد مات لقمان ، وقد ذكرت العرب لبدا فى أشعارها كثيرا ، فمن ذلك قول النابغة الذبيانى [من البسيط] :

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذى أخنى على لبد

رجعنا إلى حديث معاذ — لما مات بنوه وحفدته قال [من السريع] :

ما يرتجى فى العيش من قد طَوَى
من عمره الذاهب تسعينا
أفنى بنيه وبنيهم فقد
جرَّعه الدهر الأمرينا
لابد أن يشرب من حوضهم
وإنْ تَرَاخى عمره حينا

وكان معاذ المذكور صديقا للكميت بن زيد الشاعر المشهور ، قال محمد بن سهل راوية الكميت : سار الطرماح الشاعر إلى خالد بن عبد الله القسْرى أمير العراقيين وهو بواسط ، فامتدحه ، فأمر له بثلاثين ألف درهم ، وخلع عليه حُلَّتى وَشْى لا قيمة لها ، فبلغ ذلك الكميت ، فعزم على قصده ، فقال له معاذ الهراء : لا تفعل ، فلست كالطرماح ، فانه ابن عمه ، و بينكما بون : أنت مضرى وخالد يمنى متعصب على مضر ، وأنت شيعى وهو أموى ، وأنت عراقى وهو شامى ، فلم

يقبل إشارته، وأبى إلا قصد خالد، فقصده، فقالت اليمانية لخالد: قد جاء الكميت وقد هجانا بقصيدة نونية قد خرف فيها علينا، فحبسه خالد، وقال: فى حبسه صلاح، لأنه يهجو الناس ويتأكلهم، فبلغ ذلك معاذا فغمه، فقال [من الوافر]:

نصحتك والنصيحة إن تعدّت   هوَى المنصوح عزّ لها القبول
فخالفت الذى لك فيه رشد   فغالت دون ما أملت غُول
فعاد خلاف ما تهوى خلافا   له عرض من البلوى طويل

فبلغ الكميت قوله، فكتب إليه [من الطويل]:

أراك كمهدى الماء للبحر حاملا
إلى الرمل من يبرين مُتَّجِراً رملا

ثم كتب تحته: قد جرى على القضاء فما الحيلة الآن؟ فأشار عليه أن يحتال فى الهرب، وقال له: إن خالدا قاتلك لا محالة، فاحتال بامرأته، وكانت تأتيه بالطعام وترجع، فلبس ثيابها وخرج كأنه هى، فلحق بمسلمة بن عبد الملك فاستجار به وقال [من الطويل]:

خرجت خروج القِدْحِ قدح ابن مقبل
إليك على تلك الهزاهز والأزلِ
على ثيابُ الغانيات وتحتها   عزيمة رأى أشبهت سلة النصل

فكان ذلك سبب نجاته من خالد.

وسأل شخص معاذا عن مولده، فقال: ولدت فى أيام يزيد بن عبد الملك، أو فى أيام عبد الملك.

وتوفى سنة تسعين ومائة، وقيل: فى السنة التى نكب فيها البرامكة، وهى سنة سبع وثمانين ومائة، وهو الأصح.

وكان يزيد بن عبد الملك قد تولى بعد موت عمر بن عبد العزيز فى شهر

رجب سنة إحدى ومائة ، وتوفى فى شعبان سنة خمس ومائة ، فهذه المدة هى أيامه ، وأما أبوه عبد الملك فانه تولى بعد أبيه مروان فى شهر رمضان المعظم سنة خمس وستين ، ومات سنة ست وثمانين ، فهذه مدته .

وتوفى معاذ سنة سبع وثمانين ومائة ، وهو الأصح ، رحمه الله تعالى ! .

وكان يكنى أبا مسلم ، فولد له ولد سماه عليا فصار يكنى به .

والهراء — بفتح الهاء ، وتشديد الراء ، وبعدها ألف مقصورة[1] ، وإنما قيل له ذلك لأنه كان يبيع الثياب الهروية فنسب إليها .

وأما أبو السرى الشاعر صاحب الأبيات الدالية المذكورة فانه نشأ بسجستان ، وادعى رضاع الجن ، وأنه صار إليهم ، ووضع كتابا ذكر فيه أمر الجن وحكمتهم وأنسابهم وأشعارهم ، وزعم أنه بايعهم للأمين بن هرون الرشيد بالعهد فقربه الرشيد وابنه الأمين وزبيدة أم الأمين ، وبلغ معهم ، وأفاد منهم ، وله أشعار حسان وضعها على الجن والشياطين والسعالى ، وقال له الرشيد : إن كنت رأيت ماذكرت فقد رأيت عجبا ، وإن كنت ما رأيته فقد وضعت أدبا ، وأخباره كلها غريبة عجيبة ، والله تعالى أعلم .

***

(١) المحفوظ والمتعالم والشهور « الهراء » بهمزة بعد الألف ، وصيغة النسبة « فعال » بتشديد العين ، مثل لبان ونجار وزجاج وتمار وغيرها .

(٦٩٧)

أبو الفرج المعافى ابن زكريا الجريرى ، النهروانى (ابن طرارا)

القاضى أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حماد بن داود المعروف بابن طرارا ، الجريرى ، النهروانى

كان فقيها أديبا شاعرا ، عالماً بكل فن .

ولى القضاء ببغداد ، بباب الطاق ، نيابة عن ابن صبر القاضى ، وروى عن جماعة من الأئمة : منهم أبو القاسم البغوى ، وأبو بكر بن داود ، ويحيى ابن صاعد ، وأبو سعيد العدوى ، وأبو حامد محمد بن هارون الحضرمى ، وغيرهم .

وأخذ الأدب عن أبى عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه وغيره . وروى عنه جماعة من الأئمة أيضا : منهم أبو القاسم الأزهرى ، والقاضى أبو الطيب الطبرى الفقيه الشافعى ، وأحمد بن على الثورى ، وأحمد بن عمر بن روح .

وذكر أحمد بن عمر بن روح : أن أبا الفرج المذكور حضر فى دار لبعض الرؤساء ، وكان هناك جماعة من أهل الأدب ، فقالوا له : فى أى نوع من العلوم نتذاكر ؟ فقال أبو الفرج لذلك الرئيس : خزانتك قد جمعت أنواع العلوم ، وأصناف الأدب ، فان رأيت أن تبعث غلاما إليها ، تأمره أن يفتح بابها ، ويضرب بيده إلى أى كتاب منها ، فيحمله ، ثم يفتحه ، وينظر فى أى العلوم هو ، فنتذاكره ، ونتجارى فيه .

قال ابن روح : وهذا يدل على أن أبا الفرج كان له أنسة بسائر العلوم ، وكان أبو محمد الباجى يقول : إذا حضر القاضى أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلها ، وقال : لو أوصى رجل بثلث ماله لأعلم الناس لوجب أن يدفع إلى أبى الفرج المعافى وكان ثقة مأمونا فى روايته ، وله شعر حسن .

فمن ذلك ما رواه عنه القاضى أبوالطيب الطبرى الفقيه الشافعى ، وهو [من المتقارب] :

ألا قل لمن كان لى حاسدا　　أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعـله　　لأنك لم ترض لى ما وهب
فجازاك عنه بأن زادنى　　وسد عليك وجوه الطلب

وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازى ، فى كتاب «طبقات الفقهاء» ، وأثنى عليه .

ثم قال : وأنشدنى قاضى بلدنا أبو على الداودى ، قال : أنشدنى أبو الفرج لنفسه [من الوافر] :

أأقتبس الضياء من الضباب　　وألتمس الشراب من السراب
أريد من الزمان النذل بذلا　　وأرياً من جنى سلَع وصاب (١)
أرجىّ أن ألاقى لاشتياقى　　خيار الناس فى زمن الكلاب

ومن شعره أيضا [من الخفيف] :

مالك العالمين ضامن رزقى　　فلماذا أملِّكُ الخلق رقى
قد قضى لى بما على ومالى　　خالقى جل ذكره قبل خلقى
صاحب البذل والندى فى يسارى
ورفيقى فى عُسْرتى حسن رفق
فكما لايردُّ عجزىَ رزقى　　فكذا لا يجر رزقىَ حذقى

وذكر أنه عملها فى معنى قول على بن الجهم [من الطويل] :

لعمرك ما كل التعطل ضائر　　ولا كلُّ شغلٍ فيه للمرء مَنْفَعه
إذا كانت الأرزاق فى القرب والنوى
عليك سواء فاغتنم راحةَ الدَّعَه

---

(١) السلع : شجر مر ، والصاب مثله

ومن غريب ما اتفق له ما حكاه أبو عبد الله الحميدى ، صاحب الجمع بين الصحيحين ، المقدم ذكره ، قال : قرأت بخط أبى الفرج المعافى بن زكريا النهروانى : حججت سنة ، وكنت بمنى أيام التشريق ، فسمعت منادياً ينادى : يا أبا الفرج ، فقلت : لعله يريدنى ، ثم قلت : فى الناس خلق كثير ممن يكنى أبا الفرج ، ولعله ينادى غيرى ، فلم أجبه ، فلما رأى أنه لا يجيبه أحد نادى : يا أبا الفرج المعافى ، فهممت أن أجيبه ، ثم قلت : قد يتفق أن يكون آخر اسمه المعافى ، و يكنى أبا الفرج ، فلم أجبه ، فرجع ، فنادى : يا أبا الفرج المعافى بن زكريا النهروانى ، فقلت : لم يبق شك فى مناداته إياى إذ ذكر اسمى ، وكنيتى ، واسم أبى ، و بلدى الذى أنسب إليه ، فقلت : ها أنا ذا فما تريد ؟ قال : لعلك من نهروان الشرق ، فقلت : نعم ، فقال : نحن نريد نهروان الغرب ، فعجبت من اتفاق الاسم والكنية ، واسم الأب ، وما أنتسب إليه ، وعلمت أن بالمغرب موضعا يسمى النهروان ، غير النهروان الذى بالعراق .

ولأبى الفرج المذكور عدة تصانيف ، ممتعة فى الأدب وغيره ، وكتاب « الجليس الأنيس » تصنيفه أيضا .

وكانت ولادته يوم الخميس ، لسبع خلون من شهر رجب ، سنة ثلاث — وقيل : خمس — وثلثمائة .

وتوفى يوم الاثنين ، الثامن عشر ، من ذى الحجة ، سنة تسعين وثلثمائة ، بالنهروان ، رحمه الله تعالى !.

وطرارا — بفتح الطاء المهملة والراء ، و بعد الألف راء ثانية مفتوحة ، ثم ألف مقصورة ، و بعضهم يكتبه بالهاء ، بدلا من الألف ، فيقول : طرارة ، والله أعلم.

والجريرى — بفتح الجيم ، وكسر الراء ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وبعدها راء — هذه النسبة إلى الإمام محمد بن جرير الطبرى ، المقدم ذكره ، وإنما نسب إليه لأنه كان على مذهبه مقلداً له ، وقد تقدم فى ترجمته أنه كان مجتهداً ، صاحب مذهب مستقل ، وكان له أتباع .

وأخذ بمذهبه جماعة منهم أبو الفرج المذكور .

وقد سبق الكلام على النهروان ، فأغنى عن الإعادة ، والله تعالى أعلم .

* * *

(٦٩٨)

أبو تميم معد المعز لدين الله العبيدى الفاطمى

أبو تميم معد ، الملقب المعز لدين الله ، بن المنصور بن القائم ابن المهدى عبيد الله

قد تقدم ذكر والده ، وجده ، وجد أبيه ، وطرف من أخبارهم .

وكان المعز المذكور قد بويع بولاية العهد فى حياة أبيه المنصور إسماعيل ثم جددت له البيعة بعد وفاته فى التاريخ المذكور فى ترجمته ، ودبر الأمور وساسها وأجراها على أحسن أحكامها إلى يوم الأحد سابع ذى الحجة ، سنة إحدى وأربعين وثلثمائة ، فجلس يومئذ على سرير ملكه ، ودخل عليه الخاصة وكثير من العامة ، وسلموا عليه بالخلافة ، وتسمى بالمعز ، ولم يظهر على أبيه حزناً .

ثم خرج إلى بلاد إفريقية يطوف بها ، ليمهد قواعدها ، ويقرر أسبابها ، فانقاد له العصاة من أهل تلك البلاد ، ودخلوا فى طاعته ، وعقد لغلمانه وأتباعه على الأعمال ، واستندب لكل ناحية من يعلم كفايته وشهامته ، وضم إلى كل واحد منهم جمعا كثيراً من الجند وأرباب السلاح .

ثم جهز أبا الحسن جوهرا القائد ، المذكور فى حرف الجيم ، وجمع معه جيش كثيف ، ليفتح ما استعصى عليه من بلاد المغرب ، فسار إلى فاس ، ثم منها إلى سِجِلْماسة ، ففتحها ، ثم توجه إلى البحر المحيط ، وصاد من سمكه ، وجعله فى قلال الماء ، وأرسله إلى المعز ، ثم رجع إلى المعز ومعه صاحب سِجِلْماسة وصاحب فاس أسيرين فى قفصَىْ حديد ، والشرح فى ذلك يطول .

وخلاصة الأمر : أنه ما رجع القائد جوهر إلى مولاه المعز إلا وقد وطد له البلاد ، وحكم على أهل الزيغ والعناد ، من باب إفريقية إلى البحر المحيط ، فى جهة المغرب ، وفى جهة المشرق من باب إفريقية إلى أعمال مصر ، ولم يبق بلد من هذه البلاد إلا أقيمت فيه دعوته ، وخطب له فى جمعته وجماعته ، إلا مدينة سبتة ، فانها بقيت لبنى أمية أصحاب الأندلس .

ولما وصل الخبر إلى المعز المذكور بموت كافور الإخشيدى صاحب مصر حسبما شرحناه فى ترجمته من هذا الكتاب ، تقدم المعز إلى القائد جوهر المذكور ليتجهز للخروج إلى مصر ، فخرج أولا إلى جهة المغرب لإصلاح أموره ، وكان معه جيش عظيم ، وجمع قبائل العرب الذين يتوجه بهم إلى مصر ، وجبى القطائع التى كانت على البربر ، فكانت خمسمائة ألف دينار .

وخرج المعز بنفسه فى الشتاء إلى المهدية ، فأخرج من قصور آبائه خمسمائة حمل دنانير ، وعاد إلى قصره .

ولما عاد جوهر بالرجال والأموال ، وكان قدومه على المعز يوم الأحد لثلاث بقين من المحرم ، سنة ثمان وخمسين وثلثمائة — أمره المعز بالخروج إلى مصر ، فخرج ومعه أنواع القبائل .

وقد ذكرت فى ترجمة جوهر تاريخ خروجه وتاريخ وصوله إلى مصر ، فأغنى عن الإعادة .

وأنفق المعز فى العسكر المسيَّر صحبته أموالا كثيرة، حتى أعطى من ألف دينار إلى عشرين ديناراً، وغمر الناس بالعطاء، وتصرفوا فى القيروان وصيروه فى شراء جميع حوائجهم، ورحلوا ومعه ألف حمل من المال والسلاح، ومن الخيل والعدد مالا يوصف، وكان بمصر فى تلك السنة غلاء عظيم ووباء، حتى مات فى مصر وأعمالها فى تلك المدة ستمائة ألف إنسان على ماقيل.

ولما كان منتصف شهر رمضان المعظم، سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، ووصلت البشارة إلى المعز بفتح الديار المصرية ودخول عساكره إليها، ثم وصلته النجُبُ بعد ذلك تخبره بصورة الفتح، وكانت كتُبُ جوهر تتردد إلى المعز باستدعائه إلى مصر، وتحثه كل وقت على ذلك، ثم أرسل إليه يخبره بانتظام الحال بمصر والشام والحجاز، وإقامة الدعوة له بهذه المواضع، فسر المعز بذلك سرورا عظيما، ولما تقررت قواعده بالديار المصرية استخلف على إفريقيـة بلـكين ابن زيرى بن مناد الصنهاجى المذكور فى حرف الباء

وخرج المعز متوجها بأموال جليلة المقدار، ورجال عظيمة الأخطار.

وكان خروجه من المنصورية دار ملـكه يوم ذاك يوم الاثنين، لثمان بقين من شوال سنة إحدى وستين وثلثمائة، وانتقل إلى سردانية، وأقام بها لتجتمع رجاله وأتباعه، ومن يستصحبه معه، وفى هذه المنزلة عقد العهد لبلـكين على إفريقية فى التاريخ المذكور فى ترجمته

ورحل عنها يوم الخميس، خامس صفر، سنة اثنتين وستين وثلثمائة، ولم يزل فى طريقه يقيم بعض الأوقات فى بعض البلاد أياما ويجدُّ السير فى بعضها، وكان اجتيازه على برقة

ودخل الإسكندرية يوم السبت لست بقين من شعبان من السنة المذكورة وركب فيها، ودخل الحمام، وقدم عليه بها قاضى مصر — وهو أبو طاهر محمد

ابن أحمد — وأعيان أهل البلاد ، وسلموا عليه ، وجلس لهم عند المنارة ، وخاطبهم بخطاب طويل ، يخبرهم فيه : أنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لمال ، و إنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يأمر بعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم ، ووعظهم ، وأطال حتى بكى بعض الحاضرين ، وخلع على القاضى و بعض الجماعة ، وحملهم وودعوه وانصرفوا ثم رحل منها فى أواخر شعبان

ونزل يوم السبت ، ثانى شهر رمضان المعظم ، على مينا ساحل مصر ، بالجيزة ، فخرج إليه القائد جوهر ، وترجل عند لقائه ، وقبل الأرض بين يديه ، و بالجيزة أيضا اجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الفُرَات ، المذكور فى حرف الجيم ، وأقام المعز هنـاك ثلاثة أيام ، وأخذ العسكر فى التعدية بأثقالهم إلى ساحل مصر .

ولما كان يوم الثلاثاء ، لخمس خلون من شهر رمضان المعظم من السنة ؛ عبر المعز النيل ، ودخل القاهرة ، ولم يدخل مصر ، وكانت قد زينت له ، وظنوا أنه يدخلها ، وأهل القاهرة لم يستعدوا للقائه لأنهم بنوا الأمر على دخوله مصر أولا ، ولما دخل القاهرة ودخل القصر ودخل مجلسا منه خر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين وانصرف الناس عنه .

وهذا المعز هو الذى تنسب إليه القاهرة ، فيقال : القاهرة المعزية ، لأنه الذى بناها له القائد جوهر

وفى يوم الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع وستين ، عزل المعز القائد جوهراً عن دواوين مصر وجباية أموالها ، والنظر فى سائر أمورها .

وقد ذكرنا فى ترجمة الشريف عبد الله بن طَبَاطَبَا مادار بينه و بين المعز من السؤال عن نسبه وما أجابه به وما اعتمده بعد الدخول إلى القصر

وكان المعز عاقلا ، حازما ، سريا ، أديبا ، حسن النظر فى النجامة ، وينسب إليه من الشعر قوله [من مجزوء الكامل] :

لله ما صنعت بنـا تلك المحاجر فى المعاجر
أمضى وأقضى فى النفو س من الخناجر فى الحناجر
ولقد تعبت ببينكم تعب المهاجر فى الهواجر

وينسب إليه أيضاً [من الخفيف] :

أطْلَعَ الحسن من جبينك شمساً فوق ورد فى وجنتيك أظلا[1]
وكأن الجمال خاف على الور د جفافا فمد بالشعر ظلا

وهو معنى غريب بديع .

وقد مضى ذكر ولده تميم وشىء من شعره ، وسيأتى ذكر ولده العزيز نزار فى حرف النون إن شاء الله تعالى .

وكانت ولادته بالمهدية يوم الاثنين حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلثمائة .

وتوفى يوم الجمعة الحادى عشر من شهر ربيع الآخر ، وقيل : الثالث عشر وقيل : لسبع خلون منه ، سنة خمس وستين وثلثمائة ، بالقاهرة ، رحمه الله تعالى ! .

ومعد — بفتح الميم والعين المهملة ، وتشديد الدال المهملة — والله تعالى أعلم .

* * *

---

(١) كذا ، والذى أحفظه فى عجز هذا البيت « فوق ورد فى وجنتيك أطلا » بالطاء المهملة .

(٦٩٩)

أبو تميم المستنصر بالله العبيدى الفاطمى

أبو تميم معد الملقب المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم ابن العزيز بن المعز لدين الله المذكور قبله

وقد تقدم بقية النسب.

بويع بالأمر بعد موت والده الظاهر، وذلك يوم الأحد النصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وجرى فى أيامه ما لم يجر فى أيام أحد من أهل بيته ممن تقدمه ولا ممن تأخره، منها قضية أبى الحارث أرسلان البساسيرى المقدم ذكره فى حرف الهمزة، فانه لما عظم أمره وكبر شأنه ببغداد قطع خطبة الإمام القائم، وخطب للمستنصر المذكور، وذلك فى سنة خمسين وأربعمائة، ودعى له على منابرها مدة سنة.

ومنها: أنه ثار فى أيامه على بن محمد الصليحى المقدم ذكره، وملك بلاد اليمن كما شرحنا، ودعى للمستنصر على منابرها بعد الخطبة، وهو مشهور فلا حاجة إلى الإطالة فى شرحه.

ومنها: أنه أقام فى الأمر ستين سنة، وهذا أمر لم يبلغه أحد من أهل بيته ولا من بنى العباس.

ومنها: أنه ولى الأمر وهو ابن سبع سنين.

ومنها: أن دعوتهم لم تزل قائمة بالمغرب منذ قام جدهم المهدى المقدم ذكره إلى أيام المعز المذكور قبله، ولما توجه المعز إلى مصر واستخلف بلكين بن زيرى حسبما شرحناه كانت الخطبة فى تلك النواحى جارية على عادتها لهذا البيت، إلى أن قطعها المعز بن باديس الآتى ذكره إن شاء الله تعالى فى أيام المستنصر المذكور، وذلك فى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وقال فى تاريخ القيروان: إن ذلك كان فى سنة خمس وثلاثين، والله تعالى أعلم بالصواب، وفى سنة تسع قطع اسمه

واسم آبائه من الحرمين الشريفين ، وذكر اسم المقتدى خليفة بغداد ، والشرح في ذلك يطول .

ومنها : أنه حدث في أيامه الغلاء العظيم الذى ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام ، وأقام سبع سنين ، وأكل الناس بعضهم بعضاً ، حتى قيل : إنه بيع رغيف واحد بخمسين دينارا ، وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده ، وكل من معه من الخواص مترجلين ليس لهم دواب يركبونها ، وكانوا إذا مشوا يتساقطون في الطرقات من الجوع ، وكان المستنصر يستعير من ابن هبة الله صاحب ديوان الإنشاء بغلته ليركبها صاحب مظلته ، وآخر الأمر توجهت أم المستنصر وبناته إلى بغداد من فرط الجوع ، وذلك في سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، وتفرق أهل مصر في البلاد ، وتشتتوا ، ولم يزل هذا الأمر على شدته حتى تحرك بدر الجمالى والد الأفضل أمير الجيوش من عكا وركب البحر حسبما شرحناه في ترجمة ولده الأفضل شاهنشاه وجاء إلى مصر وتولى تدبير الأمور ، فانصلحت ، وشرح ذلك يطول .

وكانت ولادة المستنصر صبيحة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة .

وتوفى ليلة الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى !.

قلت : وهذه الليلة هى ليلة عيد الغدير ، أعنى ليلة الثامن عشر من ذى الحجة وهو غدير خم — بضم الخاء ، وتشديد الميم — ورأيت جماعة كثيرة يسألون عن هذه الليلة : متى كانت من ذى الحجة ؟ وهذا المكان بين مكة والمدينة ، وفيه غدير ماء ، ويقال : إنه غَيْضَة هناك ، ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من مكة — شرفها الله تعالى ! — عام حجة الوداع ، ووصل إلى هذا المكان وآخى عليَّ ابن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : علىٌّ منى كهرون من موسى ، اللهم وال من

ليلة غدير خم

والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وللشيعة به تعلق كبير ، وقال الحازمى : هو واد بين مكة والمدينة عند الجحفة غدير عنده خطب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الوادى موصوف بكثرة الوخامة وشدة الحر

وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته ، وسيأتى ذكر الباقين كل واحد فى موضعه إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

***

(٧٠٠)

أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي الصالح

أبو محفوظ معروف بن فيروز ، وقيل : الفيروزان ، وقيل : على ، الكرخى ، الصالح المشهور

وهو من موالى على بن موسى الرضا ، وقد تقدم ذكره ، وكان أبواه نصرانيين ، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبى ، وكان المؤدب يقول له : قل ثالث ثلاثة ، فيقول معروف : بل هو الواحد ، فيضربه المعلم على ذلك ضربا مبرحاً ، فهرب منه ، وكان أبواه يقولان : ليته يرجع إلينا على أى دين شاء فنوافقه عليه ، ثم إنه أسلم على يد على بن موسى الرضا ، ورجع إلى أبويه ، فدق الباب ، فقيل له : من بالباب ؟ فقال : معروف ، فقيل له : على أى دين ؟ فقال : على الإسلام ، فأسلم أبواه ، وكان مشهوراً باجابة الدعوى ، وأهل بغداد يستسقون بقبره ، ويقولون : قبر معروف ترياق مجرب ، وكان سرى السقطى المقدم ذكره تلميذه ، وقال له يوماً : إذا كانت لك حاجة إلى الله تعالى فأقسم عليه بى ، وقال سرى السقطى : رأيت معروفا الكرخى فى النوم كأنه تحت العرش ، والبارى جلت قدرته يقول لملائكته : من هذا ؟ وهم يقولون : أنت تعلم ياربنا منا ، فقال : هذا معروف الكرخى سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائى ، وقال معروف : قال لى بعض أصحاب داود الطائى : إياك أن تترك العمل ، فان ذلك الذى يقربك إلى رضا مولاك ، فقلت : وما ذاك العمل ؟ قال : دوام الطاعة لمولاك ، وحرمة المسلمين ، والنصيحة لهم

وقال محمد بن الحسن : سمعت أبي يقول : رأيت معروفا الكرخي في النوم بعد موته ، فقلت له : مافعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ، فقلت : بزهدك وورعك ؟ فقال : لا ، بل بقبول موعظة ابن السماك ، ولزومي الفقر ، ومحبتي للفقراء ، وكانت موعظة ابن السماك مارواه معروف قال : كنت ماراً بالكوفة ، فوقفت على رجل يقال له ابن السماك وهو يعظ الناس ، فقال في خلال كلامه : مَنْ أعرض عن الله بكليته أعرض عنه الله جملة ، ومن أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله تعالى برحمته عليه ، وأقبل بوجوه الخلق إليه ، ومن كان مرة ومرة فالله تعالى يرحمه وقتاما ، فوقع كلامه في قلبي ، وأقبلت على الله تعالى ، وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا ، وذكرت هذا الكلام لمولاي فقال : يكفيك هذه موعظةً إن اتعظت

وقد تقدم ذكر ابن السماك في المحمدين

وقيل لمعروف في مرض موته : أوْصِ ، فقال : إذامت فتصدقوا بقميصي ، فإني أُريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عريانا

ومر معروف بسقاء وهو يقول : رحم الله من يشرب ! فتقدم وشرب ، وكان صائما ، فقيل له : ألم تك صائما ؟ قال : بلى ، ولكن رجوت دعاءه .

وأخبار معروف ومحاسنه أكثر من أن تعد

وتوفي سنة مائتين ، وقيل : إحدى ومائتين ، وقيل : أربع ومائتين ، ببغداد وقبره مشهور بها يزار ، رحمه الله تعالى !.

والكرخي — بفتح الكاف ، وسكون الراء ، وبعدها خاء معجمة — هذه النسبة إلى الكَرْخ ، وهو اسم تسع مواضع ذكرها ياقوت الحموي في كتابه ، وأشهرها كرخ بغداد ، والصحيح أن معروفا الكرخي منه ، وقيل : إنه من كرخ جُدَّان — بضم الجيم ، وتشديد الدال المهملة ، وبعد الألف نون — وهي بليدة بالعراق تفصل بين ولايتي خانقين وشهرزور ، والله تعالى أعلم بالصواب .

(٧٠١)

المعز بن باديس بن المنصور بن بُلُكِّين بن زِيرِى بن مَنَاد الحميرى الصنهاجى ، صاحب إفريقية وما والاها من بلاد المغرب

المعز بن باديس الحميرى الصنهاجي

وقد سبق تمام نسبه عند ذكر ولده الأمير تميم ، وكان الحاكم صاحب مصر قد لقبه شرف الدولة ، وسير له تشريفاً وسجلا يتضمن اللقب المذكور ، وذلك فى ذى الحجة سنة سبع وأربعمائة .

وكان ملكا جليلا ، علىّ الهمة ، محبا لأهل العلم ، كثير العطاء ، وكان واسطة عقد بيته ، وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجد أبيه ، ومدحه الشعراء ، وانتجعه الأدباء ، وكانت حضرته محط بنى الآمال ، وكان مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه بافريقية أظهر المذاهب ، فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس ، رضى الله عنه ! وحَسَم مادة الخلاف فى المذاهب ، واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن ، وقد تقدم فى خبر المستنصر بالله العبيدى أن المعز المذكور قطع خطبته ، وخلع طاعته ، فلما فعل ذلك خطب للامام القائم بأمر الله خليفة بغداد ، فكتب إليه المستنصر يتهدده ، ويقول له : هلا اقتفيت آثار آبائك فى الطاعة والولاء ، فى كلام طويل ، فأجابه المعز : إن آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم ، واستمر على قطع الخطبة ، ولم يخطب فى إفريقية بعد ذلك لأحد من المصريين إلى اليوم ، وأخبار المعز كثيرة ، وسيرته مشهورة ، فلا حاجة إلى الإطالة ، وله شعر قليل لم أقف منه على شىء

وكان المعز يوما جالسا فى مجلسه وعنده جماعة من الأدباء ، وبين يديه أترجة ذات أصابع ، فأمرهم المعز أن يعملوا فيها شيئا ، فعمل أبو على الحسن بن رشيق القيروانى الشاعر المقدم ذكره قوله [من البسيط] :

أترجة سَبْطَةَ الأطراف ناعمة   تلقى العيون بحسن غير منحوس
كأنما بسطت كفا لخالقها   تدعو بطول بقاء لابن باديس

فاستحسن ذلك منه، وفَضّله على من حضر من الجماعة الأدباء.

وكانت ولادته بالمنصورية، ويقال لها: صبرة، من أعمال إفريقية، يوم الخميس لخمس مضين من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، وذلك بعد أبيه باديس فى التاريخ المذكور فى ترجمته، وبويع بالمحمدية من أعمال إفريقية أيضا يوم السبت لثلاث مضين من ذى الحجة سنة ست وأربعمائة.

وتوفى رابع شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة، بالقيروان، من مرض أصابه وهو ضعف الكبد، ولم تطل مدة أحد من أهل بيته فى الولاية كمدته، ورثاه أبو على الحسن بن رشيق المقدم ذكره بأبيات على رَوِىّ الكاف، أضربت عن ذكرها خوف الإطالة.

وهذا المعز لا يعرف له اسم سوى المعز، مع أنى كشفت عنه كشفا تاما من الكتب وأفواه العلماء وأهل المغرب، فلم يذكر أحد سوى المعز، ولا تعرف كنيته أيضا، والظاهر أن هذا اسمه، فان أهل بيته لم يكن فيهم من تلقب حتى يقال هذا لقب، فأثبته على قدر ماوجدته، والله تعالى أعلم بالصواب.

***

(٧٠٢)

أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى ، التَّيْمى بالولاء ، تَيْم قريش ، البصرى ، النحوى ، العلامة

أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصرى النحوى

قال الجاحظ فى حقه : لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلوم منه .

وقال ابن قتيبة فى كتاب المعارف : كان شعار الغريب أغلب عليه ، وأخبار العرب وأيامها ، وكان مع معرفته لم يقم البيت إذا أنشده حتى يكسره ، وكان يخطئ إذا قرأ القرآن الكريم نظراً ، وكان يبغض العرب ، وألف فى مثالبها كتبا ، وكان يرى رأى الخوارج .

وقال غيره : إن هرون الرشيد أقدمه من البصرة إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة ، وقرأ عليه بها أشياء من كتبه ، وأسند الحديث إلى هشام بن عروة وغيره ، وروى عنه على بن المغيرة الأثرم وأبو عبيد القاسم بن سلام المقدم ذكره وأبو عثمان المازنى وأبو حاتم السجستانى وعمر بن شبة النميرى وغيرهم ، وقد تقدم ذكر هؤلاء جميعهم .

وقال أبو عبيدة : أرسل إلى الفضل بن الربيع إلى البصرة فى الخروج إليه ، فقدمت عليه ، وكنت أخبر بخبره ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، وهو فى مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ، وفى صدره فُرُش عالية لا يرتقى عليها إلا بكرسى وهو جالس على الفراش ، فسلمت عليه بالوزارة ، فرد وضحك إلى واستدنانى حتى جلست معه على فراشه ، ثم سألنى و بسطنى وتلطف بى ، وقال : أنشدنى ، فأنشدته من عيون الأشعار التى أحفظها جاهلية ، فقال لى : قد عرفت أكثر هذا وأريد من ملح الشعر ، فأنشدته ، فطرب وضحك ، وزاد نشاطا ، ثم دخل رجل فى زى الكتاب وله هيئة حسنة ، فأجلسه إلى جانبى ، وقال له : أتعرف هذا ؟

فقال : لا ، فقال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه فدعا له الرجل وقرضه لفعله هذا ، ثم التفت إلى وقال : كنت إليك مشتاقا ، وقد سُئلت عن مسألة ، أفتأذن لى أن أعرفك ؟ قلت : هات ، فقال : قال الله تعالى (طَلْعها كأنه رءوس الشياطين) وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عُرف مثله ، وهذا لم يعرف ، قال : فقلت : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس [من الطويل] :

أيقتلنى والمشرفىُّ مُضَاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، وأزمعت عند ذلك اليوم أن أضع كتاباً فى القرآن لمثل هذا وأشباهه ، ولما يحتاج إليه من علمه ، ولما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته « المجاز » وسألت عن الرجل فقيل لى : هو من كتاب الوزير وجلسائه .

وقال أبو عثمان المازنى : سمعت أبا عبيدة يقول : دخلت على هرون الرشيد فقال لى : يا معمر ، بلغنى أن عندك كتابا حسناً فى صفة الخيل ، أحب أن أسمعه منك ، فقال الأصمعى : وما تصنع بالكتب ؟ يحضر فرس ، فأحضر ، فقام الأصمعى فجعل يضع يده على عضوعضو منه ويقول : هذا كذا ، قال فيه الشاعر كذا ، حتى انقضى قوله ، فقال لى الرشيد : ماتقول فيما قال ؟ فقلت : أصاب فى بعض وأخطأ فى بعض ، والذى أصاب فيه منِّى تعلمه ، والذى أخطأ فيه ما أدرى من أين أتى به .

وبلغ أبا عبيدة أن الأصمعى يعيب عليه كتاب المجاز ، فقال : يتكلم فى كتاب الله تعالى برأيه ! فسأل عن مجلس الأصمعى فى أى يوم هو ، فركب حماره فى ذلك اليوم ، ومر بحلقته ، فنزل عن حماره ، وسلم عليه ، وجلس عنده وحادثه ثم قال له : أباسعيد ، ماتقول فى الخبز أى شىء هو ؟ فقال : الذى تخبزه وتأكله ،

فقال أبو عبيدة : قد فسرت كتاب الله تعالى برأيك ، فان الله تعالى قال : (وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً) فقال الأصمعى : هذا شىء بان لى فقلته ولم أفسره برأيى ، فقال أبو عبيدة : والذى تعيب علينا كله شىء بان لنا فقلناه ، ولم نفسره برأينا ، وقام وركب حماره وانصرف .

وزعم الباهلى صاحب كتاب «المعانى» أن طلبة العلم كانوا إذا أتوا مجلس الأصمعى اشتروا البعر فى سوق الدر ، وإذا أتوا مجلس أبى عبيدة اشتروا الدر فى سوق البعر ، لأن الأصمعى كان حسن الإنشاد والزخرفة لردىء الأخبار والأشعار حتى يحسن عنده القبيح ، وإن الفائدة مع ذلك عنده قليلة ، وإن أبا عبيدة كان معه سوء عبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمة ، ولم يكن أبو عبيدة يفسر الشعر .

وقال المبرد : كان أبو زيد الأنصارى أعلم من الأصمعى وأبى عبيدة بالنحو ، وكانا بعده يتقاربان ، وكان أبو عبيدة أكمل القوم ، وكان على بن المدينى يحسن ذكر أبى عبيدة ، ويصحح روايته ، وقال : كان لايحكى عن العرب إلا الشىء الصحيح ، وحُمِل أبو عبيدة والأصمعى إلى هرون الرشيد للمجالسة ، فاختار الأصمعى لأنه كان أصلح للمنادمة .

وكان أبو نواس يتعلم من أبى عبيدة ويصفه ، ويسب الأصمعى ويهجوه ، فقيل له : ماتقول فى الأصمعى ؟ فقال : بلبل فى قفص ، قيل له : فما تقول فى خلف الأحمر ؟ فقال : جمع علوم الناس وفهمها ، قيل : فما تقول فى أبى عبيدة ؟ فقال : ذاك أديم طوِى على علم .

وقال إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلى يخاطب الفضل بن الربيع يمدح أبا عبيدة ويذم الأصمعى بقوله [من الوافر] :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فان العلم عند أبى عبيده

وقدمه وآثره عليه ودع عنك القُرَيْد بن القُرَيْده

وكان أبو عبيدة إذا أنشد بيتا لا يقيم وزنه ، و إذا تحدث أوقرأ لحن اعتماداً منه لذلك ، و يقول : النحو محدود ، ولم يزل يصنف حتى مات ، وتصانيفه تقارب مائتى مصنف : فمنها كتاب « مجاز القرآن الكريم » وكتاب « غريب القرآن » وكتاب « معانى القرآن » وكتاب « غريب الحديث » وكتاب « الديباج » وكتاب « التاج » وكتاب « الحدود » وكتاب « خراسان » وكتاب « خوارج البحرين واليمامة » وكتاب « الموالى » وكتاب « البله » وكتاب « الضيفان » وكتاب « مَرْج راهط » وكتاب « المنافرات » وكتاب « القبائل » وكتاب « خبر البراض » وكتاب « القرائن » وكتاب « البازى » وكتاب « الحمام » وكتاب « الحيات » وكتاب « العقارب » وكتاب « النواكح » وكتاب « النواشر » وكتاب « حُضْر الخيل » وكتاب « الأعيان » وكتاب « بيان باهلة » وكتاب « أيادى الأزد » وكتاب « الخيل » وكتاب « الإبل » وكتاب « الإنسان » وكتاب « الزرع » وكتاب « الرحل » وكتاب « الدلو » وكتاب « البكرة » وكتاب « السرج » وكتاب « اللجام » وكتاب « الفرس » وكتاب « السيف » وكتاب « الشوارد » وكتاب « الاحتلام » وكتاب « مقاتل الفرسان » وكتاب « مقاتل الأشراف » وكتاب « الشعر والشعراء » وكتاب « فعل وأفعل » وكتاب « المثالب » وكتاب « خلق الإنسان » وكتاب « الفرق » وكتاب « الخف » وكتاب « مكة والحرم » وكتاب « الجمل و صِفِّين » وكتاب « بيوتات العرب » وكتاب « اللغات » وكتاب « الغارات » وكتاب « المعاتبات » وكتاب « الملاومات » وكتاب « الأضداد » وكتاب « مآثر العرب » وكتاب « مآثر غطفان » وكتاب « أدعية العرب » وكتاب « مقتل عثمان رضى الله عنه » وكتاب « أسماء الخيل » وكتاب « العفة » وكتاب « قضاة البصرة » وكتاب « فتوح الأهواز » وكتاب « فتوح أرمينية » وكتاب « لصوص العرب » وكتاب « أخبار الحجاج » وكتاب « قصة الكعبة » وكتاب « الحُمْس من قريش » وكتاب « فضائل الفرس » وكتاب

« ماتلحن فيه العامة » وكتاب « السواد وفتحه » وكتاب « من شكر من العمال وحمد » وكتاب « الجمع والتثنية » وكتاب « الأوس والخزرج » وكتاب « محمد وإبراهيم ابنى عبدالله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ! » وكتاب « الأيام » الصغير ، خمسة وسبعون يوماً ، وكتاب « الأيام » الكبير ، ألف ومائتا يوم ، وكتاب « أيام بنى مازن وأخبارهم » وغير ذلك من الكتب النافعة ، ولولاخوف الإطالة لذكرت جميعها .

وقال أبوعبيدة : لما قدمت على الفضل بن الربيع قال لى : مَنْ أشعرالناس ؟ فقلت : الراعى ، قال : وكيف فضلته على غيره ؟ فقلت : لأنه ورد على سعيد ابن عبدالرحمن الأموى فوصله فى يومه الذى لقيه فيه وصرفه ، فقال يصف حاله معه [من الوافر] :

وأنضاءٍ تحنّ إلى سعيد ... طروقاً ثم عجلن ابتكارا
حمدن مناخه وأصبن منه ... عطاء لم يكن عِدَةً ضِمارا

فقال الفضل : فما أحسن ما اقتضيتنا يا أبا عبيدة ، ثم غدا إلى هرون الرشيد فأخرج لى صلة ، وأمر لى بشىء من ماله ، وصرفنى .

وكان أبو عبيدة مَعْمر من موالى بنى عبيد الله بن معمر التيمى ، وقال له بعض الأجلاء : تقع فى الناس فمن أبوك ؟ فقال : أخبرنى أبى عن أبيه أنه كان يهوديا من أهل بَاجَرْوَان ، فمضى الرجل فتركه .

وكان أبوعبيدة جبّاها ، لم يكن بالبصرة أحد إلا وهو يداجيه ويتقيه على عرضه .

وخرج إلى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالى ، فلما قدم عليه قال لغلمانه : احترزوا من أبى عبيدة ، فان كلامه كله دق ، ثم حضر الطعام فصب بعض الغلمان على ذيله مرقة ، فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق ، وأنا أعطيك عوضه عشر ثياب ، فقال أبو عبيدة : لاعليك ، فان مرقك لا يؤذى ، أى مافيه دهن ، ففطن لها موسى وسكت .

وكان الأصمعى إذا أراد الدخول إلى المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك ، يعنى أبا عبيدة ، خوفا من لسانه ، فلما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم من لسانه أحد لا شريف ولا غيره .

وكان وسخاً ، ألثغ ، مدخول النسب ، مدخول الدين ، يميل إلى مذهب الخوارج ، قال أبو حاتم السجستانى : كان أبو عبيدة يكرمنى على أننى من خوارج سجستان ، وقال الثورى : دخلت المسجد على أبى عبيدة وهو ينكت الأرض جالساً وحده ، وقال لى : من القائل [من الوافر] :

أقول لها وقد جشأت وجاشت　　مكانك تُحْمَدِى أو تستريحى

فقلت له : قَطَرِىُّ بن الفُجاءة ، فقال : فَضَّ الله فاك ! هلا قلت : هو لأمير المؤمنين أبى نعامة ، ثم قال لى : اجلس ، واكتم على ما سمعت منى ، قال : فما ذكرته حتى مات .

قلت أنا : وهذه الحكاية فيها نظر ، لأن هذا البيت من جملة أبيات لعمرو ابن الإطنابة[1] الأنصارى الخزرجى ، وإطنابة أمه ، واسم أبيه زيد بن مَنَاة ، لا يكاد يخالف فيه أحد من أهل الأدب ، فانها أبيات مشهورة للشاعر المذكور .

وذكر المبرد فى كتاب «الكامل» أن معاوية بن أبى سفيان الأموى قال : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم ، فان فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم ، فلقد رأيتنى يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردنى إلا قول ابن الإطنابة الأنصارى [من الوافر] :

أبت لى عفتى وأبى بلائى　　وأخذِى الحمدَ بالثمن الربيح

وإجشامى على المكروه نفسى　　وضربى هامةَ البطل المُشيح

وقولى كلما جشأت وجاشت　　مكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفع عن مآثر صالحات　　وأحمى بعدعن عرض صريح

(١) فى ب « لعروة بن الإطنابة — إلخ » وهو تحريف .

رجعنا إلى حديث أبى عبيدة — وكان لا يقبل شهادتَهُ أحدٌ من الحكام ، لأنه كان يتهم بالميل إلى الغلمان

قال الأصمعى : دخلت أنا وأبو عبيدة يوما المسجد ، فاذا على الاسطوانة التى يجلس إليها أبو عبيدة مكتوب على نحو من سبعة أذرع [من البسيط] :

صلى الإله على لوط وشيعته أبا عبيدة قل بالله آمينا

فقال لى : يا أصمعى ، امحُ هذا ، فركبت على ظهره ومحوته بعد أن أثقلته إلى أن قال : أثقلتنى وقطعت ظهرى ، فقلت له : قد بقيت الطاء ، فقال : هى شر حروف هذا البيت ؛ وقيل : إنه لما ركب ظهره وأثقله قال له : عجل ، فقال : قد بقى لوط ، فقال : مِنْ هذا نفرُّ ، وكان الذى كتب البيت أبو نواس الحسن بن هانىء المقدم ذكره .

وقيل : وجدت رقاع فى مجلس أبى عبيدة هذا البيت فيها ، و بعده :

فأنت عندى بلا شك بقيتهم منذُ احتلمتَ وقد جاوزت سبعينا

وقال الزمخشرى فى كتاب « ربيع الأبرار » فى باب الأسماء والكنى والألقاب : سأل رجل أبا عبيدة عن اسم رجل ، فما عرفه ، فقال كيسان : أنا أعرف الناس به ، هو : خداش ، أو خراش ، أو رياش ، أو شىء آخر ، فقال أبو عبيدة : ما أحسن ما عرفته ! فقال : إى والله ، وهو قرشى أيضا ، قال : فما يدريك ؟ قال : أما ترى كيف احتوشته الشينات من كل جانب !؟

وأخبار أبى عبيدة كثيرة .

وكانت ولادته فى شهر رجب الفرد ، سنة عشر ومائة ، فى الليلة التى توفى بها الحسن البصرى ، رضى الله عنه ! وقد تقدم ذكره ، وقيل : فى سنة إحدى عشرة ومائة ، وقيل : أربع عشرة ، وقيل : ثمان ، وقيل : تسع ، والأول أصح . والذى يدل عليه أن الأمير جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله

ابن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه سأله عن مولده فقال : قد سبقنى إلى الجواب عن مثل هذا عمر بن أبى ربيعة المخزومى وقد قيل له : متى ولدت ؟ فقال : فى الليلة التى مات فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ! فأى خير رفع وأى شر وضع ؟ وأنا ولدت فى ليلة مات فيها الحسن البصرى رضى الله عنه ! فلينظر هناك .

وتوفى سنة تسع ومائتين بالبصرة ، وقيل : سنة إحدى عشرة ، وقيل : سنة عشر ، وقيل : سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وكان سبب موته ـ رحمه الله تعالى ! ـ أن محمد بن القاسم بن سهل النُّوشْجَانى أطعمه موزاً فمات منه ، ثم أتاه أبو العتاهية فقدم إليه موزاً ، فقال له : ماهذا يا أبا جعفر ؟ قتلت أبا عبيدة بالموز ، وتريد أن تقتلنى به ؟ لقد استحليت قتل العلماء !.

وأبو عبيدة : بضم العين المهملة وإثبات الهاء فى آخره ، بخلاف القاسم بن سلّام المقدم ذكره فانه أبو عبيد ، بغير هاء .

ومَعْمَر : بفتح الميمين ، بينهما عين مهملة ، وفى آخره الراء .

والمثنى : بضم الميم ، وفتح الثاء المثلثة ، وتشديد النون المفتوحة ، وفى آخره ياء مثناة من تحتها .

وبَاجَرْوَان التى والده منها : بفتح الباء الموحدة ، وبعد الألف جيم مفتوحة ثم راء ساكنة ، وبعدها واو مفتوحة ، وبعد الألف نون ـ وهو اسم لقرية من بلاد البلخ من أعمال الرقة ، واسم لمدينة بنواحى أرمينية من أعمال سروان عندها ـ كما قيل ـ عينُ الحياة التى وجدها الخضر عليه السلام ، وغالب ظنى أن أباعبيدة من هذه المدينة ، وقيل : إن بَاجَرْوَان اسم للقرية التى استطعم أهلَها موسى والخضرُ عليهما السلام .

والنُّوشْجَانى ـ بضم النون ، وسكون الواو والشين المعجمة ، وفتح الجيم ، وبعد

الألف نون — هذه النسبة إلى نُوشْجَان ، وهى بلدة من بلاد فارس ، والله تعالى أعلم بالصواب .

* * *

(٧٠٣)

أبو الوليد معن بن زائدة بن عبدالله بن زائدة بن مطر بن شريك بن الصُّلْب — بضم الصاد المهملة وسكون اللام وآخره الباء الموحدة — واسمه عمرو بن قيس بن شراحيل بن همام بن مرة بن ذُهْل ابن شيبان ، الشيبانى ، و بقية النسب معروف

أبوالوليد معن ابن زائدة الشيبانى

وقال ابن الكلبى فى كتاب جمهرة النسب : هو معن بن زائدة بن مطر بن شريك بن عمرو بن قيس بن شراحيل بن مرة بن هَمَّام بن مرة بن ذهل بن شيبان ابن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن نبر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان .

كان جواداً ، شجاعا ، جزيل العطاء ، كثير المعروف ، ممدوحا ، مقصوداً ، وقد سبق فى ترجمة مروان بن أبى حَفْصة الشاعر طرف من أخباره ، وكان مروان خصيصاً به ، وأكثر مدائحه فيه .

وكان معن فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ، ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفَزَارى أمير العراقين ، فلما انتقلت الدولة إلى بنى العباس وجرى بين أبى جعفر المنصور و بين يزيد بن عمر المذكور من محاصرته بمدينة واسط ماهو مشهور ، وسيأتى فى ترجمة يزيد المذكور طرف من هذه الواقعة إن شاءالله تعالى ، أبلى يومئذ معن مع يزيد بلاء حسنا .

فلما قتل يزيد خاف معن من أبى جعفر المنصور فاستتر عنه مدة ، وجرى له مدة استتاره غرائب .

فمن ذلك ماحكاه مروان بن أبى حفصة الشاعر المذكور ، قال : أخبرنى معن ابن زائدة – وهو يومئذ متولى بلاد اليمن – أن المنصور جد فى طلبى وجعل لمن يحملنى إليه مالا . قال : فاضطررت لشدة الطلب إلى أن تعرضت للشمس حتى لوحت وجهى ، وخففت عارضى ، ولبست جبة صوف ، وركبت جملا ، وخرجت متوجها إلى البادية لأقيم بها ، قال : فلما خرجت من باب حرب — وهو أحد أبواب بغداد — تبعنى أسود متقلد بسيف ، حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه ، وقبض على يدى ، فقلت له وما بك ؟ فقال : أنت طلب أمير المؤمنين ؟ فقلت : ومن أنا حتى أطلب ؟ فقال : أنت معن بن زائدة ، فقلت له : ياهذا اتق الله عز وجل ، وأين أنا من معن ؟ فقال : دع هذا ، فانى والله لأعْرَفُ بك منك ، فلما رأيت منه الجد قلت له : هذا عقد جوهر فقد حملته معى بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بى ، فخذه ولا تكن سببا لسفك دمى ، قال : هاته ، فأخرجته إليه ، فنظر فيه ساعة وقال : صدقت فى قيمته ، ولست قابله حتى أسألك عن شىء ، فان صدَقْتنى أطلقتك ، فقلت : قل ، قال : إن الناس قد وصفوك بالجود ، فأخبرنى هل وهبت مالك كله قط ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فثلثه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييت ، وقلت : أظن أنى قد فعلت هذا ، قال : ماذاك بعظيم ، أنا والله راجل ورزقى من أبى جعفر المنصور كل شهر عشرون درهما ، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ، ولتعلم أن فى هذه الدنيا من هو أجود منك ، فلا تعجبك نفسك ، ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة ، ثم رمى العقد فى حجرى ، وترك خطام الجمل ، وولى منصرفا ، فقلت : يا هذا ، والله قد فضحتنى ولَسفْكُ دمى على أهونُ مما فعلت ، فخذ ما دفعته لك ، فانى غنىٌّ عنه ،

فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقالي هذا ، والله لا أخذته ولا آخذ لمعروف ثمنا أبداً ، ومضى لسبيله . فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت ، و بذلت لمن يجيء به ما شاء ، فما عرفت له خبراً ، وكأن الأرض ابتلعته .

ولم يزل معن مستترا حتى كان يوم الهاشمية ، وهو يوم مشهور ثار فيه جماعة من أهل خراسان على المنصور ، فوثبوا عليه ، وجرت مقتلة عظيمة بينهم و بين أصحاب المنصور بالهاشمية ، وهي مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة ، ذكر غَرْسُ النعمة بن الصابي في كتاب الهفوات ما مثاله : لما فرغ السفاح من بناء مدينته بالأنبار ، وذلك في ذي القعدة سنة أربع وثلاثين ومائة ، وكان معن متواريا بالقرب منهم ، فخرج متنكراً معتما متلثما ، وتقدم إلى القوم وقاتل قدام المنصور قتالا أبان فيه عن نجدة وشهامة ، وفرقهم ، فلما أفرج عن المنصور قال له : من أنت ويحك ؟! فكشف لثامه فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، فأمنه المنصور وأكرمه وحبَاه وكساه ورتبه ، وصار من خواصه ، ثم دخل عليه بعد ذلك في الأيام فلما نظر إليه قال : هيه يامعن ، تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله [من الكامل] :

معن بن زائدة الذي زيدت به   شرفا على شرف بنو شيبان

فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على قوله في هذه القصيدة :

مازلت يوم الهاشمية مُعْلِناً   بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حَوزته وكنت وقاءه   من وقع كل مهنَّدٍ وسِنَانِ

فقال : أحسنت يا معن

وقال له يوما : يا معن ، ما أكثر وقوع الناس في قومك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين [من البسيط] :

إن العرانين تلقاها محسدة   ولا ترى للئام الناس حسادا

ودخل عليه يوما وقد أسن فقال له : كبرت يامعن ، فقال : في طاعتك ياأمير المؤمنين ، فقال : و إنك لَجَلْد ، فقال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، فقال :

وفيك بقية ، فقال : لك يا أمير المؤمنين .

وعُرِض هذا الكلام على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة ، فقال : ويح هذا ! ماترك لربه شيئا .

وأشهر قصائد مروان فيه وأحسنها القصيدة اللامية التى ذكرتُ بعضها فى ترجمة مروان ، وهى طويلة تزيد على خمسين بيتا ، ولولا خوف الإطالة لذكرتها ، وله فيه من قصيدة [من البسيط] :

قد آمن الله من خوف ومن عَدَمٍ
من كان جاراً له من جور ذا الزمن
مَعْن بن زائدة المُوفِى بذمَّته ... والمشترِى المجدِ بالغالى من الثمن
يرى العطايا التى تبقى محامدُها ... غُنْماً إذا عدَّها المعْطِى من الغَبَن
بَنَى لشيبان مجداً لازَوال له ... حتى تزولَ ذوو الأركان من حَضَنِ

حَضَن — بفتح الحاء المهملة والضاد المعجمة ، وبعدها نون — اسم جبل عظيم بين نجد وتهامة ، بينه وبين تهامة مرحلة ، يقال فى المثل : أنجد من رأى حَضَناً ، وله ذكر كثير فى الأشعار والأخبار

ودخل على معن بعضُ الفصحاء يوماً فقال له : إنى لو أردت أن استشفع إليك ببعض مَنْ يثقل عليك لوجدت ذلك سهلا ، ولكنى استشفعت إليك بقدرك ، واستغنيت بفضلك ، فان رأيت أن تضعنى من كرمك بحيث وضعتُ نفسى من رجائك فافعل ، وإنى لم أكرم نفسى عن مسألتك فأكرم وجهى عن ردك

ولمعن أشعار جيدة أكثرها فى الشجاعة ، وقد ذكره أبو عبد الله بن المنجم فى كتاب « البارع » وأورد له عدة مقاطيع ، فمن ذلك قوله فى خطاب ابن أخى عبد الجبار بن عبد الرحمن ، وقد رآه يتبختر بين السماطين ، وكان قبل ذلك لقى الخوارج ففر منهم [من الكامل] :

هلا مشيت كذا غداةَ لقيتَهم ... وَصبرت عند الموت يا خَطّابُ
تختال خوّارَ العِنَان كأنه ... تحت العجاج إذا استحثَّ عقاب

وتركتَ صحبك والرماحُ تنوشُهم ... وكذاك مَنْ قعدتْ به الأحسابُ

وقال أبو عثمان المازنى النحوى : حدثنى صاحب شرطة معن قال : بينما أنا على رأس معن إذا هو براكب يُوضِع ، فقال معن : ما أحسب الرجل يريد غيرى ، ثم قال لحاجبه : لا تحجبه ، قال : فجاء حتى مثل بين يديه وأنشد [من المنسرح] :

أصلحك الله قلَّ ما بيدى ... فما أطيقُ العيالَ إذ كثروا

ألحَّ دَهرٌ رَمَى بكَلْكَلِه ... فأرسلونى إليك وانتظروا

قال : فقال معن وأخذته الأريحية : لاجرم والله لأعجلنَّ أوْبتَك ، ثم قال : يا غلام ، ناقتى الفلانية ، وألفَ دينار ، فادفعها إليه ، فدفعها إليه وهو لا يعرفه ، هكذا روى هذا الخطيب فى تاريخه

وأخباره ومحاسنه كثيرة

وكان قد ولى سجستان فى أواخر أمره ، وانتقل إليها ، وله فيها آثار وماجريات وقصده الشعراء بها ، فلما كانت سنة إحدى وخمسين — وقيل : اثنتين وخمسين ، وقيل : ثمان وخمسين ومائة — كان فى داره صناع يعملون له شغلا ، فاندسَّ بينهم قوم من الخوارج ، فقتلوه ، بسجستان ، وهو يحتجم ، ثم تبعهم ابنُ أخيه يزيد ابن مزيد بن زائدة الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، فقتلهم بأسرهم ، وكان قتله بمدينة بُسْت ، ولما قتل معن رثاه الشعراء بأحسن المراثى ، فمن ذلك قول مروان بن أبى حفصة شاعره المذكور ، وهى قصيدة من أفخر الشعر وأحسنه ، وأولها [من الوافر] :

مضى لسبيله معن ، وأبقى ... مكارم لن تَبيدَ ولن تُنَالا

كأن الشمس يوم أصيب معن ... من الإظلام مُلْبَسة جلالا

هو الجبل الذى كانت نزار ... تهدُّ من العدوِّ به الجبالا

وعطلت الثغور لفقد معن ... وقد يروى بها الأسل النهالا

وأظلمت العراق وأورثتها ... مصيبته المجللة اختلالا

وظل الشام يرجف جانباه ... لركن العز حين وَهَى فمالا
وكادت من تهامة كل أرض ... ومن نجد تزول غَدَاةَ زالا
فان يَعْلُ البلادَ له خشوعٌ ... فقد كانت تطول به اختيالا
أصاب الموت يوم أصاب معنًا ... من الأحياء أكرمهم فعالا
وكان النـاس كلهم لمعن ... إلى أن زار حفرته عيـالا
ولم يك طالب للعرف يَنْوِى ... إلى غير ابن زائدة ارتحالا
مضى من كان يحمل كل ثقل ... ويسبق فضلُ نائله السؤالا
وما عمد الوفود لمثل معن ... ولا حَطُّوا بساحته الرحالا
ولا بَلَغَتْ أكف ذوى العطايا ... يمينـا من يديه ولا شمـالا
وما كانت تجفُّ له حياض ... من المعروف مُتْرَعة سجالا
لأبيض لا يعدُّ المـال حتى ... يعم به بغـاة الخير مالا
فليت الشامتين به فَدَوْهُ ... وليت العمر مدَّ له فطالا
ولم يك كنزه ذهبـا ، ولـكن ... سيوف الهنـد والحلق المـذالا
ومادته من الخطِّىِّ سمر ... ترى فيهن لِيناً واعتدالا
وذخرا من محامد باقيات ... وفَضْلِ تقًى به التفضيلَ نالا

ومن القصيدة أيضا :

مضى لسبيله من كنت ترجو ... به عَثَرَاتِ دهرك أن تُقَالا
فلست بمـالك عبرَاتِ عين ... أبت بدموعها إلا انهمالا
وفى الأحشاء منك غليلُ حزنٍ ... كحرِّ النـار يشتعل اشتعالا
وقائـلة رأتْ جسمى ولونى ... معاً عن عهدها قلبا فحالا

أرى مروان عاد كذى نحول ... من الهندى قد فَقَدَ الصِّقالا
رأت رجلا براه الحزن حتى ... أضر به وأورثه خبالا
فقلت لها: الذى أنكرت منى ... لفجع مصيبة أنكى وعالا
وأيام المنون لها صروف ... تقلب بالفتى حالا فحالا

ومن القصيدة أيضاً:

كأن الليل واصل بعد معن ... ليالى قد قُرِنَّ به فطالا
فلهف أبى عليك إذا المطايا ... جعلن مُنًى كواذب واعتلالا
ولهف أبى عليك إذا اليتامى ... غدوا شعثاً كأنهم سلالا(١)
ولهف أبى عليك إذا القوافى ... لممتدح بها ذهبت ضلالا
ولهف أبى عليك لكل هيجا ... لها تلقى حواملها السجالا
أقمنا باليمامة إذ يئسنا ... مقاماً لا نريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالا
وما شهد الوقائع منك أمضى ... وأكرم مقدما وأشد بالا
سيذكرك الخليفة غير قال ... إذا هو فى الأمور بلَا الرجالا
ولا ينسى وقائعك اللواتى ... على أعدائه جعلت وبالا
ومعتركا شهدت به حفاظا ... وقد كرهت فوارسه النزالا
حباك أخو أمية بالمراثى ... مع المدح الذى قد كان قالا
أقام وكان نحوك كل عام ... يطيل بواسط الرحل اعتقالا
وألقى رحله أسفاً وآلى ... يميناً لا يشد له حبالا

وهذه المرثية من أحسن المراثى، وقال عبد الله بن المعتز فى كتاب «طبقات الشعراء»: دخل مروان بن أبى حَفْصَة على جعفر البَرْمكى فقال له: ويحك!

---

(١) كذا ولعله «تخالهم سلالا»

أنشدنى من مرثيتك فى معن بن زائدة ، فقال : بل أنشدك من مدحى فيك ، فقال جعفر : أنشدنى من مرثيتك فى معن ، فأنشأ يقول :

وكان الناس كلهم لمعن ... إلى أن زار حفرته عيالا

حتى فرغ من القصيدة ، وجعل جعفر يرسل دموعه على خديه ، فلما فرغ قال له جعفر : هل أثابك على هذه المرثية أحد من أولاده وأهله شيئاً ؟ قال : لا ، قال جعفر : فلو كان معن حيا ثم سمعها منك كم كان يثيبك عليها ؟ قال : أصلح الله الوزير أربعمائة دينار ، قال جعفر : فانا نظن أنه كان لا يرضى لك بذلك ، قد أمرنا لك عن معن — رحمه الله تعالى ! — بالضعف مما ظننت ، وزدناك نحن مثل ذلك ، فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك ، فقال مروان يذكر جعفرا وما سمح به عن معن [من الوافر] :

نفحت مكافئاً عن قبر معن ... لنا مما تجود به سجالا

فعجلت العطية يا ابن يحيي ... لنادبه ولم ترد المطالا

فكافأ عن صدى معن جوادٌ ... بأجودِ راحة بذل النوالا

بنى لك خالد وأبوك يحيي ... بناء فى المكارم لن ينالا

كأن البرمكى بكل مال ... تجود به يداه يفيد مالا

ثم قبض المال وانصرف .

وحكى أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب «الأغانى» عن محمد البيدق النديم أنه دخل على هرون الرشيد ، فقال له : أنشدنى مرثية مروان بن أبى حفصة فى معن ابن زائدة ، فأنشده بعض هذه القصيدة ، فبكى الرشيد ، قال : وكان بين يديه سكرجة ، فملأها من دموعه .

ويقال : إن مروان بعد هذه القصيدة المرثية لم ينتفع بشعره ، فانه كان إذا مدح خليفة أو من دونه قال له : أنت قلت فى مرثيتك :

وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

فلا يعطيه الممدوح شيئاً ، ولا يسمع قصيدته .

حدث الفضل بن الربيع قال: رأيت مروان بن أبى حفصة وقد دخل على المهدى بعد موت معن بن زائدة فى جماعة من الشعراء فيهم سَلْم الخاسر وغيره ، فأنشده مديحاً ، فقال له : من أنت ؟ فقال : شاعرك مروان بن أبى حفصة ، فقال له المهدى : ألست القائل :

* وقلنا أين نرحل بعد معن *

وأنشده البيت المذكور ، وقد جئت تطلب نوالنا وقد ذهب النوال؟! لاشىء لك عندنا ، جروا برجله ، قال : فجروا برجله حتى أخرجوه ، فلما كان فى العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء ، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء فى ذلك الحين فى كل عام مرة ، قال : فمثل بين يديه وأنشده قصيدته التى أولها [من الكامل] :

* طرقتك زائرة فحى خيالها *

وقد تقدم ذكر بعضها فى ترجمة مروان ، قال : فأنصت لها المهدى ، ولم يزل يزحف كلما سمع شيئاً فشيئاً منها ، حتى صار على البساط إعجابا بما سمع ، ثم قال له : كم بيت هى ؟ فقال : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، وهذا يخالف ما ذكرناه فى ترجمته ، لكنه يختلف باختلاف الروايات ، ويقال : إنها أول مائة ألف أعطيها شاعر فى خلافة بنى العباس ، قال الفضل بن الربيع : فلم يلبث إلا أيام أن أفضت الخلافة إلى هرون الرشيد ، ولقد رأيت مران ماثلامع الشعراء بين يديه ، وقد أنشده شعراً ، فقال له : من أنت ؟ فقال : شاعرك مروان بن أبى حفصة ، فقال له : ألست القائل فى معن كذا ، وأنشده البيت ، ثم قال: خذوا بيده فأخرجوه فانه لا شىء له عندنا ، ثم تلطف حتى دخل عليه بعد ذلك ، فأنشده ، فأحسن جائزته .

ومن المراثى النادرة أيضاً أبيات الحسين بن مطير بن الأشيم الأسدى فى معن بن زائدة أيضا ، وهى من أبيات الحماسة [من الطويل] :

ألمّا على معن وقولا لقبره سقتك الغوادى مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معن كيف واريْتَ جوده وقد كان منه البر والبحر مُتْرعا
ويا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خُطَّتْ للمكارم مضجعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى معن مضى الجود وانقضى وأصبح عرنين المكارم أجدعا

وقد سبق لمعن فى ترجمة الصاحب بن عباد نادرة مستظرفة فلا حاجة إلى إعادتها هنا ، ولولا خوف الإطالة لأتيت من محاسنه بكل نادرة بديعة .

والحوفزان بن شريك الشيبانى الموصوف بالكرم والشجاعة أخو جده مطر ابن شريك ، وإنما قيل له الحوفزان لأن قيس بن عاصم المنقرى حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته ، ومعنى حفزه أى دفعه من خلفه ، واسم الحوفزان الحارث ابن شريك ، وقيل : إن الذى حفزه بسطام بن قيس الشيبانى ، والأول أصح ، والله تعالى أعلم .

***

(٧٠٤)

أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير ، الأزدى بالولاء
الخراسانى ، المروزى

أبو الحسن مقاتل ابن سليمان الخراسانى المروزى

أصله من بلخ ، وانتقل إلى البصرة ، ودخل بغداد ، وحدث بها .

وكان مشهورا بتفسير كتاب الله العزيز ، وله التفسير المشهور ، وأخذ الحديث عن مجاهد بن جبير ، وعطاء بن أبى رباح المقدم ذكره ، وأبى إسحاق السبيعى ، وقد تقدم ذكره أيضا ، والضحاك بن مزاحم ، ومحمد بن مسلم الزهرى ، وغيرهم . وروى عنه بقية بن الوليد الحمصى ، وعبد الرزاق بن همام الصنعانى المقدم ذكره ، وحرمى بن عمارة ، وعلى بن الجعد ، وغيرهم ، وكان من العلماء الأجلاء ، رضى الله عنه ! .

حكى عن الإمام الشافعى – رضى الله عنه ! – أنه قال : الناس كلهم عيال على ثلاثة : على مقاتل بن سليمان فى التفسير ، وعلى زهير بن أبى سلمى فى الشعر ، وعلى أبى حنيفة فى الكلام .

وروى أن أبا جعفر المنصور كان جالسا ، فسقط عليه الذباب ، فطيره ، فعاد إليه ، وألح عليه ، وجعل يقع على وجهه ، وأكثر من السقوط عليه مرارا حتى أضجره ، فقال المنصور : انظروا من بالباب ، فقيل له : مقاتل بن سليمان ، فقال : على به ، فأذن له ، فلما دخل عليه قال له : هل تعلم لماذا خلق الله تعالى الذباب ؟ قال : نعم ليذل به الجبابرة ، فسكت المنصور .

وقال إبراهيم الحربى : قعد مقاتل بن سليمان ، فقال : سلونى عما دون العرش ، فقال له رجل : آدم صلى الله عليه وسلم حين حج مَنْ حلق رأسه ؟ قال مقاتل : ليس هذا من علمكم ، ولكن الله تعالى أراد أن يبلينى لما

أعجبتني نفسي . وقال سفيان ين عيينة ، قال مقاتل بن سليمان يوما : سلوني عما دون العرش ، فقال له إنسان : يا أبا الحسن ، أرأيت الذرة والنملة مِعَاها في مقدمها ، أم في مؤخرها ؟ قال : فبقي الشيخ لا يدري ما يقول له ، قال سفيان : فظننت أنها عقوبة عوقب بها .

وقد اختلف العلماء في أمره ، فمنهم من وثقه في الرواية ، ومنهم من نسبه إلى الكذب ، قال بقية بن الوليد : كنت كثيراً أسمع شعبة بن الحجاج وهو يسأل عن مقاتل ، فما سمعته قط ذكره إلا بخير ، وسئل عبد الله بن المبارك عنه ، فقال : رحمه الله ! لقد ذكر لنا عنه عبادة ، وروى عن عبد الله بن المبارك أيضا أنه ترك حديثه .

وسئل إبراهيم الحربي عن مقاتل : هل سمع من الضحاك بن مزاحم ؟ فقال : لا ، مات الضحاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين ، وَقال مقاتل : أغلق على وعلى الضحاك باب أربع سنين . قال إبراهيم : وأراد بقوله « باب » يعني باب المدينة ، وذلك في المقابر ، وقال إبراهيم أيضا : ولم يسمع مقاتل عن مجاهد شيئا ولم يلقه .

وقال أحمد بن سيار : مقاتل بن سليمان كان من أهل بلخ ، وتحول إلى مرو ، وخرج إلى العراق ، وهو متهم متروك الحديث ، ومهجور القول ، وكان يتكلم في الصفات بما لا تحل الرواية عنه .

وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني : مقاتل بن سليمان كان دجالا جسوراً ، وقال أبو عبد الرحمن النسائي : الكذابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة : ابن أبي يحيى بالمدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل ابن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد — ويعرف بالمصلوب — بالشام .

وذكر وكيع يوماً مقاتل بن سليمان ، فقال : كان كذاباً ، وقال أبو بكر الآجري : سألت أبا داود سليمان بن الأشعث عن مقاتل بن سليمان ، فقال :

تركوا حديثه ، وقال عمرو بن على الفلاس : مقاتل بن سليمان كذاب ، متروك الحديث .

وقال البخارى : مقاتل بن سليمان سكتوا عنه . وقال فى موضع آخر : لا شىء ألبتة . وقال يحيي بن معين : مقاتل بن سليمان ليس حديثه بشىء .

وقال أحمد بن حنبل : مقاتل بن سليمان صاحب التفسير ما يعجبنى أن أروى عنه شيئا ، وقال أبو حاتم الرازى : هو متروك الحديث . وقال زكريا ابن يحيي الساجى : مقاتل بن سليمان من أهل خراسان قالوا : كان كذاباً ، متروك الحديث ، وقال أبو حاتم محمد بن حيان البستى : مقاتل بن سليمان كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن العزيز الذى يوافق كتبهم ، وكان مشبها يشبه الرب بالمخلوقين ، وكان يكذب مع ذلك فى الحديث .

وبالجملة فإن الكلام فى حقه كثير ، وقد خرجنا عن المقصود ، لكن أردت ذكر اختلاف أقاويل العلماء فى شأنه .

وتوفى سنة خمسين ومائة بالبصرة ، رحمه الله تعالى ! .

وقد تقدم الكلام على الأزدى والمروزى ، فأغنى عن الإعادة ، والله تعالى أعلم بالصواب .

***

(٧٠٥)

شبل الدولة أبو الهيجاء مقاتل بن عطية البكرى الحجازى

أبو الهيجاء مقاتل بن عطية بن مقاتل ، البكرى ، الحجازى ، الملقب شبل الدولة

كان من أولاد أمراء العرب ، فوقعت بينه و بين إخوته وحشة أوجبت رحلته عنهم ، ففارقهم ، ووصل إلى بغداد ، ثم خرج إلى خراسان ، وانتهى إلى غَزْنَة ، وعاد إلى خراسان ، فاختص بالوزير نظام الملك ، وصاهره .

ولما قتل نظام الملك رثاه أبو الهيجاء المذكور ببيتين ، تقدم ذكرهما فى ترجمته ، ثم عاد إلى بغداد ، وأقام بها مدة ، وعزم على قصد كرمان مسترفداً وزيرها ناصر الدين مكرم بن العلاء ، وكان من الأجواد المشاهير ، فكتب إلى الإمام المستظهر بالله قصة يلتمس فيها الإنعام عليه بكتاب إلى الوزير المذكور ، مضمونه الإحسان إليه ، فوقع المستظهر على رأس قصته : « يا أبا الهيجاء ، أبعدت النُّجْعَة ، أسرع الله بك الرجعة ، وفى ابن العلاء مقنع ، وطريقه فى الخير مَهْيَع ، وما يسديه إليك يستحلى ثمرة شكره ، و يستعذب مياه بره ، والسلام » فاكتفى أبو الهيجاء بهذه الأسطر ، واستغنى عن الكتاب .

وتوجه إلى كرمان ، فلما وصلها قصد حضرة الوزير ، واستأذن فى الدخول فأذن له ، فدخل عليه ، وعرض على رأيه القصة ، فلما رآها قام وخرج عن دسته إجلالا لها ، وتعظيما لكاتبها ، وأطلق لأبى الهيجاء ألف دينار فى ساعته ثم عاد إلى دَسْته ، فعرفه أبو الهيجاء أن معه قصيدة يمدحه بها ، فاستنشده ، فأنشده [من المتقارب] :

دع العِيسَ تذرع عرض الفلا إلى ابن العلاء ، و إلا فلا[1]

فلما سمع الوزير هذا البيت أطلق له ألف دينار أخرى ، ولما أكمل

---

(١) العيس : جمع عيساء أو أعيس ، وهو فى الأصل وصف من العيس — بفتح العين والياء جميعا — وهو بياض يخالطه شقرة ، وهو فى اللون ، وأراد بالعيس الإبل

إنشاده القصيدة أطلق له ألف دينار أخرى ، وخلع عليه ، وقاد إليه جواداً يركبه ، وقال له : دعاء أمير المؤمنين مسموع مرفوع ، وقد دعا لك بسرعة الرجوع ، وجهزه بجميع ما يحتاج اليه ، فرجع إلى بغداد ، وأقام بها قليلا ، ثم سافر إلى ما وراء النهر ، وعاد إلى خراسان ، ونزل إلى مدينة هَرَاة ، وهوى بها امرأة ، وأكثر من التشبيب فيها ، ثم رحل إلى مرو ، واستوطنها .

ومرض فى آخر عمره وتسودن ، وحمل إلى البيمارستان ، وتوفى به فى حدود سنة خمس وخمسمائة ، رحمه الله تعالى !.

وكان من جملة الأدباء الظرفاء ، وله النظم البديع الرائق ، وبينه وبين العلامة أبى القاسم الزمخشرى المقدم ذكره مكاتبات ومداعبات ، وكتب إليه قبل الاجتماع به [من مجزوء الرجز] :

هـذا أديب كامل مثل الدرارى درره
زمخشرى فاضـل أنجبـه زمخشره
كالبحر إن لم أره فقد أتانى خبره

فكتب إليه الزمخشرى [من الرمل] :

شعره أمطر شعرى شرفا فاعتلى منه بباب الحسد
كيف لا يستأسد النبت إذا بات يستسقى بنوء الأسد (١)

وله كل مقطوع لطيف ، رحمه الله تعالى !.

والوزير المذكور هو الذى تقدم ذكره فى ترجمة أبى إسحاق إبراهيم الغزى ، الشاعر المشهور ، فإنه قصده بكرمان ، وامتدحه بقصيدة بائية طنانة ذكرت منها فى ترجمة الغزى بيتين هما من الشعر العجيب ، وضمنهما المعنى الغريب .

---

(١) استأسد النبت : طال وذهب كل مذهب . والنوء : النجم يميل إلى الغروب . والأسد ، هنا : أحد البروج

وأول هذه القصيدة [من الطويل] :

ورود ركايا الدمع تـكفى الركائبـا
وشم تراب الربـع يشـفى الترائبا

إذا شمت من برق العقيق عقيقه
فلا تنتجع دون الجفـون السحائبا

ومنها عند الخروج إلى المديح :

وعيس لها برهان عيسى بن مريم
إذا قتل الفج العميق المطالبا(١)

ترقصـهن الآل إما طوافيـا
تراهن فى آذِيِّه أو رواسـبا(٢)

سـوانح كالبنيان تحسب أننى
مسحت المطايا إذ مسحت السباسبا

تنسمن من كرمان عرفا عرفنه
فهن يلاعبن النشاط لواغبا

يرين وراء الخافقين من المنى
مشارق لم يؤْبَهْ لها ومغاربا

إلى ماجد لم يقبل المجد وارثاً
ولـكن سعى حتى حوى المجد كاسبا

تبسم ثغر الدهر منه بصاحب
إذا جد لم يصحب سوى العزم صاحبا

ومنها أيضا :

---

(١) فى ب « إذا أقبل الفج » وما أثبتناه موافق لمـا فى ديوان الغزى

(٢) فى ب « تراهن فى أودية » محرفا عما أثبتناه عن الديوان

تصيخ له الأسماع ما دام قائلا
وتعنو له الأبصار ما دام كاتبا
ولم أر ليثاً خادراً قبل مكرم
ينافس فى العليا ويعطى الرغائبا
ولو لم يكن ليثاً مع الجود لم يكن
إذا صال بالأقلام صارت مخالبا

ومنها أيضا :

إذا زان قوماً بالمناقب واصف
ذكرنا له فضلا يزين المناقبا
له الشيم الشم التى لو تجسمت
لكانت لوجه الدهر عيناً وحاجبا
ثنى نحو شمطاء الوزارة طرفه
فصارت بأدنى لحظة منه كاعبا
تناول أولاها وما مد ساعدا
وأحرز أخراها وما قام واثبا

وهى من غرر القصائد ، وفى هذا الأنموذج منها دلالة على الباقى ، والله أعلم .

***

(٧٠٦)

حسام الدولة
أبو حسان المقلد
ابن المسيب
صاحب
الموصل

أبو حسان المقلد بن المسيب بن رافع بن المقلد بن جعفر بن عمرو ابن المهنى عبد الرحمن بن يزيد — بالتصغير — ابن عبد الله بن زيد ابن قيس بن حوثة بن طهفة بن حزن بن عقيل بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، العقيلى، الملقب حسام الدولة، صاحب الموصل

كان أخوه أبو الذواد محمد بن المسيب أول من تغلب على الموصل وملكها من أهل هذا البيت، وذلك فى سنة ثمانين وثلثمائة. وتزوج بهاء الدولة أبو نصر ابن عضد الدولة بن بويه الديلمى ابنته.

فلما مات أبو الذواد فى سنة سبع وثمانين قام أخوه المقلد المذكور بالملك من بعده، وكان أعور.

وذكر شيخنا ابن الأثير فى تاريخه أن ذلك فى سنة ست وثمانين، وأن أبا الذواد لما توفى جاء المقلد فى الملك، فلم يساعده بنو عقيل، وقدموا أخاه عليا لكبر سنه، ثم توصل بالخديعة حتى ملك، وأطال القول فى ذلك، فاختصرته، وهذا حاصله.

وقال غير ابن الأثير: إنه كان فيه عقل، وسياسة، وحسن تدبير، فغلب على سقى الفرات، واتسعت مملكته.

ولقبه الإمام القادر بالله، وكناه، وأنفذ إليه باللواء، والخلع، فلبسها بالأنبار.

واستخدم من الديلم والأتراك ثلاثة آلاف رجل، وأطاعته خفاجة.

وكان فيه فضل ومحبة لأهل الأدب ، وينظم الشعر .

حكى أبو الهيجاء أن عمران بن شاهين قال : كنت أساير معتمد الدولة أبا المنيع قرواش بن المقلد المذكور مابين سنجار ونصيبين ، فنزلنا ، ثم استدعانى بعد الزوال ، وقد نزل بقصر هناك يعرف بقصر العباس بن عمرو الغنوى ، وكان مطلا على بساتين ومياه كثيرة ، فدخلت عليه ، فوجدته قائما يتأمل كتابة على الحائط ، فقرأتها فاذا هى [من مجزوء الكامل] :

يا قصر عباس بن عمـ ـرو كيف فارقك ابن عمرك
قد كنت تغتال الدهو ر فكيف غالك رَيْبُ دهرك
واهاً لعزك بل لجو دك بل لمجدك بل لفخرك

وتحتها مكتوب « وكتبه على بن عبد الله بن حمدان بخطه فى سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة » قلت : وهذا الكاتب هو سيف الدولة بن حمدان ممدوح المتنبي ، وقد تقدم ذكره ، قال الراوى : وكان تحت ذلك مكتوب [من مجزوء الكامل] :

يا قصر ضعضعك الزما ن وحطّ من عليا، فخرك
ومحا محاسن أسطر شرفت بهن متون جُدْرك
واها لكاتبها الكريـ ـم وقدره الموفى لقدرك

وتحت الأبيات مكتوب « وكتبه الغضنفر بن الحسن بن على بن حمدان بخطه فى سنة اثنتين وستين وثلثمائة » قلت : وهذا الكاتب هو عدة الدولة ابن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ابن أخى سيف الدولة ، وقد سبق ذكر والده أيضاً فى حرف الحاء ، وتحت ذلك مكتوب [من مجزوء الكامل] :

يا قصر ما فعل الألى ضُرِبت قبابهم بقعرك
أخنى الزمان عليهمو وطواهمو بطويل نَشْرك
واها لقاصر عمر من يختال فيك وطول عمرك

وتحته مكتوب « وكتبه المقلد بن المسيب بن رافع بخطه فى سنة ثمان وثمانين وثلثمائة » قلت : وهذا الكاتب هو المقلد المذكور صاحب هذه الترجمة ، وتحت ذلك مكتوب [من مجزوء الكامل] :

يا قصر ما صنع الكرا
م الساكنون قديم عصرك

عاصرتهم فبددتهم
ساورتهم طرا بصبرك

ولقد أثار تفجعى
ياابن المسيب رقم سطرك

وعلمت أنى لاحق
بك ذائب فى قفو أثرك

وتحته مكتوب « وكتبه قرواش بن المقلد بن المسيب بخطه فى سنة إحدى وأربعمائة » قال الراوى : فتعجبت من ذلك ، وقلت لقرواش : الساعة كتبت هذا ؟ فقال : نعم، وقد هممت بهدم القصر فانه مشئوم قد دفن الجماعة ، فدعوت له بالسلامة وانصرفت ، ورحلت بعد ثلاثة أيام ، ولم يهدم القصر .

[وهذا العباس بن عمرو الغنوى من أهل تل بنى سيار الذى بين الرقة ورأس عين بالقرب من حصن مسلمة بن عبد الملك بن مروان الحكمى ، وكان يتولى اليمامة والبحرين ، وسيره المعتضد بالله لحرب القرامطة فى أول أمرهم ، فقاتلوه وكسروه وأسروه ، ثم أطلقوه فرجع إلى المعتضد ودخل بغداد ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان سنة سبع وثمانين ومائتين .

وقال أبو عبد الله العظمى الحلى فى تاريخه الصغير : مات العباس بن عمرو الغنوى فى سنة خمسين وثلثمائة ، ومن العجائب أنه توجه إليهم فى عشرة آلاف ، فقتل الجميع ، وسلم وحده ، وعمرو بن الليث الصفار حارب إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان وهو فى خمسين ألفاً ، فأخذوه ونجا الباقون][1] .

وكان بين ما كتبه سيف الدولة و بين ما كتبه قرواش سبعون سنة .

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من بعض نسخ عند ب

وقد سبق نظير هذه الحكاية فى ترجمة عبد الملك بن عمير وما جرى له مع عبدالملك بن مروان ، فلينظر هناك .

و بينما المقلد المذكور فى مجلس أنسه وهو بالأنبار إذ وثب عليه غلام تركى فقتله ، وذلك فى صفر سنة إحدى وتسعين وثلثمائة ، و يقال : إنه مدفون على الفرات بمكان يقال له شقيا بين الأنبار وهيت ، وحكى أن هذا التركى سمعه وهو يقول لرجل ودعه وهو يريد الحج : إذا جئت ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقف عنده وقل له عنى : لولا صاحباك لزرتك .

ولما مات رثاه الشريف الرضى بقصيدتين ، ورثاه جماعة من الشعراء .

وكان ولده معتمد الدولة أبو المنيع قرواش غائبا عنه ، ثم تقلد الأمر من بعده وكان له عمان ينازعانه فى الأمر : أحدهما أبو الحسن بن المسيب ، والآخر أبو مرخ مصعب بن المسيب ، فتوفى أبو الحسن بن المسيب سنة اثنتين وتسعين ، وتوفى أبو مرخ سنة سبع وتسعين ، فتفرد قرواش بالملك ، واستراح خاطره منهما ، وكانت له بلاد الموصل والكوفة والمدائن وسقى الفرات ، وخطب فى بلاده للحاكم صاحب مصر المقدم ذكره فى سنة إحدى وأربعمائة ، ثم رجع عن ذلك ، ووصلت الغز إلى الموصل ، ونهبوا دار قرواش ، وأخذوا منها ما يزيد على مائتى ألف دينار فاستنجد بنور الدولة أبى الأغر دبيس بن صَدَقَة المقدم ذكره ، فأنجده واجتمعا على محاربة الغز فنصروا عليهم وقتل الكثير منهم .

ومدحه أبو على بن الشبل البغدادى الشاعر المشهور بقصيدة ذكر فيها هذه الواقعة ، فمنها قوله [من الكامل] :

نزهت أرضك عن قبور جسومهم ... فَغَدَتْ قبورُهمو بطونَ الأنسُرِ

من بعد ماوطئوا البلاد وظفروا ... من هذه الدنيا بكل مظفر

فضوا رتاج السَّدِّ عن يأجوجه ... وَلَقُوا ببأسك سطوة الإسكندر

وكان قرواش المذكور أديبا شاعرا ظريفا، وله أشعار سائرة، فمن ذلك ما أورده له أبو الحسن الباخَرْزى فى أول كتاب «دمية القصر» وهو قوله [من الكامل] :

لله در النائبات، فإنها صَدَأُ اللئام وصيقَلُ الأحرار
ما كنت إلا زبرة فطبعننى سيفاً وأطلق طرفهن غرار

وأورد له أيضا [من الكامل] :

من كان يحمَدُ أو يذم مُوَرَّثاً للمال من آبائه وجدوده
فأنا امرؤ لله أشكر وحده شكراً كثيرًا جالبًا لمزيده
لى أشقر ملء العيان مغاور يعطيك ما يرضيك من مجهوده (١)
ومهند عضب إذا جرَّدْته خلْتَ البروق تموج فى تجريده (٢)
ومثقف لَدْن السنان كأنما أم المنايا رُكِبتْ فى عوده (٣)
وبذا حَوَيْتُ المالَ إلا أننى سلطت جود يدى على تبديده

ما أحسن هذا الشعر وأمتنه

ومن المنسوب إليه أيضا [من الطويل] :

وآلفة للطيب ليست تغبه مُنَعَّمة الأطراف لَيِّنَةُ اللمس
إذا مادخان الندمن جيبها علا على وجهها أبصرت غيما على شمس

وذكر الباخرزى المذكور فى «دمية القصر» أيضا لأبى حوية ابن عم الأمير قرواش المذكور [من الكامل] :

قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم شمسا وخلت وجوههم أقمارا
لا يعدلون برفدهم عن سائل عدل الزمان عليهم أو جارا
وإذا الصريخ دعاهُمُ لملمة بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا
وإذا زناد الحرب أخمد نارها قدحوا بأطراف الأسنة نارا

---

(١) أراد بالأشقر الفرس الذى لونه الشقرة، و «يعطيك ما يرضيك» يريد أنه يسرع بك الجرى حتى ترضى

(٢) المهند : السيف ، قيل له ذلك لأنه صنع بأرض الهند ، والعضب : القاطع

(٣) المثقف : الرمح ، واللدن : يراد به أنه يهتز فى يد صاحبه بيسر وسهولة

ومن جملة شعراء دمية القصر أيضاً الطاهر الجزرى ، وقد مدح قرواشا المذكور بقوله ، وهو فى نهاية الحسن فى باب الاستطراد [من الطويل] :

وليل كوجه البرقعيدى ظلمة — وبرد أغانيه وطول قرونه(١)

سريت ونومى فيه نوم مشرّدٌ — كعقل سليمان بن فهد ودينه(٢)

على أولق فيه مَضاء كأنه — أبو جابر فى طيشه وجنونه

إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه

سنى وجه قرواش وضوْء جبينه

ولشرف الدين بن عنين الشاعر المقدم ذكره على هذا الأسلوب فى فقيهين كانا بدمشق ينبز أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس [من الكامل] :

البغل والجاموس فى جدليهما — قد أصبحا عظة لكل مناظر

برزا عشية ليلة فتباحثا — هذا بقرنيه وذا بالحافر

ما أتقنا غير الصياح كأنما — لقيا جدال المرتضى بن عساكر

لفظ طويل تحت معنى قاصر

كالعقل فى عبد اللطيف الناظر

اثنان مالهما وحقك ثالث — إلا رقاعة مدلويه الشاعر

ولقد حكى بعض الأصحاب أنه سأل ابن عنين عن أبيات الطاهر الجزرى فاستحسن بناءه عليها ، فحلف أنه ما كان سمعها ، والله أعلم .

ومدلويه المذكور : لقب كان ينبز به الرشيد عبد الرحمن بن محمد بن بدر بن الحسن بن الفرج بن بكار الشاعر المعروف بابن النابلسى ، وكان مقيما بدمشق ، ولابن عنين فيه عدة مقاطيع هجو . وتوفى فى منتصف صفر سنة تسع عشرة وستمائة ، بدمشق المحروسة ، ودفن بباب الصغير ، رحمه الله تعالى !

---

(١) يصف ليله بالطول وشدة الظلمة وشدة البرد

(٢) استطرد إلى ذم ابن فهد بذهاب العقل وضيعة الدين

وذكر فى كتاب الدمية أيضاً للطاهر الجزرى المذكور أبياتاً لطيفة أحببت ذكرها، وهى [من الكامل] :

أنظر إلى خطأ ابن شبل فى الهوى   إذ لا يزال لكل قلب شائقا
شغل النساء عن الرجال، وطالما   شغل الرجال عن النساء مراهقا[١]
عشقوه أمرد فالتحى فعشقنه   الله أكبر ليس يعدم عاشقا[٢]

ثم وجدت فى كتاب «الخريدة» فى ترجمة أبى نصر بن النحاس الحلبى البيتين الأخيرين من هذه الأبيات الثلاثة وقال : أورده أبو الصلت فى الخريدة له، يعنى لابن النحاس، والله أعلم .

رجعنا إلى حديث الأمير قرواش

وكان كريما، وهابا، نهابا، جاريا على سنن العرب، نقل أنه جمع بين أختين فى النكاح، فلامته العرب على ذلك، فقال : خبرونى ما الذى نستعمله مما تبيحه الشريعة ؟ وكان يقول : ما فى رقبتى غير خمسة أو ستة من أهل البادية قتلتهم، فأما الحاضرة فما يعبأ الله بهم .

ودامت إمارة قرواش مدة خمسين سنة، فوقع بينه و بين أخيه بركة بن المقلد — وكان خارج البلد — فقبض بركة عليه فى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وقيده، وحبسه فى الجراحية إحدى قلاع الموصل، وتولى مكانه، ولقب بركة بزعيم الدولة، وأقام فى الإمارة سنتين . وتوفى فى ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين .

فقام مقامه ابن أخيه أبو المعالى قريش بن أبى الفضل بدران بن المقلد، — وكان بدران المذكور صاحب نصيبين . وتوفى فى رجب سنة خمس وعشرين وأربعمائة — فأول مافعل قريش أنه قتل عمه قرواشا المذكور فى مجلسه فى مستهل

---

(١) رماه بالرجال فى صباه، وبالنساء فى كبره، والله حسيبه !

(٢) الأمرد : الذى لم ينبت شعر فى وجهه

رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، ودفن بتل توبة شرقي الموصل ، وكان فصيحا شرعيا شاعرا كريما شجاعا .

وقرواش — بكسر القاف ، وسكون الراء ، وفتح الواو ، وبعد الألف شين معجمة — وهو فعوَال من القرْش ، وهو في اللغة الكَسْب والجمع ، وبه سميت قريش أيضا لأنها كانت تعانى التجارة .

واجتمع قريش مع أرسلان البساسيرى المقدم ذكره على نهب دار الخلافة ، ثم إن الإمام القائم بأمر الله جرى على سجيته في الحلم ، وكتب إلى السلطان طُغْرُلْبَك المقدم ذكر في المحمدين ليرضى عنه ، وورد الخبر بعد ذلك بموته — أعني قريش بن بدران — في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة في أوائلها ، بالطاعون ، بمدينة نصيبين ، وكان عمره إحدى وخمسين سنة .

وولى بعده إمارة بنى عقيل ولدُهُ أبو المكارم مسلم بن قريش الملقب شرف الدولة ، وكان قد طمع في الاستيلاء على بغداد بعد وفاة السلطان طغرلبك السلجوقي المقدم ذكره ، ثم رجع عن ذلك ، واستولى على ديار ربيعة ومضر ، وملك حلب ، وأخذ الأتاوة من بلاد الروم ، وقصد دمشق وحاصرها ، وكاد يأخذها ، فبلغه أن حرّانَ عصى عليه أهلها فرحل إليهم وحاربوه ، ففتحها ، وقتل خلقا كثيرا من أهلها ، وذلك في سنة ست وسبعين وأربعمائة ، واتسعت له المملكة ، ولم يكن من أهل بيته من ملك مثله ، وكانت سيرته من أحسن السير وأعدلها ، وكانت الطرقات في بلاده آمنة .

ومن جملة ما نقل عنه أن ابن حَيُّوس الشاعر المقدم ذكره مات عنده ، وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار ، فحمل ذلك على خزانته ، فرده ، وقال : لا يتحدث عنى أحد أنى أعطيت شاعرا مالا ثم شرهت فيه فأخذته ، وأنه دخل خزانتى مال جمع من أوساخ الناس ، وكان يصرف الجزية في جميع بلاده

إلى الطالبيين لا يأخذ منها شيئاً ، وهو الذى عمر سور الموصل ، وكان ابتداء عمارته يوم الأحد ثالث شوال سنة أربع وسبعين ، وفرغ من عمارته فى ستة أشهر وأخباره كثيرة .

وجرى بينه وبين سليمان بن قتلمش السلجوقى صاحب الروم مصاف ، فقتل على باب أنطاكية فى خامس عشر صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، يوم الجمعة ، وعمره خمس وأربعون سنة وشهور ، هكذا قاله محمد بن عبد الملك الهمذانى فى كتابه الذى سماه « المعارف المتأخرة » وذكر أيضاً ابن الصابى فى تاريخه أن مولد مسلم بن قريش يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، والله أعلم ، وذكر المأمونى فى تاريخه أنه وثب عليه خادم من خواصه فخنقه فى الحمام ، وذكره واقعة فى ذلك ، وذلك فى سنة أربع وسبعين ، والله أعلم بالصواب

ورتب السلطان ملكشاه السلجوقى المقدم ذكره ولده أبا عبد الله محمداً فى الرحبة وحران وسروج وبلد الخابور ، وزوجه أخته زليخا بنت السلطان ألب أرسلان ، وكان والده مسلم بن قريش اعتقل أخاه أبا سالم إبراهيم بن قريش بقلعة سنجار مدة أربع عشرة سنة ، فلما هلك مسلم وتقرر أمر ولده محمد فى الإمارة اجتمع أهله على إبراهيم المذكور فأخرجوه وقدموه عليهم ، ثم اعتقله ملكشاه وولى ابن أخيه محمداً المذكور ، فلما مات ملكشاه أطلق ، وجمع إبراهيم العرب وحارب تاج الدولة تُتُشَ السلجوقى المذكور فى حرف التاء بمكان يعرف بالمصنع فقتله تاج الدولة تُتُشُ صبراً فى سنة ست وثمانين وأربعمائة .

ومن أمراء بنى عقيل أيضاً أبو الحارث مهارش بن المجلى بن عليب بن قيان بن شعيب بن المقلد الأكبر بن جعفر بن عمرو بن المهنى المذكور فى أول هذه الترجمة ، ومهارش المذكور هو صاحب الحديثة ، وهو الذى نزل عليه الإمام القائم فى قصة البساسيرى لما خرج من بغداد ، وبالغ فى إكرامه وإجلاله والإحسان إليه ، فأقام عنده سنة ، وهى واقعة مشهورة فلا حاجة إلى شرحها .

وكان مهارش المذكور كثير الصدقة والصلوات ، ملازم الجمع والجماعات ، وتوفى فى صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وعمره ثمانون سنة ، والله تعالى أعلم.

***

(٧٠٧)

مخلص الدولة أبو المتوج مقلد ابن نصر بن منقذ الكنانى

أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ ، الكنانى ، الملقب مخلص الدولة ، والد الأمير سديد الدولة أبى الحسن على صاحب قلعة شَيْزَر المقدم ذكره

كان رجلا نبيل القدر ، سائر الذكر ، رُزِقَ السعادة فى بنيه وحَفَدته ، وقد تقدم فى ترجمة ولده المذكور طرف من بدء أمرهم ، وكيف ملك القلعة المذكورة ، وكان والده مقلد المذكور فى جماعة كثيرة من أهل بيته مقيمين بالقرب من قلعة شَيْزَر عند جسر بنى مُنْقذ المنسوب إليهم ، وكانوا يتردَّدُون إلى حَماة وحلب وتلك النواحى ، ولهم بها الدور النفيسة والأملاك المثمنة ، وذلك كله قبل أن يملكوا قلعة شَيْزَر ، وكان ملوك الشام يكرمونهم ويجلون أقدارهم ، وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم ، وكان فيهم جماعة أعيان رؤساء كرماء أجلاء علماء وقد سبق ذكر أسامة بن منقذ ، وهو من أحفاده

ولم يزل مخلص الدولة فى رياسته وجلالته ، إلى أن توفى فى ذى الحجة سنة خمسين وأربعمائة ، بحلب ، وحمل إلى كفرطاب

ورأيت فى ديوان ابن سنان الخفاجى الشاعر عقيب أشعار له فى المذكور ، يقول ماصورته : وقال يرثيه ، وقد توفى فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، والله أعلم بالصواب ، رحمه الله تعالى !.

ورثاه القاضى أبو يعلى حمزة بن عبد الرزاق بن أبى حصين بهذه القصيدة ،

وهى من فائق الشعر ، وأنشدها لولده أبى الحسن على المذكور ، وسأذكرها كلها إن شاء الله تعالى ، وإن كانت طويلة ، لكنها غريبة قليلة الوجود بأيدى الناس وما رأيت أحدا قط يحفظ منها إلا أبياتاً يسيرة فأحببت ذكرها لذلك ، وهى هذه القصيدة [من الطويل] :

ألا كل حى مُقْصَدات مَقاتلُهْ ... وآجلُ ما يُخشَى من الدهر عاجلُهْ
وهل يفرح الناجى السليم وهذه ... خيُول الردى قُدَّامَهُ وحبائلُهْ
لعمر الفتى إن السلامة سُلَّمٌ ... إلى الحين ، والمغرورُ بالعيش آمله
فيسلب أثواب الحياة مُعَارُها ... ويقضى غريم الدين مَنْ هو ماطله
مضى قيْصر ، لم تغن عنه قصوره ... وجُدِّل كِسْرى ، ماحَمَتْهُ مجادله
وماصدها لكا عن سليمان ملكه ... ولا مَنَعَتْ منه أباه سرابله
ولم يبق إلا مَنْ يروح ويغتدى ... على سَفَر ينأى عن الأهل قافله
وما نفس الإنسان إلا خزامة ... بأيدى المنايا والليالى مراحله
فهل غال بدأ مخلص الدولة الردى ... وهل تنزوى عمن سواه غوائله
ولكنه حوض الحمام ، ففارط ... إليه ، وتالٍ مسرعاتٌ رواحله
لقد دفن الأقوام أروع لم تكن ... بمدفونة طول الزمان فضائله
سقى جَدَثاً هالت عليه ترابه ... أكفُّهُم طلُّ الغمام ووابله
ففيه سحابٌ يرفع المحلَ هدبه ... وبحرُ ندًى يستغرقُ البرَّ ساحله
كأن ابن نصر سائراً فى سريره ... حياء من الوسمىِّ أقشع هاطله
يمرُّ على الوادى فتثنى رماله ... عليه ، وبالنادى فتبكى أرامله
سرى نعشه فوق الرقاب ، وطالما ... سرى جوده فوق الركاب ونائله
أناعِيَهُ إن النفوس منوطة ... بقولك فانظر ما الذى أنت قائله

بفيك الثرى لم تدر من حل بالثرى ... جهلت وقد يستصغر المرء جاهله

هو السيد المهتز للتم بدره ... وللجود عطفاه وللطعن عامله

أفاض عيون الناس حتى كأنما ... عيونهم مما تفيض أنامله

فياعين سُحِّى لاتشحى بسائل ... على ماجد لم يعرف الشح سائله

متى سألوه المال تبدو بنانه ... وإن سألوه الضيم تبدو عوامله

وكم عاد عنه بالخسار مقنع ... وكم نال منه قانع مايحاوله

له الغَلَبُ القاضى على كل باسل ... يجالده أو كل خصم يجادله

مجالسه فى روضة طَلَّهَا الندى ... ولكنه فى المجد مات مساجله

فياعمره أنَّى قصرت ولم تطل ... منازله بل كفه بل حمائله

جرت تحته العلياء ملء فروجها ... إلى غاية طالت على من يطاوله

فما مات حتى نال أقصى مراده ... كما يستسر البدر تمت منازله

فتى طالما يعتاده الجيش عافيا ... فينزله أو عاديا فينازله

صَفُوح عن الجانى وصفحة سيفه ... إذا هى لم تقتله فالصفح قاتله

وأدمى عسيب الطرف بعدك هلبه ... وعادته أن يقذف الدم كاهله

فياطرفه ما كان عجزك حاملا ... إذا صارم لو أنَّ ظهرك حامله (١)

لقد كثر الملبوس بعد مروع ... جرت ببيان المشكلات شواكله

إذا ظن لا يخطى كأن ظنونه ... على مايظن الناس عنه دلائله

فلا رحلت عنه نوازل رحمة ... ضحاه بها موصولة وأصائله

وروى ثراه منهل العفو فى غد ... فقد روت العافين أمس مناهله

قضى الله أن يردى الأمير وهذه ... صوافنه موقورة ومناصله

وكل فتى كالبرق إبريق غمده ... إذا شامه أو كالذبالة ذابله

---

(١) كذا ، وفيه وقفة

فليت ظباه صلت اليـوم خلفه　　　فظلت على غير الصيام صواهله
بنى منقذ صبراً فان مصابكم　　　يصاب به حافى الأنام وناعله
لقد جـل حتى كلُّ واجد لوعة　　　إذا لج فيها ليس يوجـد عاذله
إذا صوحت أيدى الرجال فأنتم　　　بنى منقذ روض الندى وخمائله
وإن فر من وزر الزمان مفرح　　　فانـكم أوزاره ومعاقله
وصاحب على الصبر عنه فما غوى　　　مصاحب صبر عن حبيب يزايله
وما نام حتى قام منـك وراءه　　　أخو يقَظَات وافر العـزم كامله
كأ نكما تومان فى فلك العـلا　　　فطالعـه هـذا وذلك آفله
وما كَفَلُوك الأمر إلا لعلهـم　　　قيامك بالأمر الذى أنت كافله
سعيت إلى نيل المـكارم سعيه　　　ولو كنت لا تسعى كفتك فواضله
ولم تر أن ترقى بما كان فاعلا　　　أجـل إنما المرفوع بالفعل فاعله
لعمرك إنى فى الذى عن ّ كله　　　شريك عنان ناصح الود ناهله
وكيف خُلُوُّ القلب من ذلك الهوى　　　وقد خلُدت بين الشغاف دواخله

نجزت القصيدة بتمامها وكمالها ، وقد تقدم فى ترجمة الصالح طلائع بن رُزِّيك وزير مصر مرثية رثاه بها الفقيه عمارة اليمنى ، وهى على وزن هذه المرثية ورويها ، ولم أذكر منها هناك سوى أبيات قلائل لـكثرة وجود ديوان عمارة بأيدى الناس ، وهذه لا تكاد توجد بكمالها ، فلهذا أثبتها ههنا ، وقد تقدم منها ذكر بيتين فى ترجمة الوزير جمال الدين أبى جعفر محمد المعروف بالجواد الأصبهانى وزير الموصل .

وتوفى أخوه أبو الغيث منقذ بن نصر بن منقذ سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، ورثاه الشيخ الأديب أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن يحيى بن الحسين بن محمد بن الربيع بن سنان بن الربيع الخفاجى الحلبى الشاعر المشهور صاحب ديوان

الشعر بقوله ، وهو من شعره القديم زمن الصبا [من الكامل] :

غربت خلائقك الحسان غريبة ... ورمى الزمان دنوها ببعاد

ذهبت كما ذهب الربيع ، وخلفت ... فيض الدموع حرارة الأكباد

والخفاجي المذكور رثى مخلص الدولة المذكور أيضاً بقصيدة طويلة رائيـة ، ومدحه بأخرى حائية ، أجاد فيها ، والله تعالى أعلم .

***

(٧٠٨)

أبو محمد مكى بن أبى طالب حَمُّوش بن محمد بن مختار ،
القَيْسى ، المقرى

أبو محمد مكى ابن حموش القيسي، المقرى

أصـله من قيروان ، وانتقل إلى الأندلس ، وسكن قرطبة ، وهو من أهل التبحر فى علوم القرآن والعربية ، حسن الفهم والخلق ، جيد الدين والعقل ، كثير التآليف فى علم القرآن ، محسناً لذلك ، مجوداً للقراءات السبع ، عالما بمعانيها .

ولد بالقيروان عند طلوع الشمس — أو قبل طلوعها بقليل — لسبع بقين من شعبان سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، قال أبو عمرو المقرى الدانى : إنه ولد سنة أربع وخمسين ، ونشأ بالقـيروان ، وترعرع ، وسافر إلى مصر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاختلف بها إلى المؤدبين والعارفين بعلوم الحساب ، ثم رجع إلى القيروان ، وكان إكماله لاستظهار القرآن بعد فراغه من الحساب وغيره من الآداب ، وذلك فى سـنة أربع وسبعين وثلثمائة ، ثم عاد إلى مصر ثانية بعـد استكماله القراءات بالقيروان ، وحج فى سـنة سبع وسبعين ، ثم ابتدأ بالقراءات على أبى الطيب عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون الحلبي المقرى ، نزل مصر فى أول سنة ثمان وسبعين

فقرأ عليه بقية السنة و بعض سنة تسع ، ورجع إلى القيروان وقد بقى عليه بعض القراءات ، ثم عاد إلى مصر مرة ثالثة فى سنة اثنتين وثمانين ، فاستكمل مابقى له . ثم عاد إلى القيروان فى سنة ثلاث وثمانين وأقام بها يقرأ إلى سنة سبع وثمانين ، ثم خرج إلى مكة وأقام بها إلى آخر سنة تسعين ، وحج أربع حجج متوالية ، ثم رجع من مكة فى سنة إحدى وتسعين ، فوصل إلى مصر ، ثم رحل منها إلى القيروان فى سنة اثنتين وتسعين ، ثم ارتحل إلى الأندلس وقدمها فى رجب سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، فجلس للاقراء بجامع قرطبة ، وانتفع به خلق كثير ، وجودوا عليه القرآن ، وعظم اسمه فى البلدة ، وجل فيها قدره ، ونزل عند دخوله قرطبة فى مسجد النخيلة الذى بالرواقين عند باب العطارين ، فأقرأ به ، ثم نقله المظفر عبد الملك بن أبى عامر إلى جامع الزاهرة ، وأقرأ فيه حتى انصرمت دولة آل عامر ، فنقله محمد بن هشام المهدى إلى المسجد الخارج بقرطبة ، وأقرأ فيه مدة الفتنة كلها إلى أن قلده الحسن بن جهور الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بعد وفاة يونس بن عبد الله ، وكان ضعيفاً عنها على أدبه وفهمه ، وأقام فى الخطابة إلى أن مات ، رحمه الله تعالى !.

وكان خيراً ، فاضلا ، متواضعاً ، متديناً ، مشهوراً باجابة الدعاء ، وله فى ذلك أخبار : فمن ذلك ماحكاه أبو عبد الله الطرفى المقرى قال : كان عندنا بقرطبة رجل فيه بعض الحدة ، وكان له على الشيخ أبى محمد تسلط ، وكان يدنو منه إذا خطب فيغمزه ، ويحصى عليه سقطاته ، وكان الشيخ كثيراً مايتلعثم ويتوقف ، فحضر ذلك الرجل فى بعض الجمع ، وجعل يحد النظر إلى الشيخ و يغمزه ، فلما خرج معنا ونزل فى الموضع الذى كان يقرأ فيه قال لنا : أمنوا على دعائى ، ثم رفع يديه وقال : اللهم اكفنيه ، اللهم اكفنيه ، فأمنا ، قال : فأقعد ذلك الرجل ، وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم .

وله تصانيف كثيرة نافعة ، فمنها : « الهداية ، إلى بلوغ النهاية » فى معانى القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه ، وهو سبعون جزءاً ، و « منتخب الحجة » لأبى على الفارسى ، ثلاثون جزءاً ، وكتاب « التبصرة فى القراءات » فى خمسة أجزاء ، وهو من أشهر تآليفه ، وَ « الموجز فى القراءات » جزآن ، وكتاب « المأثور عن مالك فى أحكام القرآن وتفسيره » عشرة أجزاء ، وكتاب « الرعاية لتجويد القرآن » أربعة أجزاء ، وكتاب « اختصار أحكام القرآن » أربعة أجزاء ، وكتاب « الكشف عن وجوه القراءات وعللها » عشرون جزءا ، وكتاب « الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه » ثلاثة أجزاء ، وكتاب « الإيجاز فى ناسخ القرآن ومنسوخه » جزء ، وكتاب « الزاهى فى اللمع الدالة على مستعملات الإعراب » أربعة أجزاء ، وكتاب « التنبيه على أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه » جزآن ، وكتاب « الانتصاف ، فيما رده على أبى بكر الأدفوى وزعم أنه غلط فيه فى كتاب الإمالة » ثلاثة أجزاء ، وكتاب « الرسالة إلى أصحاب الأنطاكى فى تصحيح المدلورش » ثلاثة أجزاء ، وكتاب « الإبانة عن معانى القراءة » جزء ، وكتاب « الوقف على كلا وبلى فى القرآن » جزآن ، وكتاب « الاختلاف فى عدد الأعشار » جزء ، وكتاب « الإدغام الكبير ، فى المخارج » جزء ، وكتاب « بيان الصغائر والكبائر » جزء ، وكتاب « الاختلاف فى الذبيح من هو » جزء ، وكتاب « دخول حروف الجر بعضها مكان بعض » جزء ، وكتاب « تنزيه الملائكة عن الذنوب ، وفضلهم على بنى آدم » جزء ، وكتاب « الياءات المشددة فى القرآن والكلام » جزء ، وكتاب « اختلاف العلماء فى النفس والروح » جزء ، وكتاب « إيجاب الجزاء على قاتل الصيد فى الحرم خطأ ، على مذهب الإمام مالك ، والحجة فى ذلك » جزء ، وكتاب « مشكل غريب القرآن » ثلاثة أجزاء ، وكتاب « بيان العمل فى الحج أول الإحرام إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم » جزء ، وكتاب « فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا » جزء ، وكتاب « التذكرة

لاختلاف القراء» جزء، وكتاب «تسمية الأحزاب»، وكتاب «منتخب كتاب الإخوان لابن وكيع» جزءان ،وكتاب «الحروف المدغمة» جزءان، وكتاب «شرح التمام والوقف» أربعة أجزاء، وكتاب «مشكل المعانى والتفسير» خمسة عشر جزءا، وكتاب «هجاء المصاحف» جزءان، وكتاب «الرياض» مجموع خمسة أجزاء، وكتاب «المنتقى فى الأخبار» أربعة أجزاء، وله فى القراءات واختلاف القراء وعلوم القرآن تصانيف كثيرة، ولولا خوف التطويل لاستوعبت ذكرها.

وتوفى يوم السبت عند صلاة الفجر، ودفن يوم الأحد ضحوةً لليلتين خلتا من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، بقرطبة، ودفن بالرَّبَض، وصلى عليه ولده أبو طالب محمد، رحمه الله تعالى!.

وحموش: بفتح الحاء المهملة، وتشديد الميم المضمومة، وسكون الواو، وبعدها شين معجمة.

وقد تقدم الكلام على القيسى والقيروان وقرطبة، فأغنى عن الإعادة.

وأبو الطيب عبد المنعم بن غلبون المقرى المصرى المذكور فى هذه الترجمة ذكره الثعالبى فى كتاب «اليتيمة» فقال: وكان على دينه وفضله وعلمه بالقرآن ومعانيه وإعرابه متفننا فى سائر علوم الأدب، أنشدت له قصيدة منها قوله [من الطويل]:

عليك باقلال الزيارة إنها إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا

ألم تر أن الغيث يُسْأم دائما ويطلب بالأيدى إذا هو أمسكا

وقال غير الثعالبى: ولد أبو الطيب المذكور فى رجب سنة تسع وثلثمائة، وتوفى بمصر يوم الجمعه لسبع خلون من جمادى الأولى سنة تسع وثلثمائة، رحمه الله تعالى!

***

(٧٠٩)

أبو الحزم مكى بن رَيَّان بن شَبَّة بن صالح، الماكِسِينى المولد، الموصلى الدار، المقرى، النحوى، الضرير، الملقب صائن الدين

صائن الدين أبو الحزم مكى ابن ريان الماكسينى الموصلي المقرى النحوى

كان والده يصنع الأنطاع بما كسين، ومات فقيراً لم يخلف شيئاً، وترك ولده أبا الحزم المذكور وأمه وبنتا، فلم تقدر أمه على القيام بمصالحه بسبب الفقر، وتضجرت منه، ففارقها، وخرج من بلده وقصد الموصل، واشتغل بها بعلم القرآن والأدب، ثم رحل إلى بغداد، واجتمع بأئمة الأدب، وقرأ على أبى محمد بن الخشاب وابن الصفار وابن الأنبارى وأبى محمد سعيد بن الدهان، وقد تقدم ذكرهم، ثم عاد إلى الموصل، وتصدر بها للافادة، وأخذ الناس عنه، وانتشر ذكره فى البلاد وبعد صيته، وانتفع به خلق كثير.

وذكره أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل فقال: هو جامع فنون الأدب، وحجة كلام العرب، المجمع على دينه وعقله، والمتفق على علمه وفضله، رحل إلى بغداد، ولقى بها مشايخ النحو واللغة والحديث، وكان واسع الرواية، قد نصب نفسه للانتفاع عليه بالقرآن العزيز وجميع ضروب الأدب، ثم قال: وأنشدنى من شعره، وكان قد اشتغل عليه بالموصل، أعنى ابن المستوفى المذكور [من الوافر]:

سئمت من الحياة فلم أردها ... تسالمنى وتشجينى بريقى
عدوى لا يقصر فى أذاتى ... ويفعل مثل ذلك بى صديقى
وقد أضحت لى الحدباء داراً ... وأهل مودتى بلوى العقيق

والحدباء: كنية الموصل.

ومن شعره أيضا [من الوافر]:

إذا احتاج النوال إلى شفيع ... فلا تقبله تضح قرير عين

إذا عيف النوال لفرد مَنٍّ فأولى أن يعاف لمنتين

وله أيضاً [من الطويل] :

على الباب عبد يسأل الإذن طالباً
له أدبا لا أن نعماك تحجب

فان كان إذن فهو كالخير داخل عليك ، و إلا فهو كالشر يذهب

وهذا مأخوذ من قول بعضهم [من الطويل] :

على الباب عبد من عبيدك واقف
بنعماك مغمور ، بشكرك معترفْ

أيدخل كالإقبال لا زلت مقبلا
مدى الدهر أم مثل الحوادث ينصرِفْ

ثم قال ابن المستوفى : وكان قد أضر وهو ابن ثمان أو تسع سنين ، وكان أبداً يتعصب لأبى العلاء المعرى ، و يطرب إذا قرىء عليه شعره ، للجامع بينهما من العمى والأدب ، فسلك مسلكه فى النظم . انتهى كلام ابن المستوفى .

قلت : وحكى لى بعض من أخذ عنه أنه لما كان ببلده كان جيرانهم ومعارفهم يسمونه بمكيكى ، تصغير مكى ، فلما ارتحل واشتغل وحصل اشتاقت نفسه إلى وطنه ، فعاد إليه ، فتسامع به من بقى ممن كان يعرفه ، فزاروه وفرحوا به لكونه فاضلا من أهل بلدهم ، و بات تلك الليلة ، فلما كان السحر خرج إلى الحمام فسمع امرأة فى غرفتها تقول لأخرى : ما تدرين مَنْ جاء ؟ فقالت : لا ، فقالت : مكيكى بن فلانة ، فقال : والله لا أقمت فى بلد أدعى فيها مكيكياً ، وسافر من غير رَيْث بعد أن كان قد نوى الإقامة بهامدة ، وعاد إلى الموصل ، ثم خرج إلى الشام فى أواخر

عمره لزيارة بيت المقدس ، فانتهى إليه وقضى منه وطره ، ورجع إلى الموصل من حلب .

وكان دخوله إلى الموصل فى شهر رمضان ، وتوفى ليلة السبت السادس من شوال سنة ثلاث وستمائة بالموصل ، وخلف له ولدا صغيرا .

ودفن بصحراء باب الميدان فى مقبرة المعافى بن عمران جوار أبى بكر القرطبى وابن الدهان النحوى ، رحمهم الله تعالى !

ويقال : إنه مات مسموما من جهة صاحب الموصل نور الدين أرسلان شاه المقدم ذكره فى حرف الهمزة لسبب اقتضى ذلك ، والله أعلم .

وريان : بفتح الراء ، وتشديد الياء المثناة من تحتها ، وبعد الألف نون ،

وشبة : بفتح الشين المعجمة ، وتشديد الباء الموحدة ، وبعد هاء ساكنة

والماكسينى — بفتح الميم ، وبعد الألف كاف مكسورة ، وسين مهملة مكسورة أيضا ، ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها ، وبعدها نون — هذه النسبة إلى ماكسين ، وهى بلدة من أعمال الجزيرة على نهر الخابور ، وهى على صغرها تشابه المدن فى حسن بنائها ومنازلها .

* * *

(٧١٠)

أبو عبد الله مكحول بن عبد الله الشامى

أبو عبد الله مكحول بن عبد الله ، الشامى ، من سبي كابل

قال ابن عائشة : كان مولى لامرأة من قيس ، وكان سنديا لا يفصح ، وقال الواقدى : كان مولى لامرأة من هذيل ، وقيل : هو مولى سعيد بن العاص ، وقيل : مولى لبنى ليث ، قال الخطيب : كان جده ساول من أهل هَرَاة ، فتزوج ابنة لملك من ملوك كابل ، ثم هلك عنها وهى حامل ، فانصرفت إلى أهلها ، فولدت سهراز فلم يزل فى أخواله بكابل حتى ولد له مكحول ، فلما ترعرع سبى ، ثم وقع إلى سعيد ابن العاص ، فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقته ، وكان معلم الأوزاعى المقدم ذكره فى حرف الهمزة وسعيد بن عبد العزيز ، قال الزهرى : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشام ، ولم يكن فى زمنه أبصر منه بالفتيا ، وكان لا يفتى حتى يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، هذا رأى ، والرأى يخطىء ويصيب ، وسمع أنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وأبا هند الرازى وغيرهم ، وكان مقامه بدمشق ، وكان فى لسانه عجمة ظاهرة ، ويبدل بعض الحروف بغيره ، قال نوح بن قيس : سأله بعض الأمراء عن القَدَر ، فقال : أساهر أنا ؟ يريد أساحر أنا ، وكان يقول بالقدر ورجع عنه ، وقال معقل بن عبد الأعلى القرشى : سمعته يقول لرجل : مافعلت تلك الهاجة ؟ يريد الحاجة .

عجمة أهل السند

وهذه العجمة تغلب على أهل السند ، يحكى عن أبى عطاء السندى الشاعر المشهور ، واسمه مرزوق ، وهو من موالى أسد بن خزيمة ، أنه كان فى لسانه هذه العجمة ، فاجتمع حماد الرواية وحماد عجرد الشاعر المقدم ذكرهما ، وحماد بن الزبرقان النحوى ، وبكر بن مصعب المزنى ، فى بعض الليالى ليتذاكروا ، فقالوا :

مابقى شيء إلا وقد تهيأ لنا فى مجلسنا هذا ، فلو بعثنا إلى أبى عطاء السندى ليحضر عندنا و يكتمل به المجلس ، فأرسلوا إليه ، فقال حماد بن الزبرقان : أيكم يحتال لأبى عطاء حتى يقول : جرادة وزج وشيطان ؟ و إنما اختار له هذه الألفاظ لأنه كان يُبْدِل من الجيم زايا ، ومن الشين سينا ، فقال حماد الراوية : أنا أحتال فى ذلك ، فلم يلبثوا أن جاءهم أبو عطاء فقال لهم : هيا كم الله ، يريد حيا كم الله ، فقالوا له : مرهبا مرهبا ، يريدون مرحباً مرحبا على لغته ، فقالوا له : ألا تتعسى ؟ فقال : قد تعسيت ، فهل عندكم نبيذ؟ فقالوا : نعم ، فأتى إليه بنبيذ فشرب حتى استرخى فقال له حماد الراوية : يا أبا عطاء ، كيف معرفتك باللغز ؟ فقال : هسن ، يريد حسن ، فقال له ملغزا فى جرادة [من الوافر] :

فما صَفْرَاء تُكْنَى أم عوف كأن سويقتيها منجلان

فقال : زرادة ، فقال : صدقت ، ثم قال ملغزا فى زُجٍّ [من الوافر] :

فما اسم حديدة فى الرمح ترسى دوين الصدر ليست بالسنان

فقال أبو عطاء : زُزٌّ ، فقال حماد : أصبت ، ثم قال ملغزا فى مسجد بجوار بنى شيطان ، وهو بالبصرة [من الوافر]

أتعرف مسجداً لبنى تميم فويق الميل دون بنى أبان

فقال : هو فى بنى سيطان ، فقال : أحسنت ، ثم تنادموا وتفاكهوا إلى سحر فى أرغد عيش .

وهذا أبو عطاء من الشعراء المجيدين ، وكان عبداً أَخْرَبَ ، والأخرب : المشقوق الأذن ، وله فى كتاب الحماسة مقاطيع نادرة ، ولولا خشية الإطالة والخروج عن المقصود لذكرت جملة من شعره .

وتوفى مكحول المذكور سنة ثمان عشرة ، وقيل : ثلاث عشرة ، وقيل : ست عشرة ، وقيل : اثنتى عشرة ، وقيل : أربع عشرة ومائة ، رضى الله عنه !

وكَابُلُ — بفتح الكاف ، و بعد الألف باء موحدة مضمومة ، ثم لام — وهي ناحية معروفة ببلاد السند .

* * *

(٧١١)

جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي

أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد[١] بن داود بن ميكال بن سَلْجُوق بن دُقَاق ، الملقب جلال الدولة

وقد تقدم ذكر أبيه وجماعة من أهل بيته .

ولما توفي أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته كان ملكشاه في صحبته ، ولم يصحبه قبلها في سفر غير هذه المرة ، فولي الأمر من بعده بوصية والده وتحليف الأمراء والأجناد على طاعته ، ووصى وزيره نظام الملك أبا علي الحسن المقدم ذكره في حرف الحاء على تفرقة البلاد بين أولاده ، ويكون مرجعهم إلى ملكشاه المذكور ، ففعل ذلك وعَبَرَ بهم نهر جيحون راجعاً إلى البلاد ، وقد شرحت الواقعة في ترجمة والده فلا حاجة إلى الإعادة .

فلما وصل إلى البلاد وجد بعض أعمامه قد خرج عليه ، فعاجله وتصافا بالقرب من همذان ، فنصره الله عليه ، وانهزم عمه ، فتبعه بعض جند ملكشاه فأسروه وحملوه إلى ملكشاه ، فبذل التوبة ورضي بالاعتقال وأن لا يقتل ، فلم يجبه ملكشاه إلى ذلك ، فأنفذ إليه[٢] خريطة مملوأة من كتب أمرائه ، وأنهم حملوه على الخروج عن طاعته وحَسَّنوا له ذلك ، فدعا السلطان الوزير نظام الملك فأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ ما فيها ، فلم يفتحها ، وكان هناك كانون نار فرمى الخريطة فيه فاحترقت الكتب ، فسكنت قلوب العسكر ، وأَمِنوا ، ووطنوا أنفسهم على الخدمة ، بعد أن كانوا قد خافوا من الخريطة لأن أكثرهم كان

---

(١) في ب « بن محمد » ولم يذكر اسم « محمد » في ترجمة أخيه تتش ولا في ترجمة ابنه بركيا روق ، واسم ألب أرسلان محمد ، لاجرم أسقطنا كلمة « بن » وانظر التراجم رقم (١٠٧ و ١١٩ و ٦٦٢ و ٦٦٣ و ٦٦٤) (٢) في ب « فانفذ له »

قد كاتبه ، وكان سبب ثبات قدم ملكشاه فى السلطنة ، وكانت هذه معدودة من جميل آراء نظام الملك .

ثم إن ملكشاه أمر بقتل عمه ، فخنق بوترقوسه ، واستقرت القواعد للسلطان وفتح البلاد ، واتسعت عليه المملكة ، وملك ما لم يملكه أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء المتقدمين ، فانه ملك من كاشْغَرَ — وهى مدينة فى أقصى بلاد الترك — إلى بيت المقدس طولا ، ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر عرضا ، وكان قد قرر لمالكه ملك الدنيا .

وكان أحسن الملوك سيرة ، حتى كان يلقب بالسلطان العادل ، وكان منصورا فى الحروب ، ومغرما بالعمائر ، فحفر كثيراً من الأنهار ، وعمر على كثير من البلدان الأسوار ، وأنشأ فى المفاوز رباطات وقناطر ، وهو الذى عمر جامع السلطان ببغداد فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وزاد فى دار السلطنة بها ، وصنع بطريق مكة مصانع ، وغرم عليها أموالا كثيرة خارجة عن الحصر ، وأبطل المكوس والخفارات فى جميع البلدان .

وكان لهجاً بالصيد ، حتى قيل : إنه ضبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف ، فتصدق بعشرة آلاف دينار بعد أن نسى كثيرا منه ، وقال : إننى خائف من الله سبحانه وتعالى فى إزهاق الأرواح لغير مأكلة ، وصار بعد ذلك كلما قتل صيدا تصدق بدينار .

وخرج من الكوفة لتوديع الحاج ، فجاوز العذيب وشيعهم بالقرب من الواقصة وصاد فى طريقه وحشاً كثيراً فبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التى صادها فى ذلك الطريق ، والمنارة باقية إلى الآن وتعرف بمنارة القرون ، وذلك فى سنة ثمانين وأربعمائة .

وكانت السبل فى أيامه ساكنة ، والمخاوف آمنة ، تسير القوافل مما وراء

النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفير ، و يسافر الواحد والاثنان من غير خوف ولا رَهَب .

وحكى محمد بن عبد الملك الهمذانى فى تاريخه أن السلطان ملكشاه المذكور توجه لحرب أخيه تُتُشَ فاجتاز بمشهد على بن موسى الرضا رضى الله عنهما بطوس ودخل مع نظام الملك الوزير وصليا فيه وأطالا الدعاء ، ثم قال لنظام الملك : بأى شىء دعوت ؟ قال : دعوت الله تعالى أن ينصرك ويظفرك بأخيك ، فقال : أما أنا فلم أدع بهذا ، بل قلت : اللهم انصر أصلحنا للمسلمين ، وأنفعنا للرعية .

ثم قال الهمذانى أيضا عقيب هذا : وحكى أن واعظاً دخل عليه ووعظه ، فكان من جملة ما حكى له أن بعض الأكاسرة اجتاز منفردا عن عسكره على باب بستان ، فتقدم إلى الباب وطلب ماء يشربه ، فأخرجت له صبية إناء فيه ماء السكر والثلج ، فشربه واستطابه ، فقال لها : هذا كيف يعمل ؟ فقالت : إن قصب السكر يزكو عندنا حتى نعصره بأيدينا ، فيخرج منه هذا الماء ، فقال : ارجعى وأحضرى منه شيئاً آخر ، وكانت الصبية غير عارفة به ، ففعلت ، فقال فى نفسه : الصواب أن أعوضهم عن هذا المكان وأصطفيه لنفسى ، فما كان بأسرع من خروجها باكية ، وقالت : إن نية سلطاننا قد تغيرت ، فقال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : كنت آخذ من هذا ما أريد من غير تعسف ، والآن قد اجتهدت فى عصر القصب فلم يسمح ببعض ما كان يأتى ، فعلم صدقها ، فرجع عن تلك النية ، ثم قال لها : ارجعى الآن فانك تبلغين الغرض ، وعقد على نفسه أن لا يفعل ما نوى ، فخرجت الصبية ومعها ما شاءت من قصب السكر وهى مستبشرة ، فقال للواعظ : فلم لا تذكر للرعية أن كسرى اجتاز على بستان فقال للناطور : ناولنى عنقودا من الحصرم ، فقال له : ما يمكننى ذلك ، فان السلطان لم يأخذ حقه ولا تجوز لى خيانته ، فعجب الحاضرون من مقابلته الحكاية بمثلها ،

ومعارضته بما أوجب الحق له ما أوجب الحق عليه .

وحكى الهمذانى أيضاً أن سواديا لقيه وهو يبكى ، فسأله السلطان عن سبب بكائه ، فقال : ابتعت بطيخا بدريهمات لا أملك غيرها ، فلقينى ثلاثة أغلمة أتراك فأخذوه منى ، ومالى حيلة سواه ، فقال : أمسك ، واستدعى فراشا ، وكان عند باكورة البطيخ ، وقال له : إن نفسى اشتاقت إلى البطيخ ، فطف فى العسكر وانظر من عنده شىء منه فأحضره ، فعاد ومعه بطيخ ، فقال : عند من رأيته ؟ قال : عند الأمير فلان ، فأحضره فقال له : من أين لك هذا البطيخ ؟ فقال : جاء به الغلمان ، فقال : أريدهم الساعة ، فمضى وقد عرف نية السلطان فيهم ، فهربهم وعاد فقال : لم أجدهم ، فالتفت إلى السوادى وقال : هذا مملوك وقد وهبته لك حيث لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك ، والله لئن خليته لأضربن[1] عنقك ، فأخذه السوادى بيده ، وأخرجه من بين يدى السلطان ، فاشترى الأمير منه نفسه بثلثمائة دينار ، وعاد السوادى وقال : يا سلطان ، قد بعت المملوك بثلثمائة دينار ، فقال : أو قد رضيت ؟ قال : نعم ، قال : امض مصاحَباً .

وكانت البركة واليمن مقرونين بناصيته ، فكان إذا دخل أصبهان أو بغداد أو أى بلد كان دخل معه عدد لا يحصى كثرة ، فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه ، ويكتسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير .

وحكى الهمذانى أيضاً أنه أحضرت إليه مغنية وهو بالرى ، فأعجب بها فاستطاب غناءها ، فهم بها ، فقالت : يا سلطان ، إنى أغار على هذا الوجه الجميل أن يعذب بالنار ، فان الحلال أيسر ، وبينه وبين الحرام كلمة ، فقال : صدقت ، واستدعى بالقاضى فتزوجها منه ، وابتنى بها ، وتوفى عنها .

وعيون محاسنه أكثر من أن تحصى .

وحكى الهمذانى أيضاً أن نظام الملك الوزير وقع للملاحين الذين عبروا بالسلطان والعسكر نهر جيحون على العامل بأنطاكية ، وذلك لسعة المملكة ،

---

(١) فى ب « لأضربن رقبتك »

وكانت أجرة المعابر أحد عشر ألف دينار .

وتزوج الإمام المقتدى بالله أمير المؤمنين ابنة السلطان ، وكان السفير فى الخطبة الشيخ أبو إسحاق الشيرازى صاحب المهذب والتنبيه ، رحمه الله تعالى ! وأنفذه الخليفة إلى نيسابور لهذا السبب ، فان السلطان كان هناك ، فلما وصل إليه أدى الرسالة ونجز الشغل .

قال الهمذانى أيضاً : وعاد الشيخ أبو إسحاق إلى بغداد فى أقل من أربعة أشهر ، وناظر إمام الحرمين هناك ، فلما أراد الانصراف من نيسابور خرج إمام الحرمين للوداع ، وأخذ بركابه حتى ركب أبو إسحاق ، فظهر له فى خراسان منزلة عظيمة ، وكانوا يأخذون التراب الذى وطئته بغلته ويتبركون به .

وكان زفاف ابنة السلطان إلى الخليفة فى سنة ثمانين وأربعمائة ، وفى صبيحة دخولها عليه أحضر الخليفة(١) المقتدى عسكر السلطان على سماط صنعه لهم كان فيه أربعون ألف مَنٍّ سكراً ، وفى بقية هذه السنة رزق الخليفة ولدا من ابنة السلطان سماه أبا الفضل جعفرا ، وزينت بغداد لأجله .

وكان السلطان قد دخل إلى بغداد دفعتين ، وهى من جملة بلاده التى تحتوى عليها مملكته ، وليس للخليفة فيها سوى الاسم ، فلما عاد إليها فى الدفعة الثالثة دخلها فى أوائل شعبان سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وخرج من فوره إلى ناحية دجيل لأجل الصيد ، فاصطاد وحشاً وأكل من لحمه ، فابتدأت به العلة ، وافتصد ، فلم يكثر من إخراج الدم ، فعاد إلى بغداد مريضاً ، ولم يصل إليه أحد من خاصته ، فلما دخلها توفى ثانى يوم دخوله ، وهو السادس عشر من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى !

وكانت ولادته فى التاسع من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وأربعمائة .

ولما مات لم يشهد له أحد جنازة ولا صلى عليه أحد فى الصورة الظاهرة ، ولا جلسوا للعزاء ، ولا حذف عليه ذنب فرس كعادة أمثاله ، بل كأنه اختلس

---

(١) فى نسخة « أحضر الإمام المقتدى »

من العالم ، وحمل تابوته إلى أصبهان ، ودفن بها فى مدرسة عظيمة موقوفة على طائفة الشافعية والحنفية.

ومن عجيب الاتفاق أنه لما دخل بغداد فى هذه المرة ، وكان للخليفة ولدان أحدهما المستظهر بالله والآخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السلطان وقد تقدم ذكر ولادته ، وكان الخليفة قد بايع لولده المستظهر بالله بولاية العهد من بعده لأنه كان الأكبر ، فألزم السلطانُ الخليفةَ أن يخلعه ويجعل ابن بنته جعفرا ولى عهده ، ويسلم بغداد إليه ، ويخرج الخليفة إلى البصرة ، فشق ذلك على الخليفة ، وبالغ فى استنزال السلطان عن هذا الرأى ، فلم يفعل ، وطلب المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله ، فقيل : إن الخليفة فى تلك الأيام جعل يصوم ويطوى وإذا أفطر جلس على الرماد للافطار ، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان ، فمرض السلطان فى تلك الأيام ومات ، وكفى الخليفة أمره ، وتزوج الإمام المستظهر بالله ابنته خاتون العصمة فى سنة اثنتين وخمسمائة .

وقد تقدم ذكر أولاده الثلاثة الملوك ، وهم بركياروق ، وسنجر ، ومحمد ، كل واحد له ترجمة فى حرفه ، رحمهم الله تعالى أجمعين ! .

وكَاشْغَر ـ بفتح الكاف ، وبعد الألف شين معجمة ساكنة ، وغين معجمة مفتوحة ، وبعدها راء ـ وقد ذكرت أين هى فلا حاجة إلى إعادته .

والواقصة ـ بفتح الواو ، وبعد الألف قاف مكسورة ، وبعدها صاد مهملة ، مفتوحة ، ثم هاء ساكنة ـ وهى منزلة معروفة بطريق مكة يقال لها: واقصة الحرون والباقى معروف فلا حاجة إلى تفسيره .

***

(٧١٢)

أبو الحسن منصور بن إسماعيل التميمى ، المصرى الفقيه الشافعى

أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر ، التميمى ، المصرى ، الفقيه الشافعى ، الضرير

أصله من رأس عين البلد المشهورة بالجزيرة ، وأخذ الفقه عن أصحاب الشافعى ، رضى الله عنه وعن أصحابه ! وله مصنفات فى المذهب مليحة منها الواجب والمستعمل والمسافر والهداية وغير ذلك من الكتب ، وله شعر جيد سائر ، وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازى – رحمه الله تعالى ! – فى طبقات الفقهاء ، وأنشد له [من البسيط] :

عاب التفقه قوم لا عقول لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضر شمسَ الضحى والشمس طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ومن هنا أخذ أبو العلاء المعرى قوله من قصيدته المشهورة [من البسيط] :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيتَه
والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

ومن شعره أيضاً [من مجزوء الكامل] :

لى حيلة فيمن ينم وليس فى الكذاب حيله
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليله

وله أيضا [من مجزوء الكامل] :

الكلب أحسن عشرة وهو النهاية فى الخساسه
ممن ينازع فى الريا سة قبل أوقات الرياسه

وحكى أنه أصابته مسغبة فى سنة شديدة القحط فرقى سطح داره ، ونادى بأعلى صوته فى الليل [من الخفيف] :

الغياث الغياث يا أحرار نحن خلجانكم وأنتم بحار
إنما تحسن المواساة فى الشـــدة لا حين ترخص الأسعار

فسمعه جيرانه ، فأصبح على بابه مائة حمل برا .

وحكاياته وأخباره مشهورة .

وتوفى فى جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة بمصر ، وقال الشيخ أبو إسحاق فى الطبقات : إنه مات قبل العشرين والثلثمائة ، رحمه الله تعالى !

وذكره القاضى أبو عبد الله فى كتاب خطط مصر فقال : أصله من رأس عين [و] الرملة ، وقدم إلى مصر ، وسكنها ، وتوفى سنة ست وثلثمائة ، وكان فقيهاً جليل القدر ، متصرفا فى كل علم ، شاعراً مجيداً ، لم يكن فى زمانه مثله بمصر ، وكان من أكرم الناس على أبى عبيد القاضى ، حتى كان منهما ما كان بسبب المسألة ، وكان لأبى عبيد فى كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلا من أهل العلم ويخلو به ، خلا عشية الجمعة فانه كان يخلو بنفسه فيها ، فكان من العشايا عشية يخلو فيها بمنصور ، وعشية يخلو فيها بأبى جعفر الطحاوى ، وعشية يخلو فيها بمحمد بن الربيع الجيزى ، وعشية يخلو فيها بعفان بن سليمان ، وعشية يخلو فيها بالسجستانى ، وعشية يخلو فيها للنظر مع الفقهاء ، وربما حدث ، فجرى بينه وبين منصور فى بعض العشايا ذكر الحامل المطلقة ثلاثا ، ووجوب نفقتها ، فقال أبو عبيد : زعم قوم أن لا نفقة لها فى الثلاث ، وأن نفقتها فى الطلاق غير الثلاث ، فأنكر ذلك منصور ، وقال قائل : هذا ليس من أهل القبلة ، ثم انصرف منصور فحدث بذلك أبا جعفر الطحاوى ، فحكاه أبو جعفر لأبى عبيد ، فأنكره ، وبلغ ذلك منصورا ، فقال : أنا أكذبه ، واجتمع الناس عند القاضى ، وتواعدوا لحضور ذلك ، فلما حضروا لم يتكلم أحد ، فابتدأ أبو عبيد وقال : ما أريد أحدا يدخل على ، ما أريد متصوراً ولا نصاراً ولا منتصراً ، قوم عميت قلوبهم كما عميت أبصارهم يحكون عنا ما لم نقله ، فقال له منصور : قد علم الله الكاذب ، ونهض فلم يأخذ أحد بيده

غير أبى بكر بن الحداد فانه أخذ بيده وخرج معه حتى ركب ، وزاد الأمر فيما بينهما ، وتعصب الأمير ذكا وجماعة من الجند وغيرهم لمنصور ، وتعصب للقاضى جماعة ، وشهد على منصور محمد بن الربيع الجيزى بكلام سمعه منه يقال : إن منصورا حكاه عن النظام ، فقال القاضى : إن شهد عليه آخر مثل ما شهد به عليه محمد بن الربيع ضربت عنقه ، فخاف على نفسه ومات فى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وخاف أبو عبيد أن يصلى عليه لأجل الجند الذين تعصبوا لمنصور ، فتأخر عن جنازته لهذا السبب ، وحضرها الأمير ذكا وابن بسطام صاحب الخراج ، وأوعب الناس ، ولم يتخلف أحد ، وذكر أبو عبيد أن منصورا قال عند موته [من مخلع البسيط] :

قضيت نَحْبى فسر قوم حمقى بهم غفلة ونوم
كأن يومى على حتم وليس للشامتين لوم

فأطرق أبو عبيد ساعة ثم قال [من مخلع البسيط] :

تموت قبلى ولو بيوم ونحن يوم النشور توم
فقد فرحنا وقد شمتنا وليس للشامتين لوم

❊ ❊ ❊

(٧١٣)

أبو على المنصور الملقب الحاكم بأمر الله بن العزيز بن المعز بن المنصور ابن القاسم بن المهدى صاحب مصر

المنصور أبو على الحاكم بأمر الله العبيدى صاحب مصر

وقد تقدم ذكر أجداده وجماعة من أحفاده ، وسيأتى ذكر أبيه فى حرف النون إن شاء الله تعالى ، وكلهم كانوا يَتَسَمَّوْن بالخلفاء .

وتولى الحاكم المذكور عهد أبيه فى حياته ، وذلك فى شعبان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، ثم استقل بالأمر يوم وفاة والده على ما سيأتى فى تاريخه إن شاء الله تعالى .

وكان جوادا بالمال ، سفاكا للدماء ، قتل عدداً كثيراً من أماثل أهل دولته وغيرهم صبرا ، وكانت سيرته من أعجب السير ، يخترع كل وقت أحكاما يحمل الناس على العمل بها ، منها أنه أمر الناس فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة بكتب سب الصحابة رضوان الله عليهم فى حيطان المساجد والمقابر والشوارع ، وكتب إلى سائر عمال الديار المصرية يأمرهم بالسب ، ثم أمر بقلع ذلك ونهى عنه وعن فعله سنة سبع وتسعين ، ثم تقدم بعد ذلك بمدة يسيرة بضرب من يسب الصحابة وتأديبه ثم يشهر ، ومنها أنه أمر بقتل الكلاب فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة فلم يركب فى الأسواق والأزقة والشوارع إلا قتل ، ومنها أنه نهى عن بيع الفُقّاع (١) والملوخيا والترمس والجرجير والسمك الذى لا قشر له ، وأمر بالتشديد فى ذلك والمبالغة فى تأديب من يتعرض لشىء منه ، وظهر على جماعة أنهم باعوا أشياء منه ، فضربهم بالسياط ، وطيف بهم ، ثم ضربت أعناقهم ، ومنها أنه فى سنة اثنتين وأربعمائة نهى عن بيع الزبيب قليله وكثيره على اختلاف أنواعه ، ونهى التجار عن حمله إلى مصر ، ثم جمع بعد ذلك منه جملة كثيرة وأحرق جميعها ،

(١) الفقاع : شراب يتخذ من الشعير ، سمى بذلك لما يعلوه من الزبد والفقاعات

ويقال : إن مقدار النفقة التى غرموها على إحراقه كانت خمسمائة دينار ، وفى هذه السنة منع من بيع العنب وأنفذ الشهود إلى الجيزة حتى قطعوا كثيرا من كرومها ورموها فى الأرض وداسوها بالبقر ، وجمع ما كان فى مخازنها من جرار العسل فكانت خمسة آلاف جرة ، وحملت إلى شاطىء النيل وكسرت وقلبت فى النيل ، وفى هذه السنة أمر النصارى واليهود إلا الخيابرة بلبس العمائم السود ، وأن يحمل النصارى فى أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعا ووزنه خمسة أرطال وأن يحمل اليهود فى أعناقهم قرامى الخشب على وزن صلبان النصارى، ولا يركبوا شيئاً من المراكب المحلاة ، وأن تكون ركبهم من الخشب ، ولا يستخدموا أحداً من المسلمين ، ولا يركبوا حمارا لمكار مسلم ولا سفينة نوتيها مسلم ، وأن يكون فى أعناق النصارى إذا دخلوا الحمام الصلبان ، وفى أعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا عن المسلمين ، ثم أفرد حمامات اليهود والنصارى من حمامات المسلمين ، و[وضع] على حمامات النصارى الصلبان ، وعلى حمامات اليهود [صور] القرامى ، وذلك فى سنة ثمان وأربعمائة ، وفيها أمر بهدم الكنيسة المعروفة بقمامة وجميع الكنائس بالديار المصرية ، ووهب جميع ما فيها من الآلات وجميع ما لها من الأرباع والأحباس لجماعة من المسلمين ، وتتابع إسلام جماعة من النصارى ، وفى هذه السنة نهى عن تقبيل الأرض له وعن الدعاء والصلاة عليه فى الخطب ، وأن يجعل عوض ذلك «السلام على أمير المؤمنين» ، وفى سنة أربع وأربعمائة أمر أن لا ينجم أحد ولا يتكلم فى صناعة النجوم ، وأن ينفى المنجمون من البلاد ، فحضر جميعهم إلى القاضى مالك بن سعيد الحاكم بمصر وعقد عليهم توبة ، وأعفوا من النفى ، وكذلك أصحاب الغناء ، وفى شعبان من هذه السنة منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف للنساء ، ومحيت صورهن من الحمامات ، ولم تزل النساء ممنوعات عن الخروج إلى أيام ولده الظاهر المقدم

ذكره ، وكانت مدة منعهن سبع سنين وسبعة أشهر ، وفى شعبان سنة إحدى عشرة وأربعمائة تنصر جماعة ممن كان أسلم من النصارى ، فأمر ببناء ما كان قد هدم من كنائسهم وردما كان قد أخذ من أحباسها ، وبالجملة فهذه نبذة من أحواله ، وإن كان شرحها يطول .

وكان أبو الحسن على المعروف بابن يونس المنجم قد صنع له الزيج المعروف بالحاكمى ، وهو زيج كبير مبسوط .

ونقلت من خط الحافظ أبى طاهر أحمد بن (١) محمد السلفى ـ رحمه الله تعالى ! ـ أن الحاكم المذكور كان جالسا فى مجلسه العام وهو حفل بأعيان دولته ، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) والقارىء فى أثناء ذلك يشير إلى الحاكم ، فلما فرغ من القراءة قرأ شخص آخر يعرف بابن المُشَجَّر وكان رجلا صالحا : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) فلما انتهت قراءته تغير وجه الحاكم ، ثم أمر لابن المشَجَّر المذكور بمائة دينار ، ولم يطلق للآخر شيئا ، ثم إن بعض أصحاب ابن المشَجَّر قال له : أنت تعرف خلق الحاكم ، وكثرة استحالاته ، وما نأمن أن يحقد عليك ، وأنه لا يؤاخذك فى هذا الوقت ثم يؤاخذك بعد هذا فتتأذى منه ، ومن المصلحة عندى أن تغيب عنه ، فتجهز ابن المشَجَّر للحج ، وركب فى البحر وغرق ، فرآه صاحبه فى النوم ، فسأله عن حاله ، فقال : ما قصر الرُّبَّان (٢) معنا أرسى بنا على باب الجنة ، رحمه الله تعالى ! وذلك ببركة جميل نيته وحسن قصده .

---

(١) فى ب « أبى طاهر بن أحمد بن محمد ـ ولا محل لكلمة « بن » فان أبا طاهر اسمه أحمد (وانظر الترجمة رقم ٤٣ فى الجزء الأول من هذا الكتاب)

(٢) فى ب «ما قصر الديان»

والحاكم المذكور هو الذى بنى الجامع الكبير بالقاهرة ، بعد أن كان قد شرع فيه والده العزيز بالله كما سيأتى ذكره فى ترجمته إن شاء الله تعالى ، وأكمله ولده ، وبنى جامع راشدة بظاهر مصر ، وكان شروعه فى عمارته يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وكان متولى بنائه الحافظ أبا محمد عبد الغنى بن سعيد ، والمصحح لمحرابه أبا الحسن على بن يونس المنجم ، وقد تقدم ذكرهما ، وأنشأ عدة مساجد بالقاهرة وغيرها ، وحمل إلى الجوامع من المصاحف والآلات الفضية والستور والحُصُر السامانية ماله قيمة طائلة ، وكان يفعل الشىء وينقضه

وكانت ولادته بالقاهرة ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة

وكان يحب الانفراد والركوب على بهيمة وحده ، فاتفق أنه خرج ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة إلى ظاهر مصر ، وطاف ليلته كلها وأصبح عند قبر الفُقّاعى ، ثم توجه إلى شرقى حُلوان ومعه ركابيان ، فأعاد أحدهما مع تسعة من العرب السويديين ، ثم أعاد الركابى الآخر ، وذكر هذا الركابى أنه خلفه عند القبر والمقصبة ، وبقى الناس على رسمهم يخرجون يلتمسون رجوعه ومعهم دواب الموكب إلى يوم الخميس سلخ الشهر المذكور ، ثم خرج يوم الأحد ثانى ذى القعدة مُظَفَّر صاحب المظلة وخطلبا الصقلبى ونسيم متولى الستر وابن نشتكين [1] التركى صاحب الرمح وجماعة من الأولياء الكتاميين والأتراك ، فبلغوا دير القصير الموضع المعروف بحلوان [2] ، ثم أمعنوا فى الدخول فى الجبل فبينماهم كذلك إذ أبصروا حماره الأشهب الذى كان راكباً عليه المدعو بالقمر ، وهو على قرنة الجبل ، وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما ، وعليه سرجه ولجامه ، فتتبعوا أثر الحمار فى الأرض وأثر راجل خلفه وراجل قدامه ، فلم يزالوا يقصون هذا الأثر

(١) فى النجوم عن القضاعي « وابن مسكين صاحب الرمح »

(٢) فى ب « دير القصر والموضع المعروف بسلوان » وما أثبتناه يوافق ما فى النجوم والمقريزى .

حتى انتهوا إلى باب البركة التى فى شرقى حلوان ، فنزل إليها بعض الرجالة فوجد فيها ثيابه ، وهى سبعة جباب ، ووجدت مزررة لم تحل أزرارها ، وفيها آثار السكاكين فأخذت وحملت إلى القصر بالقاهرة ، ولم يشك فى قتله ، مع أن جماعة من المغالين فى حبه السخيفى العقول يظنون حياته ، وأنه لابد أن يظهر ، ويحلفون بغيبة الحاكم وتلك خيالات هذيانية ، ويقال : إن أخته دَسَّتْ عليه من يقتله لأمر يطول شرحه والله أعلم (١)

وابن المُشَجَّر : بضم الميم ، وفتح الشين المعجمة والجيم المشددة ، وبعدها راء

وحلوان — بضم الحاء المهملة ، وسكون الميم ، وفتح الواو ، وبعد الألف نون — وهى قرية مليحة كثيرة النزه فوق مصر بمقدار خمسة أميال ، وكان يسكنها عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموى لما كان والياً بمصر نيابة عن أخيه عبد الملك أيام خلافته ، وبها توفى ، وبها وُلد عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه !

***

---

(١) كانت أخت الحاكم ست الملك من أعقل النساء وأحزمهن ، وخافته على نفسها ، وخافت أن يكون جنونه سببا فى ضياع الملك من قومها ، والرواية التى يشير إليها المؤلف قد حكاها صاحب النجوم الزاهرة مفصلة عن ابن الصابى (ج ٤ ص ١٨٥ دار الكتب)

(٧١٤)

أبو على الآمر بأحكام الله العبيدى

أبو على المنصور الملقب الآمر بأحكام الله بن المستعلى ابن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدى ، المذكور قبله

وقد تقدم بقية نسبه ، وسبق ذكر والده فى الأحمدين فى حرف الهمزة ، وبويع الآمر بالولاية يوم مات أبوه فى التاريخ المذكور فى ترجمته ، وأقام بتدبير دولته الأفضلُ شاهنشاه بن أمير الجيوش المذكور فى حرف الشين ، وكان وزير والده ، وقد ذكرنا فى ترجمته طرفا من أخبار الأمير المذكور ، ولما اشتد الآمر وفطن لنفسه قتل الأفضلَ حسبما تقدم شرحه ، واستوزر المأمون أباعبدالله محمد بن أبى شجاع فاتك البطائحى ، فاستولى هذا الوزيرُ عليه ، وقبح سمعته ، وأساء سيرته ، ولما كثر ذلك منه قبض عليه الآمر أيضاً ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة واستصفى جميع أمواله ، ثم قتله فى رجب سنة إحدى وعشرين ، وصلب بظاهر القاهرة وقتل معه خمسةً من إخوته : أحدهم يقال له المؤتمن ، وكان متكبراً متجبراً خارجا عن طوره ، وله أخبار مشهورة

وكان الآمر سيىء الرأى ، جائر السيرة ، مستهتراً ، متظاهراً باللهو واللعب ، وفى أيامه أخذ الفرنج مدينة عكا فى شعبان سنة سبع وتسعين وأربعمائة ، وأخذوا طرابلس الشام بالسيف يوم الإثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة اثنتين وخمسمائة ، وكان أخذهم لها بالسيف ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وحصل فى أيديهم من أمتعتها وذخائرها وكتب دار علمها وما كان فى خزائن أربابها مالا يحد ولا يحصى ، وعوقب من بقى من أهلها ، واستصفيت أموالهم ، ثم وصلتها نجدَة المصريين بعد فوات الأمر فيها ، وفى هذه السنة ملكوا عِرْقَة وكان نزولهم عليها أول شعبان من السنة المذكورة ، وفيها ملكوا بانياس ، وفيها تسلموا

جبل الأمان، وتسلموا قلعة تِبْنين يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ثم تسلموا مدينة صُور يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وكان الوالى بها من جهة الأتابك ظهير الدين طغتكين المذكور فى حرف التاء فى ترجمة تُتُش بن ألب أرسلان، وكان يومئذ صاحب دمشق وما والاها ، ولما ملكوا صور ضربوا السكة باسم الآمر المذكور مدة ثلاث سنين ، ثم قطعوا ذلك ، وأخذوا بيروت يوم الجمعة الحادى والعشرين من شوال سنة ثلاث وخمسمائة بالسيف ، وأخذوا صيدَا لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسمائة .

وفى أيام الآمر أيضاً سنة أربع وخمسمائة — وقيل : سنة إحدى عشرة ، والله أعلم — قصد بردويل الفرنجى الديار المصرية ليأخذها ، وانتهى إلى الفَرَمَا ودخلها وأحرقها وأحرق جامعها ومساجدها ، ورحل عنها وهو مريض ، فهلك فى الطريق قبل وصوله إلى العريش ، فشق أصحابه بطنه ورموا حُشْوَته هناك ، فهى ترجم إلى اليوم ، ورحلوا بجثته فدفنوها بقمامة ، وسبخَةُ بردويل التى فى وسط الرمل على طريق الشام منسوبة إلى بردويل المذكور، والحجارة الملقاة هناك والناس يقولون : هذا قبر بردويل ، إنما هى هذه الحشوة ، وكان بردويل صاحب بيت المقدس وعكا ويافا وعدة بلاد من ساحل الشام، وهو الذى أخذ هذه البلاد المذكورة من المسلمين .

وفى هذه السنة أيضاً خرج المهدى محمد بن تُومَرْت المقدم ذكره من مصر وصاحبها الآمر المذكور إلى بلاد المغرب فى زى الفقهاء ، وجرى له هناك ما سبق شرحه فى ترجمته .

وكانت ولادة الآمر يوم الثلاثاء ثالث عشر محرم سنة تسعين وأربعمائة ، بالقاهرة ، وتولى وعمره خمس سنين .

ولما انقضت أيامه خرج من القاهرة صبيحة يوم الثلاثاء ثالث ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ونزل إلى مصر وعدى على الجسر [إلى] (١) الجزيرة التى قبالة

(١) سقطت هذه الكلمة من ب ، ولا بد منها ، وهي ثابتة فى النجوم (٥/ ١٧٤) فيما نقله عن ابن خلكان ، والجزيرة التى قبالة مصر هى المعروفة بالروضة

مصر ، فكمن له قوم بالأسلحة وتواعدوا على قتله فى السكة التى يمر فيها إلى فرن هناك ، فلما مر بهم وثبوا عليه فلعبوا عليه بأسيافهم ، وكان قد جاوز الجسر وحده مع عدة قليلة من غلمانه و بطانته وخاصته وشيعته ، فحمل فى النيل فى زورق ولم يمت ، وأدخل القاهرة وهو حى ، وجىء به إلى القصر فمات من ليلته ، ولم يعقب ، وهو العاشر من أولاد المهدى عبيد الله القائم بسِجِلْماسة المقدم ذكره.

وانتقل الأمر إلى ابن عمه الحافظ عبد المجيد المقدم ذكره ، رحمهم الله تعالى!

وكان قبيح السيرة ، ظالما للناس بأخذ أموالهم وسفك دمائهم ، وارتكب المحظورات ، واستحسن القبائح ، فابتهج الناس بقتله ، وكان ربعة ، شديد الأدْمة ، جاحظ العينين ، حسن الخط والمعرفة والعقل.

وأما المأمون ابن البطائحى الوزير المذكور فهو الذى بنى الجامع الأقمر بالقاهرة سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وكان الأفضل ابن أمير الجيوش قد شرع فى عمارة جامع النيل بظاهر مصر عند الرصد المطل على بركة الحبش فى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ، ولم يكمله ، فأكمله المأمون بعده فى مدة وزارته ، والله أعلم.

***

(٧١٥)

قطب الدين مودود بن زنكى المعروف بالأعرج صاحب الموصل

قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر ، المعروف بالأعرج ، صاحب الموصل

وقد تقدم ذكر طرف من خبره فى ترجمة أخيه نور الدين محمود صاحب الشام ، وذكر أولاده الثلاثة ، وهم : سيف الدين غازى الذى تولى السلطنة بعده ، وعز الدين مسعود ، وعماد الدين زنكى صاحب سنجار ، واستوعبت فى ترجمة غازى ما جرى من نور الدين عقيب موت قطب الدين ، وأنه قصد الموصل ثم قرر أمر غازى المذكور فيها ، ورتب أحوال أولاد أخيه كلهم ، وفى تلك السفرة بنى نور الدين الجامع النورى داخل الموصل ، وهو مشهور هناك يُقام فيه الجمعة ، وكان سبب عمارته ما حكاه العماد الأصبهانى فى « البرق الشامى » عند ذكره لوصول نور الدين إلى الموصل أنه كان بالموصل خربة متوسطة البلد واسعة ، وقد أشاعوا عنها ماينفر القلوب منها ، وقالوا : ماشرع فى عمارتها إلا من ذهب عمره ، ولم يتم على مراده أمره ، فأشار عليه الشيخ الزاهد معين الدولة عمر الملا — وكان من كبار الصالحين — بابتياء الخربة ، وبنى بها جامعاً ، وأنفق فيها أموالا جزيلة ، ووقف على الجامع ضيعة من ضياع الموصل

وكان قطب الدين قدتولى السلطنة بالموصل وتلك البلاد عقيب موت أخيه سيف الدين غازى الأكبر المقدم ذكره أيضاً ، وكان حسن السيرة ، عادلا فى حكمه ، وفى دولته عظم شأن جمال الدين محمد الوزير الأصبهانى المعروف بالجواد المقدم ذكره ، وهو الذى قبض عليه حسبما سبق شرحه ، وكان مدبر دولته وصاحب رأيه الأمير زين الدين على كجك والد مظفر الدين صاحب إربل ، وكان نعم المدبر والمشير لصلاحه وخيره وحسن مقاصده مع شجاعة تامة وفروسية مشهورة ، وقد تقدم أيضاً ذكره فى ترجمة ولده مظفر الدين فى حرف الكاف .

ولم يزل قطب الدين المذكور على سلطنته ونفاذ كلمته إلى أن توفى فى شوال سنة خمس وستين وخمسمائة ، وقيل : فى الثانى والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة .

وذكر أسامة بن منقذ فى كتاب له صغير ذكر فيه من أدركه فى عمره من ملوك البلاد أن قطب الدين المذكور توفى سلخ شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة ، وليس بصحيح ، فان أخاه نور الدين كان بالموصل فى شهر ربيع الآخر، وجاءته رسل الخليفة وهو مخيم على الموصل فى الشهر المذكور، ولم يتوجه نور الدين إليها إلا بعد وفاة أخيه قطب الدين .

وكان وفاته بالموصل ، ومدة عمره أكثر من أربعين سنة بقليل ، وخلف عدة أولاد ، وأكثرهم ملك البلاد .

وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجماعة من أهل بيته ، رحمهم الله تعالى !

* * *

(٧١٦)

أبو فيد مؤرج بن عمـرو السدوسى النحـوى البـصرى

أبو فَيْد مُؤَرِّج بن عمرو بن الحارث بن ثور بن سعد بن حرملة
ابن علقمة بن عمرو بن سَدُوس بن شيبان بن ذُهْل بن ثعلبة
بن عكابة ، السَّدُوسى ، النحوى ، البصرى

أخذ العربية عن الخليل بن أحمد ، وروى الحديث عن شعبة بن الحجاج وأبى عمرو بن العلاء وغيرهما ، وكان يقول : قدمت من البادية ولامعرفة لى بالقياس فى العربية ، و إنما كانت معرفتى قريحة ، وأول ما تعلمت القياس فى حلقة أبى زيد الأنصارى بالبصرة

ودخل الأخفش سعيد بن مسعدة على محمد بن المهلب ، فقال له محمد : من أين جئت ؟ فقال الأخفش : من عند القاضى يحيى بن أكثم ، قال : فما جرى عنده ؟ قال : سألنى عن الثقة المأمون المقدَّم من أصحاب الخليل بن أحمد من هو ؟ ومن الذى كان يوثق بعلمه ؟ فقلت : النضر بن شميل وسيبويه ومؤرج السدوسى .

وكان الغالب على مؤرج المذكور اللغة والشعر ، وله تصانيف : منها كتاب « الأنواء » وهو كتاب حسن ، وكتاب « غريب القرآن » وكتاب « جماهير القبائل » وكتاب « المعانى » وغير ذلك ، واختصر نسب قريش فى مجلد لطيف سماه « حذق نسب قريش » .

وكان قد رحل مع المأمون من العراق إلى خراسان ، وسكن مدينة مَرْوَ ، وقدم نيسابور ، وأقام بها ، وكتب عنه مشايخها ، وكان له شعر ، فمن ذلك ما أنشده هرون بن على بن يحيى المنجم فى كتابه المسمى بالبارع ، وهو قوله [من البسيط] :

رُوِّعْتُ بالبين حتى ماأُراع له ... وبالمصائب من أهلى وجيرانى [1]
لم يترك الدهر لى علقا أضن به ... إلا اصطفاه بنأى أو بهجران

---

(١) حفظى « فى أهلى وجيرانى » .

ثم قال ابن المنجم المذكور : وهذان البيتان من أملح ما قيل فى معناهما ، ومثلهما فى معناهما لبعض المحدثين ، وهو قوله [من الطويل] :

وفارقت حتى ما أراع من النوى وإن غاب جيران على كرام
فقد جَعَلَتْ نفسى على النأى تنطوى
وعينى على فقد الحبيب تنام

ومن ههنا أخذ ابنُ التعاويذى المقدم ذكره قولَه [من الطويل] :

وها أنا لا قلبى يراع لفائت فيأسى ، ولا يلهيه حظ فيفرح

وهذا البيت من جملة قصيدة يذكر فيها توجعه لذهاب بصره ، فمنها قوله مشيرا إلى زوجته [من الطويل] :

وباكية لم تشك فقداً ، ولا رمى بجيرتها الأدْنَيْن نأىٌ مطوحٌ
رمتها يد الأيام فى ليث غابها بفادح خطب والحوادث تفدح
رأت جللا لا الصبر يجمل بالفتى على مثله يوما ، ولا الحزن يقبح
فلا غرو أن تبكى الدماء لكاسب
لها كان يسعى فى البلاد و يكدح
عزيز عليها أن ترانى جاثما
ومالى فى الأرض البسيطة مَسْرَحُ
وأن لا أقود العِيسَ تنفخ فى الثرى(١)
وجُرْدَ المذاكى فى الأعنة تمرح
أظل حبيساً فى قرارة منزل رهين أسى أمسى عليه وأصبح
مقامىَ منه مظلم الجو قاتم ومسعاى ضنك وهو صحان أفيح
أقاد به قود الجنيبة مُسْمِحاً وما كنت لولا غدرة الدهر أسمح
كأنىَ ميْتٌ لا ضريح لجنبه وما كل ميت لا أبالك يضرح

(١) حظى « تنفخ فى البرى » والبرى : جمع برة — بضم الباء فيهما — وهى حلقة تجعل فى أنف البعير

وها أنا لا قلبي يراع لفائت   فيأسى ، ولا يلهيه حظ فيفرح
فلله نَصْلٌ فُلَّ مني غراره   وعود شباب عاد وهو مُصَوِّح
وسَقْياً لأيام ركبت بها الهوى   جموحاً ومثلي في هوى الغي يجمح
وماضي صبا قَضَّيت منه لُبانتي
خِلاساً وعين الدهر زرقاء تلمح
ليالي لي عند الغواني مكانة   فألحاظها ترنو إلى وتطمح
ولَيْلَى بها أضعاف ما بي من الهوى
أعرض بالشكوى لها فتصرح

وهي طويلة طنانة مدح بها الإمام الناصر لدين الله خليفة بغداد .

وقال المرزباني : وجدت بخط محمد بن العباس اليزيدي ما مثاله : أهدى أبو فَيْد مؤرجٌ السدوسي إلى جدي محمد بن أبي محمد كساء ، فقال جدي فيه يمدحه [من الطويل] :

سأشكر ما أولى ابنُ عمرو مؤرجٌ
وأمنحه حسن الثناء مع الود
أغَرُّ سَدُوسي نماه إلى العلا   أبٌ كان صباً بالمكارم والمجد
أتينا أبا فيد نؤمل سَيْبه   ونقدح زندا غير كاب ولا صلد
فأصدرنا بالري والبذل واللهى   وما زال محمود المصادر والورد
كساني ولم أستكسه متبرعا   وذلك أهنى ما يكون من الرفد
كسانيه فضفاضا إذا ما لبسته
تروضت مختالا وجرت عن القصد
كساء جمال إن أردت جمالة   وثوب شتاء إن خشيت من البرد
ترى حيكا فيه كأن اطرادها   فرند حديد صَقْله سل من غمد
سأشكر ما عشت السدوسي بره   وأوصى بشكر للدوسي من بعدي

وأخبار مؤرج كثيرة .

وقال ابن النديم : وجدت بخط عبد الله بن المعتز أن مؤرجاً السدوسى كان من أصحاب الخليل بن أحمد ، وتوفى سنة خمس وتسعين ومائة ، فى اليوم الذى توفى فيه أبو نواس ، وهذا إنما يستقيم على قول من ذهب إلى أن أبا نواس توفى سنة خمس وتسعين ومائة ، وقد سبق الخلاف فيه ، وأما مؤرج فلا خلاف أنه مات فى هذه السنة .

وقد ذكره ابن قتيبة فى كتاب المعارف وغيره .

وأبو فيد : بفتح الفاء ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، و بعدها دال مهملة ، وهو فى الأصل ورد الزعفران ، وقيل : هو الزعفران بعينه .

ومؤرج ــ بضم الميم ، وفتح الواو المهموزة ، وكسر الراء المشددة ، و بعدها جيم ــ وهو اسم فاعل من قولهم « أرجت بين القوم » إذا أغريت بينهم .

وقد تقدم الكلام على السدوسى فى ترجمة قتادة فى حرف القاف .

وقيل : إن اسمه مَرْثَد ، ومؤرج لقب له ، ومرثد : بفتح الميم والثاء المثلثة ، وراء ساكنة ، وفى الآخر دال مهملة ، قال الجوهرى فى كتاب الصحاح : يقال : رثدت المتاع نضدته ووضعت بعضه على بعض أو إلى جنب ، ثم قال بعد ذلك : تركت بنى فلان مرتثدين ماتحملوا بعد ، أى ناضدين متاعهم ، قال ابن السكيت : ومنه اشتق مَرْثَد ، وهو اسم رجل ، والمرثد من أسماء الأسد ، وكان مؤرج المذكور يقول : اسمى وكنيتى غريبان ، اسمى مؤرج ، والعرب تقول « أرجت بين القوم » و « أرشت » وأنا أبو فَيْد ، والفيد : ورد الزعفران ، ويقال : فَادَ الرجل يفيد فَيْداً ، إذا مات .

***

(٧١٧)

أبو الحسن
موسى بن جعفر
أحد الأئمة
الاثنى عشر

أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم ! أحد الأئمة الاثنى عشر ، رضى الله عنهم أجمعين !

قال الخطيب فى تاريخ بغداد : كان موسى يدعى « العبد الصالح » من عبادته واجتهاده.

روى أنه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد سجدة فى أول الليل ، وسمع وهو يقول فى سجوده : عظم الذنب عندى فليحسن العفو من عندك يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة ، فجعل يرددها حتى أصبح .

وكان سخيا كريما ، وكان يسمع [1] عن الرجل أنه يؤذيه فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار ، وكان يَصُرُّ الصرر ثلثمائة دينار وأربعمائة دينار ومائتى دينار ، ثم يقسمها بالمدينة .

وكان يسكن المدينة فأقدمه المهدى بغداد فحبسه ، فرأى فى النوم على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو يقول : يا محمد (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) قال الربيع : فأرسل إلى ليلا ، فراعنى ذلك ، فجئته فاذا هو يقرأ هذه الآية ، وكان أحسن الناس صوتاً ، وقال : على بموسى بن جعفر ، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جنبه ، وقال : يا أبا الحسن ، إنى رأيت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فى النوم يقرأ على كذا ، فتؤمننى أن تخرج على أو على أحد من أولادى ، فقال : والله لا فعلت ذلك ولا هو من شأنى ، قال : صدقت ، أعطه ثلاثة آلاف دينار ، ورُده إلى أهله إلى المدينة ، قال : الربيع : فأحكمت أمره ليلا فما أصبح إلا وهو فى الطريق خوف العوائق ، وأقام بالمدينة إلى أيام

---

(١) فى ب « وكان يبلغه عن الرجل »

هرون الرشيد ، فقدم هرون من عمرة شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومائة ، فحمل موسى معه إلى بغداد وحبسه بها إلى أن توفى فى محبسه .

وذكر أيضاً أن هرون الرشيد حج فأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم زائرا وحوله قريش وأفناء القبائل ، ومعه موسى بن جعفر ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، يا ابن عم ، افتخارا على من حوله ، فقال موسى : السلام عليك ياأبت ، فتغير وجه هرون الرشيد وقال : هذا هو الفخر يا أبا الحسن حقا ، انتهى كلام الخطيب .

وقال أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى فى كتاب «مروج الذهب» فى أخبار هارون الرشيد : إن عبد الله بن مالك الخزاعى كان على دار هارون الرشيد وشرطته ، فقال : أتانى رسول الرشيد وقتا ما جاءنى فيه قط ، فانتزعنى من موضعى ، ومنعنى من تغيير ثيابى ، فراعنى ذلك ، فلما صرت إلى الدار سبقنى الخادم فعرف الرشيد خبرى ، فأذن لى فى الدخول عليه فوجدته قاعدا فى فراشه(١) فسلمت عليه ، فسكت ساعة ، فطار عقلى ، وتضاعف الجزع على ثم قال : ياعبد الله أتدرى لم طلبتك فى هذا الوقت ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : إنى رأيت الساعة فى منامى كأن حبشياً قد أتانى ومعه حربة فقال: إن خليت عن موسى بن جعفر الساعة و إلا نحرتك فى هذه الساعة بهذه الحربة، فاذهب فخل عنه ، قال: فقلت : ياأمير المؤمنين أطلق موسى بن جعفر؟ ثلاثاً ، قال: نعم امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر ، وأعطه ثلاثين ألف درهم ، وقل له : إن أحببت المقام قبلنا فلك عندى ما تحب ، و إن أحببت المضى إلى المدينة فالإذن فى ذلك لك ، قال : فمضيت إلى الحبس لأخرجه ، فلما رآنى موسى وثب إلى قائما وظن أنى قد أمرت فيه بمكروه ، فقلت: لا تخف ، فقد أمرنى باطلاقك وأن أدفع لك ثلاثين ألف درهم ، وهو يقول لك : إن أحببت المقام قبلنا فلك ذلك، ولك كل ما تحب ، و إن أحببت الانصراف إلى المدينة فالأمر فى ذلك مطلق لك ، وأعطيته

(١) فى ب « قاعداً على فرشه »

ثلاثين ألف درهم ، وخليت سبيله ، وقلت له : لقد رأيت من أمرك عجباً ، قال: فانى أخبرك ، بينما أنا نائم إذ أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا موسى، حبست مظلوماً فقل هذه الكلمات فانك لاتبيت هذه الليلة فى الحبس ، فقلت : بأبى وأمى ما أقول ؟ قال : قل « ياسامع كل صوت ، و ياسائق الفوت (١) ، و ياكاسى العظام لحماً ومنشرها بعد الموت ، أسألك بأسمائك الحسنى و باسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذى لم يطلع عليه أحد من المخلوقين ، ياحليماذا أناة لا يقوى على أناته ، ياذا المعروف الذى لا ينقطع أبداً ولا يحصى عدداً ، فرج عنى » فكان ما ترى

وله أخبار ونوادر كثيرة .

وكانت ولادته يوم الثلاثاء قبل طلوع الفجر سنة تسع وعشرين ومائة ، وقال الخطيب : سنة ثمان وعشرين بالمدينة .

وتوفى لخمس بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وقيل : سنة ست وثمانين ، ببغداد ، وقيل : إنه توفى مسموما ، وقال الخطيب : توفى فى الحبس ، ودفن فى مقابر الشونيزية خارج القبة ، وقبره هناك مشهور يزار ، وعليه مشهد عظيم فيه قناديل الذهب والفضة وأنواع الآلات والفرش ما لا يحد ، وهو فى الجانب الغربى ، وقد سبق ذكر أبيه وأجداده وجماعة من أحفاده ، رضى الله عنهم وأرضاهم ! وكان الموكل به مدة حبسه السندى بن شاهك جد كشاجم الشاعر المشهور .

* * *

---

(١) فى ب « وياسائق القوت »

(٧١٨)

أبو الفتح موسى بن أبى الفضل يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد ، الملقب كمال الدين ، الفقيه الشافعى

أبو الفنح كمال الدين موسى بن يونس الفقيه الشافعى

تفقه بالموصل على والده ، ثم توجه إلى بغداد سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وأقام بالمدرسة النظامية يشتغل على المعيد بها السديد السلماسى المقدم ذكره ، وكان المدرس بها يومئذ الشيخ رضى الشيرازى أبا الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف ابن محمد بن العباس القزوينى ، فقرأ الخلاف والأصول وبحث الأدب على الكمال أبى البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى المقدم ذكره ، وكان قد قرأ أولا على الشيخ أبى بكر يحيى بن سَعْدُون القرطبى الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ، فتميز ومهر ، ثم أصعد إلى الموصل وعكف على الاشتغال ، ودرس بعد وفاة والده فى التاريخ الآتى ذكره فى ترجمته إن شاء الله تعالى فى موضعه بالمسجد المعروف بالأمير زين الدين صاحب إربل ، وهذا المسجد رأيته وهو على وضع المدرسة ، وتعرف بالمدرسة الكمالية لأنه نسب إلى كمال الدين المذكور لطول إقامته به ، ولما اشتهر فضله انثال عليه الفقهاء ، وتبحر فى جميع الفنون ، وجمع من العلوم مالم يجمعه أحد ، وتفرد بعلم الرياضة ، ولقد رأيته بالموصل فى شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة ، وترددت إليه دفعات عديدة لما كان بينه وبين الوالد رحمه الله من المؤانسة والمودة الأكيدة ، ولم يتفق لى الأخذ عنه لعدم الإقامة وسرعة الحركة إلى الشام ، وكان الفقهاء يقولون : إنه يدرى أربعة وعشرين فنًّا دراية متقنة ، فمن ذلك المذهب فكان فيه أوحد الزمان ، وكان جماعة من الطائفة الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم ، ويحل لهم مسائل الجامع الكبير أحسن حل مع ما هى عليه من الإشكال المشهور .

وكان يتقن فن الخلاف العراقى والبخارى ، وأصول الفقه ، وأصول الدين ،

ولما وصلت كتب فخر الدين الرازى إلى الموصل وكان بها إذ ذاك جماعة من الفضلاء لم يفهم أحد منهم اصطلاحه فيها سواه ، وكذلك الإرشاد للعميدى لما وقف عليه حلها فى ليلة واحدة وأقرأها على ما قالوه ، وكان يدرى فى الحكمة والمنطق والطبيعى والإلهى ، وكذلك الطب ، ويعرف فنون الرياضة من إقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطى وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة والأرتماطيقى وطريق الخطابين والموسيقى والمساحة معرفة لا يشركه فيها غيره إلا فى ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها

واستخرج فى علم الأوفاق طرقا لم يهتد إليها أحد.

وكان يبحث فى العربية والتصريف بحثاً تاماً مستوفياً ، حتى إنه كان يقرأ كتاب « سيبويه » وكتاب « الإيضاح » وكتاب « التكملة » لأبى على الفارسى ، وكتاب « المفصل » للزمخشرى ، وكان له فى التفسير والحديث وما يتعلق به وأسماء الرجال يدٌ جيدة .

وكان يحفظ من التواريخ ، وأيام العرب ووقائعهم ، والأشعار ، والمحاضرات شيئاً كثيراً . وكان أهل الذمة يقرءون عليه التوراة والإنجيل ، وشرح لهما هذين الكتابين ، شرحا يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله . وكان فى كل فن من هذه الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه .

وبالجملة فإن مجموع ما كان يعلمه من الفنون لم يسمع عن أحد ممن تقدمه أنه قد جمعه .

ولقد جاءنا الشيخ أثير الدين المفضل أبو عمر بن المفضل الأبهرى ، صاحب التعليقة فى الخلاف والزيج والتصانيف المشهورة ، من الموصل إلى إربل ، فى سنة خمس وعشرين وستمائة ، ونزل بدار الحديث ، وكنت أشتغل عليه بشىء من الخلاف ، فبينما أنا يوماً عنده إذ دخل عليه بعض فقهاء بغداد ، وكان فاضلا ،

فتجاريا فى الحديث زمانا ، وجرى ذكر الشيخ كمال الدين فى أثناء الحديث ، فقال له الأثير : لما حج الشيخ كمال الدين ودخل بغداد كنت هناك ؟ فقال : نعم ، فقال : كيف كان إقبال الديوان العزيز ؟ فقال له ذلك الفقيه : ما أنصفوه على قدر استحقاقه ، فقال الأثير : ما هذا إلا عجب ، والله ما دخل بغداد مثل الشيخ ، فاستعظمت منه هذا الكلام ، وقلت له : يا سيدنا كيف تقول كذا ؟ فقال : ياولدى ما دخل بغداد مثل أبى حامد الغزالى ، ووالله ما بينه وبين الشيخ نسبة .

وكان الأثير — على جلالة قدره فى العلوم — يأخذ الكتاب ، ويجلس بين يديه ، ويقرأ عليه ، والناس يوم ذاك يشتغلون فى تصانيف الأثير .

ولقد شاهدت هذا بعينى ، وهو يقرأ عليه كتاب « المجسطى » .

ولقد حكى لى بعض الفقهاء : أنه سأل الشيخ كمال الدين عن الأثير ومنزلته فى العلوم ، فقال : ما أعلم ، فقال : وكيف هذا يا مولانا ، وهو فى خدمتك منذ سنين عديدة ، ويشتغل عليك ؟ فقال : لأننى مهما قلت له تلقاه بالقبول ، وقال : نعم يا مولانا ، وما حادثنى فى بحث قط حتى أعلم حقيقة فضله ، ولا شك أنه كان يعتمد هذا القدر مع الشيخ تأدبا ، وكان معيداً عنده بالمدرسة البدرية .

وكان يقول : ما تركت بلادى وقصدت الموصل إلا للاشتغال على الشيخ .

ومن يقف على هذه الترجمة فقد ينسبنى إلى المغالاة فى حق الشيخ . ومن كان من أهل تلك البلاد ، وعرف ما كان عليه الشيخ ، يعلم أنى ما أعرته وصفاً[1] ، ونعوذ بالله من الغلو والتساهل فى النقل .

ولقد ذكره أبو البركات المبارك بن المستوفى ، المقدم ذكره ، فى تاريخ إربل فقال : هو علم مقدم ، ضرب فى كل علم ، وهو فى علم الأوائل : كالهندسة ،

---

(١) يريد أنه لم يصفه بشىء ليس متحققا عنده فيكون كأنه أعاره هذا الوصف ، بل كل شىء ذكره فإنه على الحقيقة فيه .

والمنطق وغيرهما ممن يشار إليه ، حل إقليدس والمجسطى على الشيخ شرف الدين المظفر بن محمد بن المظفر الطوسى ، القارى ، يعنى صاحب الاصطرلاب الخطى ، المعروف بالعصا .

ثم قال ابن المستوفى : وردت عليه مسائل من بغداد ، فى مشكلات هذا العلم فحلها واستصغرها ، ونبه على براهينها ، بعد أن احتقرها ، وهو فى الفقه والعلوم الإسلامية نَسيجُ وَحْدِهِ ، ودرس فى عدة مدارس بالموصل ، وتخرج عليه خلق كثير فى كل فن .

ثم قال : أنشدنى لنفسه ، وأنفذها إلى صاحب الموصل يشفع عنده [من الطويل] :

لئن شَرُفَتْ أرض بمالك رقها فمملكة الدنيا بكم تتشرف (١)
بقيتَ بقاء الدهر أمرُكَ نافذ وسعيك مشكور وحكمك منصف
ومكنت فى حفظ البسيطة مثل ما تمكن فى أمصار فرعون يوسف

قلت أنا : ولقد أنشدنى هذه الأبيات عنه أحد أصحابنا بمدينة حلب ، وكنت بدمشق ، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وبها رجل فاضل فى علوم الرياضة ، فأشكل عليه مواضع فى مسائل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس ، فكتب جميعها فى دَرْج ، وسيرها إلى الموصل ، ثم بعد أشهر عاد جوابه ، وقد كشف عن خفيها ، وأوضح غامضها ، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه . ثم كتب فى آخر الجواب . فليمهد العذر فى التقصير فى الأجوبة ، فإن القريحة جامدة ، والفطنة خامدة ، قد استولى عليها كثرة النسيان ، وشغلتها حوادث الزمان ، وكثير مما استخرجناه وعرفناه نسيناه ، بحيث صرنا كأنا ما عرفناه .

---

(١) يريد أن كل رجل نابه يعرف فى ناحية من الأرض ، أما هذا فإنه ممن تتشرف به الدنيا كلها لأنه أكثر العالمين نباهة شأن .

وقال لى صاحب المسائل المذكورة : ما سمعت هذا الكلام إلا للأوائل المتقنين لهذه العلوم ، ما هذا من كلام أبناء زماننا .

وقد أطلت الشرح فى نشر علومه ، ولعمرى لقد اختصرت .

ولما توفى أخوه الشيخ عماد الدين محمد المقدم ذكره تولى الشيخ المدرسة العلائية موضع أخيه ، ولما فتحت القاهرية تولاها .

ثم تولى المدرسة البدرية فى ذى الحجة ، سنة عشرين وستمائة . وكان مواظباً على إلقاء الدروس والإفادة .

وحضر فى بعض الأيام دروسه جماعة من المدرسين ، أرباب الطيالس ، وكان العماد أبو على عمر بن عبد النور بن مأجوج بن يوسف الصنهاجى اللَّزَّنى النحوى البجائى حاضراً ، فأنشد على البديهة قوله [من الطويل] :

كمال كمال الدين للعلم والعلى ... فهيهات ساع فى مساعيك يطمع
إذا اجتمع النظار فى كل موطن ... فغاية كل أن تقول ويسمعوا
فلا تحسبوهم من عناد تطيلسوا ... ولكن حياء واعترافاً تقنعوا

وللعماد المذكور فيه أيضاً [من الوافر] :

بجر الموصل الأذيال فخراً ... على كل المنازل والرسوم
بدجلة والكمال ، هما شفاء ... لِهِيمٍ أو لذى فهم سقيم (١)
فذا بحر تدفق وهو عذب ... وذا بحر ولكن من علوم

وكان الشيخ — سامحه الله تعالى ! — يتهم فى دينه ، لكون العلوم العقلية غالبة عليه ، وكانت تعتريه غفلة فى بعض الأحيان ، لاستيلاء الفكرة عليه ، بسبب هذه العلوم ، فعمل فيه العماد المذكور [من الطويل] :

أجِدَّكَ أن قد جاد بعد التعبس
غزال بوصل لى وأصبح مؤنسى

---

(١) الهيم : جمع أهيم أو هيماء ، والأهيم من الإبل ونحوها الشديد العطش

وعاطيته صهباء من فيه مزجها
كرقة شعري أو كدين ابن يونس

وقد خرجنا عن المقصود بما لاحاجة بنا إليه .

وكانت ولادته يوم الخميس ، خامس صفر ، سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، بالموصل .

وتوفي بها رابع عشر شعبان ، سنة تسع وثلاثين وستمائة ، ودفن في تربتهم المعروفة بهم عند تربة غسان ، خارج باب العراق .

وقد سبق ذكر ولده شرف الدين أحمد في حرف الهمزة ، وأخيه عماد الدين في حرف الميم ، وسيأتي ذكر والده في حرف الياء ، إن شاء الله تعالى ، رحمهم الله أجمعين ! .

وتوفي الشيخ رضي الدين القزويني ، مدرس المدرسة النظامية ، المذكور في أول هذه الترجمة ، في الثالث والعشرين من المحرم سنة تسعين وخمسمائة . وكانت ولادته في شهر رمضان سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، بقزوين ، وموته بها أيضاً .

ولولا خوف الإطالة لذكرت من مناقب الشيخ كمال الدين مايستغرق الوصف وقد تقدم الكلام على الصنهاجي .

وأما اللَّزْني : فهو بفتح اللام ، وسكون الزاي وبعدها نون — هذه النسبة إلى لَزْنَة ، وهي قبيلة من البربر ، تسكن بالقرب من بَجَايَة من عمل إفريقية .

وتوفي العماد بن يوسف المذكور يوم الأحد ثالث عشر رجب من سنة تسع وأربعين وستمائة ، بدمشق ، ودفن بالباب الشرقي ، ثم نقل إلى باب الصغير .

ومولده في سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، بأصفون ، من شرق صعيد مصر ، رحمه الله تعالى ! والله أعلم .

***

(٧١٩)

أبو عبدالرحمن موسي بن نصير اللخمي

أبو عبد الرحمن موسى بن نُصَير ، اللّخْمى بالولاء

صاحب فتح الأندلس

كان من التابعين ، رضى الله عنهم ! وروى عن تميم الدارى ، رضى الله عنه ! وكان عاقلا ، كريمـاً ، شجاعا ، ورعاً ، تقيا لله تعالى ، رضى الله عنه ! لم يهزم له جيش قط .

وكان والده نُصَير على حَرَس معاوية بن أبى سفيان ، ومنزلته عنده مكينة . ولمـا خرج معاوية لقتال على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ! ـ لم يخرج معه ، فقال له معاوية : ما منعك من الخروج معى ولى عنـدك يد لم تكافئنى عليها ؟ فقال : لم يمكنى أن أشكرك بكفر مَنْ هو أولى بشكرى ، فقال : ومن هو ؟ قال : الله عز وجل [فقال : وكيف لا أُم لك ؟ قال : وكيف لا أعلمك هذا ، فأغض وأمض ، قال] : فأطرق معاوية مليا ، ثم قال : أستغفر الله ، ورضى عنه .

وكان عبدالعزيز[١] بن مروان أخو عبد الملك بن مروان والياً على مصر ، وإفريقية ، فبعث إليه ابن أخيه الوليد بن عبد الملك أيام خلافته يقول له : أرسل موسى بن نصير إلى إفريقية ، وذلك فى سنة تسع وثمـانين للهجرة .

وقال الحافظ أبو عبد الله الحميدى فى كتاب « جذوة المقتبس » : إن موسى بن نصير تولى إفريقية والمغرب ، سنة سبع وسبعين ، فأرسله إليها ، فلما قدمها ومعه جماعة من الجند ، بلغه أن بأطراف البـلاد جماعة خارجين عن الطاعة ، فوجه ولده عبد الله ، فأتاه بمـائة ألف رأس من السبايا ، ثم وجه ولده مروان إلى جهة أخرى ، فأتاه بمـائة ألف [رأس[٢]] .

---

(١) فى ب « عبد الله » وليس بشىء

(٢) فى ب « بمـائة ألف فارس » وما أثبتنـاه موافق لمـا فى نفح الطيب (١ / ٢٢٣ بتحقيقنا) نقلا عن الحميدى الذى ينقل المؤلف هذه العبارة عنه .

قال الليث بن سعد: فبلغ الخمس ستين ألف رأس ، وقال أبو شبيب الصدفى[1] : لم يسمع فى الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ، ووجد أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف أيدى البربر عليها ، فكانت البلاد فى قحط شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة و إصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصحراء ، ومعه سائر الحيوانات ، وفرق بينها و بين أولادها ، فوقع البكاء والصراخ والضجيج ، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار ، ثم صلى وخطب بالناس ، ولم يذكر الوليد ابن عبد الملك ، فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ فقال : هذا مقام لا يدعى فيه غير الله عز وجل ، فسُقُوا حتى رَوُوا .

ثم خرج موسى غازيا ، وتتبع البربر ، وقتل منهم قتلا ذريعا ، وسبى سبيا عظيما ، وسار حتى انتهى إلى السوس الأدنى لا يدافعه أحد .

فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا و بذلوا له الطاعة ، فقبل منهم ، وولى عليهم واليا ، واستعمل على طَنْجَة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربرى ، و يقال : إنه من الصَّدِف ، وترك عنده تسعة عشر ألف فارس من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خلقا يسيراً من العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الإسلام ، ورجع إلى إفريقية ، ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم .

فلما استقرت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطَنْجَة يأمره بغزو بلاد الأندلس فى جيش من البربر ليس فيه من العرب إلا قدر يسير ، فامتثل طارق أمره ، وركب البحر من سَبْتَة إلى الجزيرة الخضراء من بر الأندلس ، وصعد إلى جبل يعرف اليوم بجبل طارق لأنه نسب إليه لما حصل عليه ، وكان صعوده إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة فى اثنى عشر ألف فارس من البربر خلا اثنى عشر رجلا .

وذكر عن طارق أنه كان نائما فى المركب وقت التعدية ، وأنه رأى النبى صلى

---

(١) هكذا فى ب محرفا . والذى فى النفح « وقال الصفدى »

الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة رضى الله عنهم يمشون على الماء ، حتى مروا به فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ذكر ذلك ابن بشكوال المقدم ذكره فى حرف الحاء فى تاريخ الأندلس.

وكان صاحب طليطلة ومعظم بلاد الأندلس ملك يقال له لذريق [1] ، ولما اتصل طارق بالجبل المذكور كتب إلى موسى بن نصير : إنى فعلت ما أمرتنى به ، وسهل الله سبحانه وتعالى بالدخول ، فلما وصل كتابه إلى موسى ندم على تأخره ، وعلم أنه إن فتح نسب الفتح إليه دونه ، فأخذ فى جَمْع العساكر ، وولى على القيروان ولده عبدالله ، وتبعه ، فلم يدركه إلا بعد الفتح.

وكان لذريق المذكور قد قصد عدوًّا له ، واستخلف فى المملكة شخصاً يقال له تُدْمير ، وإلى هذا الشخص تنسب بلاد تُدْمير بالأندلس ، فلما نزل طارق من الجبل بالجيش الذى معه كتب تُدْمير إلى لذريق الملك أنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندرى من السماء هم أم من الأرض ، فلما بلغ ذلك لذريق رجع عن مقصده فى سبعين ألف فارس ، ومعه العَجَلُ يحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ، فلما بلغ طارقاً دنوه قام فى أصحابه فحمد الله سبحانه وتعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حث المسلمين على الجهاد ، ورغبهم فى الشهادة ، ثم قال : أيها الناس ، أين المفر والبحر من ورائكم

خطبة طارق قبل التصاف

والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام فى مآدب اللئام ، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَر لكم غير سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية [2] ، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصنة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم

---

(١) ب « لزريق فى سائر الترجمة » (٢) فى ب « هذه الطاغية »

للموت ، و إنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنَجْوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس [إلا وأنا] أبدأ فيها بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه أوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، و إظهار دينه بهذه الجزيرة، و يكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين ، واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معى ، فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه ، و إن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده يخذلون .

فلما فرغ طارق من تحريض أصحابه على الصبر فى مقاتلة لذريق وأصحابه وما وعدهم من النيل الجزيل ، انبسطت نفوسهم ، وتحققت آمالهم ، وهبت ريح النصر عليهم ، وقالوا : قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه ، فاحضر إليه فانا معك و بين يديك . فركب طارق وركبوا ، وقصدوا مُناخ لذريق ، وكان قد نزل بمتسع من الأرض ، فلما تراءى الجمعان نزل طارق وأصحابه ، فباتوا ليلتهم فى حرس إلى الصبح .

فلما أصبح الفريقان تكتَّبُوا وعبَّوا كتائبهم ، وحُمل لذريق على سريره ، وقد رفع على رأسه رواق ديباج يظله ، وهو مقبل فى غابة [من] البنود والأعلام ، و بين يديه

المقاتلة بالسلاح ، وأقبل طارق وأصحابه عليهم الزرد ، ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض ، وبأيديهم القسى العربية ، وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح ، فلما نظر إليهم لذريق قال : أما والله إن هذه الصور التى رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا ، فداخله منهم رُعب .

ونتكلم ههنا على بيت الحكمة ما هو ، ثم نتكلم على حديث الوقعة :

بيت الحكمة الذى كان بالأندلس

وأصل خبر بيت الحكمة أن اليونان — وهم الطائفة المشهورة بالحكمة — كانوا يسكنون ببلاد المشرق قبل عهد الإسكندر ، فلما ظهرت الفرس واستولت على البلاد ، وزاحمت اليونان على ماكان بأيديهم من الملك ، انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس ، لكونها طرفا من آخر العمارة ، ولم يكن لها ذكر يوم ذاك ، ولا ملكها أحد من الملوك المعتبرة ، ولا كانت عامرة ، وكان أول من عمر فيها واختطها أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام ، فسميت باسمه ، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كان صورة المعمور منها عندهم شكل طائر رأسه المشرق والجنوب والشمال رجلاه ، وما بينهما بطنه ، والمغرب ذنبه ، فكانوا يزدرون المغرب لنسبته إلى أخس [أجزاء] الطائر .

وكانت اليونان لا ترى فناء الأمم [إلا] بالحروب لما ترى فيه من الإضرار والاشتغال عن العلوم التى كان أمرها عندهم من أهم الأمور ، فلذلك انحازوا بين يدى الفرس إلى الأندلس .

فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها ، فشقُّوا الأنهار و بنوا المعاقل ، وَغَرَسُوا الكروم والجنان ، وشيدوا الأمصار ، وملؤها حرثاً ونسلا و بنياناً ، فعظمت وطابت حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها : إن الطائر الذى صورت العمارة على شكله ، وكان المغرب ذنبه ، كان طاوسا ، ومعظم جماله فى ذَنَبه ، فاغتبطوا بها أتم اغتباط واتخذوا دار الملك والحكمة بها مدينة طُلَيْطلة لأنها وسط البلاد ، وكان أهم الأمور

عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم ، فنظروا فاذا ليس ثَمّ من يَحْسُدهم على أرغد العيش إلا أرباب الشّظف والشقاء ، وهم يوم ذاك طائفتان : العرب ، والبربر ، نخافوهم على جزيرتهم المعمورة ، فعزموا أن يتخذوا لدفع هذين الجنسين من الناس طِلّسْماً ، فرصدوا لذلك أرصاداً ، ولما كان البربر بالقرب منهم ، وليس بينهم سوى تعدية البحر ، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع ، ازدادوا منهم نفوراً ، وكثر تحذيرهم من مخالطتهم فى نسب أو مجاورة ، حتى ثبت ذلك فى طباعهم ، وصار بغضهم مركبا فى غرائزهم ، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم أبغضوهم وحسدوهم ، فلا نجد أندلسيا إلا مبغضاً بربريًّا ولا بربريا إلا مبغضاً أندلسيًّا ، إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس من أهل الأندلس إلى البربر ، لكثرة وجود الأشياء بالأندلس وعدمها بالبربر .

وكان بنواحى غرب جزيرة الأندلس ملك يونانى بجزيرة يقال لهـا قادس ، وكانت له ابنة فى غاية الحسن والجمال ، فتسامع بها ملوك الأندلس ، وكانت جزيرة الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدتين ملك تناصفاً منهم فى ذلك ، نخطبها كل واحد منهم ، وكان أبوها يخشى من تزويجها لواحد منهم وإسخاط الباقين ، فتحير فى أمره ، وأحضر ابنته المذكورة ، وكانت الحكمة مركبة فى طباع القوم ذكورهم وإناثهم ، ولذلك قيل : إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض : على أدمغة اليونان ، وأيدى أهل الصين ، وألسنة العرب

فلما حضرت بين يديه ، قال لها : يابنية ، إنى قد أصبحت فى حيرة من أمرى ، قالت : وماخبرك[1] ؟ قال : قد خطبك جميع ملوك الأندلس ، ومتى أرضيت واحداً أسخطت الباقين ، فقالت : اجعل الأمر إلى تتخلص من اللوم ، قال : وماتصنعين ؟ قالت : أقترح لنفسى أمراً مَنْ فعله كنت زوجته ، ومن عجز عنه لم يحسن به السخط قال : ومالذى تقترحين ؟ قالت : أقترح أن يكون ملكا حكيما . قال : نعم مااخترت لنفسك ، وكتب فى أجوبة الملوك الخُطاب : إنى جعلت الأمر إليها فاختارت من

---

(١) فى ب « وما حيرك »

الأزواج الملك الحكيم .

فلما وقفوا على الأجوبة سكت عنها كل من لم يكن حكيماً

وكان فى الملوك رجلان حكيمان ، فكتب كل واحد منهما إليه : أنا الرجل الحكيم . فلما وقف على كتابيهما قال : يابنية بقى الأمر على إشكاله ، وهذان ملكان حكيمان ، أيهما أرضَيْتُه أسخطت الآخر ، قالت : سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتى به ، فأيهما سبق إلى الفراغ مما ألتمسه تزوجت به ، قال : وما الذى تقترحين عليهما ؟ قالت : إننا ساكنون بهذه الجزيرة ، ونحن محتاجون إلى رُحِيٍّ تدور بها ، وإنى مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجارى إليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر طِلَّسْماً يحصِّن به جزيرة الأندلس من البربر ، فاستظرف أبوها اقتراحها ، وكتب إلى الملكين بما قالته بنته ، فأجابا إلى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد فى عمل ما ندب إليه من ذلك ، فأما صاحب الرحى فانه عمد إلى خَرْزعظام (١) اتخذها من الحجارة ، ونضد بعضها فى بعض فى البحر المالح الذى بين جزيرة الأندلس والبر الكبير فى الموضع المعروف بزُقاق سَبْتة ، وسدَّ الفروج التى بين الحجارة بما اقتضته حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة ، وآثارها باقية إلى اليوم فى الزقاق الذى بين سَبْتة والجزيرة الخضراء ، وأهل الأندلس يزعمون أن ذلك أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سَبْتة إلى الجزيرة ، والله أعلم أى ذلك أصح .

فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم ، جلب إليها الماء العذب من موضع عال فى الجبل بالبر الكبير ، وسلطه على ساقية محكمة البناء ، وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية .

---

(١) هكذا فى ب . والذى فى نفح الطيب (١ / ٢٢٩ بتحقيقنا) عن الحميدى الذى ينقل المؤلف عبارته من مطلع الترجمة « فإنه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة نضد بعضها إلى بعض فى البحر — إلخ »

وأما صاحب الطلسم فانه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله ، غير أنه عمل أمره وأحكمه ، وابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر فى رمل حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صور من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربرى له لحية ، وفى رأسه ذؤابة من شعر جعد قائم فى رأسه لجعودتها [وهو] متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى ، بألطف [1] تصوير وأحكمه ، فى رجليه نعل ، وهو قائم فى رأس البناء على مستدق بمقدار رجليه فقط ، وهو شاهق فى الهواء طوله نيف عن ستين ذراعا أو سبعين ، وهو محدد [2] الأعلى إلى أن ينتهى إلى ماسعته قدر الذراع ، وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابضا عليه مشيرا إلى البحر كأنه يقول : لا عبور .

وكان من تأثير هذا الطلسم فى البحر الذى تجاهه أنه لم ير قط ساكنا ولا كانت تجرى فيه قط سفينة بربرى حتى سقط المفتاح من يده

وكان الملكان العاملان للطلسم والرحى يتسابقان إلى التمام من عملهما إذ كان بالسبق يستحق التزويج ، وكان صاحب الرحى قد فرغ لكنه يخفى أمره عن صاحب الطلسم حتى لا يعلم به فيبطل عمل الطلسم ، وكان يود عمل الطلسم حتى يحظى بالمرأة والرحى والطلسم ، فلما علم اليوم الذى يفرغ صاحب الطلسم فى آخره أجرى الماء بالجزيرة من أوله ، وأدار الرحى ، واشتهر ذلك ، واتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو فى أعلاه يصقل وجهه ، وكان الطلسم مذهبا ، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتا ، وحصل صاحب الرحى على الرحى والمرأة والطلسم .

وكان مَنْ تقدم مِنْ ملوك اليونان يخشى على جزيرة الأندلس من البربر للسبب الذى قدمناذكره ، فاتفقوا وعملوا الطلسمات فى أوقات اختاروا أرصادها ، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتا من الرخام ، وتركوه فى بيت بمدينة طليطلة ،

---

(١) فى ب « بأرطب تصوير »   (٢) فى النفح « محدودب الأعلى »

وركبوا على ذلك البيت بابا ، وأقفلوه ، وتقدموا إلى كل مَن ملك منهم بعد صاحبه أن يلقى على ذلك الباب قُفْلاً ، تأكيدا لحفظ ذلك البيت ، فاستمر أمرهم على ذلك .

ولما جاء وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر إلى جزيرة الأندلس ، وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكا من ملوك اليونان من يوم عملهم الطلسمات بمدينة طليطلة ، وكان الملك لذريق المذكور السابع والعشرين من ملوكهم ، فلما جلس فى ملكه قال لوزرائه وأهل الرأى من دولته : قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرون قفلا شىء ، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه ، فانه لم يعمل عبثا ، فقالوا : أيها الملك ، صدقت لم يعمل عبثا ولا أقفل سدى ، بل المصلحة أن تلقى عليه قفلا كما فعل مَنْ تقدمك من الملوك ، وكان آباؤك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سيرهم ، فقال : إن نفسى تنازعنى إلى فتحه ، فلا بد لى منه ، فقالوا : إن كنت تظن فيه مالا فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ، ولا تحدث علينا بفتحه حدثا لا نعرف عاقبته ، فأصر على ذلك ، وكان رجلا مهابا(١) فلم يقدروا على مراجعته ، وأمر بفتح الأقفال ، وكان على كل قفل مفتاحه معلقا ، فلما فتح الباب لم ير فى البيت شيئا إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان ابن داود عليهما السلام ، ورأى فى البيت ذلك التابوت ، وعليه قفل ومفتاحه معلق ، ففتحه ، فلم يجد فيه سوى رَق ، وفى جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير ، على أشكال العرب ، وعليهم الفراء ، وهم معممون على ذوائب جعد ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وبأيديهم القسي العربية ، وهم مقلدون بالسيوف المحلاة ، معتقلون بالرماح ، فأمر بنشر ذلك الرَّقِّ ، فاذا فيه : متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى التابوت إلى جزيرة الأندلس ، وذهب مُلْك اليونان من أيديهم ، ودَرَسَت حكمتهم ، فهذا هو بيت الحكمة المقدم ذكره .

---

(١) الوجه فى العربية « وكان رجلا مهيبا » وكذلك هو فى النفح (٢٣١)

فلما سمع لذريق ما فى الرق ندم على ما فعل ، وتحقق انقراض دولتهم ، فلم يلبث إلا قليلا حتى سمع أن جيشا وصل من المشرق جهزه ملك العرب يستفتح بلاد الأندلس ، انتهى الكلام على بيت الحكمة .

ونعود الآن إلى تتمة حديث لذريق وجيش طارق بن زياد .

فلما رأى طارق لذريق قال لأصحابه : هذا طاغية القوم ، فحمل وحمل أصحابه معه ، فتفرقت المقاتلة من بين يدى لذريق ، فخلص إليه طارق ، وضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره ، فلما رأى أصحابه مصرعه اقتحم الجيشان ، وكان النصر للمسلمين ، ولم تقف هزيمة اليونان على موضع ، بل كانوا يسلمون بلدا بلدا ومعقلا معقلا .

فلما سمع بذلك موسى بن نصير المذكور أولا عبر الجزيرة بمن معه ، ولحق بمولاه طارق ، فقال له : يا طارق ، إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك جزيرة الأندلس ، فاستبحه هنيئا مريئا ، فقال طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه[1] بفرسى ، يعنى البحر الشمال الذى تحت بنات نعش ، فلم يزل طارق يفتتح وموسى معه إلى أن بلغ جِلِّيقية ، وهى على ساحل البحر المحيط ، ثم رجع .

قال الحميدى فى « جذوة المقتبس » : إن موسى بن نصير نقم على طارق إذ غزا بغير إذنه ، وسجنه ، وهم بقتله ، ثم ورد عليه كتاب الوليد باطلاقه ، فأطلقه ، وخرج معه إلى الشام .

وكان خروج موسى من الأندلس وافدا على الوليد يخبره بما فتح الله سبحانه وتعالى على يديه وما معه من الأموال فى سنة أربع وتسعين للهجرة ، وكان معه مائدة سليمان بن داود عليهما السلام التى وجدت فى طليطلة على ما حكاه بعض المؤرخين ، فقال : كانت مصنوعة من الذهب والفضة ، وكان عليها طوق لؤلؤ ، وطوق ياقوت ، وطوق زمرد ، وكانت عظيمة بحيث إنها حملت على

---

(١) فى ب « وأخوض فيه » والعربية تأباه

بغل قوى فما سار قليلا حتى تفسخت قوائمه ، وكان معه تيجان الملوك الذين تقدموا من اليونان ، وكلها مكللة بالجواهر ، واستصحب ثلاثين ألف رأس من الرقيق .

ويقال : إن الوليد كان قد نقم عليه أمرا ، فلما وصل إليه وهو بدمشق أقامه فى الشمس يوما كاملا فى يوم صائف حتى خر مغشيا عليه (١) .

وقد أطلنا هذه الترجمة كثيرا لكن الكلام انتشر، فلم يمكن قطعه ، مع أنى تركت الأكثر وأتيت المقصود .

ولما وصل موسى إلى الشام ومات الوليد بن عبد الملك وقام من بعده سليمان أخوه ، وحج فى سنة سبع وتسعين للهجرة — وقيل : سنة تسع وتسعين — فحج معه موسى بن نصير ، ومات فى الطريق بوادى القرى ، وقيل : بمر الظهران ، على اختلاف فيه .

وكانت ولادته فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سنة تسع عشرة للهجرة ، رحمه الله تعالى ! .

***

---

(١) انظر نفح الطيب للمقرى (ج ١ ص ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٦٤ بتحقيقنا)

(٧٢٠)

أبو الفتح
الملك الأشرف
مظفر الدين
موسى بن
العادل، الأيوبى

أبو الفتح موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، الملقب الملك الأشرف مظفر الدين

أول شىء ملكه من البلاد مدينة الرها ، سيره إليها والده من الديار المصرية فى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، ثم أضيفت إليه حران ، وكان محبوبا إلى الناس ، مسعوداً ، مؤيدا فى الحروب من يومه ، لقى نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل المذكور فى حرف الهمزة ، وكان يوم ذاك من الملوك المشاهير الكبار ، وتواقعا فى مصاف ، فكسره ، وذلك فى سنة ستمائة ، وهى وقعة مشهورة فلا حاجة إلى تفصيلها .

ولما توفى أخوه الملك الأوحد نجم الدين أيوب صاحب خِلاَط وميافارقين وتلك النواحى ، أخذ الملك الأشرف مملكته مضافة إلى ملكه ، وذلك فى سنة تسع وستمائة ، وكان الملك الأوحد قد ملك خلاط فى سنة أربع وستمائة ، فاتسعت حينئذ مملكته و بسط العدل على الناس وأحسن إليهم إحسانا لم يعهدوه ممن كان قبله ، وعظم وقعه فى قلوب الناس ، و بعد صيته ، وكان قد ملك نصيبين الشرق فى سنة ست وستمائة ، وأخذ سنجار سنة سبع ، وكذلك الخابور ، وملك معظم بلاد الجزيرة ، وكان يتنقل فيها ، وأكثر إقامته بالرقة لكونها على الفرات ، ولما مات ابن عمه الملك الظاهر صاحب حلب فى التاريخ المذكور فى ترجمته فى حرف العين عزم عز الدين كيكاوس صاحب الروم على قصد حلب فسير أرباب الأمر بحلب إلى الملك الأشرف وسألوه الوصول إليهم لحفظ البلد ، فأجابهم إلى سؤالهم وتوجه إليهم وأقام بالباروقية بظاهر حلب مدة ثلاث سنين ، وجرت له مع صاحب الروم وابن عمه الملك الأفضل صاحب سُمَيْساط وقائع مشهورة لا حاجة إلى الإطالة فى شرحها .

ولما أخذت الفرنج دمياط ، فى سنة ست عشرة وستمائة ، حسبما شرحناه فى ترجمة الملك الكامل ، توجهت جماعة من ملوك الشام إلى الديار المصرية ، لإنجاد الملك الكامل ، وتأخر عنه الملك الأشرف لمنافرة كانت بينهما ، فجاءه أخوه الملك المعظم المقدم ذكره فى حرف العين بنفسه ، وأرضاه .

ولم يزل يلاطفه حتى استصحبه معه ، فصادف عقيب وصوله إليها انتصار المسلمين على الفرنج ، وانتزاع دمياط من أيديهم ، وكانوا يرون ذلك بسبب من غرته .

ولما مات الملك المعظم فى التاريخ المذكور فى ترجمته قام بالأمر من بعده ولده الملك الناصر : صلاح الدين داود ، فقصده عمه الملك الكامل من الديار المصرية ، ليأخذ دمشق منه ، فاستنجد بعمه الملك الأشرف ، وكان يومئذ ببلاد المشرق ، فوصل إليه ، واجتمع به بدمشق ، ثم خرج منها متوجهاً إلى أخيه الملك الكامل ، واجتمع به ، وجرى الاتفاق بينهما على أخذ دمشق من الملك الناصر ، وتسليمها إلى الملك الأشرف ، ويبقى للملك الناصر الكرك ، والشوبك ، ونابلس ، وبيسان ، وتلك النواحى ، وينزل الملك الأشرف عن حران ، والرها ، وسروج ، والرقة ، ورأس عين ، ويسلمها إلى الملك الكامل ، فاستتب الحال على ذلك .

وتسلم الملك الأشرف دمشق ، لاستقبال رجب سنة ست وعشرين وستمائة ، وانتقل الملك الكامل إلى بلاده التى تسلمها بالشرق ، ليكشف أحوالها ويرتب أمورها ، واجتزتُ فى التاريخ المذكور بحران ، وهو بها .

وانتقل الأشرف إلى دمشق ، واتخذها دار إقامة ، وأعرض عن بقية البلاد ، ونزل جلال الدين خوارزم شاه على خِلاَط ، وحاصرها ، وضايقها أشد مضايقة . وأخذها فى سنة ست وعشرين ، من نواب الملك الأشرف ، وهو مقيم

بدمشق ، ولم يمكنه فى ذلك الوقت قصدها للدفع عنها لأعذار كانت له . ثم عقيب ذلك دخل إلى بلاد الروم بالاتفاق مع سلطانها علاء الدين كيقباذ أخى عز الدين كيكاوس المذكور ، وتظافرا على قصد خوارزم شاه ، وضرب المصاف معه ، فان صاحب الروم أيضاً كان يخاف على بلاده منه لكونه مجاوره ، فتوجها نحوه فى جيش عظيم من جهة الشام والشرق فى خدمة الملك الأشرف ، وعسكر صاحب الروم ، والتقوا بين خِلاَط وأرزنكان ، بموضع يقال له : ياسى حمارة ، فى يوم الجمعة ، ثانى عشر شهر رمضان ، سنة سبع وعشرين وستمائة ، وانكسر خوارزم شاه ، وهى وقعة مشهورة ، وعادت خِلاَط إلى الملك الأشرف وقد خربت ، ثم رجع إلى الشام ، وتوجه إلى الديار المصرية ، وأقام عند أخيه الملك الكامل مدة ، ثم خرج فى خدمته قاصدين آمد ، ونزلوا عليها ، وفتحوها فى مدة يسيرة ، وذلك فى سنة تسع وعشرين وستمائة ، وأضافها الملك الكامل إلى مملكته ببلاد الشرق ، ورتب فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب المذكور فى ترجمة والده ، وفى خدمته الطواشى شمس الدين صوان الخادم العادلى ، ثم عاد كل واحد إلى بلاده ، ثم كانت واقعة ببلاد الروم ، وهى مشهورة .

ورجع الكامل والأشرف ومن معهما من الملوك بغير حصول مقصود ، ولما رجعا خرج عسكر صاحب الروم على بلاد الكامل بالشرق ، فأخذها وأخربها ثم عاد الكامل والأشرف وأتباعهما ومن معهما من الملوك إلى بلاد الشرق ، واستنقذوها من نواب صاحب الروم .

ثم رجعوا إلى دمشق فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وكنت يومئذ بدمشق فى تلك السفرة ، ورأيت الكامل والأشرف ، وكانا يركبان معا و يلعبان بالكرة بالميدان الأخضر الكبير كل يوم ، وكان شهر رمضان ، وكانا يقصدان بذلك تعبير النهار لأجل الصوم .

ولقد كنت أرى من تأدب كل واحد منهما مع الآخر شيئاً كثيراً ، ثم وقعت بينهما وحشة ، وخرج الأشرف عن طاعة الكامل ، ووافقته الملوك بأسرها ، وتعاهد هو وصاحب الروم ، وصاحب حلب ، وصاحب حماة ، وصاحب حمص ، وأصحاب الشرق ، على الخروج على الملك الكامل ، ولم يبق مع الملك الكامل سوى ابن أخيه الملك الناصر صاحب الكرك ، فإنه توجه إلى خدمته بالديار المصرية ، فلما تحالفوا وتحزبوا ، واتفقوا على الخروج على الملك الكامل – مرض الملك الأشرف مرضاً شديداً ، وتوفى يوم الخميس ، رابع المحرم ، سنة خمس وثلاثين وستمائة ، بدمشق ، ودفن بقلعتها ، ثم نقل إلى التربة التى أنشئت له بالكلاسة فى الجانب الشمالى من جامع دمشق .

وكانت ولادته سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، بالديار المصرية بالقاهرة . وقيل : بقلعة الكرك ، رحمه الله تعالى !.

هذه خلاصة أحواله .

وكان سلطاناً كريماً ، حليماً ، واسع الصدر ، كريم الأخلاق ، كثير العطاء ، لا يوجد فى خزائنه شىء من المال مع اتساع مملكته ، ولا تزال عليه الديون للتجار وغيرهم .

ولقد رأى يوماً فى دواة كاتبه وشاعره الكمال أبى الحسن على بن محمد المعروف بابن النبيه المصرى قلماً واحداً ، فأنكر عليه ذلك ، فأنشده فى الحال دو بيت :

قال الملك الأشرف قولا رشدا   أقلامك يا كمال قلت عددا
جاوبت لعظم كَتْب ما تطلقه   تحفى فتقَطُّ فهى تفنى أبدا

وطرب ليلة فى مجلس أنسه على بعض الملاهى ، فقال لصاحب الملهى : تمنّ علىّ ، فقال : تمنيت مدينة خِلَاط ، فأعطاها له ، وكان نائبه بها الأمير حسام الدين ، المعروف بالحاجب ، على بن حماد الموصلى ، فتوجه ذلك الشخص إليه ليتسلمها منه ، فعوضه الحاجب عنها جملة كثيرة من المال ، وصالحه عنها ، وكان له فى ذلك غرائب .

وكان يميل إلى أهل الخير والصلاح ، ويحسن الاعتقاد فيهم ، وبنى بدمشق دار حديث ، فوض تدريسها إلى الشيخ تقى الدين عثمان ، المعروف بابن الصلاح ، المقدم ذكره .

وكان بالعقيقة ظاهر دمشق خان ، يعرف بابن الزنجارى ، قد جمع أنواع أسباب الملاذ ، ويجرى فيه من الفسوق والفجور مالا يحد ولا يوصف ، فقيل له عنه : إن مثل هذا لا يليق أن يكون فى بلاد المسلمين ، فهدمه وعمره مسجد جامعاً ، غرم عليه جملة مستكثرة ، وسماه الناس « جامع التوبة » كأنه تاب إلى الله تعالى وأناب مما كان فيه .

وجرت فى خطابته نكتة لطيفة ، أحببت ذكرها ، وهى : أنه كان بمدرسة ست الشام ، التى خارج البلد ، إمام يعرف بالجمال البستى ، أعرفه شيخاً حسناً ، ويقال : كان فى صباه يلعب بشىء من الملاهى ، وهى التى تسمى : الجغانة ، ولما كبر حسنت طريقته ، وعاشر العلماء ، وأهل الصلاح ، حتى صار معدوداً فى الأخيار ، فلما احتاج الجامع المذكور إلى خطيب ذكر للملك الأشرف جماعة ، وشُكر الجمال المذكور ، فتولى خطابته ، فلما توفى تولى موضعه العماد الواسطى الواعظ ، وكان يتهم باستعمال الشراب ، وكان صاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل بن أيوب ، فكتب إليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن زوتينية الرحبى أبياتاً ، وهى [من مجزوء الرمل] :

يا مليكا أوضح الحق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد قلدني منه أمانه
قال قل للملك الصا لح أعلى الله شانه
يا عماد الدين يامن حمد الناس زمانه
كم إلى كم أنا فى ضر وبؤس وإهانه ؟
لى خطيب واسطى يعشق الشرب ديانه
والذى قد كان من قبل يغنى بجغانه
فكما نحن فمازلنا ولا أبرح حانه
رُدَّنى للنمط الأو ل واستبق ضمانه

وهذه الأبيات فى بابها فى غاية الظرْف ، وكان الرحبي المذكور قد وصل إلى الديار المصرية ، فى رساله من عند صاحب حمص ، وأنشدنى هذه الأبيات وحكى السبب الحامل عليها ، وذلك فى بعض شهور سنة سبع وأربعين وستمائة .

ومدح الملك الأشرف أعيان شعراء عصره ، وخلدوا مدائحه فى دواوينهم فمنهم شرف الدين محمد بن عنين ، وقد سبق ذكره ، والبهاء أحمد السنجارى ، وقد سبق ذكره أيضاً ، والشرف راجح الحلى ، وقد ذكرته فى ترجمة الملك الظاهر ، والكمال ابن النبيه المذكور . وكانت وفاته سنة تسع عشرة وستمائة ، بمدينة نصيبين الشرق ، وعمره تقديراً مقدار ستين سنة ، كذا أخبرنى صهره بالقاهرة ، والمهذب محمد بن أبى الحسين ابن يمن بن على بن أحمد بن محمد بن عثمان بن عبد الحميد الأنصارى ، المعروف بابن الأردخل الموصلى الشاعر المشهور ، ومولده سنة سبع وسبعين وخمسمائة بالموصل ، وتوفى فى شهر رمضان ، سنة ثمان وعشرين وستمائة ، بميافارقين ، رحمه الله تعالى !

***

(٧٢١)

أبو عمران موسى بن عبد الملك ، الأصبهانى ، صاحب ديوان الخراج

أبو عمران موسى بن عبد الملك الأصفهاني الكاتب

كان من جملة الرؤساء ، وفضلاء الكتاب وأعيانهم ، تنقل فى الخدم فى أيام جماعة من الخلفاء . وكان إليه ديوان السواد وغيره فى أيام المتوكل ، وكان مترسلا ، وله ديوان رسائل .

وقد سبق طرف من خبره مع أبى الْعَيْنَاء فى ترجمته ، وما دار بينهما من المحاورة فى قضية نجاح بن سلمة .

وله شعر رقيق حسن ، فمن ذلك قوله [من مجزوء الكامل] :

لمـــا وردنا القـادسية حيث مُجْتَمَعُ الرفاق
وشممت من أرض الحجا ز نسيم أنفاس العراق
أيقنت لى ولمن أحبُّ بجمع شملٍ واتفاق
وضحكت من فرح اللقا ء كما بكيت من الفراق
لم يبق لى إلا تجشُّمُ هذه السبع البواقى
حتى يطول حـديثنا لصفات ما كنا نلاقى

ولهذه الأبيات حكاية مستظرفة ، أحببت ذكرها ههنا .

وقد سردها الحافظ أبو عبد الله الحميدى ، فى كتاب « جذوة المقتبس » ، وغيره من أرباب تواريخ المغاربة ، وهو أن أبا على الحسن بن الأشكرى المصرى قال : كنت رجلا من جلاس الأمير تميم بن أبى تميم ، وممن يخف عليه جدا ، وهذا تميم هو أبو المعز بن بَادِيس المذكور فى حرف التاء ، قال : فأرسلنى إلى بغداد ، فابتعت له جارية رائعة فائقة الغناء ، فلما وصلت إليه دعا جلساءه ، قال : وكنت فيهم ، ثم مُدَّتِ الستارة ، وأمرها بالغناء ، فغنت [من الكامل] :

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تألق موهناً لمعانُه
يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرا متمنع أركانُه
فمضى لينظر كيف لاح فلم يطق ... نظرا إليه وصدَّهُ سجَّانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سمحت به أجفانه

وهذه الأبيات ذكرها صاحب الأغانى للشريف أبى عبد الله محمد بن صالح الحسينى ، قال ابن الأشكرى : فأحسنت الجارية ما شاءت ، فطرب الأمير تميم ومن حضر ، ثم غنت [من الطويل] :

سَيُسْليك عما فات دولة مفضلٍ ... أوائله محمودة وأواخره
ثنى الله عطفيه وألَّفَ شخصه ... على البر مذ شدت عليه مآزره

قال : فطرب الأمير تميم ومن حضر طرباً شديداً ، ثم غنت [من البسيط] :

أستودع الله فى بغداد لى قمراً ... بالكَرْخ من فلكِ الأزرار مطلعه

وهذا البيت لمحمد بن زريق (١) ، الكاتب البغدادى ، من جملة قصيدة طويلة .

قال الراوى : فاشتد طرب الأمير تميم ، وأفرط جدا ، ثم قال لها : تمنَّىْ ما شئت ، فقالت : أتمنى عافية الأمير وسلامته ، فقال : والله لا بد أن تتمنى ، فقالت : على الوفاء أيها الأمير بما أتمنى ؟ قال : نعم ، فقالت : أتمنى أن أغنى بهذه النوبة ببغداد ، قال : فانتقع لون الأمير تميم ، وتغير وجهه ، وتكدر المجلس ، وقام وقمنا .

قال ابن الأشكرى : فلقينى بعضُ خدمه ، وقال لى : ارجع ، فالأمير يدعوك ، فوجدته جالساً ينتظرنى ، فسلمت وقمت بين يديه ، فقال لى : ويحك ! رأيت ما امتحنا به ؟ فقلت : نعم أيها الأمير ، فقال : لا بد من الوفاء لها ،

---

(١) فى ب « لمحمد بن رزق » محرفا

ولا أثق فى هذا بغيرك ، فتأهب لتحملها إلى بغداد ، فاذا غنت هناك فاصرفها ، فقلت : سمعاً وطاعة .

قال : ثم قمت فتأهبت ، وأمرها بالتأهب ، وأصحبها جارية له سوداء ، تعادلها وتخدمها ، وأمر بناقة ومحمل ، فأدخلت فيه ، وجعلتها معى ، وصرت إلى مكة مع القافلة ، وقضينا حَجَّنَا ، ثم دخلنا فى قافلة العراق ، وسرنا ، فلما وردنا القادسية أتتنى السوداء ، وقالت لى : تقول لك سيدتى : أين نحن ؟ فقلت لها : نزول بالقادسية(١) ، فانصرفت إليها ، وأخبرتها ، فلم ألبث أن سمعت صوتها قد ارتفع بالغناء ، وغنت الأبيات المذكورة ، فتصايح الناس من أقطار القافلة : أعيدى بالله ، قال : فما سمع لها كلمة .

قال : ثم نزلنا الياسرية ، وبينها وبين بغداد نحو خمسة أميال فى بساتين متصلة ، ينزل الناس بها فيبيتون ليلتهم ، ثم يبكرون لدخول بغداد .

فلما كان وقت الصباح وإذا بالسوداء قد أتتنى مذعورة ، فقلت : مالك ؟ قالت : إن سيدتى ليست بحاضرة ، فقلت : ويلك ! وأين هى ؟ قالت : والله ما أدرى ، قال : فلم أحس لها أثراً بعد ذلك ، ودخلت بغداد ، وقضيت حوائجى منها ، وانصرفت إلى الأمير تميم ، فأخبرته خبرها ، فعَظُم ذلك عليه ، واغتم له غماً شديداً ، ثم ما زال بعد ذلك ذاكراً لها ، واجماً عليها .

والقادسية ــ بفتح القاف ، وبعد الألف دال مهملة مكسورة ، وسين مهملة مكسورة أيضاً ، وبعدها ياء مثناة من تحتها مشددة ، ثم هاء ساكنة ــ وهى قرية فوق الكوفة ، وعندها كانت الوقعة المشهورة فى زمن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ! .

والياسرية : بفتح الياء المثناة من تحتها ، وبعد الألف سين مهملة مكسورة ، وراء مكسورة أيضاً ، وبعدها ياء مثناة من تحتها مشددة ، ثم هاء ساكنة .

---

(١) هكذا ، وإن صحت فمعناها نكون وقت الزوال بالقادسية

وقد ذكرنا أين هي ، فلا حاجة إلى الإعادة .

وحكى إسحاق بن إبراهيم ، أخو زيد بن إبراهيم ، أنه كان يتقلد السِّيرَوَانَ نيابة عن موسى بن عبد الملك المذكور ، فاجتاز به إبراهيم بن العباس الصولى ، الشاعر المقدم ذكره ، وهو يريد خراسان ، والمأمون يوم ذاك بها ، وقد بايع بالعهد على بن موسى الرضا ، وهى قضية مشهورة ، وقد امتدحه إبراهيم المذكور بقصيدة ذكر فيها آل على ، وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم .

قال إسحاق بن إبراهيم المذكور : فاستحسنت القصيدة ، وسألت إبراهيم ابن العباس أن ينسخها ، ففعل ، ووهبته ألف درهم ، وحملته على دابة ، وتوجه إلى خراسان .

ثم تراخت الأيام إلى زمن المتوكل ، فتولى إبراهيم المذكور موضع موسى ابن عبد الملك المذكور ، وكان يحب أن يكشف أسباب موسى ، فعزلنى ، وأمر أن تعمل مؤامرة ، فعملت ، وحضرت للمناظرة عنها ، فجعلت أحتج بما لا يُدْفَع ، فلا يقبله ، ونحتكم إلى الكتاب ، فلا يلتفت إلى حكمهم ، ويُسْمِعنى فى خلال ذلك غليظ الكلام ، إلى أن أوجب على الكتاب اليمين على باب من الأبواب ، فحلفت ، فقال : ليست يمين السلطان عندك يميناً لأنك رافضى ، فقلت له : تأذن لى فى الدنو منك ؟ فأذن لى ، فقلت له : ليس لى مع تعريضك بمهجتى للقتل صبر ، وهذا المتوكل إن كتبتَ إليه بما أسمعه منك لم آمنه على نفسى ، وقد احتملت كل ما جرى سوى الرفض .

والرافضى : مَنْ زعم أن على بن أبى طالب أفضلُ من العباس ، وأن ولده أحق من ولد العباس بالخلافة .

قال : ومن ذاك ؟ قلت : أنت وخَطُّكَ عندى به ، فأخبرته بالشعر الذى عمله فى المأمون ، وذكر فيه على بن موسى ، فو الله ما هو إلا أن قلت له ذلك حتى سُقِط فى يده ، ثم قال لى : أحضر [لى] الدفتر الذى بخطى ،

فقلت له : هيهات ! لا والله أوتُوَثّقَ لى بما أسكن إليه أنك لا تطالبنى بشىء مما جرى على يدى ، وتخرق هذه المؤامرة ، ولا تنظر لى فى حساب ، فحلف لى على ذلك بما سكنت إليه ، وخرق العمل المعمول ، وأحضرت له الدفتر ، فوضعه فى كفه وانصرفت ، وقد زالت عنى المطالبة .

ولموسى المذكور أخبار كثيرة ، أضربت عن ذكرها طلباً للاختصار .

وتوفى فى شوال سنة ست وأربعين ومائتين ، رحمه الله تعالى ! .

والسِّيرَوَانُ : بكسر السين المهملة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح الراء والواو ، وبعد الألف نون ، وهى كورة ماسَبَذَان — بفتح الميم ، وبعد الألف سين مهملة ، وباء موحدة ، وذال معجمة ، والجميع مفتوح ، وبعد الألف نون — وهى : قرية كان يسكنها المهدى بن المنصور أبى جعفر ، والد هارون الرشيد ، وبها توفى .

وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة الشاعر المقدم ذكره [من الطويل] :

وأكرم قبر بعد قبر محمد نبىِّ الهدى قبرٌ بماسَبَذَانِ
عجبت لأيدٍ هالَتِ الترب فوقه ضحى كيف لم ترجع بغير بنَانِ

والسيروان : اسم لأربعة مواضع هذا أحدها ، وبلاد الجبل : عبارة عن عراق العجم الفاصل بين عراق العرب وخراسان ، وبلاده المشهورة : أصبهان ، وهمذان ، والرى ، وزنجار ، والله أعلم .

***

(٧٢٢)

أبو منصور موهوب بن أبى طاهر أحمد بن محمد بن الخضر ، الجواليقى ، البغدادى ، الأديب ، اللغوى

أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى البغدادى الأديب

كان إماما فى فنون الأدب ، وهو من مفاخر بغداد ، قرأ الأدب على الخطيب أبى زكريا التبريزى الآتى ذكره فى حرف الياء إن شاء الله تعالى ، ولازمه ، وتتلمذ له حتى برع فى فنه ، وهو متدين ثقة غزير الفضل وافر العقل مليح الخط كثير الضبط ، صنف التصانيف المفيدة ، وانتشرت عنه ، مثل « شرح أدب الكاتب » و « المعرب » ولم يعمل فى جنسه أكثر منه و « تتمة درة الغواص » تأليف الحريرى صاحب المقامات سماه « التكملة ، فيما يلحن فيه العامة » إلى غير ذلك ، وكان يختار فى مسائل النحو مذاهب غريبة ، وكان فى اللغة أمثل منه فى النحو ، وخطه مرغوب فيه يتنافس الناس فى تحصيله والمغالاة فيه ، وكان إماما للامام المقتفى بالله يصلى به الصلوات الخمس ، وألف له كتابا لطيفا فى علم العروض ، وجرت له مع الطبيب هبة الله بن صاعد المعروف بابن التلميذ النصرانى الآتى ذكره إن شاء الله تعالى واقعة عنده ، وهى أنه لما حضر إليه للصلاة به ودخل عليه أول دخلة فما زاده على أن قال : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى ، فقال ابن التلميذ ، وكان حاضرا قائما بين يدى المقتفى ، وله إدلال الخدمة والصحبة : ما هكذا يسلم على أمير المؤمنين ياشيخ ؟ فلم يلتفت ابن الجواليقى إليه ، وقال للمقتفى : يا أمير المؤمنين ، سلامى هو ما جاءت به السنة النبوية ، وروى له خبرا فى صورة السلام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين لو حلف حالف أن نصرانيا أو يهوديا لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المرضى لما لزمته كفارة الحنث لأن الله تعالى ختم على قلوبهم ، ولن يفك ختم الله إلا بالإيمان ، فقال له : صدقت وأحسنت فيما فعلت ! وكأنما ألجم ابن التلميذ بحجر مع فضله وغزارة أدبه .

وسمع ابن الجواليقى من شيوخ زمانه وأ كثر، وأخذ الناس عنه علما جما، وينسب إليه من الشعر شىء قليل، فمن ذلك ما رأيته منسوبا إليه فى بعض المجاميع ولم أتحققه له، وهو [من الكامل]:

ورد الورى سلسال جودك فارتووا ووقفت خلف الورد وقفة حائم
حيران أطلب غفلة من وارد والورد لا يزداد غير تزاحم

ثم وجدت هذين البيتين لابن الخشاب من جملة أبيات.

وحكى ولده أبو محمد إسماعيل، وكان أنجب أولاده، قال: كنت فى حلقة والدى يوم الجمعة بعد الصلاة بجامع القصر، والناس يقرؤن عليه، فوقف عليه شابٌّ وقال: يا سيدى، قد سمعت بيتين من الشعر ولم أفهم معناهما، وأريد أن تسمعهما منى وتعرفنى معناهما، فقال: قل، فأنشده [من البسيط]:

وَصْلُ الحبيب جِنَانُ الخلد أسكنها وهجره النار يصلينى به النارا
فالشمس بالقوس أمست وهى نازلة إن لم يزرنى، وبالجوزاء إن زارا

قال إسماعيل: فلما سمعها والدى قال: يابنى، هذا شىء من معرفة علم النجوم وسيرها، لا من صنعة أهل الأدب، فانصرف الشاب من غير حصول فائدة، واستحيا والدى من أن يُسْأل عن شىء ليس عنده منه علم، وقام، وآلى على نفسه أن لا يجلس فى حلقته حتى ينظر فى علم النجوم ويعرف تسيير الشمس والقمر، فنظر فى ذلك، وحصل معرفته، ثم جلس.

ومعنى البيت المسئول عنه أن الشمس إذا كانت فى آخر القوس كان الليل فى غاية الطول، لأنه يكون آخر فصل الخريف، وإذا كانت فى آخر الجوزاء كان الليل فى غاية القصر، لأنه آخر فصل الربيع، فكأنه يقول: إذا لم يزرنى فالليل عندى فى غاية الطول، وإن زارنى كان الليل عندى فى غاية القصر، والله أعلم.

ولبعض شعراء عصره فيه وفى المغربى مفسر المنامات ، وذكرها فى الخريدة لحَيْص بَيْصَ ، هكذا وجدتها فى مختصر الخريدة للحافظ [من الكامل] :

كل الذنوب ببلدتى مغفورة إلا اللذين تعاظما أن يُغْفَرا
كونُ الجواليقى فيهـا ملقيا أدبا ، وكون المغربى مُعَـبرا
فأسير لكنته تمل فصاحة وغفول فطنته تعبر عن كرى

ونوادره كثيرة .

وكانت ولادته سنة ست وستين وأربعمائة .

وتوفى يوم الأحد منتصف المحرم سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، ببغداد ، ودفن بباب حَرْب ، رحمه الله تعالى ! بعد أن صلى عليه قاضى القضاة الزينبى بجامع القصر .

والجواليقى : نسبة إلى عمل الجوالق وبيعها ، وهى نسبة شاذة لأن الجموع لا ينسب إليها ، بل ينسب إلى آحادها إلا ما جاء شاذا مسموعا فى كلمات محفوظة مثل قولهم «رجل أنصارى»[1] فى النسبة إلى الأنصار ، والجواليق فى جمع جوالق شاذ أيضا لأن الياء لم تكن موجودة فى مفرده ، والمسموع فيه جُوَالق بضم الجيم وجمعه جَوَالق بفتحها ، وهو باب مطرد ، قالوا : رجل حُلاَحل ، إذا كان وقورا ، وجمعه حَلاَحل ، وشجر عُدَامل ، إذا كان قديما ، وجمعه عَدَامل ، ورجل عُرَاعر ، وهو السيد ، وجمعه عَرَاعر ، ورجل عُلاَكد ، إذا كان شديدا ، وجمعه عَلاَكد ، وله نظائر كثيرة ، وهو اسم أعجمى معرب ، والجيم والقاف لا يجتمعان فى كلمة واحدة عربية ألبتة .

***

(١) ليس هذا شاذا ، والجمع إذا سمى به أشبه الواحد ، وحينئذ ينسب إلى لفظه كأنصارى ، فاعرف ذلك

(٧٢٣)

أبو الحسن المؤيد بن محمد بن على ، الطوسى الأصل ، النيسابورى الدار ، المحدث

أبو الحسن المؤيد بن محمد الطـوسى النيسابوري المحدث

كان أعلى المتأخرين إسنادا ، لقى جماعة من الأعيان وأخذ عنهم ، وسمع صحيح مسلم من الفقيه أبى عبد الله محمد بن الفضل الفراوى المقدم ذكره ، وهو آخر من بقى من أصحابه ، وسمع صحيح البخارى من أبى بكر وجيه بن طاهر ابن محمد الشحامى وأبى الفتوح عبد الوهاب بن شاه بن أحمد الشاذياجى ، وسمع الموطأ رواية أبى مصعب إلا ما استثنى منه من أبى محمد هبة الله بن سهل بن عمر البسطامى المعروف بالسدى ، وسمع تفسير القرآن الكريم تصنيف أبى إسحاق الثعلبى من أبى العباس محمد بن محمد الطوسى المعروف بعباسة ، وسمع أيضا من جماعة من شيوخ نيسابور منهم الفقيه أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجوارى وأم الخير فاطمة بنت أبى الحسن على بن المظفر بن رعيل ، وحدث بالكثير ، ورحل إليه من الأقطار ، ولنا منه إجازة كتبها من خراسان باستدعاء الوالد رحمه الله تعالى فى جمادى الآخرة سنة عشر وستمائة ، وإنما ذكرته لشهرته وتفرده فى آخر عصره

وكانت ولادته سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، ظنا .

وتوفى ليلة العشرين من شوال سنة سبع عشرة وستمائة ، بنيسابور ، ودفن من الغد ، رحمه الله تعالى !

ثم بعد إثبات هذه الترجمة على هذه الصورة بسنين رأيت بخط الشيخ المؤيد المذكور فى إجازة ، وقد رفع نسبه فقال: كتبه المؤيد [بن](1) محمد بن على بن الحسن بن محمد بن أبى صالح الطوسى ، رحمه الله تعالى ! .

***

(1) كلمة «بن» لاتوجد فى ب هنا وهى فى صدر الترجمة ثابتة ، وسياق التراجم يقتضى أن «المؤيد» اسم وليس لقبا .

(٧٢٤)

أبو سعيد المؤيد بن محمد بن على بن محمد ، الألوسى ، الشاعر المشهور

أبو سعيد المؤيد ابن محمد الألوسى الشاعر

كان من أعيان شعراء عصره ، كثير الغزل والهجاء ، ومدح جماعة من رؤساء العراق ، وله ديوان شعر ، وكان منقطعا إلى الوزير عَوْن الدين يحيى بن هبيرة ، وله فيه مدائح جيدة .

ذكره محب الدين بن النجار فى تاريخ بغداد ، فقال : هو عطاف بن محمد بن على ابن أبى سعيد الشاعر المعروف بالمؤيد ، ولد بألوس قرية بقرب الحديثة ، ونشأ بدجيل ، ودخل بغداد ، وصار جاويشا فى أيام المسترشد بالله ، وهجاه ابن الفضل الشاعر بأبيات ، وكان قد لجأ إلى خدمة السلطان مسعود بن محمد ملكشاه وقد تقدم ذكره ، قال : وتفسح فى ذكر الإمام المقتفى وأصحابه بما لا ينبغى ، فقبض عليه وسجن .

وذكره العماد الكاتب فى كتاب «الخريدة» فقال : ترفع قدره ، وأثرى حاله ، ونفق شعره ، وكان له قبول حسن ، واقتنى أملاكا وعقارا ، وكثر رياشه ، وحسن معاشه ، ثم عثر به الدهر عثرة صعب منها انتعاشه ، وبقى فى حبس الإمام المقتفى أكثر من عشر سنين إلى أن خرج فى أول خلافة الإمام المستنجد سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ولقيته حينئذ وقد غشى بصره من ظلمة المطمورة التى كان فيها محبوسا ، وكان زيه زى الأجناد ، وسافر إلى الموصل ، وله غزل حسن ، وأسلوب مطرب بنظم معجب ، وقد يقع له من المعانى المبتكرة ماينذر ، فمن ذلك قوله فى صفة القلم [من الكامل] :

ومثقف يُغنِي ويُقْنِي دائما   فى طَوْرَىِ الميعاد والإيعاد
قلم يفلُّ الجيش وهو عرمرم   والبيض ماسلت من الأغماد
وهبت له الآجامُ حين نشابها   كرمَ السيول وهيبةَ الآساد

قلت أنا : ولقد رأيت هذه الأبيات منسوبة إلى غيره ، والله أعلم.

ولم يقل فى القلم أحسن من هذا المعنى ، ولبعضهم فى القلم أيضا ، وهو من هذا المعنى [من الطويل] :

وأرقش مرهوب الشَّبَاة مهفهف
يشتِّتُ شمل الخطب وهو جميع
تدين له الآفاق شرقا ومغربا وتعنو له أفلاكها وتطيع
حمى الملك مفطوما كما كان يحتمى
به الأُسْدُ فى الآجام وهو رضيع

ولبعضهم فى المعنى أيضا [من الطويل] :

وعود له نوعان من لذة المنى فبورك جان يجتنيه وغارسُ
تغنت عليه وهو رطب حمامة
وغنت عليه قَيْنَةٌ وهو يابس

ومعنى البيت الثالث مأخوذ من قول بعضهم فى وصف طنبور [من الوافر] :

وطنبور مليح الشكل يحكى بنغمته الفصيحة عندليبا
روى لما روى نغما فصاحاً حواها فى تقلبه قضيبا
كذا مَنْ عاشر العلماء طفلا يكون إذا نَشَا شيخا أديبا

وهذا معنى مطروق ، أكثر الشعراء استعماله ، فمن ذلك قول بعضهم [من البسيط] :

جاءت بعود يُنَاغيها ويسعدها انظر بدائع ما يأتى به الشجرُ
غنت عليه ضروبُ الطير ساجعةً
حيناً فلما ذَوَى غَنَّى به البشر
فلا يزال عليه الدهر مصطحبا يهيجه الأعجمان الطير والوتر

ولولا خوف التطويل والخروج عما نحن بصدده لذكرت عدة مقاطيع فى هذا المعنى .

ولبهاء الدين زهير المقدم ذكره من قصيدة يمدح بها اقسيس بن الملك الكامل [من الطويل] :

وتهتز أعواد المنابر باسمه ... فهل ذَكَرَتْ أيامها وهى أغصان

ثم قال العماد فى بقية الترجمة : وكان ولده محمد ذكيا ، له شعر حسن ، هاجر إلى الملك العادل نور الدين بالشام سنة أربع وستين ، وكان يومئذ بصرخد ، فمرض فأنفذه إلى دمشق ، فمات فى الطريق بقرية يقال لها رشيدة ، انتهى كلام العماد

ومن شعر المؤيد المذكور من جملة قصيدة له رحمه الله تعالى [من الطويل] :

فيا بَرْدَهَا من نفحة حاجرية ... على حَرِّ صدرٍ ليس تخبو سمائمه

ويا حسنه طيفاً وشى نور وجهه ... بطَيْفى فغطانى من الشَّعر فاحمُهْ

يجول وشاحاه على غصن بانة ... سقاها الحيا فاخضرَّ واهتز ناعمه

فلما رمى فى شملنا الصبحُ بالنوى ... ولم يبق منها غير معنى ألازمه

وقفت بحُزْوَى وهى منها معالم ... قَوَاء وجسمى قد تعفَّتْ معالمه

وقوف بنانى فى يمينى ولم أقف ... وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

ولم يُبْقِ لى رسما بجسمى صدودُها ... فيشجى بدمعى كلما انهلَّ طاسمه

ولا مقلة أبقت فتغرم نظرة ... تبانية ، والمتلِفُ الشىءِ غارمُهْ

فلله وجدى فى الركاب كأنه ... دموعى وقد حنت بليل روازمه

وقد مد من كف الثريا هلالها ... فقبلْتهُ حتى تهاوت مناظمه

وهى قصيدة طويلة أجاد فيها ، وقد وازن بها قصيدة المتنبى فى سيف الدولة ابن حمدان التى أولها [من الطويل] :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ... بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وقد استعمل فى قصيدته أنصاف أبيات من قصيدة المتنبي على وجه التضمين وأ كثر شعره جيد .

وله أيضا من جملة أبيات قوله [من الكامل] :

رحلوا فأفنيت الدموع لبُعْدِهم　　من بَعْدِهم وعجبت إذ أنا باقى
وعلمت أن العود يقطر ماؤه　　عند الوقود لفرقة الأوراق
وأبيت مأسوراً وفرحة ذكركم　　عندى تعادل فرحة الإطلاق
لا تنكر البلوى سواد مفَارقى　　فالحرق يحكم صنعة الحراق

وكانت ولادته سنة أربع وتسعين وأربعمائة ، بألوس ، ونشأ بها .

وتوفى يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، بالموصل .

وكان خروجه من بغداد سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

ولما ذكرت تاريخ ولاية المستنجد ذكرت نكتة غريبة أحببت ذكرها ، وهو ما أخبرنى به بعض مشايخ العراق الفضلاء أن المستنجد رأى فى منامه فى حياة والده المقتفى كأن ملكا نزل من السماء فكتب فى كفه أربع خاءات ، فلما استيقظ طلب معبر الرؤيا ، فقص عليه ما رآه ، فقال له : تلى الخلافة فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، فكان الأمر كذلك ، وكان ذلك قبل وفاة والده بمدة .

والألوسى – بضم الهمزة واللام ، وبعدها واو ساكنة ، ثم سين مهملة – هذه النسبة إلى ألوس ، وهى ناحية عند حديثة عانة على الفرات ، هكذا ذكره عز الدين بن الأثير المقدم ذكره فيما استدركه على الحافظ بن السمعانى ، لأنه قال : ألوس موضع بالشام فى الساحل عند طرسوس ، وهو بغدادى الدار والمنشأ

لأنه دخل بغداد فى صباه ، وقيدها ابن النجار «الآلسى» بمد الهمزة وضم اللام ، والله أعلم .

***

(٧٣٥)

أبو سعيد المهلب ابن أبى صفرة الازدى العتكى البصرى

أبو سعيد المهلَّبُ بن أبى صُفْرة ظالم بن سراق بن صبح بن كندى بن عمرو بن عدى بن وائل بن الحارث بن العتيك بن الأزد ، ويقال : الأسد ــ بالسين الساكنة ــ ابن عمران بن عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرىء القيس ابن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، الأزدى ، العتكى ، البصرى

قال الواقدى : كان أهلُ دَبَا أسلموا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدوا بعده ، ومنعوا الصدقة ، فوجَّه إليهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه عكرمة بن أبى جهل المخزومى رضى الله عنه ، فقاتلهم وهزمهم ، وأثخن فيهم القتل ، وتحصن فَلُّهم فى حصن لهم وحصرهم المسلمون ، ثم نزلوا على حكم حُذَيفة بن اليمان ، فقتل مائة من رؤسائهم ، وسبى (١) ذَرَاريهم ، و بعثهم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وفيهم أبو صُفْرة غلام لم يبلغ ، فأعتقهم أبو بكر رضى الله عنه ، وقال : اذهبوا حيث شئتم ، فتفرقوا ، فكان أبو صُفْرة ممن نزل البصرة .

وقال ابن قتيبة فى كتاب المعارف : هذا الحديث باطل ، أخطأ فيه الواقدى لأن أبا صُفرة لم يكن فى هؤلاء ، ولا رآه أبو بكر قط ، و إنما وفد على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو شيخ أبيض الرأس واللحية ، فأمره أن يخضب فخضب ، فكيف يكون غلاما فى زمن أبى بكر ؟ وقد ولد المهلب وهو من أصاغر

---

(١) فى ب « فقتل مائة من أشرافهم وسبى ذراريهم » وهو كذلك فى المعارف (١٧٥) نقلا عن الواقدى ، وليس فى المعارف ما نسبه المؤلف هنا إليه يرد به على الواقدي

من ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنين ، وقد كان فى ولده من ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة أو أكثر .

وكان المهلب المذكور من أشجع الناس ، وحمى البصرة من الخوارج ، وله معهم وقائع مشهورة بالأهواز استقصى أبو العباس المبرد فى كتابه الكامل أكثرها ، فهى تسمى « بصرة المهلب » لذلك ، ولولا طولها وانتشار وقائعها لذكرت طرفا منها .

وكان سيداً جليلا نبيلا ، روى أنه قدم على عبد الله بن الزبير أيام خلافته بالحجاز والعراق وتلك النواحى ، وهو يومئذ بمكة . فخلَا به عبد الله يشاوره ، فدخل عليه عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف بن وهب القرشى الجمحى فقال : من هذا الذى قد شغلك يا أمير المؤمنين يومكَ هذا ؟ قال : أما تعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا سيد أهل العراق ، قال : فهو المهلب بن أبى صُفْرة ، قال : نعم ، فقال المهلب : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا سيد قريش ، فقال : فهو عبد الله بن صفوان ، قال : نعم .

قال ابن قتيبة فى المعارف : ولم يكن يعاب بشىء إلا بالكذب ، ثم قال ابن قتيبة بعد هذا(١) : وأنا أقول : كان المهلب أتقى الناس لله عز وجل ، وأشرف وأنبل من أن يكذب ، ولكنه كان محربا ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « الحرب خدعة » وكان يعارض الخوارج بالكلمة فيورِّى بها عن غيرها ، يرهب بها الخوارج ، وكانوا يسمونه الكذاب ، ويقولون : راح يكذب ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد حربا ورَّى بغيرها .

وقال أبو العباس المبرد فى الكامل فى شرح أبيات رمى فيها المهلب بالكذب ، ماصورته(٢) : وقوله « الكذاب » لأن المهلب كان فقيها ، وكان يعلم ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله « كل كذب يكتب كذبا إلا

---

(١) لم أجد الكلام الآتى فى معارف ابن قتيبة

(٢) انظر كتاب الكامل للمبرد (٢ / ١٩٣ وما بعدها ط الخيريه ١٣٠٨ ﻫ)

ثلاثة : الكذب فى الصلح بين الرجلين ، وكذب الرجل لامرأته يَعِدُها ، وكذب الرجل فى الحرب يتوعد و يتهدد » .

وكان المهلب ربما صنع الحديث ليشدَّ به أمر المسلمين و يضعف به [أمر] الخوارج ، وكان حى من الأزد يقال لهم النَّدَبُ إذا رأوا المهلب رائحا إليهم قالوا : قد راح المهلب يكذب ، وفيه يقول رجل منهم [من مجزوء الكامل] :

أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ما تقول

وذكر المبرد فى كتاب الكامل فى أواخره (١) فى فصل قتال الخوارج وما جرى بين المهلب والأزارقة : وكانت رُكُبُ الناس قديما من الخشب ، فكان الرجل يَضْرَبُ رُكابه (٢) فينقطع، فاذا أراد الضرب [أ] والطعن لم يكن له [معين (٣) أو] معتمد ، فأمر المهلب فضربت الركُبُ من الحديد ، فهو أول من أمر بطبعها .

وأخبار المهلب كثيرة .

وتقلبت به الأحوال ، وآخر ما ولى خراسان من جهة الحجاج بن يوسف الثقفى المقدم ذكره فانه كان أمير العراقين وضم إليه عبد الملك بن مروان خراسان وسجستان ، فاستعمل على خراسان المهلب المذكور ، وعلى سجستان عبد الله ابن أبى بكرة ، فورد المهلب خراسان واليا عليها سنة تسع وسبعين للهجرة .

وكان قد أصيب بعينه على سمرقند لما فتحها سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، فانه كان معه فى تلك الغزوة ، وقلعت أيضاً عين طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى المعروف بطلحة الطلحات المشهور بالكرم والجود ، وفى ذلك يقول المهلب [من الكامل] :

لئن ذهبت عينى لقد بقيت نفسى وفيها بحمد الله عن تلك ما يُنسى

---

(١) انظر الكامل (٢ / ٢٢٨) (٢) فى ب « يضرب بركابه »

(٣) هذه الكلمة لا توجد فى الكامل .

إذا جاء أمر الله أحيا حيولنا

ولا بد أن تعمى العيون لدى الرمس

وقيل : إن المهلب قلعت عينه على الطالقان ، ولم يزل المهلب والياً بخراسان حتى أدركته الوفاة هناك ، ولما حضره أجله عهد إلى ولده يزيد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ، وأوصاه بقضايا وأسباب ، ومن جملة ما قال له : يابنى ، استعقل الحاجب ، واستظرف الكاتب ، فان حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه

ثم توفى فى ذى الحجة سنة ثلاث وثمانين للهجرة ، بقرية يقال لها راغول من أعمال مروالروذ من ولاية خراسان ، رحمه الله تعالى !.

وله كلمات لطيفة ، و إشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته فى حسن السمعة والثناء الجميل ، فمن ذلك قوله : الحياة خير من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها مايقال فى غدا إذا مت ، وقد قيل : إن هذا الكلام لولده يزيد ، والله أعلم .

وكان المهلب يقول لبنيه : يابنى ، أحسن ثيابكم ما كان على غيركم ، وقد أشار إلى هذا أبو تمام الطائى فيما كتبه إلى من يطلب منه كسوة [من الطويل] :

أنت العليم الطَّبُّ أىُّ وصيةٍ بها كان أوصى فى الثياب المهلبُ

وقد ذكر الطبرى فى تاريخه أنه توفى سنة اثنتين وثمانين ، والله أعلم ، والكلام على وفاته مذكور فى ترجمة ابنه يزيد ، فلينظر هناك ، فانه مستوفى

ولما حضره من يليه دعا بسهام فحزمت ، ثم قال : أترونكم كاسريها مُجتَمِعة ؟ قالوا : لا ، قال : أفترونكم كاسريها مفرقة ؟ قالوا : نعم ، قال : هكذا الجماعة ، ثم مات

ولما مات رثاه الشعراء وأكثروا ، وفى ذلك يقول نَهار بن تَوْسِعة الشاعر المشهور [من الطويل] :

ألا ذهب الغَزْوُ المقربُ للغنى ومات الندى والجود بعد المهلَّبِ

أقاما بمَـرْو الروذ لا يَبْرَحانها ... وقد فقدا من كل شرقٍ ومغرب

وخلف المهلبُ عدة أولاد نجباء كرماء أجواداً أمجاداً ، وقال ابن قتيبة فى كتاب « المعارف » ويقال : إنه وقع إلى الأرض من صُلب المهلب ثلثمائه ولد وقد تقدم فى حرف الراء ذكر حفيده روح بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ، وسيأتى ذكر يزيد فى حرف الياء إن شاء الله تعالى .

ومن سراة أولاده المغيرة ، وكان أبوه يقدمه فى قتال الخوارج ، وكان له معهم وقائع مأثورة تضمنتها التواريخ أبلى فيها بلاء أبان عن نجدته وشهامته وصرامته ، وتوجه صحبة أبيه إلى خراسان واستنابه عنه بمروالشاهجان ، وتوفى بها فى حياة أبيه سنة اثنتين وثمانين، ورثاه أبو أمامة زياد الأعجم ، وهو زياد بن سليمان – ويقال : ابن جابر – وهو ابن عبد القيس الشاعر المشهور ، بقصيدته الحائية السائرة التى أولها [من الكامل] :

قل للقوافل والغزاة إذا غزوا ... للباكرين وللمجدّ الرائح :
إن السماحة والمروءة ضمنا ... قبراً بمَـرْوَ على الطريق الواضح
فاذا عَـبَرْتَ بقبره فاعقِـرْ به ... كُومَ الهجان وكل طِرْفٍ سابح (١)
وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد يكون أخادمٍ وذبائح
واظهر بِبِزَّته وعقـد لوائه ... واهتف بدعوة مُصْلَتين شَرامح
آب الجنود مُعَقَّـلاً أو قافلاً ... وأقام رَهْنَ حفـيرة وضرائح (٢)
وأرى المكارم يوم زيل بنعشه ... زالت بفضـل فواضل ومدائح
رجفت لمصرعه البلاد وأصبحت ... منا القلوب لذاك غير صحائح
الآن لما كنت أكرَمَ من مشى ... وافـتَرَّ نابك عن شَبَاة القارح (٣)
وتكاملت فيك المروءة كلها ... وأعَنْتَ ذلك بالفعال الصالح
فكفى لنـا حزناً ببيت حله ... إحدَى المنون فليس عنه بنازح

---

(١) فى الأمالى « كوم الجلاد » وفيه وفى مهذب الأغانى « فإذا مررت بقبره »

(٢) فى ب «أب الجنود معاقلا أو كافلا » محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى الأمالى ومهذب الأغاني (٣) فى ب «عن سناء القادح» محرفا عما أثبتناه عن الأمالى والمهذب

فعفت منابره وحط سروجه عن كل طامحة وطرف طامح
وإذا يناح على امرئ فلتعلمن أن المغيرة فوق نوح النائح
تبكى المُغيرةَ خيلُنا ورماحُنا والباكيات برنّةٍ وتصايُح
مات المغيرةُ بعد طول تعرض للقتل بين أسنة وصفائح
وإذا الأمور على الرجال تشابهت وتوعّرت بمغالق ومفاتح[1]
قتل السحيلَ بمُبرم ذى مِرّةٍ دون الرجال بفضل عقل راجح
وأرى الصّعالك للمغيرة أصبحت تبكى على طَلْق اليدين مسامح
كان الربيعَ لهم إذا انتجعوا الندى وخَبَتْ لوامعُ كلِّ برقٍ لائح[2]
كان المهلبُ بالمغيرةِ كالذى ألقى الدلاء إلى قليب المائح
فأصاب جمة ما استقى فسقى له فى حوضه بنوازع وموائح
أيام لو يحتلُّ وَسْطَ مفازة فاضت معاطشُها بشرب سائح[3]
إن المهالبَ لن يزال لها فتى يَمْرِى قوادم كل حرب لاقح[4]
بالمقربات لواحقاً آطالها تجتابُ سهلَ سباسبٍ وصحاصحِ
متلَبِّباً تهفو الكتائبُ حولَهُ مُلْحَ المتونِ من النضيح الراشح[5]
ملكٌ أغر متوّجٌ يسمو له
طرف الصديق بغض طرف الكاشح
رَفّاع ألوية الحروب إلى العدا بسُعُود طير سوانح وبوارح

وهذه القصيدة من غرر القصائد ونُخَبها، ولولا خوف الإطالة لأثبتها كلها، وهى طويلة تزيد على خمسين بيتاً، وقد ذكرها أبو على القالى المقدم ذكره فى حرف الهمزة فى كتابه الذى جعله ذيلا على أماليه، وتكلم على بعض أبياتها، وقال: إنها قد تنسب إلى الصَّلَتان العبدى الشاعر المشهور، ولكن الأصح أنها لزياد الأعجم.

(١) فى الأمالى «وتنوزعت بمغالق» (٢) فى الأمالى «كل برق لامح»
(٣) فى ب «فاضت معاطنها» (٤) فى ب «إن المهلب لن يزال لها» محرفا
(٥) فى ب «متلهفا تهفو» وفيها أيضا «لمح المنون من النصيح الراسح»

والبيت الثانى منها تستشهد به النحاة فى كتبهم على جواز تذكير المؤنث إذا لم يكن له فرج حقيقى ، وهو أشهر بيت فى هذه القصيدة لكثرة استعمالهم له ، وقد أخذ بعض الشعراء معنى البيت الثالث والرابع فقال [من الخفيف]:

احملانى إن لم يكن لكما عقْـــرٌ إلى جَنْبِ قبره فاعْقِرَانى

وانْضَحا من دمى عليه فقد كا ن دمى من نداه لو تعلمان

وصاحب هذين البيتين هو الشريف أبو محمد الحسن بن محمد بن على بن أبى الضوء العلوى الحسينى نقيب مشهد باب التين ببغداد ، وهما من جملة قصيدة يرثى بها النقيب الطاهر والد عبد الله ، ذكر ذلك العماد الكاتب فى كتاب « الخريدة » وقال أيضاً : إن الشريف أبا محمد المذكور توفى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ببغداد ، رحمه الله تعالى ! ثم بعد وقوفى على ماذكره العماد فى الخريدة وجدت هذين البيتين فى كتاب « معجم الشعراء » تأليف المرزبانى لأحمد بن محمد الخثعمى ، وكنيته أبو عبد الله ، ويقال : أبو العباس ، ويقال : إنه الحسن، وكان يتشيع ويُهَاجى البحترى

وكان المغيرة بن المهلب قد مزق ديباجاً كان على زياد الأعجم فقال زياد فى ذلك [من الطويل] :

لعمرُكَ ماالديباجَ مزقْتَ وَحْدَه ولكنَّما مزقْتَ عرض المهلبِ

فبلغ ذلك المهلب ، فأرضاه واستعطفه

وذكر أبو الحسين على بن أحمد السَّلامى فى كتاب « تاريخ ولاة خراسان » أن رجلا سمع من زياد الأعجم هذه القصيدة قبل أن يسمعها المهلب فأنشده إياها ، فأعطاه مائة ألف درهم ، ثم أتاه زياد الأعجم فأنشده إياها ، فقال له : قد أنشدنيها رجل قبلك ، فقال : إنما سمعها منى ، فأعطاه مائة ألف درهم

والمهلب عقب كثير بخراسان يقال لهم « المهالبة » وفيهم يقول بعض شعراء الحماسة [من الطويل] :

نزلت على آل المهلب شاتياً بعيداً عن الأوطان فى الزمن المَحْلِ

فما زال بى معرُوفهم وافتِقَادُهمْ   وبرُّهمُ حتى حسبتُهمُ أهلى

والوزير أبو محمد المهلبى المقدم ذكره فى حرف الحاء من نسله أيضاً، رحمهم الله أجمعين!.

وفى أوائل هذه الترجمة أسماء تحتاج إلى الضبط والكلام عليها.

فأما العتيك والأزد فقد تقدم الكلام عليهما.

وأما مزَيْقياء فهو بضم الميم وفتح الزاى، وسكون الياء المثناة من تحتها، وكسر القاف، وفتح الياء الثانية، وبعدها همزة ممدودة، وهو لقب عمرو المذكور وكان من ملوك اليمن، وإنما لقب بذلك لأنه كان يلبس كل يوم حلتين منسوجتين بالذهب، فاذا أمسى مزقهما وخلعهما، وكان يكره أن يعود فيهما، ويأنف أن يلبسهما أحد غيره، وهو الذى انتقل من اليمن إلى الشام لقصة يطول شرحها، والأنصار من ولده، وهم الأوس والخزرج، وحكى أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب «الاستيعاب» فى كتابه الذى سماه «القصد الأمم، فى أنساب العرب والعجم» وهو كتاب لطيف الحجم أن الأكراد من نسل عمرو مزيقياء المذكور، وأنهم وقعوا إلى أرض العجم، فتناسلوا بها وكثر ولدهم، فسموا الكرد، مزيقياء الملك

وقال بعض الشعراء فى ذلك وهو يعضد ماقاله [أبو] عمر بن عبد البر [من الطويل]:

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس   ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

وأما أبوه عامر فانما لقب بماء السماء لجوده وكثرة نفعه، فشبه بالغيث.

وأما المنذر بن ماء السماء اللخمى أحد ملوك الحيرة، فان أباه امرؤ القيس عمرو بن عدى، وماء السماء أمه، وهى بنت عوف بن جُشَم بن النمر بن قاسط، وإنما قيل لها ماء السماء لحسنها وجمالها.

وأما دَبا(١) بفتح الدال المهملة والباء الموحدة وبعدها ألف مقصورة، وهو اسم موضع بين عمان والبحرين أضيفت جماعة من الأزد إليه لما نزلوه، وكان الأزد عند تفرقهم حسبما ذكرناه فى أول هذه الترجمة أضيفت كل طائفة إلى شىء

---

(١) الوجه فى العربية أن يقول «وأما دبا فبفتح الدال إلخ» أو «فهو اسم»

يميزها عن غيرها ، فقيل: أزد دَبَا ، وأزد شَنُوأة ، وأزد عمان ، وأزد السَّراة[١] ، ومرجع الكل إلى الأزد المذكور ، فلا يظن ظان أن الأزد مختلف باختلاف المضافين إليه ، وقد قال الشاعر – وهو النجاشي ، واسمه قيس بن عمرو بن مالك ابن حرب بن الحارث بن كعب بن الحارث ، الحارثي – [من الطويل] :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل بها ريب من الحدثان
فأما التي صحت فأزد شنوأة وأما التي شلت فأزد عمان

ولما هزم المهلب قَطَرِى بن الفُجَاءة المقدم ذكره بعث إلى مالك بن بشير فقال : إني موفدك إلى الحجاج فسِرْ فانما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق ، وتوجه ، فلما دخل على الحجاج قال: ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : ملك وبشارة ، ثم قال : كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل ، وأمن ما خاف ، قال : فكيف هو بجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : كيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل ، قال : كيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجدنا فنطمع فيهم ، ويلقوننا بجدهم فيطمعون فينا ، قال : فما حال قَطَرِى بن الفُجَاءة ؟ قال : كادنا بمثل ما كدناه به ، قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورائه خيرا من اتباعه ؟ قال : فأخبرني عن ولد المهلب ؟ قال : رعاة البيات حتى يؤمنوه ، وحماة السرح حتى يردوه ، قال : أيهم أفضل ؟ قال : ذلك إلى أبيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مفرغة لا يعلم طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل رَوَّيْتَ في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله أحدا على غَيْبِهِ فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع ، قلت : كان حق هذا الفصل أن يكون متقدما ، لكنه كذا وقع .

* * *

(١) السراة – بالسين المهملة – جبل مشرف على عرفة ينقاد إلى صنعاء ، يقال : سراة ثقيف ، ثم سراة فهم وعدوان ، ثم سراة الأزد ، ووقع في ب « الشراة » وإنما الشراة لبني ليث خاصة ، وانظر معجم ياقوت في المادتين

(٧٢٦)

أبو الحسين مِهيار بن مَرْزَوَيْه ، الكاتب ، الفارسى ، الديلمى ، الشاعر المشهور

أبو الحسين مهيار بن مرزويه الديلمى الكاتب الشاعر

كان مجوسياً فأسلم ، ويقال : إن إسلامه كان على يد الشريف الرضى أبى الحسن محمد الموسوى المقدم ذكره ، وهو شيخه ، وعليه تخرج فى نظم الشعر ، وقد وازن كثيراً من قصائده ، وكان شاعراً جَزْلَ القول ، مقدماً على أهل وقته ، وله ديوان شعر كبير يدخل فى أربع مجلدات ، وهو رقيق الحاشية ، طويل النفس فى قصائده ، ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد وأثنى عليه ، وقال : كنت أراه يحضر جامع المنصور فى أيام الجمعات ، يعنى ببغداد ، ويقرأ عليه ديوان شعره ، ولم يقدر لى أن أسمع منه شيئاً ، وذكره أبو الحسن الباخَرْزى المقدم ذكره فى كتاب « دمية القصر » فقال فى حقه : هو شاعر ، له فى مناسك الفضل مشاعر ، وكاتب[1] تحت كل كلمة من كلماته كاعب ، وما فى قصيدة من قصائده بيت ، يتحكم عليه بلو وليت ، وهى مَصْبُوبة فى قوالب القلوب ، وبمثلها يعتذر الزمان المذنب عن الذنوب ، ثم عقب هذا الكلام بذكر مقاطيع من شعره وأبيات من جملة قصائده وذكره أبو الحسن على بن بَسَّام فى كتاب « الذخيرة ، فى محاسن أهل الجزيرة » وبالغ فى الثناء عليه ، وذكر شيئاً من شعره ، ومن نظمه المشهور قصيدته التى أولها [من الطويل] :

سقى دارها بالرقمتين ، وحيَّاها
مُلِثٌّ يُحيلُ الترب فى الدار أمْوَاهَا
وكيف بوصل الحبل من أم مالك
وبين بلادينا زَرُودُ ولبناها[2]

---

(١) فى ب « وكانت » وهو تحريف ، ولا معنى له

(٢) لبنى : اسم جبل ، واسم موضع ، ويروى « زورود وحبلاها » والحبل : الرمل المستطيل

يراها بعين الشوق قلبى على النوى
فيحظى ، ولكن مَنْ لعينى برؤياهَا
فلله ما أصفى وأكدر حبهَا
وأبعدها منى الغداة وأدناهَا
إذا استوحشت عينى أنستُ بأن أرى
نظائرَ تصبينى إليها وأشباها
وأعْتَنِقُ الغصن الرطيب لِقَدِّها
وأرشفُ ثغر الكأس أحسبه فاهَا
ويوم الكثيب استشرفت لى ظبيةٌ
مولهة قد ضل بالقاع خشفاها
يُدَلِّهُ خوفُ الشكل حبة قلبها فتزداد حسناً مقلتاها وليتَاهَا
فما ارتاب طرفى فيك يا أم مالك على صحة التشبيه أنك إياهَا
فان لم تكونى خدها وجبينها فانك أنت الجيد أو أنت عيناها
ألوامة فى حب دار عزيزة يشق على رجم المطامع مرماها
دعوه ونجداً إنها شأن قلبه فلو أن نجداً بلغة ما تَعَدَّاها(١)
وهبكم منعتم أن يراها بعينه فهل تمنعون القلب أن يتمناها
وليل بذات الأثل قَصَّر طوله سرى طيفها ، آها لذكرته آها
تخطت إلىَّ الهول مشيا على الهوى
وأخطاره ، لا يبعد الله ممشاها
وقد كاد أسداف الدجى أن تضلها
فما دَلَّهَا إلا وميض ثناياها

ومن شعره أيضا [من الكامل] :

إن التى عَلَّقْتَ قلبك حبها راحت بقلب منك غير عَلُوق

(١) فى الديوان « فلو أن نجدا تلعة ما تعداها »

عقدت ضمان وفائها من خصرها فوهى ، كلا العقدين غير وثيق

ومن سائر شعره أيضاً قوله رحمه الله تعالى [من الرمل] :

بكر العارض تحدوه النُّعَامى فسقاك الرى يا دار أماما
وبجرعاء الحمى قلبى فعج بالحمى واقرأ على قلبى السلاما
وترجَّلْ فتحدث عجبا أن قلباً سار عن جسم أقاما
قل لجيران الغضى : آها على طيب عيش بالغضى لوكان داما
نصل العام ولا ننسا كُمُ وقصارى الوجد أن نسلخ عاما
حمّلوا ريح الصبا من نَشْركم قبل أن تحمل شيحا وخُزَامى (١)
وابعثوا أشباحكم لى فى الكرى إن أذنتم لجفونى أن تناما

وهى قصيدة طويلة نقتصر من أطايبها على هذا القدر طلبا للاختصار .

ومن شعره قصيدته التى منها [من الوافر] :

أرقت فهل لهاجعة بسَلْعٍ على الأرِقينَ أفئدة ترقّ
نشدتك بالمودة يا ابن ودى فانك بى مِنَ ابن أبى أحقّ
أسِلْ بالجزع دمعك إن عينى إذا استبررتها دمعا تعق
وإن شق البكاء على المعافَى فلم أسألك إلا ما يشق

وله فى القناعة ، وقد أحسن رحمه الله تعالى [من الكامل] :

يُلحَى على البخل الشحيح بماله أفلا تكون بماء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال ، فانما قدر الحياة أقل من أن تسألا
ولقد أضم إلىَّ فضلَ قناعتى وأبيت مشتملا بها متزملا
وأرِى العدوَّ على الخصاصة شارةً تصف الغنى فيخالنى متمولا (٢)
وإذا امرؤ أفنى الليالى حسرة وأمانيا أفنيتهن توكلا

ومن بديع مدائحه قوله من جملة قصيدة [من الكامل] :

وإذا رأوك تفرقت أرواحهم فكأنما عرفتك قبل الأعين

---

(١) فى الديوان (٣ / ٣٢٨) « قبل أن تحمل شيحا وثماما »

٢) فى الديوان « وأرى الغدو على الخصاصة شارة » وما هنا أصح

وإذا أردت بأن تفل كتيبة   لاقيتها فتسمَّ فيها واكتن

وله من جملة قصيدة أبيات تتضمن العتب ، وهى [من الطويل] :

إذا صور الإشفاق لى كيف أنتم   وكيف إذا ماعَنَّ ذكرىَ صِرْتم (١)

تنفست عن عتب ، فؤادى مُفصحٌ   به ، ولسانى للحفاظ مجمجم (٢)

وفى فىَّ ماء من بقايا ودادكم   كثيرا به من ماء وجهى أرقتم

أضُمُّ فمِى ضَنًّا عليـه وبينـه   وبين انسكابٍ ريثما أتـكلم (٣)

وديوانه مشهور فلا حاجة إلى الإطالة فى إثبات محاسنه .

ويعجبنى كثيرا قوله من جملة قصيدة طويلة بيت واحدوهو [من الطويل] :

مُنىً أنتم من ظاعنين وخلفوا   قلوبا أبت أن تعرف الصبر عنهم

وتوفى ليلة الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وفى تلك السنة توفى الرئيس أبو على بن سينا الحكيم المشهور حسبما تقدم ذكره فى ترجمته ، رحمه الله تعالى !

ورأيت فى بعض التواريخ أنه توفى سنة ست وعشرين ، والأول أصح .

وذكر الباخرزى المذكور فى كتابه الدمية أيضا ولده الحسين بن مهيار ، ونَسَبَ إليه القصيدة الحائية التى من جملتها [من الرمل] :

يا نسيم الريح من كاظمة   شدَّ ماهجتِ البكا والبرحا (٤)

وهى قصيدة طويلة ، وهى من مشاهير قصائد مهيار ، ولا أعلم من أين وقع له هذا الغلط .

ومهيار — بكسر الميم ، وسكون الهاء ، وفتح الياء المثناة من تحتها ، وبعد الألف راء .

ومَرْزَوَيْه — بفتح الميم ، وسكون الراء ، وفتح الزاى والواو ، وبعدها ياء مثناة من تحتها ، ثم هاء ساكنة — وهما اسمان فارسيان لا أعرف معناهما ، والله تعالى أعلم .

* * *

(١) فى ب « صبرتم »   (٢) فى ب « يحمحم » وأثبتنا مافى الديوان (٣٤٦/٣)

(٣) فى ب « أرقت فاضنا عليه » وفى الديوان « أضم فمى صمتا عليه »

(٤) فى الديوان (٢٠٢/١) « يانسيم الصبح » وفيه « هجت الجوى »

قد تم – بحمد الله تعالى وتوفيقه – طبع الجزء الرابع من كتاب
« وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان » لقاضي القضاة
ابن خلكان ، بعد تحقيقه وضبط ما احتاج إلى الضبط
منه وشرح غامضه وترقيمه ، ويليه – بمشيئة الله
سبحانه – الجزء الرابع ، مفتتحا بحرف النون
نسأل الذى بيده الحول أن يعين
على إكماله ، إنه ولى ذلك .

فهرست

الجزء الرابع من كتاب

وفيات الأعيان

وأنباء أبناء الزمان

ص	رقم الترجمة	سنة الوفاة	صاحب الترجمة
٤	٦٢٢	٣٦٧	محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ، أبو بكر ، ابن القوطية ، الأندلسي ، القرطبي ، الإشبيلي
٧	٦٢٣	٣٧٩	محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج ، أبو بكر ، الزبيدي ، الإشبيلي ، نزيل قرطبة ، الأديب
٩	٦٢٤	٤١٢	محمد بن جعفر ، أبو عبد الله ، ابن القزاز ، التميمى ، القيروانى ، النحوى
١٢	٦٢٥	٤٢٠	محمد بن عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز ، الأمير ، عز الملك ، المعروف بالمسبحى ، الحرانى ، المصرى ، الكاتب
١٥	٦٢٦	٥٦٢	محمد بن الحسن بن محمد بن على بن حمدون ، أبو المعالى ، كافى الكفاة ، بهاء الدين ، البغدادى ، الكاتب
١٧	٦٢٧	٣٦٧	محمد بن عبد الرحمن ، أبو بكر ، المعروف بابن قريعة ، البغدادى ، القاضى
١٩	٦٢٨	٥٧٥	محمد بن محرز بن محمد ، أبو عبد الله ، ركن الدين ، ويقال : جمال الدين ، الوهرانى ، الكاتب
٢٠	٦٢٩	٦٢١	محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن على بن عبد الله ، أبو عبد الله ، فخر الدين ، المعروف بابن تيمية ، الحرانى ، الواعظ ، الحنبلى
٢٢	٦٣٠	٥٥٦	محمد بن على بن إبراهيم بن زبرج ، أبو منصور ، المعروف بالعتابى ، النحوى
٢٣	٦٣١	٥٨٤	محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود بن أحمد بن الحسين ، أبو سعيد ، تاج الدين ، المسعودى ، الخراسانى ، المروروذى ، البندهى ، الشافعى
٢٦	٦٣٢	٦٢٩	محمد بن عبد الغنى بن أبى بكر بن شجاع ، أبو بكر ، معين الدين ، المعروف بابن نقطة ، البغدادى ، الحنبلي

١ — لم نذكر فى هذه الفهرس غير الذين بنى المؤلف كتابه عليهم ، وبوب لهم ، فأما الذين يذكرون عرضاً فتركنا ذكرهم إلى الفهارس العامة .

٢ — النجمة التى توضع بجوار سنة الوفاة تشير إلى أن المؤلف قد حكى خلافاً فى تحديد سنة الوفاة

ص	رقم الترجمة	سنة الوفاة	صاحب الترجمة
٢٨	٦٣٣	٦٣٧	محمد بن سعيد بن يحيى بن على بن الحجاج بن محمد، أبو عبدالله، المعروف بابن الدبيثى، الواسطى، الشافعى، المؤرخ
٢٩	٦٣٤	٥٦٥	محمد بن أبى محمد بن محمد بن ظفر، أبو عبدالله، حجة الدين، الصقلى، الأديب
٣١	٦٣٥	٢٢٨	محمد بن عبيد الله بن عمر بن معاوية بن عمر بن عتبة بن أبى سفيان، أبو عبدالله، المعروف بالعتبى، البصرى، الشاعر
٣٣	٦٣٦	٣٨٣*	محمد بن العباس، أبو بكر، الخوارزمى، الكاتب، الشاعر
٣٥	٦٣٧	٣٩٣	محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن يحيى، أبو الحسن، المخزومى، السلامى، الشاعر
٤٠	٦٣٨	٣٨٥	محمد بن عبد الله بن محمد، أبو الحسن، المعروف بابن سكرة، الهاشمى، البغدادى، الشاعر
٤٤	٦٣٩	٤٠٦	محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم ابن موسى الكاظم، أبو الحسن، الشريف الرضى، الشاعر
٤٩	٦٤٠	٣٦٢	محمد بن هانى، أبو القاسم وأبو الحسن، الأزدى، الأندلسى، شاعر المعز لدين الله الفاطمى
٥٢	٦٤١	٤٧٧	محمد بن عمار، أبو بكر، ذو الوزارتين، المهرى، الأندلسى، الشلبى، الشاعر
٥٦	٦٤٢	٥٣٣*	محمد بن باجه، أبو بكر، الأندلسى، السرقسطى، المعروف بابن الصائغ، الفيلسوف، الشاعر
٥٩	٦٤٣	٥٧٢	محمد بن غالب، أبو عبد الله، الرفاء، الأندلسى، الرصافى، الشاعر
٦١	٦٤٤	٥٩٥	محمد بن عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان ابن زهر، أبو بكر، الإيادى، الأندلسى، الإشبيلى
٦٤	٦٤٥	٤٧٣	محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس بن محمد بن المرتضى، أبو الفتيان، الملقب بصفى الدولة، الغنوى، الشاعر

ص	رقم الترجمة	سنة الوفاة	صاحب الترجمة
٧١	٦٤٦	٥٥٧	محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق، أبو المظفر، القرشي، الأموى، المعاوي، الأبيوردي، الشاعر
٧٥	٦٤٧	٤٩٨	محمد بن على بن الحسن بن عمر، أبو الحسن، المعروف بابن أبى الصقر، الواسطى، الفقيه الشافعى
٧٧	٦٤٨	*٥٠٤	محمد بن محمد بن صالح بن حمزة بن عيسى، أبو يعلى، الشريف، المعروف بابن الهبارية، البغدادى، الشاعر
٨٢	٦٤٩	٥٤٨	محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر أبو عبد الله، المعروف بابن القيسرانى، الشاعر
٨٦	٦٥٠	٥٦٢	محمد بن إبراهيم بن ثابت بن إبراهيم بن فرج، أبو عبد الله، المعروف بابن الكيزانى، الحامى، المصرى، الشاعر
٨٧	٦٥١	*٥٧٩	محمد بن بختيار بن عبد الله، أبو عبد الله، المعروف بالأبله، البغدادى، الشاعر
٩٠	٦٥٢	*٥٨٤	محمد بن عبيد الله بن عبد الله، أبو الفتح، المعروف بابن التعاويذى، الكاتب، الشاعر
٩٨	٦٥٣	٥٩٢	محمد بن على بن فارس بن على، أبو الغنائم، نجم الدين، المعروف بابن المعلم، الواسطى، الهرثى، الشاعر
١٠٢	٦٥٤	٥٨٥	محمد بن يوسف بن محمد بن قائد، أبو عبد الله، موفق الدين، الإربلى، البحرانى، الشاعر
١٠٥	٦٥٥	٥٩٠	محمد بن على بن شعيب، أبو شجاع، فخر الدين، المعروف بابن الدهان، البغدادى، الفرضى، الحاسب، الأديب
١٠٦	٦٥٦	٦٣٠	محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين، أبو المحاسن، شرف الدين، الكوفى، الدمشقى، الشاعر
١١١	٦٥٧	٣٣٤	محمد بن المهدى عبيد الله، أبو القاسم، نزار، العبيدي
١١٢	٦٥٨	٤٨٨	محمد بن المعتضد بالله عباد بن محمد، أبو القاسم، المعتمد على الله، صاحب قرطبة وإشبيلية، اللخمى

ص	رقم الترجمة	سنة الوفاة	صاحب الترجمة
١٣١	٦٥٩	٤٨٤	محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن صمادح ، أبو يحيي ، المنعوت بالمعتصم ، التجيبي ، صاحب المرية و بجاية من بلاد الأندلس
١٣٧	٦٦٠	٥٢٤	محمد بن عبد الله بن تومرت ، أبو عبد الله ، المنعوت بالمهدى ، الهرغى
١٤٧	٦٦١	٣٣٤*	محمد بن طغج بن جف بن يلتكين بن فوران بن فورى ابن خاقان ، أبو بكر ، الإخشيد ، الفرغاني ، صاحب مصر
١٥٥	٦٦٢	٤٥٥	محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، أبو طالب ، ركن الدين طغرلبك ، أول الملوك السلجوقية
١٦٠	٦٦٣	٤٦٥	محمد بن جعربك داود بن ميكائيل بن سلجوق ، أبو شجاع ، عضد الدولة ألب أرسلان ، السلجوقى
١٦٣	٦٦٤	٥١١	محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، أبو شجاع ، غياث الدين ، السلجوقى
١٦٦	٦٦٥	٦١٥	محمد بن أيوب بن شادى بن مروان ، أبو بكر ، الملك العادل سيف الدين ، أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى
١٧١	٦٦٦	٦٣٥	محمد بن الملك العادل ، أبو المعالى ، الملك الكامل ، ناصر الدين ، الأيوبى
١٨٢	٦٦٧	٢٣٣	محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، أبو جعفر ، المعروف بابن الزيات ، وزير المعتصم العباسى
١٨٩	٦٦٨	٣٦٠*	محمد بن الحسين بن محمد ، أبو الفضل ، المعروف بابن العميد ، وزير ركن الدولة الديلمى
١٩٨	٦٦٩	٣٢٨	محمد بن على بن الحسين بن مقلة ، أبو على ، الكاتب ، وزير المقتدر بالله
٢٠٣	٦٧٠	٣٦٧	محمد بن بقية بن على ، أبو الطاهر ، نصير الدولة ، وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه
٢٠٩	٦٧١	٤٠٧	محمد بن على بن خلف ، أبو غالب ، فخر الملك ، وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه

ص	رقم الترجمة	سنة الوفاة	صاحب الترجمة
٢١٢	٦٧٢	٤٨٣	محمد بن محمد بن جهير ، أبو نصر ، فخر الدولة ، مؤيد الدين الموصلي ، الثعلبي ، وزير نصر الدولة أحمد بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر
٢١٩	٦٧٣	٤٨٨	محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم ، أبو شجاع ، ظهير الدين ، الروذراوري ، الأهوازي ، وزير المقتدي بأمر الله
٢٢٢	٦٧٤	٤٥٦	محمد بن منصور بن محمد ، أبو نصر ، عميد الملك ، الكندري ، وزير طغرلبك السلجوقي
٢٢٨	٦٧٥	٥٥٩	محمد بن علي بن أبي منصور ، أبو جعفر ، جمال الدين ، المعروف بالجواد الأصفهاني ، وزير صاحب الموصل
٢٣٣	٦٧٦	٥٩٧	محمد بن محمد بن حامد بن محمد ، أبو عبد الله ، عماد الدين ، الكاتب الأصفهاني ، المعروف بابن أخي العزيز
٢٣٩	٦٧٧	٣٣٩	محمد بن طرخان بن أوزلغ ، أبو نصر ، الفارابي ، التركي ، الفيلسوف
٢٤٤	٦٧٨	٣١١	محمد بن زكريا ، أبو بكر ، الرازي ، الطبيب المشهور
٢٤٧	٦٧٩	٢٥٩	محمد بن موسى بن شاكر ، أبو عبد الله ، أحد ثلاثة إخوة كانوا يعرفون بالهندسة والهيئة في عصر المأمون
٢٥٠	٦٨٠	٣١٧	محمد بن جابر بن سنان ، أبو عبد الله ، الحراني ، البتاني ، الحاسب ، المنجم
٢٥٣	٦٨١	٣٧٦	محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس ، أبو الوفاء ، البوزجاني ، الحاسب
٢٥٤	٦٨٢	٥٣٨	محمود بن عمر بن محمد بن عمر ، أبو القاسم ، جار الله ، الخوارزمي ، الزمخشري ، المفسر صاحب الكشاف
٢٦١	٦٨٣	٥٨٥	محمود بن علي بن أبي طالب بن عبد الله بن أبي الرجاء ، أبو طالب ، المعروف بالقاضي التميمي ، الأصفهاني

ص	رقم الترجمة	سنة الوفاة	صاحب الترجمة
٢٦٢	٦٨٤	٤٢١*	محمود بن ناصر الدولة أبي منصور سبكتكين ، أبو القاسم ، سيف الدولة ثم يمين الدولة وأمين الملة ، فاتح بلاد الهند
٢٦٩	٦٨٥	٥٢٥*	محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، أبو القاسم ، مغيث الدين ، السلجوقى ، أحد ملوك بنى سلجوق
٢٧١	٦٨٦	٥٦٩	محمود بن زنكى بن آق سنقر ، أبو القاسم ، الملك العادل نور الدين
٢٧٦	٦٨٧	١٨١*	مروان بن أبي حفصة سليمان بن يحيي ، أبو السمط ــ وقيل أبو الهندام ــ الشاعر
٢٨٠	٦٨٨	٢٦١	مسلم بن الحجاج بن مسلم ، أبو الحسين ، القشيرى ، النيسابورى ، الحافظ ، صاحب الصحيح
٢٨٣	٦٨٩	٥٧٨	مسعود بن محمد بن مسعود ، أبو المعالى ، قطب الدين ، الطريثيثى ، الفقيه الشافعى
٢٨٥	٦٩٠	٤٦٨	مسعود بن عبد العزيز بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق ، أبو جعفر ، الشريف البياضى ، الشاعر
٢٨٨	٦٩١	٥٤٧	مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، أبو الفتح ، غياث الدين ، أحد الملوك من بنى سلجوق
٢٩٠	٦٩٢	٥٨٩	مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر ، أبو الفتح وأبو المظفر ، عز الدين ، صاحب الموصل
٢٩٧	٦٩٣	١٩١	مطرف بن مازن ، أبو أيوب ، الكنانى بالولاء ، الصنعانى ، القاضى
٣٠٠	٦٩٤	٥٤٧	المظفر بن أبى الحسن بن أزدشير بن أبى منصور ، قطب الدين ، المعروف بالأمير ، العبادى ، المروزى ، الواعظ
٣٠١	٦٩٥	٦٢٣	مظفر بن إبراهيم بن جماعة بن على بن شامى ، أبو العز ، موفق الدين ، العيلانى ، المصرى ، الشاعر
٣٠	٦٩٦	١٨٧*	معاذ بن مسلم ، أبو مسلم ، الكوفى ، الهراء ، النحوى

ص	رقم الترجمة	سنة الوفاة	صاحب الترجمة
٣٠٩	٦٩٧	٣٩٠	المعافى بن زكريا بن يحي بن حميد، أبو الفرج، المعروف بابن طرارا ، الجريري ، النهرواني ، القاضي
٣١٢	٦٩٨	٣٦٥	معد بن المنصور بن القائم بن عبيدالله المهدي ، أبو تميم ، الملقب بالمعز لدين الله ، الفاطمي
٣١٧	٦٩٩	٤٨٧	معد بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز ، أبو تميم ، الملقب بالمستنصر بالله ، الفاطمي
٣١٩	٧٠٠	٢٠٠*	معروف بن فيروز ، أبو محفوظ ، الكرخي ، الزاهد المشهور
٣٢١	٧٠١	٤٥٤	المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد ، الحميري ، الصنهاجي ، صاحب إفريقية
٣٢٣	٧٠٢	٢٠٩*	معمر بن المثنى ، أبو عبيدة ، التيمي ، البصري ، النحوي
٣٣١	٧٠٣	١٥١*	معن بن زائدة بن عبد الله بن زائدة بن مطر بن شريك ابن الصلب ، أبو الوليد ، الشيباني
٣٤١	٧٠٤	١٥٠	مقاتل بن سليمان بن بشير ، أبو الحسن ، الأزدي ، الخراساني، المروزي ، المحدث، المفسر
٣٤٤	٧٠٥	٥٠٥	مقاتل بن عطية بن مقاتل ، أبو الهيجاء ، شبل الدولة ، البكري ، الحجازي
٣٤٨	٧٠٦	٣٩١	المقلد بن المسيب بن رافع بن المقلد ، أبو حسان ، حسام الدولة ، العقيلي ، صاحب الموصل
٣٥٧	٧٠٧	٤٥٠	مقلد بن نصر بن منقذ ، أبو المتوج ، مخلص الدولة ، الكناني ، والد سديد الدولة صاحب قلعة شيزر
٣٦١	٧٠٨	٤٣٧	مكي بن حموش بن محمد بن مختار ، أبو محمد ، القيسي ، المقرى
٣٦٥	٧٠٩	٦٠٣	مكي بن ريان بن شبة بن صالح، أبو الحزم، صائن الدين ، الماكسيني ، الموصلي ، المقرى ، النحوي
٣٦٨	٧١٠	١١٨*	مكحول بن عبد الله ، أبو عبد الله ، الشامي ، المحدث

ص	رقم الترجمة	سنة الوفاة	صاحب الترجمة
٣٧٠	٧١١	٤٨٥	ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق ، أبو الفتح ، جلال الدولة ، السلجوقى
٣٧٦	٧١٢	٣٠٦	منصور بن إسماعيل بن عمر ، أبو الحسن ، التميمى ، المصرى ، الفقيه الشافعى
٣٧٩	٧١٣	٤١١	المنصور بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القاسم بن المهدى ، أبو على ، الملقب بالحاكم بأمر الله ، العبيدى
٣٨٤	٨١٤	٥٢٤	المنصور بن المستعلى بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم ، أبو على ، الملقب بالآمر بأحكام الله ، العبيدى
٣٨٧	٧١٥	٥٦٥*	مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر ، الملقب قطب الدين ، المعروف بالأعرج ، صاحب الموصل
٣٨٩	٧١٦	١٩٥	مؤرج بن عمرو بن الحارث بن ثور بن سعد بن حرملة ، أبو فيد ، السدوسى ، البصرى ، النحوى
٣٩٣	٧١٧	١٨٣*	موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ، أبو الحسن ، أحد الأئمة الاثنى عشر
٣٩٦	٧١٨	٦٣٩	موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد ، أبو الفتح ، كمال الدين ، الفقيه الشافعى
٤٠٢	٧١٩	٩٧*	موسى بن نصير ، أبو عبد الرحمن ، اللخمى ، مولى طارق بن زياد فاتح الأندلس
٤١٣	٧٢٠	٦٣٥	موسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، أبو الفتح ، الملقب الملك الأشرف مظفر الدين ، الأيوبى
٤١٩	٧٢١	٢٤٦	موسى بن عبد الملك ، أبو عمران ، الأصفهانى ، صاحب ديوان الخراج أيام المتوكل
٤٢٤	٧٢٢	٥٣٩	موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ، أبو منصور ، الجواليقى ، البغدادى ، اللغوى ، الأديب
٤٢٧	٧٢٣	٦١٧	المؤيد بن محمد بن على ، أبو الحسن ، الطوسى ، النيسابورى ، المحدث

ص	رقم الترجمة	سنة الوفاة	صاحب الترجمة
٤٢٨	٧٢٤	٥٥٧	المؤيد بن محمد بن علي بن محمد ، أبو سعيد ، الألوسى ، الشاعر
٤٣٢	٧٢٥	٨٣	المهلب بن أبى صفرة ظالم بن سراق بن صبح بن كندى ، أبو سعيد ، الأزدى ، العتكى ، البصرى
٤٤١	٧٢٦	٤٢٨	مهيار بن مرزويه ، أبو الحسن ، الفارسى ، الديلمى ، الشاعر

تمت فهرس الجزء الرابع من « وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان »
لابن خلكان ، والحمد لله أولا وآخراً
وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه

مركز الوثائق والبحوث
30018000014906
المكتبة